# المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

«١٣٨-٤٢٢ هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م»

تأليف
الدكتور
**حسين يوسف دويدار**
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
جامعة الأزهر

# المجتمع الأندلسي في العصر الأموي

## (١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥-١٠٣٠م)



تأليف

الدكتور

حسين يوسف دويدار

استاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

الطبعة الأولى



١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة ـ خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

## المقـــدمة

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصـــلاة والسلام على المبعوث رحمـــة للعالمين ، سيدنا ومولانا محمـــد صلوات الله وسلامه عليـــه ، وعلى آله وصـــحبه اجمعين . وبعـــد ...

فلا زالت الأندلس ( الفردوس المفقود ) ـــ رغم كثرة ما كتب عنهـــا في نواحي شتى ـــ تحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات التى تعالج مختلف مظاهر الحيـــاة فيها .

وربما كان من أشـــد ما تفتقر إليه المكتبة العربية عن الأندلس تلك الدراســـات الشمولية التى تنظر إلى هـــذه البـــلاد وحضارتها فى العصر الإســـلامى ككل متماسك ، ولا تكتفى بمجرد السرد الوصفى على نحـــــو ما تفعـــــل معظم كتب التـــاريخ ، وبخاصـــــة فى النـــواحى السياسية والحربية وإنمـــا تحاول تحليل تلك الحضارة على ضـــوء نظريات فلسفة التاريخ أو نظريات الثقافـــة أو البناء الاجتماعى .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب لا تزال فى حاجة إلى مثل هـــذه الدراســـات ، فـــإن الحاجـــة أشـــد بالنسبة للأندلس باعتبارها حـــالة فريدة فى تاريخ الإســـلام تمثل قيـــام حضـــارة متميزة هى مزيج من ثقـــافة الإســـلام والثقـــافة الاســـبانية الأوربية ازدهرت ازدهارا هـــائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الإســـلامى بل والعالمى أيضـــا ، ثم أخـــذت فى الضـــعف والتدهـــور والتراجع نتيجة لـــا حل بالمسلمين فى الأندلس . وإن تركت ورائها الكثير من الآثار التى لا يزال بعضها باقيا فى المجتمع الأسبانى حتى الوقت الحاضر .

ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وإنمـــا كانت

تتألف من عناصر متعددة ومتباينة اشد التباين فى اصولها البشرية والثقافية ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر قوة تلك الحضارة وثرائها ، وعاملا من أهم عوامل تلك القوة وذلك الثراء . غير أنه فى نفس الوقت كان يحمل بذور الضعف وأسباب التدهور والانقسام . وربما كان تعدد العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأكثر أهمية فى ذلك التنوع الحضارى والثقافى ، والركيزة الأساسية التى قام عليها فى الوقت ذاته .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الكثير من العناصر كالعنصر العربى والبربرى والإسبانى والصقلبى واليهودى إلى غير ذلك من أجناس .

والتاريخ الأندلسى له طبيعة خاصة ، فمعظمه حروب ونزاعات قامت بين العناصر البشرية التى سكنت الأندلس سواء بين المسلمين وبعضهم ، أو بين المسلمين والمسيحيين الأسبان الأمر الذى جعل الأسبان يلخصون تاريخهم الوسيط فى انه تاريخ ( حركة الاسترداد ) La Recon Quista . وهو ما يعبر عنه فى بعض الأحيان ( بمعركة القرون الثمانية ) La Batalla de Ocho هذه الطبيعة السياسية والحربية لتاريخ الأندلس جعلت المصادر — حتى فى حال توافرها — تغفل الجوانب الاجتماعية او تشير إليها إشارات مقتضبة من بعيد .

ولا شك أن دراسة التاريخ اليوم أصبحت تعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى المقام الأول . ولا شك أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تعتبر مؤشرا لحضارة اى مجتمع من المجتمعات ، ومن هنا كانت دراستها أمرا مهما لانها فى النهاية تعبر عن حضارة هذا المجتمع ومدى تقدمه وازدهاره . ومن هنا فقد وقع اختيارى على دراسة المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة حيث اهتم الكثيرون بدراسة هذا العصر من النواحى

السياسية والحربية بينما كان الاهتمام قليلا بدراسة هذا العصر من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة والتى هى نتاج ما يسمى بالحضارة . لأن هذا العصر قد شهد تأسيس الحضارة الإسلامية فى الأندلس وازدهارها ومن هنا كانت أهمية الموضوع .

ودراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث السياسية ، أو تصوير المعارك الحربية او ذكر لسير الملوك والخلفاء والسلاطين فقط . وإنما اصبحت ذات نظرة فلسفية شمولية عامة يمكن الحكم بها على الدول والعصور ومدى تحضرها وتقدمها .

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده ـ وهو المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى ـ موضوع متشعب الجوانب متصل الحلقات يأخذ بعضه ببعض لأن دراسة الحياة الاجتماعية فيه هى النتاج النهائى لجميع انواع الحياة فيه أو بعبارة أخرى نتاج ما يسمى بالحضارة .

ولذا فإن هذه الدراسة لا تتعرض لكل التفصيلات الجزئية الدقيقة ولكنها توضح لنا ملامح عامة لصورة هذا المجتمع من هذه النواحى التى اغفلها كثير من المؤرخين ولم يهتموا بها كثيرا ولم يوردوا عنها إلا نتفا وشذرات كان لابد من البحث والتنقيب عنها كثيرا حتى يظفر الإنسان منها بشىء . وهذا خلافا لدارسى الحياة السياسية والحربية وسير الملوك والسلاطين حيث يجدون مادة خصبة ثرية .

ولست ادعى أننى قد جمعت فاوعيت ، واننى قد الممت بكل دقيقة من دقائق الموضوع ، لأنه كما قلت متشعب الجوانب . ولكننى حاولت قدر جهدى وطاقتى أن أبلوره فى صورة يمكن أن تحظى بالقبول .

وقد قسمته إلى فصول ستة : تحدثت فى الفصل الأول عن عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى وأهم مميزاتهم ، وتحدثت فى الفصل

الثانى عن العلاقات بين هـذه العناصر بصفة عامة ، وخاصة بين العرب والبربر والإسـبان ، وفى الفصـل الثـالث تحـدثت عن حـالة المجتمع الأندلسى من الناحية الدينية لمـا لها من تأثير كبير على الحياة الاجتماعية.

وأما الفصـل الرابع فقد تحـدثت فيه عن مظاهر الحياة الاجتماعية من ميدان وعمائر ، وطعام وشراب ، وملابس وأزياء ، وزينـة وحفلات ، والعـاب وغير ذلك .

وأما الفصـل الخامس فقـد تحـدثت فيه عن الحالة الاقتصادية واثرها على الحيـاة الاجتماعية .

وفى الفصـل السادس والأخير تحـدثت عن حـالة المجتمع من الناحية العلمية والثقافيـة .

وقـد حاولت قـدر جهـدى وطاقتى فى هـذا الموضوع المتشعب الطـويل ، والله وحـده يعلم كم عانيت فيـه من جهـد ومشقة ، وإذا كان فى عملى شيء من النقص أو القصور ، فإننى التمس سـعة الصـدر والتوجيه فيما عسى ان يكون مثارا للنقـد أو الاعتراض . والله اسـأل ان يوفقنا إلى ما فيـه الخير والسداد والهـدى والرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مدينة نصر/ينـاير سنة ١٩٩٤ م .

**د. حسين يوسـف دويدار**

# الفصل الأول

## عناصر السكان فى الأندلس

# تمهيد

## عناصر السكان فى الأندلس(1)

كان المجتمع الأندلسى يتكون من عناصر شتى تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافاتها ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر وموالى ، وفيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، وفيه المماليك المجلوبون من بلدان عديدة .

أما أهل البلاد فهم الذين أطلق عليهم ( عجم الأندلس ) وكانوا فى أكثريتهم من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام فسموا بالمسالمة ، ومن الذين بقوا على ديانتهم من الأسبان والرومان والقوط ، واليهود وغيرهم وأصبحوا أهل ذمة .

وأما الوافدون فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، كما كان منهم البربر الذين قدموا من شمال افريقية . وكان أوائلهم يمثلون الجيش الفاتح للبلاد بقيادة طارق بن زياد . ولم يلبث هؤلاء الفاتحون الجدد أن اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم ، وكان من ثمار هذا الاختلاط ظهور عنصر جديد هو عنصر المولدين .

---

(1) الأندلس : لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم إلا بعد فتح المسلمين لها ، وهذا اللفظ الذى أطلق على الأقاليم التى خضعت لسلطان المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافى ، بل يشمل مختلف العناصر التى استظلت بظل المسلمين سواء أسلمت أم لم تسلم . ويعبر ياقوت الحموى عن هذه التسمية فيقول « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتها فى الإسلام » .

=

. . . . . . . . . . . . . . . . .

( معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣ دار صادر بيروت )،وباستثناء الإشارات العارضة والقليلة التى وردت فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الاندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف كذلك كلمة ( إسبانيا ) . والمصادر العربية عدا القليل منها تقول بلاد الأندلس .

وقد كان المستشرق الهولندى ( دوزى ت سنة ١٨٨٣ م ) أول من بحث هذه المسالة ، ثم جاء المستشرق ( سيبولد ) فتوسع فيها ، وسار على رأى دوزى فى أن كلمة اندلس اخذت من لفظ ( فانداليسيا Wandalacia ) أو فنداليشيا . الذى كان يطلق على إقليم باطقة الذى احتلته قبائل الوندال الجرمانية ( أو الفاندال ) ما يقرب من عشرين عاما منذ سنة ٤٠٩ م . وكان نصارى الاسبان يطلقون على هذا الاقليم اسم إشبانية أو شبانيه باسم رجل يقال له إشبان بن طيطس أو اشبانس ( د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ١٣ ) أو نسبة إلى مدينة إشبيلية التى كانت تعرف فى العصر الرومانى باسم ( إشباليس : Hispalis ) .

وكان العرب يطلقون اول الأمر هذا الاسم على هذا الاقليم الجنوبى بالذات ، ثم عمموه على شبه الجزيرة كلها . وعندما بدأ سلطان المسلمين فى التقلص أصبح هذا الاسم يطلق على الأراضى الباقية فى ايديهم حتى اقتصر على آخر مملكة لهم بالاندلس وهى غرناطة ( انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أندلس ج ٣ ص ٣٥ ، دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب رقم ٦١ ص ٣ ) .

. . . . . . . . . . . . . . . . .

وهـذا التدرج فى التسمية تؤيده رواية الحميرى عن البكرى التى يقـول فيها « إن اسم شـبه الجزيرة فى القـديم كان إباريه ( ايبيريا ) ، ثم سميت بعـد ذلك باطقـة ثم سميت إشبانيا باسم رجـل ملكها فى القـديم ، أو الإشـبان الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس اخـذا من اسم الاندليش الذين سكنوها » يقصـد بهم قبائل الوندال .

( الروض المعطار ص ٣٢ ، البكرى : المسالك والممالك ص ٥٨ ) .

وعلى هـذا فإن لفظ الأندلس معرب من الونـدال Vandalus ( الفاندال أو الفاندالوس ) وهى القبائل الجرمانية التى غزت شـبه الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى . فلمـا جاء المسلمون بعـد الفتح عربوا هـذا الاسم من ( وندلس ) بعـد همز الصوت الاول إلى أندلس : ( أنظر : د. احمد هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ) .

وقـد ذكر بعض المؤرخين المسلمين عـدة تعليـلات لهـذه التسمية تبعد عن التحقيق التاريخى ، وتقرب من الروايات السماعية شبه الأسطورية . فقـد ذكر المقرى عن ابن سـعيد المغربى : أن هـذه البلاد سميت باسم الأندلس بن طـوبال بن يافث بن نوح عليه السلام لأنه اول من نزلها .

وذكر ابن الاثير : أنها سميت باسم اندلس بن يافث بن نوح لأنه اول من سكنها وعمرها .

كما ذكر ابن عـذارى وابن الاثير ايضا : أن أول من سـكن

. . . . . . . . . . . . . . . . .

هـذه البـلاد قوم يعرفون باسم الأندلش بالشين المعجمة فسمى البلد بهم ثم عرب بعـد ذلك بسين مهملة . والمعروف أن هـؤلاء لم يكونوا أول من سـكن هـذه البـلاد ، بل سبقتهم أجناس أخرى كالفنيقيين واليونان والرومان . وشـبيه بهـذه التعليلات ما ذكره البعض فى إطلاق لفظ إسبانيا على هـذه البلاد :

هل هو نسبة إلى إشبان بن طيطش الذى كان اسمه أصبهان ثم تحـول فى لسان العجم إلى إشبان ، وانه تقابل مـع الخضر عليه السـلام ، وبشره الخضر بالملك العظيم والاستيلاء على بيت المقـدس فى عبـارات مسجوعة كسجع الكهان أوردها المقـرى فى ( نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ ) ومنها « يا إشبان إنك لذو شان ، وسـوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ... الخ » .

أو نسبة إلى رجـل صلب فى هـذه البلاد يسمى إشبانس إلى غير ذلك ( انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ وبعـدها ، الكامل ج ٤ ص ٥٥٦ وبعـدها ، البيان المغرب ج ٢ ص ١ — ٢ ) .

والرأى الراجح أن هذه التسمية قد أطلقها الفينقيون — عندما غزوا هذه البلاد فى القرن العاشر قبل الميلاد — على الشاطئ الذى نزلـوا عليه Ischepan- im اى شاطىء الأرانب حيث وجدوا أسرابا كثيرة منهـا عليـه . ثم حـرف هـذا الاسم بعـد ذلك إلى Hespania أو اسـبانيا . ( انظـر : د. أحمـد هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٥ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس

وأما المماليك فكان يؤتى بهم من أماكن شتى فى أوربا وخاصة من المناطق السلافية . وكان تجار الرقيق من الجرمان واليهود وغيرهم يسبونهم صغارا ، ثم يبيعونهم فى أسواق إسبانيا ، وقد عرف هؤلاء باسم الصقالبة . ثم غلب هذا الاسم على كل الرقيق الأبيض حتى ولو لم يكن سلافيا .

وكان من الطبيعى أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى — سواء بالمصاهرة او العشرة أو الجوار أو التعامل — وأن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره فى إثراء الحضارة الأندلسية وازدهارها .

والحق أنه رغم تعدد العناصر السكانية فى الأندلس ، ورغم الاختلاف فيما بينها فى نواحى شتى ، إلا أن الروابط القوية وبخاصة روابط الإسلام والعروبة كانت تشد أغلبها فى كثير من الأحيان ، وتطبعها بالطابع الأندلسى المميز حتى من لم يدخل منهم فيه . فقد كانت هناك

---

=

ص ٩ ) . هذا وقد ظل اسم الأندلس الذى أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا ( إبارية ) مدة طويلة ولم ينته بخروجهم منها ، وإن أخذ مدلوله يتناقص تبعا للوضع السياسى للمسلمين حتى صار فى آخر الأمر يطلق على مملكة غرناطة ، وأصبح فى اللغة الإسبانية اندلثيا أو اندلوسيا ( Andalucia ) ويطلق الآن على ثمانية أقاليم فى جنوب إسبانيا : وهى المرية ، وغرناطة ، وجيان ، وقرطبة ، ومالقة ، وقادش ، وولبة ، وإشبيلية . انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ، د. أحمد هيكل الأدب الأندلسى ص ٤ ، الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ تحقيق د. محمد شامة ) .

دائمـا البيئة المشتركة ، والثقافة المشتركة ، وكانت هناك غالبا الحكومة الواحـدة ، والسياسـة الموحدة ، ثم كانت هنـاك الحضارة التى صبغت هـذه العناصر على اختلافها بصبغتها الواضحة .

وكان لكل من هـذه العناصر أثره فى تلك الحضارة التى لم ينطفىء شعاعها بزوال سـلطان المسلمين ، بل ظلت متقـدة فى نفوس صانعيها والمتأثرين بها قرونا عـديدة ، وما زالت بعض شواهدها وآثارها باقيـة فى إسـبانيا حتى اليـوم .

فالحضارة الإسلامية فى الأندلس هى نتاج ذلك التفاعل والتبادل بين كل هـذه العناصر البشرية التى عاشـت على أرضها وانصهرت غالبـا فى بوتقتها حتى أصبح لهـا شخصية مميزة شملت مختلف العنـاصر هى الشـخصية الأندلسية(٢) .

***

---

(٢) انظر د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٢ .
د. لطفى عبد البديع : الإسـلام فى اسبانيا ص ١٧ .
د. مصـطفى الشـكعة : الأدب الأندلسـى ص ٢٢ — ٢٣ ،
د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ، مجلة المختـار من عـالم الفكر ص ٩٤ سنة ١٩٨٤ ) .

## اولا : العنصـــر العـــربى

مثل العنصر العربى اهم سكان الأندلس ، وابرز عناصر المجتمع ، حيث كان العنصر القائد والمسيطر على هـــذه البلاد منذ البداية ، وكانت طليعة هذا العنصر قد جاءت مع موسى بن نصير سنة ٩٣هـ واستقرت بعد الفتح ، وسموا بالبلديين ، وبلغ عـــددهم ثمانية عشر الفا جلهم من العرب والموالى وعرفاء البربر كما تقول بعض الروايات(١) .

وقد سبقت هذه الطليعة اعداد قليلة كانت فى الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد(٢) . يقول صاحب اخبار مجموعة « فدعا موسى مولى له كان على مقدمته يقال له طارق بن زياد فبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم

---

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ص ٢٠ . وليس كما ذكر د. السيد عبد العزيز سالم بأن الثمانية عشر الفا كانوا من العرب . ( انظر مجلة عالم الفكر ص ١٢٩ عـــدد ٣ سنة ١٩٨٤ ) .

(٢) وقيل طارق ابن عمـــرو ( انظر جـــذوة المقتبس ص ٢٤٨ ، بغيـــة الملتمس ص ٣٢٨ ) . وقد اختلف فى اصله : فذهب البعض إلى انه بربرى من قبيلة نفزة ( نفزاوة ) ، وقيل من زناتة ( المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٢ ) ، وذهب البعض الآخر إلى انه كـــان مولى لموسى بن نصير من اصـــل فارسى من همذان . وقيـــل انه ليس لموسى وإنما هو لرجل من صدف ، وقيل مولى لهم .

وذكر ابن عذارى نســـبه هكذا : « طارق بن زياد بن عبـــد الله ابن رفهـــو بن ورفجـــوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطـــوفت بن نفزاو » ( البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ) ، وقيل إنه من سبى البربر . والراجح انه بربرى من نفزة . ( انظر اخبار مجموعة ص ٦ ، نزهة المشتاق ص ١٧٩ ) .

من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا قليل »(٢)، ثم طالعة الحر ابن عبد الرحمن الثقفي ( في ذي الحجة ٩٧هـ ) حيث قدم واليا على الأندلس ومعه « أربعمائة رجل من إفريقية فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين » .

ثم تعاقبت أفواج العرب بعد ذلك ، ومن أشهرها الفوج الذي قدم إلى الأندلس مع بلج بن بشير القشيري سنة ١٢٤هـ ، والذي أطلق عليه ( طالعة بلج ) ، وأصبح هؤلاء يلقبون بالشاميين تمييزا لهم عن الطلائع الأولى التي كانت في الفتح وبعده مباشرة واستقرت وسميت ( بالبلديين ) . وكانت هذه الطالعة تبلغ نحو عشرة آلاف منها ثمانية آلاف من العرب والفان من الموالي(٤) .

كما وفد عدد من العرب الشاميين مع أبي الخطار اليمني سنة ١٢٥هـ الذي ولي الأندلس لفض النزاع الذي دار بين البلديين والشاميين ، وإقرار الأمن والنظام بالأندلس ، وسمي هؤلاء ( بالطالعة الثانية )(٥) .

كما قدمت موجة جديدة من القبائل العربية من الأمويين وأنصارهم خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس بقيادة عبد الرحمن الداخل

---

=

( أنظر عنان : دولة الإسلام في الأندلس هامش ٢ ص ٣٩ ) .
د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢ ، د. أحمد الشعراوي : دراسات في تاريخ أسبانيا ص ٤٩ — ٥٠ ) .

(٣) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٦ ، وانظر كذلك الروض المعطار ص ٩ ، نفح الطيب ص ٢٣١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٣ ، ٤٤ — ٤٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٥) يذكر ابن القوطية أنهم كانوا ثلاثين رجلا ولكننا نعتقد أن تبعهم كثيرون حيث سموا بالطالعة الثانية ( تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٩ ) .

( صقر قريش ) نظرا لاضطهاد العباسيين للامويين وانصارهم بالمشرق ، وترحيب عبد الرحمن بهم ، فضلا عما سمعوه من خصب هذه البلاد وغناها . وتتابع اندفاع القبائل العربية من قيس وكلت واليمن إلى الاندلس للاستقرار بها والإقامة فيها ، وقد كان هناك عدد كبير من التابعين فى هؤلاء الداخلين إلى الأندلس فضلا عن احد الصحابة أشارت إليه بعض المصادر وهو المنذر الأسلمى الذى دخل الأندلس مع موسى ابن نصير وكان قبل ذلك قد نزل إفريقية ، وذكر انه حدث عن رسول الله ﷺ بحديث ذكره ابن الاثير والمقرى وهو « من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا فانا الزعيم لآخذن بيده حتى ادخله الجنة »(٦) .

وقد ذكر القيروانى : أن عمر بن عبد العزيز ارسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية(٧) وأن ثلاثة منهم دخلوا الاندلس مع موسى بن نصير وهم : ابو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الانصارى، وحبان بن ابى جبلة القرشى ، وابو ثمامة بكر بن سوادة الجذامى .

كما ذكر المقرى وغيره(٨) اسماء آخرين من التابعين الذين دخلوا الاندلس مع موسى بن نصير او بعده ومنهم : ابو راشد حنش ابن عبد الله الصنعانى ، وحيوة بن رجاء التميمى وزيد بن قاصد السكسكى ، وعبد الجبار بن ابى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى — قائد المسلمين فى بلاط الشهداء — ،

---

(٦) ابن الأثير : اسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .
(٧) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ .
(٨) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٨ ، ص ٢٨٨ ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وقد وضع ابن بشكوال كتابا لا يعرف له وجود حتى الآن عن التابعين الذين دخلوا الأندلس اشار إليه المقرى وهو بعنوان ( التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ( نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ٦٠ ) .

والمغيرة بن أبى بردة الكنانى ، وعلى بن رباح بن نصير اللخمى ، وعياض ابن عقبة بن نافع الفهرى ، ومحمد بن أوس أبن ثابت الانصارى ، ومنصور بن حزامة ، وعبد الله بن المغيرة بن أبى بردة الكنانى .

وقد اورد المقرى انساب العرب ومنازلهم بالاندلس نقلا من ابن غالب وابن حزم فذكر انه « لما استقرت قدم الإسلام بالاندلس ، وتتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها، فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة اورثوها أعقابهم .

فاما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، واما بنو هاشم من قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الاندلس بعد انتثار ملك بنى امية ، واما بنو امية فمنهم خلفاء الأندلس ، وكانوا يعرفون ايضا بالقرشيين ، واما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون .

وفى الاندلس من ينسب إلى جمح وبنى بنى عبد الدار ، وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الظواهر ، ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الاندلس ، ومن ولده بنو القاسم الأمراء الفضلاء ، وبنو الجد الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سلطان الأندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الأموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بإفريقية ، ولهم فى الاندلس عدد وثروة .

واما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلهم فى طليطلة واعمالها ، وإليهم ينسب الوقشيون الكنانيون الاعيان الفضلاء الذين منهم القاضى ابو الوليد والوزير ابو جعفر ، ومنهم ابو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة . واما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فمنزلهم بجهة اريولة من كورة تدمير ، واما تميم بن مرة بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر فخلق

كثير ، وهؤلاء خندف من المـدنانية . وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من المـدنانية ففى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومن قيس من ينتسب إلى هـوازن بن منصور بن عكرمة وهم باشبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هـوازن ، ولهم منزل بجـوفى بلنسية على ثلاثة اميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب إلى سـعد ابن بكر بن هـوازن ومنهم كثير بغرناطـة .

ومن ثقيف بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب الحـر بن عبد الرحمـن الثقفى وإلى الاندلس .

وأما ربيعـة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسـد بن ربيعـة بن نزار ، وإقليم هـؤلاء مشهور باسمهم بجـوفى مدينة وادى آش ، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو ومنهم بنـو عطية اعيان غرناطة ، ومنهم من ينتسب إلى النمر بن قاسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ ابو عمر ابن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل كبنى حمـديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين .

وأما أياد بن نزار فينتسب إليهم بنـو زهرة المشهورون بإشـبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس ، والملـك فيهم ارسخ إلا ما كان من خلفـاء بنى أميـة فإن القرشية قـدمتهم على الفرقتين . وكثيرا ما كان يقـع بينهم وبين المضرية وسـائر العـدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالمشرق »(٩) .

---

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٦ وبعـدها . المطبعـة الأزهرية سـنة ١٣٠٢هـ .

ومن القبائل الشهيرة التى نزلت بعض بيوتها بالأندلس قبيلة الخزرج التى يتصل بها نسب بنى نصر ( بنى الأحمر ) ملوك غرناطة آخر ممالك المسلمين فى الأندلس .

ويذكر المقرى نقلا عن الرازى : انه دخل الأندلس من ذرية سعد ابن عباده الخزرجى الصحابى الجليل سيد الخزرج رجلان احدهما نزل ارض تاكرونا ( تاكرنا ) ، والآخر نزل قرية من قرى سقرسطونة عرفت بقرية الخزرج(١٠) .

وقد ذكر ابن حزم : انه كان لسعد بن عبادة رضى الله عنه ولدان قيس وسعيد وقال : « ولسعيد هذا عقب بالأندلس بقريته ويقال لهما قريلان من عمل سرقسطة من قبل الحسن بن سعيد بن سعد بن عبادة ، وبشذونة بنو عرمرم بن جميل بن عصام بن قتادة بن وتاد بن قيس ابن سعد بن عبادة »(١١) .

وقد ظل العرب بالأندلس يحفظون أنسابهم ويفتخرون بها وبالصلة التى تربطهم بالقبائل العربية حتى بعد اختلاطهم بغيرهم من العناصر الاخرى فى الأندلس وشكلوا نواة الإرستقراطية والبرجوازية فى المدن(١٢) .

---

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة فى اخبار غرناطة جـ ٢ ص ٦٠ ط ١ الحلبى سنة ١٣١٩ هـ .

(١١) جمهرة أنساب العرب ص ٣٤٦ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨م

(١٢) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ص ١٨ ترجمة د. الطاهر مكى ط ١ دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

وكانوا يتميزون بالعشائر والأفخاذ والقبائل إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبى عامر ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتعصبهم فى الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، وجعل فى جند القائد الواحد عدة فرق من كل قبيلة وذلك للقضاء على العصبية العربية ليسهل عليه السيطرة على مقاليد الأمور فى الأندلس . وكان لذلك أثره الواضح فى انحسار مادة الفتن والثورات الداخلية كثيرا عن ذى قبل ، وفى إضعاف نفوذ العنصر العربى(١٣) .

* * *

(١٣) د. لطفى عبد السميع : الإسلام فى اسبانيا ص ٢٠ .

## ثانيـا : العنصر البربرى

البربر هم سـكان شمال إفريقية أو ما يعرف ببـلاد المغرب التى تمتـد من حـدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى . وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامى لهـا بحسب القرب أو البعـد عن مقر الخلافة فى المشرق وهى :

المغرب الأدنى ( إفريقية ) وقاعدته القيروان ، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان . والمغرب الأقصى وقاعـدته فاس(١) . وكان العرب يستعملون لفظ إفريقية ليشمل المغرب الأدنى والأوسط(٢) .

---

(١) انظر ابن خلدون المقـدمة ص ٥٩ ـــ ٦٠ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ١ ص ٢٩٤ هامش ٢ .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب فى تسمية البربر بهـذا الاسم . فقد ذكر ابن خلدون أن أحـد ملوك التبابعة فى اليمن ويدعى إفريقش بن قيس ابن صيفى غزا بلاد المغرب فبنى بهـا المدن والأمصار فسميت باسمه ، وانه سمع السكان يتكلمون بلغـة غير مفهومة فقال : ما بربرتكم فسـموا بالبربر ( العبر حـ٦ ص ١٠٦ ) . وذكر الفيروز بادى : أن البربـرة هى كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر ( ترتيب القاموس المحيـط ص ٤٤٠ ) . وذكر البعض أنهم ينسبون إلى مهاجر عربى من حمير يسمى ( بر بن قيس ) وانه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسماها بربرة وسماهم البربر ( انظر د. حسين مؤنس : معـالم تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٣ ) . وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال : إن

. . . . . . . . . . . . . . . . . .

كلمة بربر اطلقها العرب فى عهدهم على الأمة التى تسكن الساحل الإفريقى لانهم يتكلمون بلغة غير مفهومة ، والعرب يطلقون هذه الكلمة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

( انظر تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٦ ) . وعلى هذا فإن تسمية البربر بهذا الإسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة فلما كانت لغة هؤلاء السكان غير عربية غدت فى نظر العرب غير مفهومة ، فاطلقوا عليها بربرة ، كما اطلقوا كلمة عجمة أو أعجمية على لغة الأعاجم . بينما ذهب آخرون إلى ان هذا اللفظ إغريقى كان اليونان يطلقونه على كل من لايتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (بارباروى)

ثم جاء الرومان فاطلقوا هذا الإسم على سكان شمال إفريقية ( المغرب ) Barbari ( بربارى ) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، وعربه المسلمون إلى بربر او برابر ، كما اطلق الرومان على سكان إقليم موريطانية إسم مور Maures وما لبث هذا الإسم ان عمم على سائر البربر ، أو أن هذا الإسم مشتق من سكان بربرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان إفريقية . ( أنظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٨ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٤٩ هامش ٢٧ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ١٣ هامش ٢ ) .

وقد استعمل الفرنجة هذه الكلمة وقصدوا بها معنى آخر اشار

ويحاول بعض المؤرخين والكتاب العرب إرجاع نسب البربر إلى أصول عربية ، فيذكر الفيروزبادي : أن البربر عرب أصلا وهم من ولد قيس عيلان ، أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقش بن قيس بن صيفي لها(٣) .

ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروى عن البكرى : انه كان لمضر ولدان هما قيس وذهمان ، وأن البربر ينتسبون إلى قيس بن عيلان من مضر ولذلك يفتخر احد شعراء البربر بقوله :

ايها السائل عنا اصلنا ... قيس عيلان بنو العز الأول

إن قيسا قيس عيلان هم ... معدن الحق على الخير دال

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب : ان لواته من حمير ، وهوارة من كندة ، وزناته من التبابعة أو العمالقة ، وان زواوة ومكلاته من حمير ايضا(٥) .

كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأى فيقول : إن عددا من سكان

---

إليه الأب لويس معلوف بقوله « وفى المجاز البربرى هو المتوحش الهمجى » ( المنجد فى اللغة والأعلام ص ٣١ ) .

والحقيقة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيرا مستهجنا وإنما يسمون أنفسهم باسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصامدة والزواوة وصنهاجة وكتامة . ( انظر د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٤ ص ١٢٦ ) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط جـ ١ ص ٢٣٨ ، ص ٢٧٩ .

(٤) العبر جـ ٦ ص ٦٥ .

(٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

شبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى شمال إفريقية عن طريق الساحل الغربى من الجزيرة ، وانه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرون ساميون حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا هناك(٦) .

والحقيقة أن مسألة أصل البربر العربى هذه لا يمكن الجزم فيها برأى قاطع بهذه السهولة نظرا لتطاول القرون وتعاقب الأجيال وهجرات القبائل والشعوب من مكان إلى آخر تبعا لظروف البيئة والمناخ والحاجة والغزو والحروب وغير ذلك ، ونظرا لتشعب الآراء وتعددها فى هذه المسألة(٧) .

حيث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر وانهم سكنوا هذه البلاد منذ القديم ، وانهم ينتمون إلى سكان حوض البحر المتوسط حيث يشبهون سكان جزر البحر المتوسط وسكان الاندلس من حيث بياض اللون وشقرة الشعور وزرقة العيون ، وان البتر هم جدد نسبيا على بلاد المغرب قدموا فى الغالب من جنوب غرب القارة الإفريقية ، ونزلوا ببرقة أولا ، ثم انتشروا غربا ، وانهم جنس إفريقى أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس ، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربرى الذى استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب(٨) .

---

(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ١ ص ١٠ ، ١٤ .

(٧) يقول ابن حزم : قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير ، وبعضهم إلى قيس عيلان . وهذا باطل لا شك فيه وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا إسمه بر أصلا ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا فى تكاذيب مؤرخى اليمن ) جمهرة انساب العرب ص ٤٩٥ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٣ ، ٢٤ .

كما يذهب البعض الآخر إلى أنهم ينتمـون فى أصلهم إلى الجنس الحامى وإن كانوا من نفس العنصر الليبى القديم الذى عرفه الفراعنة(٩).

ومهما يكن من أصل البربر فيبدو أن العرب قد عرفوا الطريق إلى شمال إفريقية منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون : أن ملوك اليمن من التبابعة قد غزوا شمال إفريقية عدة مرات فاستكان لغلبهم السكان ، ودانوا بدينهم وإن كان فى هذا شيء من التجوز والتعميم .

ومن المتعارف عليه أن البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين أو جذمين عظيمين هما البتر والبرانس ، وربما كانوا من أصل واحد كما ذهب ابن خلدون(١٠) .

أو أنهما جدين بهذين الإسمين ، أو نسبة لنوع الحياة وأسلوب المعيشة والطابع الحضارى لكل منهما . فالبرانس : هم الذين يعيشون فى السواحل والريف ولهم الحواضر ، والبتر : هم الذين يعيشون فى طور البداوة ويتخذون بيوتهم من الشعر ، وينتجعون المراعى بين الجبال والوديان والصحارى(١١) .

---

(٩) د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٤٩ هامش ٧

(١٠) العبر : جـ ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ . حيث ذكر أن العرب لما دخلوا بلاد المغرب ، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين. فقسموا قبائل البربر إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بر الملقب بالأبتر فسموا البتر ، وقسم نسبوه إلى برنس بن بر فسموا بالبرانس .

(١١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣ ، د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

وقد فسر البعض هذين الإسمين بانهما نسبة إلى الزى الذي يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس — وهو الزى الذي لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن — والبتر هم الذين لا يلبسونه .

والحقيقة ان هذا التفسير اللغوى لا يقوم على اساس متين فليس من الضرورى على كل برانسى ان يكون مرتديا للبرنس كما انه ليس بلازم ان يكون البترى عاريا منه .

اما تقسيم البربر بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الاخذ به ايضا على إطلاقه فقبيلة زناتة البترية الاصل كانت على حد قول ابن خلدون اكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا ولذلك جعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر ، كما أن البرانس المتحضرون كانوا قلة بالنسبة للبتر البدو الذين يشكلون السواد الاعظم من السكان(١٣) .

وعلى اى الاحوال فقد كان البربر فى معظمهم فى طور البداوة عند الفتح العربى لبلادهم يعيشون فى شعوب وقبائل اكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون ، واغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة : وقليل منهم دان باليهودية او المسيحية او المجوسية(١٤) .

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة للحياة فى شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية ، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم — بالرغم من شدة المقاومة التى لقوها منهم بالتزاوج وتبادل منهم موقف الحاكم المنعزل عن المحكومين بل امتزجوا معهم بالتزاوج وتبادل العادات والتقاليد ، وكان للإسلام ولغة القرآن اثر كبير فى ذلك .

---

(١٢) د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .
(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٩ .
(١٤) العبر : ج ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

ممــا ساعد على انتشار العروبة بينهم . ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب الليبيين من أن القبائل العربية التي نزلت بشمال إفريقية قد تبربرت بطول الزمن في زيها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبــوله(١٥) .

والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القديم ، وطــول اختلاطهــم بالعــرب وخاصة بعد الفتح الإسلامي لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة همــا الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاســتعمار الفرنسي التي قام بها زمن الاحتلال لإثارة العصبية بين العرب والبــربر والتفريق بينهم وإحياء اللغة البربرية .

وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر صفات وأخلاق اشتهروا بها كذلك — وتقترب من صفات العرب — وقد ذكر ابن خلدون هــذه الصــفات في وصف لا يدع زيادة لمستزيد فقــد وصــفهم « بعز الجوار وحماية النزيل ، ورعي الأزمة والوسائل ، والوفــاء بالقول والعهود ، والصبر على المكاره ، والثبات في الشدائد ، وحسن الكلمــة والإغضاء عن العيوب ، والتجافي عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين ، وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وتهيئة الكسب للمعدوم ، وقرى الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، وإباء الضيم ، ومقارعــة الخطوب ، وغلاب الملك وبيــع النفوس من الله في نصر دينــه ، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أســوة لمتبعيه من الأمم ، وحســبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقي العــز ، وأوفت بهم على ثنــايا الملك ،

(١٥) الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي لليبيا ص ٧ .

حتى غلبت على الايـدى ايديهم ، ومضت فى الخلق بالقبض والبسـط احـكامهم »(١٦) .

وقـد اشـتهر البربر إلى جانب هـذه الصـفات التى عـددها ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم . ولا ننسى مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امـرأة تدعى الكاهنـة ، ولا يزالون إلى الآن فى الاعم الاغلب يعتقدون فى قراءة الكف وفتح الكتاب وادعـاء معـرفة الغيب(١٧) .

كما ظهر منهم نسابة نظموا انساب قبـائلهم فى شـجرات شبيهة بشـجرات الانساب العـربية وإن كان لا يوثق فى هـذه الشـجرات كثيرا(١٨) .

هـذا وقـد كان البربر من اسبق العنـاصر البشرية التى دخلت إلى الاندلس فقـد كان الجيش الفاتح لهـا بقيادة واحـد منهم وهـو طارق بن زياد(١٩) ، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة

---

(١٦) العـبر : ص ج ٦ ص ١٠٤ . وذكـر ابن عـذارى أن سـليمان ابن عبد الملك قال لموسى بن نصير فأخبرنى عن البربر قـال « هم اشبه العجم بالعرب لقـاء ونجـدة وصبرا وفروسية ، غير أنهم اغـدر الناس لا وفـاء لهم ولا عهـد » وهـذا يناقض ما ذكره ابن خلدون عنهم من الوفـاء بالقـول والعهـد ( البيـان المغرب ج ٢ ص ٢١ ) وهـذا دليل على اختلاف وجهات نظر المؤرخين والكتـاب فى وصـف الأقوام أو الأشخاص لأسباب عـديدة .

(١٧) أحمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥ .

(١٩) انظر عن نسبه : البيـان المغرب ج ٢ ص ٦ ، نفـح الطيب ج ١ ص ١٢٣ .

آلاف فى البداية ثم ما لبثوا أن زيدوا بعـــد ذلك إلى اثنى عشر ألفا(٢٠) . وقـــد كان قرب بلادهم من الأندلس ممـــا سهل من توالى هجراتهم إليها ، واستقرارهم فيها بعـــد الفتح ، وكانوا ينزلون بصفة خاصة فى المناطـــق الجنوبية والغربية من الأندلس نظرا لشبهها ببيئتهم فى المغرب .

وكانت منطقة روندة وإقليم تاكرنا بالذات منزلا لجماعات البربر التى استوطنته بعـــد استقرار عملية الفتوح الأولى(٢٢) .

وقـــد عـــدد ابن حـــزم فى الجمهرة بيـــوتات البربر فى الأندلس تفصيلا ... وذكر منهم بنـــو دليم الفقهاء من وزداجة ، وعوسجة بشنت برية من مازوزة ، ومنهم بنو إلياس من مغيلة ، وبنو زوال من مغيلة أيضا ، وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناســـة ، وبنو الخروبى من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضا ، ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هـــذيل من مديونة ، وبنو عيدوس من سرته ، وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بويدة ، وكان لهم ضلع فى الفتن التى أفضت إلى سقوط الخـــلافة الأموية ، واســـتأثر جمـــاعة منهم بالأقـــاليم الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف(٢١) .

---

(٢٠) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٧ . وليس كما ذهب د. السيد سالم إلى أن الجيش كله كان من البربر ( تاريخ المسلمين ص ١٢٢ ).

(٢١) د. أحمد الشعراوى : دراســـات فى تاريخ أسبانيا ج ١ ص ١١٣ هامش ٢ دار النهضة العربية ســـنة ١٩٧٣ م ، الأمويون أمراء الأندلس الاول ص ٣٠٦ .

(٢٢) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٨ ـــ ٥٠٣ سلسلة ذخائر العرب ٢ دار المعـــارف بمصر ط ٤ تحقيق هارون .

## ثالثا : المـــوالى

جاء عدد كبير من الموالى إلى الأندلس مع جيش موسى بن نصير سنة ٩٧هـ وفى طائفة بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٤هـ وكانت هذه الطائفة او هـــذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب وألفين من الموالى(١) .

وكان اغلب هؤلاء الموالى من اهل المغرب من البربر الذين دخـــلوا فى طاعة بنى أمية ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس . وقد ازداد عدد الموالى فى الأندلس بهـــؤلاء الذين دخلـــــوا فى هــــذه الطائفـــة حيث انضموا إلى من كان بالأندلس قبــــل ذلك من موالى بنى أميـــة وأصبحوا يؤلفـــون حزبا هاما وطائفة قـــوية تعرف بالأمويين(٢) نظرا لموالاتهم لبنى أمية .

وقـــد استطاع عبـــد الرحمن الداخـــل بفضل مناصرة هؤلاء الموالى تأسيس دولة لبنى أميـــة فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق على يـــد العباســـيين وأنصـــارهم .

ومنهم بنو بسيل وهم بيت من أكبر بيـــوتات الموالى الأمويين من أهل الشام . وكان أول من دخـــل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومى وكان أبوه بسيل مولى لبنى أمية ويتضح من نسبه أنه من اصل رومى .

وقـــد دخـــل عبد السلام الأندلس أيام عبد الرحمن الداخـــل مـــع ابنيه عبد الواحـــد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشـــذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها ، وولاه الوزارة ، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان فى عهد عبد الرحمن الأوســـط ، كما تولى أخـــوه

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٢) ورد هـــذا الاسم عند خروج بلج من قرطبة لمقابلة جيوش عبد الرحمن.

الكتابة والخيل وغيرها ، كما كان يوسف بن بسيل واليا على طليطلة سنة ٢٣٤ هـ واصبح من كبار رجال الدولة في عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وكان له دور في تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده ، وقد ولى شذونة في عهده . وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى في الدولة . كما دخل في عداد الموالي بالأندلس عدد كبير من الأسبان الذين دخلوا في ولاء بني أمية بعد الفتح أمثال : بنو قسي ، وبنو بارون ، وبنو غومس بن قارلة ، وبنو مرتين واصبحوا موالى اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم(٣) . ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بني قسي المولدين بالثغر فيقول : « كان قسي قومس(٤) الثغر في أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام ، واسلم على يدي الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمي إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسي في أول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون في جملة

---

=

ابن علقمة ، ومن معه من أعداء الشاميين ، وكان معه ( عشرة آلاف من الأمويين والشاميين ( تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٦ ) .

(٣) د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٧ . مولى الاصطناع : هو مولى الموالاة او الحليف وهو من يمنحه الخليفة شرف الانتساب إليه ، ويستخدمه في شئونه ويجري عليه الأرزاق فيصير مولى له ( انظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ ) .

(٤) كلمة Comes كلمة لاتينية ، وهي في الأصل تعني مرافق الملك ونديمه ، ثم أصبحت تطلق في اسبانيا زمن القوط على ولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الإسباني Corde والفرنسي Conte وتذكرها بعض المصادر العربية فقط بدلا من قومس . وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالانجليزية .

المضرية ، مولد قسى فرتون وابو ثور وابو سلامة ويونس ويحيى » ثم اخذ يمـــدد بعـــد ذلك ذرية كل واحـــد منهم(٥) .

وقـــد لعب الموالى دورا هاما فى تاريخ الأندلس حيث اعتمد عليهم بنـــو امية كثيرا وقلدوهم اهم المناصب فى دولتهم لتفانيهم فى الإخلاص لهـــا ، فكان منهم الوزراء والكتاب والقـــواد والقضاة . وقـــد نجـــح الموالى فى كورة البيرة فى تأسيس دويلة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريج زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول ، او دويلات الطوائف الأولى التى تمزقت فيها وحـــدة الأندلس وقام الثوار فى ســـائر الأنحاء بشـــق عصـــا الطاعة على بنى أمية(٦) .

وقـــد كان هؤلاء الموالى يحسبون أنفسهم عربا ، ويدعون أرومات عربية ينسبون أنفسهم إليها ، ويقتبسونها من أصـــول ســـاداتهم وحتى اولئك الذين كانوا من أصـــول اسبانية منهم ادعـــوا أصولا عربية بمرور الزمـــن(٧) .

وســـواء صحت هـــذه الأنساب ام لم تصـــح فإنهـــا كانت عـــاملا اساسيا وفعالا فى حياتهم ، فهم جميعا يتصرفون كمـــا لـــو كانوا عـــربا يتميزون عن غيرهم ولهم حـــق الحكم والسيادة(٨) .

وقـــد ذكر ابن حيان أن جمـــاعة من موالى الخلفاء الأمويين تسموا

---

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

(٦) ابن حيـــــان : المقتبس ص ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٣ وبعـــــدها .

(٧) انظـــر : المقتبس ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، نفـــح الطيب ج ٤ ص ٤٥ ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٠ ) .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٦ .

باسماء العرب فانكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أنفته ، ونهى عنه ، وكان له مولى من عتاقة أبيه يسمى محمد وولد له ولد سماه مسرور سمى به على جد الأمير فحسنت نشأته وتفقه وتعبد واشتهر فضله ، حتى ولاه عبد الرحمن القضاء بقرطبة . فتوفى بعد عام فى سنة ٢٠٨ هـ(٨) .

ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوى الخبر الذى ذكره ابن حيان بهذا فلسنا نعرف للعرب اسماء اختصوا بها دون الموالى .

ولو استعرضنا اسماء بيوت موالى بنى امية وغيرهم بالأندلس واسماء ذراريهم فإننا لا نجد فروقا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلص التى اورد لنا ابن حزم مئات النماذج منها فى الجمهرة .

كما اننا لا نجد فى المصادر الأندلسية ما يدل على ان امراء وخلفاء بنى امية قد ضاقوا ذرعا بذلك فيما عدا هذا الخبر الذى ساقه ابن حيان وما اكثر ما نجد حتى فى الأسر الأسبانية الأصل التى اسلمت من يتسمون باسماء إسلامية كمحمد وابى بكر وغيرها دون أن يكون ذلك غريبا أو مستغربا . إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالى الذين تسموا باسماء عربية قد ادعوا نسبا عربيا كما حدث من بعض الموالى وخاصة الفرس فى المشرق فى العصر العباسى الاول ووجد ذلك مقاومة عنيفة من العرب . مثل ابى مسلم الخراسانى الذى ادعى انه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس(١٠) .

---

(٩) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٧ .

(١٠) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٩٧ .

## رابعـــا : العنصر الإســـبانى

يذهب الكثيرون إلى أن الأصـــول القـــديمة لسكان إسبانيا تعـــود إلى مزيج من عنصرى السلت ( الكلت ) ، والإيبيريين(١) . فقـــد توالى على هـــذه البلاد الكثير من الغزاة . حيث غزاها الفينيقيون فى القـــرن العاشر ق.م ، واطلقـــوا على الشاطىء الـــذى نزلوا عليـــه اسم Ischepan- im ( إسبانيا ) أو شاطىء الارانب . واسسوا عـــدة مستعمرات ومدن ، من اشـــهرها مدينة قادس التى لا تزال إلى اليـــوم هنـــاك كما غزاها اليـــونان فى القرن الخامس قبـــل الميلاد ، واطلقـــوا على ســـواحلها اسم إيبيريا .

ثم ما لبث ان اطلق هـــذا الاســـم على شـــبه الجزيرة كلها . كما خضـــعت هـــذه البلاد فى هـــذا القرن ايضـــا للقرطاجنيين الذين اسســـوا فيها مدينة ( كرتا جونوفا ) أى قرطاجنة الجـــديدة التى اتخـــذوها عاصمة لهم . وهكذا شهدت هـــذه البلاد منذ سنة ٥٣٥ ق.م وحتى سنة ٢٠٥ ق.م تأثيرين : احـــدهما أوربى عن طـــريق العنصر السلتى واليـــونانى والآخر آسيوى إفريقى أو سامى عن طريق العنصر القرطاجنى .

ثم تحـــول هـــذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عنـــد مجىء الرومان سنة ٢٠٥ ق.م ، حيث استولوا على البلاد من القرطاجنيين واسسوا مدينة Italica ( طالقـــة ) والتى تسمى باطقة . وهـــو اسم مشتق

---

(١) يذكر د. العبادى : ان العناصر السلتية Celtos جاءت من اوربا وان العناصر الايبرية Iberos جاءت من المغرب .

( انظر مجـــلة عالم الفكر ص ٣٤٣ العـــدد الثانى المجلـــد العاشر سنة ١٩٧٩ م ، المختار من عالم الفكر ص ٩٣ ) .

من كمة إيطاليا . ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا — كغيرها من ولايات الدولة الرومانية — من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التى تدفقت عليها منذ سنة ٤٠٩ م حيث اجتاحتها قبائل الالان ، والسويف ( السوابيون ) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريبا ، فاستقر السويف وقسم من الوندال فى جليقية واشتوريش ، ونزل الآلان فى لشدانية ( البرتغال حاليا ) ، وأقام معظم الوندال فى باطقة وجزء من شرق الأندلس ، ثم جاء القسوط الغربيون بزعامة آطاوولف فانتزعوا برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ م واتخذوها مقرا لهم ، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب سنة ٤٢٩ م ، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza ( ٧٠٠ م ) الذى اغتصب رودريك ( لذريق ) حاكم باطقة الملك منه ، مما ادى بأبنائه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جوليان ( يليان ) حاكم سبته وحثهم على فتح الأندلس(٢) .

وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح ، وكان لسياسة التسامح التى سار عليها الفاتحون أثر كبير فى ذلك ، بالإضافة إلى

---

(٢) انظر بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ص ٩٣ ترجمة امين تكلا القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، دائرة معارف الشعب كتاب الشعب ٦١ ص ٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٥١ — ٥٦ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥ وبعدها .

د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، على إسلام : اسبانيا والاندلس ص ١٨ .

د. إبراهيم طرخان : دولة القوط الغربيين ص ٣١ القاهرة سنة ١٩٥٨ . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦ .

ما وجـده هـؤلاء من مبادئ وقيم نبيلة فى الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمـان ، كما دخل بعضهم فيه لمصالح شخصية . وقـد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسالمة أو الأسـالمة . أما الذين بقوا منهم على دينهـم فقـد عرفوا باسم العجم(٣) .

وقـد اعتبروا أهـل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين فى مقـابل حمايتهم والدفاع عنهم داخـل دولة المسلمين بالأندلس فقـد أمنهم موسى ابن نصـير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية(٤) وكان لهـم رئيس يلقب بالقومس . وكان أول من تولى هـذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الداخل رجـل يسمى أرطباس . وكان كما ذكر ابن القوطية « من عقـلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار » ، كما كان هناك قمامسة محليون ينتخبهم النصارى لكل مدينة ، كما كان لهم قاضى يعرف بقاضى العجم أو النصارى يفصل فى منازعتهم ، وكان أول قاضى لهم حفص ابن عبد البر وكان يتبع القـوانين القوطية فى الحكم بينهم(٥) .

وقد أطلق على النصارى الإسبان الذين عاشروا المسلمين ، واختلطوا بهم ، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا فى الإسـلام اسم ( المستعربين ) وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد فى السنوات الأولى من الفتـح

---

=

وقـد أنكر د. مؤنس إتصال أبناء غيطشة بالعرب وحثهم على غزو الأندلس فى ص ٥٦ ثم عاد بعـد ذلك فى ص ٦٤ ورجـح اتصالهم . ( انظر : فجر الأندلس ص ٥٦ ، ٦٤ ) .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٢ ، د. العبادى : مجلة المختار من عالم الفكر ص ٩٦ .

(٤) الرسالة الشريفية ص ١٩٩ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٠ .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ ، ٣٨ ، ص ٥ .

غير ان اعـداداهم اخـذت فى التناقص بدخول الكثيرين منهم فى الإسلام حتى اصبحوا اقليـة بالنسبة للمسالمة . وقـد تمتـع اهـل الذمـة بحريتهم الدينية ، وعاشوا إلى جوار المسلمين فى حـرية وأمان وسـلام فى احياء خاصـة(٦) .

والكتاب الذى كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعـد فتحها سنة ٩٤هـ خير شاهد على ذلك ونصه :

« بسم الله الرحمـن الرحيم ، كتـاب من عبد العزيز بن موسى ابن نصير لتـدمير بن عبدوش انه نزل على الصلح ، وان لـه عهد الله وذمته وذمة نبيه ﷺ الا يقدم له ولا احد من اصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع عن ملكه ، وانهم لا يقتـلون ، ولا يسبون ولا يفـرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبـد ونصح وادى الذى اشترطنا عليه ... الخ »(٧) .

وقـد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم أرضـهم يزرعونها ويدفعـون خراجها وتركوا لهم كنائسهم ، ولم يستولوا عليهـا ما عـدا الكنائس التى قسموها بينهم وبين النصارى ليقيموا فيها مساجد جامعة . مثل مسجد رفينة الذى اقيم فى جـزء من كنيسة سانتا رفينة . وذكر ان عبد العزيز بن موسى بن نصير اقام فيهـا وذلك غير صـحيح والحقيقة انه اقام داره بجوارها وابتنى على بابها المسجد الذى قتل فيه .

---

(٦) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس : ص ١٣٠ .

(٧) الحميرى : صـفة جزيرة الأندلس ص ٦٢ — ٦٣ ، بغيـة الملتمس ص ٢٧٤ ، فجـر الأندلس . جـ ١ ص ٥٥ — ٥٦ ، د. لطـفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٢ — ٢٣ . وهنـاك اختلاف طفيف فى بعض الفـاظ هذه المعاهدة لدى بعض المصادر .

ومثل جامع قرطبة الذى اقيم فى شطر من كنيسة شنت بنجنت ، وكان للنصارى اديرتهم مثل دير ارملاط فى الطريق بين قرطبة وإشبيلية ، ودير سان خـوان دى لابنيا الذى أقامه الراهبان فوتو وفيلكس فى عهـد عقبـة بن الحجاج السلولى شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية فى العصر الأموى مركزا اسقفيا هاما . وكان أول من تولى رئاسة أسقفية إشبيلية المطران المند بن غيطشة(٨) ، وكانت اصوات أجراس الكنائس تقرع جنبا إلى جنب مـع أصوات المؤذنين فى المساجد . ممـا يدل على مدى تسامح المسلمين ، وتركهم النصارى يمارسون شعائرهم بحرية تامة .

وقد وصف الشاعر ابو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقـد بات فيها ليلة مع بعض أصحابه فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور واستيناس .... وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعـه ، والقس قـد برز فى عيـدة المسـيح متوشـحا بالزنانير ابدع توشيح . »(٩) كما نظم ابن حزم أبياتا جـاء فيها :

**اتيتنى وهـلال الجـو مطلع ... قبيل قرع النصارى للنواقيس(١٠)**

وقد ظل النصارى الإسبان يتمتعون بحريتهم الدينيـة حتى جـاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها : فمنعوا قـرع النواقيس ،

---

(٨) ابن عـذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وبعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤ ، ٣٧ نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ . فجر الأندلس ص ١٣٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٣١ .

(٩) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٠) طـوق الحمـامة ص ٣٤٧ .

والزموهم بارتداء ثياب معينة ليتميزوا عن المسلمين ، والا يركب احد منهم فرسا ، والا يشترى مسلم منهم رداء إرتدوه . (١١)

ويبدو أن ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحى ( الاسترداد أو الاستعادة ) كما يسميها الإسبان ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم ومعاونة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد . ولذلك فقد نفى الموحدون كثيرا منهم إلى المغرب ليكونوا بعيدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضد المسلمين ، وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور هو أشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم .

ورغم ذلك فان أحوال اهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الأسبان المسيحيين بعد أن اخذت دولة الإسلام فى الأندلس فى الاضمحلال والسقوط ويكفى ذكر محاكم التفتيش وويلاتها كدليل على ذلك .

وبشهادة الكثير من المستشرقين فان المسلمين كانوا أكثر تسامحا مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يقول المستشرق الروسى بارتولد « ومهما يكن من شيىء فإن النصارى الذين عاشوا فى ظل حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى إسبانيا من الظلم والعدوان »(١٢) .

هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين ثقفوا باللغة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بالأندلس ،

---

(١١) ابن عبدون : آداب الحسبة ص ١١٢ — ١١٣ .
المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ طبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧ — ترجمة حمزة طاهر — ط ٥ دار المعارف بمصر د.ت.

مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف فى المدونات الإسبانية باسم ( ريسموندو ) ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة أصبغ بن عبد الله بن نبيل(١٣) ، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا بترجمة كثير من الكتب القشتالية ( الإسبانية ) إلى العربية والعكس بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية ، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين الثقافة العربية والأوربية ومن هؤلاء القاضى جيزون قاضى النصارى بقرطبة فى خلافة الحكم المستنصر ، وكان يقوم فى بعض الأحيان بدور المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان . (١٤)

وكما لعب المستعربون دوراً ثقافياً فقد لعبوا دوراً سياسياً هاماً بمحالفتهم للمولدين ضد العرب في عصر الأمير عبد الله . كما تجلى فى ثورة عمر بن حفصون (١٥) .

* * *

(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٢
(١٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٠
(١٥) أنظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٥٩ ، ٢٦٥.

## خامسا : عنصر المولدين

ويقصد بهذا العنصر الجيل الذى ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عربا أو بربر ، وامهات اعجميات سواء كن اسبانيات أو غير ذلك ، ونشا على الإسلام . فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر على مصاهرة أهل البلاد ، فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيات ، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم ، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولغته فى الأندلس ، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر بدماء أهل البلاد الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين . (1)

---

(1) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٨ ،
د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٤ .

اتصل بالعناصر العربية والبربرية فى الأندلس عنصران آخران هامان وهما المولدون ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج فى المجتمع الأندلسى المسلم اندماجا جعل بعضهم يدعون انسابا عربية ومن هؤلاء اسرة بنى مغيث الرومى الأصل ، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقى بن مخلد وابن حزم وابن سراج القرطبى . وكما كان للمولدين فضل فى خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضا واشتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصور بن أبى عامر الذى ناظر صاعدا اللغوى وانتصر عليه . ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعالون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب فى ذكر مفاخرهم وهو كتاب ( الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة ) .

ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتأليف فى دائرة الشعوبية وإن لم يكن فى صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بنى جنسه دون التهجم

علي غيرهم . ( نوادر المخطوطات ج ٣ ص ٢٤١ ) .

اما الميل الحقيقى للشعوبية فقد أخذ طابعه الكامل فى محيط المولدين، ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الإنسجام مع الإسلام ، على العكس من شعوبية المشرق حيث نرى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة فى اغلب الأمـر .

ويعد محمد بن سليمان المعافرى من اقطاب الشعوبيين فى الأنـدلس . ومنهم ابو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان معروفـا بشدة تعصبه للعجم والغض من شـأن العرب . ويلاحظ ان كلمة العجم عند شعوبيى المشرق تعنى الفرس فى المقيام الاول اما عنـد شعوبيى الأندلس فتعنى الإسـبان والروم .

ويبـدو انه لم يكن هناك نتاج ادبى للشعوبيين فى الاندلس إلا بعد زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيهـا المولدون والصقالبة ان يستأثروا بعـدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع صوت الشعوبية قويا .

ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبى عامر بن غرسية الذى عاش فى بلاط مجاهد الصقلبى ملك دانية ، والف رسالة فى تفضـيل العجـم على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوى صاحب المخصص الـذى يقول عنه الذهبى « وكان شعوبيا يفضل العجم على العرب » ... وكان منقطعا إلى الأمير مجاهد العامرى .

( انظـر الرسـالة والرد عليهـا فى نوادر المخطـوطات القسم الثالث ص ٢٤٦ — ٢٣٠ ) .

وقد كان هـذا الجيل يشكل على عهد امراء بنى امية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الاندلس وإهل البيوتات منهم ، وكان فيهم من يدعى نسبا فى المشرق يرى فيه تعظيما لشأنه مثل إبن حزم ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الاندلس « انـه كان من غرائبه إنتماؤه فى فارس ، وإتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر » (٢)

كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل : بنو انجلين ، وبنو القبطرنة وبنو ردلف ، وبنو مردنيش ، وبنو غرسية ، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والثغر الأعلى . (٣)

وفى كتب التراجم الاندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين ابو بكر بن القـوطية صاحب كتـاب ( تاريخ افتتاح الاندلس ) .

وقد كان جل أمراء الاندلس وخلفائها من اصـل مولد تجـرى فى عروقهم دمـاء غير عربية وبخاصة الـدم الإسبانى من جهـة الامهـات أو الجـدات ، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولـد بربرية تسمى راح أو رداح ، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حـلل أو حـوراء ، وكان الحكم بن هشام من أم ولـد تسمى زخـرف ، وكان عبد الرحمن الناصر من ام ولد تسمى مزنة ، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من ام ولـد بشكنسية تدعى صبح ، وغير هؤلاء كثيرون(٤) .

---

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ج١٢ ص ٢٥٠ نشر أحمد فريد رفاعى .

(٣) انظر فى ذلك ابن حيان : المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس ص ١٦ وبعـدها نشر ملثور انطونيه ، باريس سنة ١٩٣٧ ، وجمهرة انساب العرب ص ٤٦٧ .

(٤) انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ـــ ١٦٠ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١١ ـــ ٣٨ الضبى : بغيـة الملتمس ص ١٢ ـــ ٣٣

ومع ان هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام ، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على الاندلس ، إلا ان الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بنى جلدتهم من العجم او النصارى ضد العرب والبربر معا(٥) .

ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت فى المدن الهامة مثل طليطلة التى كانت تضم أكبر طائفة منهم ، وكانت مركزاً من اهم مراكز عصبيتهم ، وقد ظهر ذلك فى الحركات الثورية المتعددة التى قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة .

وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معاقلهم . حيث كانوا يمثلون اكبر طائفة من سكانها ، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء(٦) .

وقد انتهز هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بنى امية فى عهد الأمير عبد الله فثاروا فى عدة نواحى من الأندلس ضد السلطة المركزية وكان من اخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذى تغلب على ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذى عرف بابن الجليقى — نسبة إلى جليقية — « وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب »(٧) كما ثار يحيى بن بكر بن ردلف فى شنت مرية باشكونية(٨) .

---

(٥) عنان : دولة الإسلام — العصر الأول القسم الثانى ص ٢٧ هامش ١
(٦) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ — ١٣٠ .
(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٥ — ١٦ .
(٨) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٤١٧ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤١٥

وقد كان من شأن كثرة إبناء هذا الجيل المولد إنتشار اللغة العجمية أو اللطينية — كما يسميها المؤرخون العرب — بين الأندلسيين من عرب وبربر ، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانثية ( الاسبانية الحديثة أو العامية ) واختلاطها باللغة العربية(٩) .

وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات والأزجال(١٠) .

* * *

(٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٥ ، د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٧٧ ، البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٣١ — ٣٢ .

(١٠) عن الموشحات والأزجال راجع : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها ، د. عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧م د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة عدد ٣١ ، صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ترجمة د. عبد الحميد شيحة . دار الآداب بالقاهرة سنة ١٩٩٠م .

## سادسا : اليهود

شكل اليهود عنصرا من عناصر السكان فى المجتمع الإسبانى قبل الفتح الإسلامى ، وقد عانوا كثيرا من إضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إسبانيا ، وخاصة بعد القرارات التى إتخذها المجلس الكنسى فى مدينة البيره سنة ٣٠٣ - ٣٠٤ م ، ثم أزداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسى الذى عقد فى طليطلة سنة ٥٨٩م وقدم فيه الملك ( ريكاردو ) الذى كان يكره اليهود عدة اقتراحات المجلس تتلخص فى : منع استخدام اليهود للمسيحيين فى اى عمل ، وعتق اى عبد مسيحى مملوك ليهودى ، ومنع زواج المسيحيات من اليهود ، ومنع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة أملاكه ، وطرد اليهود من مناصبهم فى الحكومة ، وعدم تعيينهم مستقبلا ، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم فى مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع .

وقد وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها ، ثم جاء الملك ( سيسبت ت ٦٢١ م ) فضيق الخناق عليهم أكثر واكثر وخاصة فى إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية او الرحيل عن إسبانيا ، فهاجر الكثير منهم وبقى البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية حرصا على نفسه واملاكه .

ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم المسيحية سرا . وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترين Judaizantes . ثم جاء عهد الملك (سوينتالا) فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبا للمسيحية كسلفه، فانتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنا . ولكن بعد موته جاء الملك ( سيسناند ) الذى طلب من المجلس الكنسى تجديد

القرارات السابقة الخاصة باليهود . وفى سنة ٦٣٣ م جدد المجلس قراراته السابقة وأضاف إليها قرارات أخرى منها :

١ — إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة لتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية .

٢ — تسليم اليهودى ، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبدا لـه .

وفى عهد الملك ( كانتيلا ) قرر المجلس الكنسى بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يعودوا لدينهم مرة أخرى ، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك فلما مات واعتلى الملك ( سوانيد ) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائرها علنا . ثم أرغم اليهود فى عهد الملك ( إرفيج ) على التنصر وأصدر أمرا — عن طريق المجلس الكنسى بطليطلة — بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان ، ثم أصدر الملك ( إخيكا ) صهر إرفيج أمرا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدا عندهم ، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتق يهوديا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم . (١)

وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذى لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعا بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذى قام به اليهود ومارسوه فى المجتمع الإسبانى وغيره من مجتمعات أوربا . ولذلك ذكر أنهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الأندلس ، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد

---

(١) انظر د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ١٣ — ١٧

ان يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم الاندلس ، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التى فتحوها تحت إمرة المسلمين . ولا يستبعد أيضا أن يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم(٢) .

ولما استقر المسلمون فى الأندلس تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحلمون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية . وكان لذلك أثره فى هجرة الكثير من يهود أوربا إلى الاندلس بعد فتح المسلمين لها .

وكان اليهود يتجمعون فى عدة مدن بالاندلس وعلى رأسها غرناطة التى كانت تزخر باكبر جالية يهودية ولذلك سميت ( اغرناطة اليهود ) ، ومنها مدينة اليسانة التى تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسى : إن سكانها كانوا من اليهود فقط ، واهلها اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البتة(٤)، ومنها أيضا قرطبة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة. وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التى تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل . وكانوا لثرائهم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوربا (٥) .

---

(٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ص ١٣٣ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ٢٣

(٣) السيد سالم : المرجع السابق ص ١٣٣ ، د. الطاهر مكى : دراسات اندلسية ص ٥٥

( ٤ ) وصف المغرب وارض السودان ومصر والاندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٥ . ط. ليدن سنة ١٨٦٦م .

(٥) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٨٢ .

ولذلك لعب اليهود دورا هاما في الأندلس في الحيـــاة الإقتصادية وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداى بن شـــفروط ( شبروط ) طبيب الخليفـــة الناصر الذى كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية ، وقام بدور هام في السفارة التى أوفدها قسطنطين السابع إلى الأندلس سنة ٣٣٨هـ ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار .

هذا وقد لعب اليهود دورا مهما في الحياة السياسية في زمن ملوك الطوائف وخاصة في مملكة غرناطة حيث وصل واحـــد منهم وهـــو ابن النغريلة إلى مرتبة الوزارة في دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، وغدا له من النفـــوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطـــرون على الكثير من مناصب الدولة نظرا لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذى أصبح صاحب الشرطة في أيامه ، كما وصل أبو الفضـــل بن حســـداى ابن شبروط إلى مرتبة الوزارة في مملكة سرقسطة(٦) .

وقـــد كان لليهود — مثل النصارى — نظام إدارى خاص بهم في الأندلس حيث كان لهم رئيس يتولى شئونهم يسمى ( الناجد ) أو الحاخام

---

(٦) د. محمد عبد المجيد : اليهود في الأندلس ص ٢٢ — ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٢٢ د. الطاهر مكى : دراسات أندلسية ص ٥٤ وبعـــدها ، على محمد راضى : الأندلس والناصر ص ٧٦ . وابن النغريلة : يدعى صموئيل هاليفى ويسمى في المصادر الأندلسية إسماعيل أو أشموال وهـــو من أهـــل ماردة ، ولـــد في قرطبة ، وتتلمذ في الدراسات اليهـــودية على يد أبى حنـــوك ابن موسى رئيس الطائفـــة اليهودية بالأندلس ، ودرس الفلســـفة على يحيى بن داود وتعلم العبرية واللاتينية والعربية ، واســـتطاع

=

الأكبر . وكان من أشهرهم فى عهـد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداى ابن شـبروط(٧) .

ولم يكن لليهود حضارة أو ثقـافة تذكر بالأندلس قبـل الإسلام ، ومن نبغ منهم فإنما كان ذلك فى ظـل الإسلام وتسامحه وتحت رايتـه . بدليـل أنهم فى أسـبانيا القوطيـة لم يكن لهـم مثلما كان فى الأندلس الإسلامية ، فتراثهم بالأندلس يعـد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافـة العربية التى نهلوا منها ، ولذلك عنـدما أخـذ حكم المسلمين فى الزوال من الأندلس نضبت العقليـات اليهودية ، ولم يظهر لهـم تراث ممـاثل إلا خـلال عصر النهضة فى أوربا(٨) .

لقـد تمتع اليهود فى هـذا العصر الأموى بكثير من ألوان التسامح لم يظفروا به خـلال حـكم القوط ، ولا غـرو فقـد غدوا عنصرا هاما فى الإدارة والتجارة والصيرفة كما أسندت إلى الكثير منهم مناصب هامة فى الدولة ، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم(٩) .

---

أن يسيطر هـو وابنه يوسـف من بعـده فى دولة بنى زيرى فى غرناطة فتولى بيت المـال والوزارة ، كما تولى ابنـه مرتبـة الوزارة أيضا ولابن النغريلة كتاب طعن فيه فى الإسـلام والقرآن الكريم وقـد رد عليـه ابن حزم الأندلس فى رسالة نشرها فى القاهرة د. احسان عباس سنة ١٩٦٠ م بعنوان ( رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهـودى ) .

(٧) اليهـود فى الأندلس ص ٢٤ .

(٨) اليهـود فى الأندلس ص ٤٤ ، ٥٢ .

(٩) الإسـلام فى أسـبانيا ص ٣٤ .

## سابعا : الصقالبة(١)

كان لفظ صقلبى يطلق فى القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) بالأندلس على الرقيق المجلوب من أوربا ، وكذلك من المناطق الشمالية فى إسبانيا . فقد ذكر ابن حوقل الذى زار الأندلس فى هذا القرن ان الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ، ومن إيطاليا ،

---

(١) يرجع الصقالبة فى أصلهم إلى الجنس الآرى ( أو الهندو أوربى ) . والمعروف انهم نزحوا من آسيا ، واستمروا يتوسعون فى أوربا حتى القرن العاشر الميلادى حيث ظهرت قوتهم ، وظل مستواهم الحضارى ضعيفا بالنسبة للشعوب التى اصطدموا بها . وقد انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلدانا مختلفة مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ السلاف الجنوبيون : ( اليوجسلاف ) فى الجنوب والوسط ويشملون البلغار والصرب والكروات والسلوفينيين ( سكان سلوفينيا ) .

٢ ـ السلاف الغربيون : فى بولندا وبعض أجزاء من المانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا .

٣ ـ السلاف الشرقيون : أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار فى الوسط والشمال ، والروس الصغار فى الجنوب ، والروس البيض فى الغرب ( انظر : محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ٢٧٨ ، د. سهام أبو زيد : تاريخ الصقالبة فى مصر الإسلامية ص ١٤٤ مجلة كلية الدراسات الانسانية العدد التاسع سنة

ومن قطلونيه وجليقية فى شمال إسبانيا(٢) .

وقد اطلق الجغرافيون العرب هذا الأسم فى العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الإدرياتى غربا(٣) . فيشير المسعودى إلى أن الصقالبة أجناس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود(٤) .

ولقد دابت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبى الكثير من أفراد تلك الشعوب ، وبيعها إلى المسلمين فى الأندلس ، ولهذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد ، ثم حور اللفظ فى العربية إلى

---

١٩٩١ م ) ، د. أحمد العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ١٢٥ مجلة المختار من عالم الفكر الكويت سنة ١٩٨٤ م ) .

وقد غلب على هذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلاف Sclaves فعربهـا العرب إلى صقلبى التى ترادف عبد Slave وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى فى لغاتهم Sklave بالانجليزية ، Esclave بالفرنسية Slavary بالالمانية

( جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٣٣ — ٣٤ ) .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٣٣ ، المختار من عالم الفكر ص ١٢٥ .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٥ وبعدها ، التنبيه والإشراف ص ٥٦ .

صقالبة وتوسع فى استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض المجلوب من أية أمة مسيحية(٥) .

وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالا من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة ويربون تربية عسكرية ، ويدربون على الخدمة فى القصور ، والانخراط فى سلك الجندية ليكونوا جنودا فى الحرس أو الجيش . وكان المستخدمون منهم فى القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحريم ، وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ، ولهم معامل خاصة للخصاء فى أوربا ـ وخاصة فى فرنسا ـ ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان بمنطقة اللورين ، وكذلك فى الأندلس ـ وخاصة فى مدينة خلف بجانة وهى شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة ـ وكان معظم أهلها من اليهود(٦) . وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التى يحرمها الإسلام . ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم من الرقيق . يقول ابن حوقل « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم

---

(٥) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٦٢١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١١٠ عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥٣ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦ . ومن المتعارف عليه أن الروم البيزنطيين كانوا أول من قام بعملية الخصاء . ( الحيوان ج ١ ص ١٢٥ ) ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

تجــار اليهــود »(٧) .

وقــد تميز الخصيان من الصقالبة بعــدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال : « والخصى اجــود خــدمة ، وافطن لأبواب العطاء والمناولة ، وهــو بها أنفق ، ولهــا اليق ، ونجــده ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة . والصقلبى سلس القياد لبراعته من وعــورة العصبية » ويبدو ان الجاحظ قــد حكم فى ذلك على من شاهده فى بغــداد منهم حيث كانوا قلة غير متعصبة بخــلافهم فى الاندلس حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضــد العرب وخاصة فى الجزائر الشرقية التى استقل بها الامير مجــاهد العامرى بعــد سقوط الخــلافة الأموية وكان معظم سينيكايها منهم . كما أنهم مشهورون بالصبر مــع طول الركوب ، حتى فاقوا الترك فى ذلك ، كما انهم يجيدون الرمى بالنشاب إجادة تامة .

كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يتقنــون من الصناعات إلا صغارها ، ويجيدون الضرب على الأوتار . ولكن هذا الرأى لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخــذ به كقاعدة عامة بدون استثناء . وشبههم ايضا بالحمام الابيض وشبه الزنج بالحمام الاسود(٨) .

وقــد اشتهروا بحسن الخــدمة كمــا يستدل على ذلك من قــول الخوارزمى « ويستخدم التركى عند غيبة الصقلبى »(٩) .

كما اشــتهروا بالشــدة والمراس فى الحروب يقــول ابن عبدون

---

(٧) صورة الأرض ص ١٠٥ — ١٠٦ ، احمد امين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٨٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .

(٨) الحيوان ج ١ ص ١١٦ — ١١٧ ، المحاسن والمساوىء ج ١ ص ٣٩٦ .

(٩) يتيمــة الدهــر ج ٤ ص ١١٦ .

« ومن اراد العبيد لحفظ النفوس والاموال فالهند والنوبة ، ومن ارادهم للكد والخدمة فالزنج والارمن ، ومن ارادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة »(١٠).

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرسا خاصا له فجلب منهم خمسة آلاف واطلق عليهم اسم الخرس لعجمتهم(١١) . ثم اخذت اعدادهم فى الازدياد وخاصة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل فى قرطبة وحدها فى عهده نحو ثلاثة عشر الفا وسبعمائة وخمسين(١٢) .

وقد نبغ عدد كبير منهم ، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة فى الإدارة والجيش وخاصة فى عهد الناصر مثل نجدة الصقلبى قائد الجيش ، والدرى صاحب الشرطة ، وافلح صاحب الخيل ، وخلف مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ ، وقند حاكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ(١٣) .

---

(١٠) رسالة نافعة فى شرى الرقيق ( نوادر المخطوطات(٤) ص ٣٥٢ ) .

(١١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ . اطلقت عليهم عدة أسماء اخرى مثل الابناء ، والفتيان ، والخلفاء ، والعلوج ، والمجابيب ، والماليك إلى جانب الخرس ، والصقالبة .

(١٢) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٦ . وهذا الرقم مختلف فى تقديره فبعضهم يصل به إلى خمسة عشر الفا أو يزيد ، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لاعدادهم إلا ان ذلك يدل على ظهور عنصر جديد فى المجتمع الاندلسى كان له دور واثر مماثل أو مشابه للعنصر التركى فى المشرق .

(١٣) د. العبادى : الإسلام فى أرض الاندلس . مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣١٢ .

كما استكثر الحكم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم ، وكثروا فى البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى راسهم فائق وجوذر اللذين كان لهما دور كبير فى عهد المستنصر وابنه هشام .

وقد نبغت طائفة منهم فى العلم والادب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى تليد .

وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلبى بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه ( الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة ) (١٤) .

وقد ذهب الكثيرون إلى ان الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربى والبربرى ، وإضعاف سيطرتهما على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها فى الثورات ضد الأمويين .

ويبدو ان الامويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التى قام بها العرب والبربر ضدهم ، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربى والبربرى فازادوا الأعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سندا لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركى بعد ان ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربى والفارسى .

إلا ان ذلك قد ادى إلى ازدياد المنافسة والعصبيات بين عناصر المجتمع فبدلا من أن يكون الصراع بين عنصرين اساسيين هما العرب والبربر اصبح بين عناصر ثلاثة مما كان له اثره فى المجتمع الاندلسى من نواحى شتى .

---

(١٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٧ .

ومثال ذلك أنه عندما ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلبى قيادة الجيش المتوجه لقتال ملك ليون ( راميرو الثانى ) سنة ٣٢٧هـ فى موقعة الخندق عند مدينة شيمانقه هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة ، وفر الناصر بنحو خمسين فارسا فقط بعد ان نجا باعجوبة ، حيث قيل إن سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب الذين كانوا فى الجيش لتولى قيادته صقلبى ، وتقديمه الصقالبة عليهم مما جعلهم يتركونه وحده فأدى ذلك إلى هزيمته . ويقول صاحب اخبار مجموعة عن هذه الموقعة « إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه »(١٥) .

وقد لعب الصقالبة دورا هاما فى الحياة السياسية بالاندلس فى هذا العصر حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم ، وشاركوا مثل البربر فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها . وكان من اشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبى .

كما كان لهم دور ايضا فى الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فاتن الصقلبى الذى برع فى الأدب وناظر صاعدا العالم اللغوى عند المنصور بن أبى عامر فأفحمه وأعجب به المنصور ، ويذكر انه وجد فى تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط . كما الف الأمير مجاهد الصقلبى صاحب دانية كتابا فى العربية يدل على قوته فيها(١٦) ويذكر ابن الأبار أن حبيبا الصقلبى الف زمن هشام

---

(١٥) اخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٤٥ — ١٤٦ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٩ ، تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣٨٠ .

(١٦) الضبى : بغية الملتمس ص ٤ .

المؤيد كتابه ( الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة ) يتعصب فيه لقومه . وذكر ابن بسام انه اطلع على هذا الكتاب الذى احتوى على جملة من أخبارهم ونوادرهم واشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شيىء منها فى كتـــابه الذخيرة حيث قال « وشــــعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنــا »(١٧) .

كما كان لهؤلاء الصقالبة اثر ايضا فى الحيـــاة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليــدهم وفنونهم ، وقــد اشـــار الطرطوشى إلى اختصاصهم بأنـــواع من الالحـــان والرقصات الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقلبى والرقص الصقلبى الذى يذكرنا بشيىء منه الرقص الإسبانى الحـديث ( الفلامنجو )(١٨) .

ولذلك يرى المستشرق الإسبانى خوليـــان ريبرا : أن الصقالبـــة كانوا يمثـــلون العنصر الاوربى فى المجتمـــع الأندلسى ، وعـــن طـــريقهم انتقلت بعض الصـــور الشعرية التى شـــاعت فى الاندلس إلى البيئات الاوربية واثرت فيهـــا(١٩) .

ويبدو أن الصقالبة كانوا يعتبرون انفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيرا بالعناصر الاخرى ، وحاولوا المحافظة على كيانهم الخاص ممـــا بعث فيهم النزعـــة العنصرية اكثر من غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا اساس الحركة الشعوبية فى الأندلس تلك الحركة التى انبعثت من الإمارات الصقلبية فى عصر مـــلوك الطـــوائف ، حيـــث اســـــتطاع الصـــــقالبة

---

(١٧) الذخيرة فى محاسن اهـــل الجزيرة ج ١ ق ١ ص ٢١٠ .
(١٨) الحواد شوالبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبى تونس سنة ١٩٥٩ م .
(١٩) الإســـــلام فى إســـبانيا ص ٣٨ .

أن يستاثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك فى شرق الأندلس وخاصة فى بلنسية ، وطرطوشة ، ودانية ، والمرية ، ومرسية .

وكانت هــذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطــة تحالف وولاء عنصرى وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية تمييزا لهــا عن الدولة العامرية التى أسسها المنصــور بن ابى عامــر . لأن أصــحابها كانوا من مماليـــك العــامريين (٢٠) .

وممــا يدلنا على نزعـــة الصقالبة الشعوبية ضـــد العرب كتــاب ابن حبيب السابق ذكره والذى اعتبره البعـــض البـــداية الأولى للشعوبية فى الأندلس ، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليــوم وهى رســـالة أبى عامر بن غرسية (٢١) إلى الشاعر ابى عبد الله الحــداد أو ابى جعفر الخراز والتى يفضل فيها العجم على العرب (٢٢) .

ويبـــدو أن السبب فى هـــذه النزعـــة الشـــعوبية بين الصقالبـــة بخاصة أن معظم أهالى الإمارات الصقلبية التى انتشرت فيها هـــذه النزعة

---

(٢٠) المختـــار من عالم الفكر ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢١) غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه فى الإسبانية صاحب الحيلة أو الثعلب أو المــاكر كما ورد فى معجم المجمع العلمى الإسبانى ، وهـــو اسم شائع فى أسبانيا تسمى به كثير من الملوك والأمراء ومنهم غرســية ملك البشكنش ، كما تسمى به بعض المحدثين ومنهم المستشرق الإسبانى إميليو جارسيا جوميز ( نوادر المخطوطات ص ٢٣١ ) .

(٢٢) اختلف فيمن ارسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون إلى انه ابو جعفـــر بن الخـــراز ، وذكـــر البعض انه ابو عبد الله ابن الحـــداد او ابو بكر بن الحـــداد .

كانوا من الموالى من الصقالبة والإفرنجـــة والبشكنس الذين رحب بهم الصقالبة فى ولاياتهم كما ذكر ابن حيان « بينمـا زهـدوا فى الأمـراء من العرب وأبنائهم ممن طرا عليهم فلم يواسوهم »(٢٣) .

* * *

---

= والأرجح انه ( ابو جعفر احمد بن محمد بن أحمد بن ســـهل الانصارى المعروف بابن الخراز ) . كما نص على ذلك ابن ســعيد فى ترجمتــه لابن غرسية ( المغرب جـ ٧ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ ) ، لانه ترجم لابن الحـــداد فى موضـــع آخر إذن فهما شخصان مختلفان ، ويبدو أن الاختلاف جـــاء من تصحيف بعض النساخ لقرب كلمتى الحـــداد والخراز من بعضهما ( انظر نوادر المخطوطات ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ) . وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هــذه الرسالة فى نوادر المخطــوطات ( جـ ٢ ص ٢٤٦ — ٢٥٤ ) والــردود عليهـا من المعاصرين لابن غرسية من العرب ، وغير المعاصرين .

وابن غرسية من أصل مسيحى بشكنسى اسلم واتقن العربية وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش فى مملكة دانية الصقلبية وخــدم فى بلاط مجاهـد العامرى الصقلبى وابنه على ولذلك تعصب ضـد العرب فكتب رسالته هــذه . ( انظر : نوادر المخطوطات جـ ٣ ص ٢٣٢ ) .

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث ورقة ٣ أ نقلا من المختار من عالم الفـــكر ص ١٢٩ .

## ثامنـا : النـورمان ( الفـايكنج )

وهنــاك عنصر آخر فرض نفسه على الاندلس منذ عهد عبد الرحمن الاوســط بغاراته البحرية على شواطئها فى فترات عــديدة من العصر الاموى . ويسمى هــذا العنصر فى المصادر العربية باسم ( النورمانيين ، والأردمانيين ، والمجوس ) وهو تحريف للكلمة الانجليزية Norsemen او الإســبانية Normandes وتطلق على اهل الشمال من الدول الاسكندنافية أو سكان اسكندناوه(١) .

ولا تزال توجــد فى فرنسا حتى اليوم ولايــة او مقاطعــة تحتفظ باسمهم وهى نورماندى او نورمانديا حيث استقروا بها فى أوائل القــرن العاشر الميلادى بموجب معاهــدة بين ملكهم رولو وملك فرنســا شارل الثالث الملقب بالابله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على ســواحل فرنســا كمــا اقامت جماعة منهم فى جنوب إيطاليــا ، واستخدمتهم الكنيسة فى محاربة المسلمين فى الأندلس وصقلية ، فقد هاجموا الاندلس سنة ٤٥٦هـ واستباحوا مدينة بربشتر شمال شرق سرقسطة،وهاجموا صقلية بعد ذلك

---

(١) المختار من عالم الفكر ص ١٣٠ . وتسمية معظم المصادر العربية لهم بالمجوس لا تعنى انهم من جنسهم الفارسى ، وإنما إعتقادا منهم بأنهم كانوا يعبدون النــار وهو اعتقاد خاطىء ، حيث كانوا إذا ما نزلوا فى مكان خربوه ونهبوه واشــعلوا النار فيه مثل القراصنة ، كمــا كانوا يحرقون جثث موتاهم فظن هؤلاء المؤرخون انهم يعبدون النار مثل المجوس ، ولعلهم قصدوا من هذه التسمية أنهم وثنيــون حيث كانوا يعبدون النجوم ومظاهر الطبيعة وقد ذكــر ا. احمد امين انهم سموا بذلك لانهم كانوا مجــوسا قبــل أن ينتصروا ( ظهر الإســلام ج ٣ ص ١٠٨ ) . ولكن ليست هناك ادلة على ذلك .

سـنة ٤٦٤ هـ (٢) .

وكان موطنهم الأصلى فى المناطق المحيطة بالبحر البلطى ( بحر البلطيق ) ، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون ( سكان دنماركة أو دانمارشة ) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل الأندلس وسواحل المغرب أيضا .

وكانت بداية غاراتهم البحرية على الأندلس فى سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م فى عهد الأمير عبد الرحمن الثانى ( الأوسط ) . وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة ، والأسهم النارية التى يطلقونها ، والأشرعة السوداء التى تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون (٣) .

وقد استطاعوا فى أولى غاراتهم هذه التى استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عدة أيام ، بعد أن هاجموا أشبونة ( لشبونة بالبرتغال حاليا ) ، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى

---

وأما تسميتهم بالفايكنج فانها مشتقة من كلمة Vik النرويجية . وتعنى ساكن الخلجان .

ولهذا أطلق هذا الإسم على سكان شبه جزيرة إسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وورد فى المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعنى المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين ( الأمويون أمراء الأندلس ص ٣١٨ ) .

(٢) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى حـ١ص٣٢٧ — ٣٢٩، المدنى : المسلمون فى صقلية وإيطاليا ص ٣٠ — ٣١ د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٠٨ .

(٣) إبن عذارى : البيان المغرب حـ٢ ص ١٣٠ ، د. عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٢١٠ وبعدها ، د. الحجى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

استطاع الاسطول الأندلسى الناشىء الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على اعقابهم . وقد قاموا بعد ذلك بعدة غارات على الاندلس فى سنة ٢٤٥ هـ ، سنة ٢٤٧ ، سنة ٣٥٥ هـ ، سنة ٣٦٠هـ، سنة ٣٦١ هـ (٤) .

غير أن عددا كبيرا منهم لم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم اثناء الإنسحاب ، فوقعوا اسرى فى يد المسلمين ، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام ، وسكنوا ضواحى إشبيلية ، واختلطوا بأهلها ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات ، وصناعة الأجبان — التى يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم . (٤)

فيحدثنا المقرى نقلا عن المؤرخ الحجارى — نسبة إلى وادى الحجارة — « أن مدينة شريس — وهى بنت إشبيلية ووادبها وابن واديها — اختصت بإحسان الصنعة فى المجبنات وطيب جبنها يمين على ذلك ، ويقول أهل الاندلس من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم » . (٥)

هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحى السياسية والحربية ، فضلا عن النواحى الاقتصادية والاجتماعية لمن اقام منهم بالأندلس .

فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين فى الأندلس إلى اهمية

---

(٤) د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٣١ ، د. الشعراوى : الامويون امراء الأندلس الأول ص ٢٢٠

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٤ والمجبنات : نوع من القطائف المحشوة بالجبن تقلى بالزيت . ( د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٣٣ هامش ١ ) .

إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان ، فارسل الأمير عبدالرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك ( هوريك ) سنة ٢٣٠هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال . (٦)

كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونبهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل الأندلس ، وبناء أسطول قوى يستطيع حمايتها من المعتدين ، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة فى تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية ، واقام نقاطا للحراسة على طول الساحل الغربى للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرابطون من المجاهدين ، واهتم بانشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنيقات والحراقات . وكان هذا ميلادا للبحرية الأندلسية التى استطاعت فيما بعد ان تسيطر على غرب البحر المتوسط (٧) .

كما تأثر الأندلسيون بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها

---

(٦) تحدثت عن هذه السفارة بالتفصيل فى بحثى عن السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية ص ١٩ — ٢٠ .

(٧) إبن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٦٧ . يرجح أن يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى إستخدام الحراقات أو النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التى ترمى سنة ٥١٦م ، ثم أدخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى ( كالينكوس ) وكان من أصل سورى ثم اقام فى القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة اثناء حصار المسلمين لها سنة ٦٠ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ، ونتج عنه إنسحاب الأسطول العربى عن المدينة ( راجع

—

.. فى نهـر الوادى الكبير إستعدادا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكـان يطلق عليها اسم القراقير (٨) .

ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم فى إشبيلية واسـتقروا قـد ساهموا بخبراتهم فى صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة .

وقـد جاء فى كتاب الجغرافية - المنسـوب إلى أبى عبد الله محمد ابن أبى بكر الزهرى حوالى منتصف القرن السادس الهجرى - « أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهـل الأندلس يسمونها القراقير وهى مراكب كبـار بقلوع مربعة ، تجرى إلى أمامها وإلى خلفهـا ، وكان يخرج فيها أقـوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شـدة وبأس وقـوة وجلد على ركوب البحـر ، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم ، وكانوا أقل ما يخرجون فى أربعين مركبا ، وربما بلغـوا المـائة مركب ويغلبون كل من لقوه فى البحر ويسبونهم ويأسرونهم » . (٩)

كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت آثارا فى النواحى الأدبيـة والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين ، وظـل صداها مسموعا فى الأدب والتاريخ الأندلسى زمنا طويلا .

---

= لويس أرشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١٤ ) . وكان هـذا السلاح مكونا من مركب كيميائى من النفط والكبريت والقـار تقـذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفىء بالمـاء بل يزداد اشـتعالا . ( د. إبراهيم العـدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦ ، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص ٢٥٢ ) .

(٨) البيان المغرب جـ٢ ص ٣٥٦ والقراقير جمع قرقـور وهو السفينـة الطويلة العظيمة ( المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٧٣٦ ) .

(٩) كتاب الجغرافية ص ٢١٥ رقم ٢٤٠ نقلا عن د. الحجى : التـاريخ الأندلسى ص ٢٢٨ .

# الفصل الثانى

## العلاقات بين عناصر السكان

## اولا : الاختلاط بين الأجناس

كان فتح العرب للأندلس ــ كغيرها من البلــدان الأجنبية ــ سببا مهما فى حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم ، إختلاط فى الأنساب والدماء ، واقتباس فى النظم والعــادات والتقاليد ، وامتزاج فى العقيدة الدينية ، وامتزاج فى اللغة ، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية ، كما تعلمها كثير ممن لم يدخل فى الإسلام لأنها غدت لغة العلم والثقافة ، وسمى هــؤلاء بالمستعربين . Losmozarebes

وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هــذه العمليــة من اهمها : التعاليم السمحة والقيم النبيلة التى جــاء بها الإسلام ، وأدت إلى دخول الكثيرين فيه ، ثم الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد فى الســكنى والجوار ، والتعامل فيما بينهم فى كثير من نواحى الحياة . (١)

وقد أدت الفتوحات التى قام بها المسلمون فى الأندلس إلى دخــول الكثير من العبيد والإماء فى ملكهم بعد أن اصــبحوا اسرى لهم ، وبذلك اصبح لكل جندى منهم عــددا من الرقيق يستخدمهم فى قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء منهم فيصرن امهات اولاد ، ونتج عن ذلك جيل مولد لــه صفات مختلفة تجمع بين الجنسين ، وحدثت بعــد ذلك عمليــة اختلاط بشرية واسعة النطاق ، نظرا لأن المسلمين عندما دخلــوا الأنــدلس لم

---

(١) احمد امين : فجر الإسلام ص ٨٥ ط١٢ مكتبة النهضــة المصريــة سنة ١٩٧٨ م .

يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم(٢) ، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين ، ولهذا فانهم اضطروا إلى الإرتباط بعلاقات المصاهرة مع أهل هذه البلاد وخاصة الإسبان ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما أدى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين .

ولعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات — وإن كان يبدو فى بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال — يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الإجتماعية الهامة التى كان لها أثرها الكبير فى نواحى شتى .

ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات ، فقد تزوج من ( إيخلونا ) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتى تسميها المصادر العربية أيله وتكنيها بأم عاصم(٣) .

وحذا حذوه الكثير من العرب مثل زياد بن النابغة التميمى الذى تزوج من إحدى أميرات إسبانيا(٤) ، وعيسى بن مزاحم الذى تزوج من سارة القوطية بنت المند بن غيطشة فى دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أرطباش ، ثم قدمت معه إلى الأندلس

(٢) هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة ، مثل طارق بن زياد الذى ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها فى الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها ، وموسى بن نصير الذى اصطحب معه زوجاته وبناته كما يفهم من كلام صاحب الإمامة والسياسة (حـ١ ص٨١).

(٣) تذكر بعض المصادر أخرى أنها كانت إبنة لذريق ( انظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٤ ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥ ) .

(٤) البيان المغرب جـ٢ ص ٢٣ ، أخبار مجموعة ص ٢٠

بعد زواجهما وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق (٥) . ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسى المشهور بابن القوطية وهو ( أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ت٣٦٧هـ ) وقد روى ذلك فى كتابه ( تاريخ إفتتاح الاندلس ) .

وبعد وفاة عيسى بن مزاحم سنة ١٣٨ هـ تزوجت سارة من عمير ابن سعيد فولدت له ولدا يدعى حبيب وهو جد بنى سعيد وبنى حجاج وبنى مسلمة وبنى حجر الجرز وهم أشراف ولد عمير باشبيلية(٦) .

كما تزوج القائد البربرى ( مونوسه ) — الذى كان حاكما على شرطانية شمال إسبانيا واشترك مع القائد العربى عبد الرحمن الغافقى فى الفتح جنوب فرنسا — من ابنة الدوق ( أودو ) حاكم إقليم أكيتانيا وتدعى ( لامبجييه أو مينين )(٧) .

كما تزوج الأمير الأموى عبد الله بن محمد والى قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو ( انيجا ) المعروفة باسم در — إبنة ملك نافار ( فرتون ابن غرسيه ) المعروف بالانقر — والذى وقع فى أسر المسلمين ، وظل فى قرطبة نحو اثنين وعشرين عاما — وانجب منها إبنه محمد والد عبدالرحمن الناصر ، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة ( ت ٢٨٣ هـ ) — الذى تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله — من ابنة رومانوس قومس جنوب اسبانيا زمن القوط وتكنيها المصادر العربية بأم الوليد

---

(٥) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٧) انظر : تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

بنت خلف بن رومان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن إبن عيسى المحدث وقاضى الجماعة بقرطبة ٣٩٤ — ٣٩٥ هـ(٨) .

ولذا كان الناصر — كاكثر بنى أمية من المولدين بالأندلس — يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين ، ولذلك لقبوا فى الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر(٩) .

كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من بشكنسية تدعى ( أورورا ) وتعرف بصبح فى المصادر العربية ، وهى التى ولدت له ابنه هشام المؤيد الذى تغلب عليه المنصور بن أبى عامر ، واستطاع أن يصل عن طريقها إلى السلطان والنفوذ(١٠) .

كما تزوج المنصور بن أبى عامر من ابنه ملك نافار ( سانشو غرسية ) المعروف بشانجة ، وقد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ( عبده ) ، وانجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول فى المصادر العربية . حيث أطلقت عليه والدته اسم ( سانشويلو ) اى سانشو الصغير تكريما لذكرى والدها(١١) .

وتزوج مطرف بن موسى القسوى حاكم الثغر الأعلى ( سرقسطة

---

(٨) ابن حيان المقتبس ج ٢ ص ٧٦ ، ١٨٢ ، بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٦٠٣ ترجمة د. حسين مؤنس ، الصلة ص ٣٠٩ ، ترتيب المدارك ص ٢ — ٤ ، ص ٦٧١ .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥١ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٤ — ٢٥ ، مجلة عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، مجلة عالم الفكر ص ٦٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨ ، اعمال الأعلام ج ٢ ص ٦٦ .

وما حولها ) من الأميرة ( فلشكيطة ) بنت ستانشو ملك نافار ، كما تزوج اخوه موسى من أوربة بنت فرتسية ابن ونقه ملك نافار أيضا (١٢) .

وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأمراء والخلفاء والقادة ، فلا شك ان الكثيرين من العامة والجند قد فعلوا ذلك ، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ومما يدل على مبدى انتشار هذا الزواج المختلط وكثرته ، ما ذكره المراكشي حين قال : « وملأ المنصور بن أبى عامر الأندلس غنائم وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم . وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به ، ولولا ذلك لم يتزوج احد . بلغنى انه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينار عامرية »(١٣) .

وفى هذا المعنى أيضا يذكر ابن عذارى : انه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين ( مات الجلاب ، مات الجلاب )(١٤) وهى كلمة كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس ( بائع الرقيق ) ، واستعملت

---

(١٢) انظر عن نسب اسرة بنى قسى جمهرة انساب العرب ص ٥٠٢ تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف بمصر ، المختار من عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٣) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٢٤ مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٤) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٣ .

هنا بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبايا فى غزواته .

وقد حبب العرب والبربر فى هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات من جمال وبياض بشرة ، وصفرة شعر وزرقة عيون وهى صفات أحبوها كثيرا لأنها كانت جديدة عليهم »(٩) .

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشأ على الإسلام ، وتعلم العربية ، وأصبح يؤلف على عهد بنى أمية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنه تكونت جماهير الأندلسيين(١٠) .

وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة : منها : الجمال والذكاء والشجاعة ، وكان له أثره الكبير فى تاريخ الأندلس وحضارتها .

---

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢ ط ٤ مكتبة النهضة سنة ١٩٦٦ م .

(١٠) فى بعض الأحيان القليلة أو النادرة كانت تحدث زيجات عكسية ، حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الأسبان بزوجات لبعض المسلمين ، مثل زواج ونقة بن ونقة ملك نافارا من أرملة موسى ابن فرتون بن قسى أمير الثغر الأعلى بعد وفاته ، وزواج أحد حكام جليقية من جميلة أخت محمود بن عبد الجبار المصمودى البربرى الذى أعلن الثورة فى ماردة سنة ٢١٣ هـ على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء إلى جيليقية وبقيت أسرته هناك ، وقد أنجب منها ولدا صار أسقفا على مدينة شانت ياقب ( سانت يعقوب ) ( أنظر : المختار من عالم الفكر ص ٩٧ ) .

ونظرا لأنه لا يجوز لمسلمة أن تكون زوجة لغير مسلم فلابد وأن أمثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهن النصرانية بعد زواجهن بالمسلمين ، أو أنهن أجبرن على التنصر ، أو تحولن إلى المسيحية .

وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو انجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن انجلين احد زعماء المولدين بإشبلية فى عهد الأمير عبد الله(١١) وبنو شبرقة ومنهم على بن حسن المعروف بابن شبرقة ( ت حوالى ٣٠٠ هـ ) وكان من اهل بطليوس وبنى بها مسجدا على نفقته(١٢) . وبنو يليان ( جوليان ) حاكم سبته أيام الفتح ، ومنهم أبو عمر احمد بن سليمان بن ايوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن اليلكايش ابن اليان القوطى ( ت ٣٨٨ هـ ) وكان من مشاهير علماء قرطبة(١٣) ، وكذلك بنو الجريج ( جورج ) وبنو لنتق ، وبنو القبطرنه ( كابتورنو ) أى الرأس المستدير ، وبنو مردنيش ( مارتنيز ) ، وبنو غرسية ملوك البشكنس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الشعوبى الأندلسى المشهور ، وبنو ردلف ( رودلف ) ، وبنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى ( سرقسطة ) فى عهد بنى أمية ، وكان جدهم فرتون قومس الثغر فى عهد القوط(١٤) .

وهناك الكثير من المولدين ممن ينتسبون إلى اسر شهيرة ذات

---

(١١) ابن حيان : المقتبس ص ٧٤ نشر ملشور انطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .

(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٢١٢ ترجمة رقم ٩١٨ .

(١٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ترجمة رقم ٥٦٦ ، اعمال الأعلام جـ ٢ ص ٤٩ .

(١٤) انظر ابن حيان : المقتبس ص ١٦ ، ٧٤ .

أصـــول اسبانية نذكر منهم : أبا الفتح نصر بن أبي الشمول ( ت ٢٣٧ هـ ) الذي تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة(١٥) .

وأيوب بن عبد ربه السرقسطي الأصـــل وكان من المسالمة المولدين تولى قضـــاء اشبيلية(١٦) ، وعبد السلام بن بسيل الرومي وكان أحـــد مشاوري ووزراء عبد الرحمن الداخـــل . والعلامة الحافظ بقي بن مخـــلد ( ت ٢٧٦ هـ ) الذي يرجـــع إلي أصل اســـباني كذلك(١٧) . والأتشتين محمد بن عاصم ( ت ٣٠٧هـ ) وهو أول من الـــسف في طبقـــات الكتـــاب بالأندلس ، والفقيـــه أبو محمـــد الأصيلي ( ت ٣٩٢هـ ) ، وكان جـــده من مسالمة أهـــل الذمة وعمل أبوه وراقا للحكم المستنصر ، وأصـــله من شـــذونة أو من الجـــزيرة الخضراء(١٨) . وكذلك أحـــمد بن عبـــد الله القرطبي ، وهـــو ابن أخي قـــومس كاتب الأمير محمـــد وقـــومس هـــو ابن انتنيـــان بن يليـــانة النصرانية ، اسلم بعـــد ســـنة ٢٤٦ هـ واشـــتهر بكثرة العبـــادة حتى تســـمى بالسجاد العبـــاد حمـــامة المسجد ( مسجد قرطبـــة الجـــامع )(١٩) . وكان لـــه ابن يسمى عمر ابن قومس الكاتب ت ٢٩٨هـ(٢٠) .

وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبـــابة ( ت ٣٣٠ هـ ) المعروف بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام

---

(١٥) جمهـــرة انساب العرب ص ٩٦ .

(١٦) التكمـــلة ج ١ ص ١٩٨ ترجمـــة ٥٢٣ .

(١٧) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٧ ، ٥١٨ ، ج ٣ ص ١٦٨ ، بغية الملتمس ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ترجمـــة ٥٨٤ .

(١٨) ترتيب المدارك ص ٣ — ٤ ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٣ ..

(١٩) انظر : تاريخ علمـــاء الأندلس ص ٩ ترجمـــة ١١١٣ ، الخشني : قضاة قرطبة ص ٧٦ .

كمحمد هـذا واخيه احمد وعمر(٢١) ، وابو المطرف بن فورتش ( ٣٨٦ ) الذى تولى قضاء سرقسطة وكان منهـا ، وابو وهـب منتيل بن عنبسة ( ت ٣١٧ هـ ) ، وكان من أهـل وشقة ، وابو عمر بن قزلـيان القرطبى ( ٣٧٧ هـ ) . وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم الأندلسية . وحسبنا أن نتصفح هـذه الكتب لنجـد العـديد من أسماء الأمراء والقادة والفقهاء والكتاب التى تدل على اصـل اسبانى .

وقد كان من شأن كثرة أبنـاء هـذا الجيل المولد انتشـار اللغـة الرومانثية ( اللاتينيـة الحـديثة ) بين الأندلسيين ويسميها المؤرخـون العرب العجمية أو اللطينية . وعن طريقهم تداخلت العربيـة والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات(٢٢) .

ومع ان هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالاسلام ، ويتحدثون العربية ، ويتخـذون غالبـا نمط الحياة التى يتخـذها المسـلمون الوافـدون على الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تماما باعتبارهم منحدرين من أصول اسبانية فى الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية ، ولذلك فقد تعصب كثير منهم لأصلهم الأسبانى رغم إسلامهم ، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى ضد العرب ، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير عبد الله ، وثار بعضهم فى عدة أماكن من الأندلس مثل ثورة عمر بن حفصون فى ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجليقى فى ماردة وبطليوس الذى « كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » وثورة يحيى

---

(٢١) انظر تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٣٧ ، جـ ٢ ص ٥١ جـ ٢ ص ٣٥ تراجم رقم ١١٥ ، ١٣٣١ ، ١١٨٩ ، وجـذوة المقتبس ص ٩٨،٤٧ .

(٢٢) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٤٤٣ ، لطفى عبد البـديع :

(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، الإسلام فى إسـبانيا ص ٢٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٥٠ .

أبن بكر بن ردلف ( رودلف ) فى شنت مرية باشكونية(٢٣) .

وقد تألفت منهم جماعات كبيرة فى مدن الأندلس الهامة مثل طليطلة التى كانت من أهم مراكز تجمعهم — لأنها كانت عاصمة إسبانيا القديمة — إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من الثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الأموية فى قرطبة . ومن أخطر هذه الثورات تلك الثورة التى قامت فيها فى عهد الحكم الربضى سنة ١٨٩ هـ(٢٤) وكان يتولى أمرها أمراء مولدين مثل عمروس الوشقى ولب بن طربيشة . وكذلك كانت إشبيلية معقلا هاما من معاقلهم ، وكان المولدون فيها يعملون غالبا بالتجارة فجنوا أرباحا طائلة ، وكان كثير منهم من الأثرياء الذين أنفوا من العصبية العربية فتعصبوا ضد العرب لبنى جنسهم(٢٥) .

* * *

(٢٣) ابن حيان المقتبس ص ١٥ — ١٦ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٢٩ .

(٢٤) عنها راجع د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ ، د. محمد زيتون : المسلمين فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ٢٩٣ وبعدها .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ .

## ثانيا : الامتزاج بين الثقافات

### انتشار اللغة العربية بين الأسبان :

وإذا كان هناك امتزاج جسمى عن طريق الزواج المختلط فقد وجد هناك تلاقح بين اللغات والثقافات فى الأندلس وتأثير متبادل بينها ، واحتكاك ثقافى أدى إلى ظهور الحضارة الأندلسية بخصائصها المتميزة .

فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الذين سموا ( بالمسالمة ) ، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الإسبان الذين عاشوا بجوار المسلمين ، واخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية ، وتعلموا اللغة العربية وسموا ( بالمستعربين ) ، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختان ، وامتنعوا عن اكل لحم الخنزير ، واتخذ الكثير منهم اسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية . كما اتقن الكثيرون منهم اللغة العربية .

وليس ادل على ذلك من تلك الصيحة التى أطلقها القسيس الفارو القرطبى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م حيث كتب رسالة سماها ( الدليل المنير ) ينتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الأسبان فى الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول : « إن إخوانى فى المدن يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وقصصهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب اهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا .

وأين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة

إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها ... الخ »(١) .

ويقول ( دوزى ) : هجر أهل أسبانيا اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك ( يقصد الفارو القرطبى ) .

ويقول نيكلسون : فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل على نشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى ألفونسو السادس عليها سنة ١٠٦٥م .

ويقول توماس أرنولد : إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض أجزاء أسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين ، وأقبل الناس على دراسة الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر فى حماسة وشغف(٢) .

---

(١) أنظر : د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٧٠ — ١٧١ ، أندلسيات جـ ٢ ص ٥٩ . د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٢ — ٣٣ ، بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصبين الذين أسهموا فى إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام فى خلافة عبد الرحمن الأوسط والتى سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار .

(٢) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ، توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢ .

وهكذا زحزحت اللغـــة العربية اللاتينية عن عرشـها الأول كما زحزح الإســـلام المسيحية وصارت اللغـــة العربية هى اللغـــة الرسمية ولغـــة العلم والثقافة كما صـــار الإسلام هو الدين الرسمى كذلك .

وإذا كان للإســـلام اثر كبير فى انتشار اللغـــة العربية لأنها لغـــة القرآن الكريم ، فقـــد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والاســـبان دور فى ذلك أيضا . وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هنـــاك لغـــة عامية تستخدم فى الحياة اليومية بعيـــدا عن العلم والأدب : فقـــد ذكر ابن بسام فى حـــديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبرى ( أواخر القرن الثالث ) الذى يقال إنه اخترعها « كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة »(٣) .

كما ذكر ابن ســـعيد المغربى ( القرن السابع الهجرى ) أن كـــلام اهـــل الأندلس الشائع فى الخـــواص والعـــوام كثير الانحراف عمـــا تقتضيه أوضاع العربية . حتى لـــو أن شخصا من العرب سمع كـــلام الشلوبين المشار إليـــه بعلم النحو وهـــو يقرىء تلاميذه لضحك بمـــلء فيـــه من شدة التحريف الذى فى لسانه »(٤) .

وهـــذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلمـــاء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى .

وكمـــا كانت الفصحى الأندلسية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العنـــاصر المختلفـــة ذات خصـــائص محليـــة ميزتهـــا عن فصـــحى بلاد المشرق العربى ، فكذلك كانت العـــامة الأندلســـية ذات ســـمات محلية حتى غدت عسيرة الفهم على الكثيرين(٥) .

---

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٥٨٤ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٦ .
(٥) من هذه السمات انظر : د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٣ — ٣٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ — ٧١ .

**انتشار الإسبانية بين مسلمي الأندلس :**

وقد كان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأماتهم الإسبانيات في لغتهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم ، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الأسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الأسبانية العامية بصفة خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضا وهي التي يسميها العلماء « الرومانثية ( Romance ) وهي لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم ، ويسميها العرب الأعجمية أو اللطينية(٦) .

ومما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بني بلي بالأندلس . حيث قال وكأنه يتعجب « وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم »(٧) ، وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية .

كما يذكر الخشني : أن أحد القضاة شكاه بعض العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني ( الأوسط ) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمي اللسان يسمى ( ينير ) مقدما مقبول الشهادة فسئل عن القاضي فقال بالأعجمية : ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء ( باللفظ العجمي ) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضي عن القضاء(٨) .

---

(٦) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٣٩ — ٤٠ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٠ .

(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ . ومن مظاهر تأثير اللغة الأسبانية على الأسماء العربية في الأندلس إضافة المقطع الأخير المكون من الواو والنون بالأسبانية On للأسماء للدلالة على التفخيم والتعظيم مثل حفص وحفصون ، وخالد وخلدون ... الخ .

ويذكر المقدسى : انه التقى فى موسم الحج ببعض الأندلسيين فوجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة أخرى اعجمية(٩) .

ويروى ابن هشام اللخمى : انه نبت سن لأحد ابناء الأمير عبد الرحمن بن الحكم فوصفوا له طعاما يتناوله الأطفال عند ذلك فقال لوزرائه : هذا الذى يسميه الناس بالاعجمية ( الذنتينية ) هل روى عن العرب فيها شيىء ؟(١٠) .

ويذكر ابن عذارى ان الوزير الشاعر ابا القاسم لب هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأبيات أمام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

**قال امين الله فى خلقه**
**لى لحية ازرى بها الطول**

**لولا حيائى من إمام الهدى**
**نخست بالمخس شوقول**

وكان ابو القاسم عندما وصل إلى قوله شو سكت فقال له الناصر قول فاتمها على نحو ما اضمر وقال له : انت هجوته يا مولاى — كانه كان يقصد ذلك — فضحك الناصر وأمر له بصلة(١١) .

وهذا يدل على انتشار هذه اللغة العامية الإسبانية ( الرومانسية ) بين الكثيرين سواء من علية القوم أو العامة .

وفى الشعر الأندلسى كثيرا ما نجد الفاظا اسبانية وما يقابلها

---

(٩) د. احمد هيكل : الادب الأندلسى ص ٤٠ .

(١٠) د. الاهوانى : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة ١٩٥٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٧ وكلمة شوقول هى ترجمة للكلمة الاسبانية Su - Culo ومعناها الإلية او اسفل الظهر .
( المختار من عالم الفكر ص ١٠١ ) .

بالعربية إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على تمكن الشاعر من اللغة الأسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن أبى عامر حينما افتتح حصن لونة فى شمال أسبانيا ومعناه البدر :

**وأنت الذى أوردت لونة قاهرا**
**خيولا سماء الأرض فيها نحورها**
**ويا ليت قسوطا حين شاد بناءه**
**رآه وقد خرت إليك جوانبه**
**ويا ليت إذ سماه بدرا معظما**
**رآه فى كسف العجاج مغاربه**

وحين يتحدث عن أحد قادة الأسبان واسمه لوبث ( لوبيز ) ومعناه الذئب يقول :

**كم من سمى له فيها وذى نسب**
**لم يدخر نابه عنه ولا ظفره(١٢)**

وتعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللغتين العربية والأسبانية بين الأندلسيين ، وهى ما يسمى بالشعر الشعبى . وقد استخدمت فيه ألفاظ عامية عربية وأخرى رومانسية ، ويعتبر هذا الفن من الشعر ثورة فى عالم الشعر العربى ، وحركة من حركات التجديد فيه حررته من كثير من قواعد العروض . حيث لم يلتزم فيه القافية الواحدة كالقصيدة ، وإنما اشتمل على قواف متعددة ولبس وحدته البيت الشعرى ، وإنما المقطوعة الشعرية

---

(١٢) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٩ ، ٢١ ، ٤١٨ المكتب الإسلامى بيروت ١٣٨٩هـ .

التى تتكون من غصن وقفل . أى أن الموشحة عبارة عن أغصان، واقفال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة .

ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعامية الدارجة أو بالأعجمية أى الإسبانية وأن تكون حارة محرقة ، حادة منفجة كما قال ابن سناء الملك المصرى .

كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان فتاة تتغزل فى الفتى على عكس القصيدة العربية التى نجد الرجل فيها هو المحب وهو الذى يتغزل .

كما أن الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامية أو الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبنى عليها البقية . على عكس القصيدة الشعرية التى تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير من الموشحة بما فيه الخرجة :

**ليل طويل**

**ولا معين**

**يا قلب بعض الناس**

**لا تلين**

**انا قول قوقو**

**ليس بالله تذوقو**

والخرجة هنا اسبانية ( قوقو CuCo ومعناها الماكر ) فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : انا اقول انت مكار ولن تذوق طعم قبلتى ، فاهتز لها وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته(١٣) .

---

(١٣) د. عبد العزيز الاهوانى : الاغنية الشعبية اصل التوشيح . مجلة المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧م ، د. العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٣ — ١٠٤ .

## ثالثا : النزاع بين عناصر السكان

لم يكن المجتمع الأندلسى بعد الفتح مجتمعا بسيط التركيب ، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة فى أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا . وكان هذا التباين وهذا التعدد فى وقت من الأوقات مظهرا من مظاهر القوة والثراء ، ولكنه كان يحمل فى نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال .

وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأول والأكثر أهمية فى ثراء ذلك المجتمع وازدهار حضارته ، والركيزة التى قام عليه فى الوقت نفسه .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الجماعات العربية والبربرية التى فتحت الأندلس ، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التى كانت تستوطن البلاد قبل الفتح . ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب والبربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة فى أصولها وعناصرها .

وقد اختلط هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون فى الأندلس قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم .

---

=

عن نشأة الموشحات والأزجال وتطورها فى الأندلس راجع :
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها .
د. الأهوانى : الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧ م
د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة رقم ٢١ .
الفرق بين الموشحة والزجل : أن الموشحة عربية ما عدا الجزء الأخير المسمى بالخرجة فهو عامى أو أسبانى ، أما الزجل فلغته عامية دارجة كلها تتخللها كلمات وعبارات أعجمية .

وبالرغم من ذلك فلم يكن هنـــاك اندماج تـــام وامتزاج كامل بين العناصر التى وفــدت إلى الأندلس . فالعصبية العربية التى كانت ظاهرة فى المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى الأندلس وعملت عملها فى تفتيت وحدة العرب ، وتفريقهم إلى شـيع وأحزاب . مـا بين مضريين ويمنيين يتنازعــون على الملك والرئاســة ، وما بين بلديين وشــاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحـق بهـا (١) .

وكذلك لم يكن البربر وحـدة واحـدة فيما بينهم ، ووقـع نـزاع شــديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فلكل منها طابع وأهــداف واتجاهات .

ويمكن القــول : إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرا واستمر استمرارا يكاد يكون متصلا ، ولم تكن تهـدأ إلا تحت ضغط القـوة ، وما تكاد تهـدأ حتى تبـدأ من جــــديد عندما تضعف هــذه القـوة . بحيث يمكن القــول : إن هــذه الفــتن والاضطرابات والحروب قـد صحبت تاريخ المسلمين فى الأندلس من بدايته إلى نهــايته إلا فى عهــود بســيطة شــهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران .

ولقد تميزت الأندلس من بين الأقطــار التى فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والقلاقل من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تثور حينا فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حينا فتعود الأندلس إلى وحـدتها وقـوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت فى النهاية لتؤدى إلى غروب شمس الإســلام من الأندلس(٢) .

---

(١) انظر د. حسين مؤنس : معــالم تاريخ المغــرب والأندلس ص ٢٤٢ وبعـــدها ، أحمــد امين : ظهر الإســـلام ج ٣ ص ١ .

(٢) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإســـلامى ج ٤ ص ٣٧ .

ويمكن أن نلخص هـذه العـوامل فيما يلي :

١ ــ عامل جغرافي : يتمثل في بعـد الأندلس عن بلاد المسلمين في المشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان من دول شمال إفريقية عند الاستنجاد بها في مرحلة الخطر . ولذلك كان من رأي عمر بن عبد العزيز أن يعـود المسلمون منهـا لانقطاعهم من وراء البحر عن اخوانهم(٣) . فالعامل الجغرافي كان بعيد الأثر في غربة الإسلام بشبه الجـزيرة الأندلسية .

٢ ــ عامل قـومي : فالمسلمون في الأندلس كانوا بإزاء امة مقاتلة تعتبر من أكثر شعوب أوربا تعصبا للمسيحية وهـم الاسبان الذين سيطر عليها هدف واحـد هو إخراج المسلمين من الاندلس بأى وسيلة والثـار لهزائمهم منهم(٤) .

٣ ــ عامل ديني : وهـو خشية الأوربيين من الزحف الإسـلامي حتى لا يسيطر على بقية أوربا فوقفوا يؤيدون الأسبان بكل قـوة للدفاع عن المسـيحية من ناحية وحراسـة أوربا من المسلمين الغزاة من ناحية اخرى ، كما فعلوا بعـد ذلك مع الأتراك العثمانيين(٥) .

٤ ــ الخـلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين في الأندلس وبخاصة بين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر .

٥ ــ كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والتي أشاعت الفـوضى في البـلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر . ومثال ذلك أن أسرة بربرية واحـدة هي أسرة فرتون بن موسى ثار منها ثمانية في مدينة واحدة هي سرقسطة(٦) .

---

(٣) تاريخ افتتـاح الأندلس ص ٢٦٠ ، معـالم تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٤٣ .

(٤) د. لطفي عبد البديع : الإسـلام في اسبانيا ص ١٣ .

(٥) د. احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٤ ص ٢٩ .

(٦) د. احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٤ ص ٣٨ .

٦ — الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والخلفاء والذى بدأ مبكرا منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر فى جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير .

٧ — استعانة المسلمين المتحاربين فى الأندلس بأعدائهم من المسيحيين الأسبان والأوربيين لقتال إخوانهم ، مما جعلهم يفنون بعضهم بعضا وعدوهم ينتهز الفرص للإجهاز عليهم . وقد أصاب ابن الشباط حين قال : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وقلة الإنصاف )(٧) .

وكذلك الحجارى حين ذكر أن شارل مارتل لما شكا إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال : « لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ، ويأخذوا فى التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكنون منهم بأيسر مجهود ، ويعقب المقرى على ذلك فيقول : فكان والله ذلك(٨) .

٨ — يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية فى الأندلس كانت تميل غالبا إلى العيش والتكتل فى مناطق خاصة بها ، فمثلا كان العنصر العربى الغالب على قرطبة ، والعنصر البربرى الغالب على غرناطة ومالقة وقرمونة ، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا أثره البالغ فى الميل إلى الاستقلال والخروج مما كان

---

(٧) تاريخ الأندلس ص ٧٤ ، موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٣٧ .
(٨) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٦٤ .

يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبـــلاد(٩) .

ويرى د. حســـــين مؤنس : أن الأندلسيين كانت تعـــوزهم روح الترابط والوحـــدة بسبب تفرقهم فى شبه الجزيرة ، وأن هـــذا قـــد أدى إلى تمزق البـــلاد بسهولة(١٠) .

والحقيقة أن تفـــرق السكان لا دخـــل لـــه بالوحـــدة السياسية لأنها تتوقف على قـــوة الحـــكومة المركزية أو ضـــعفها وكل ما فى الأمر أن طبيعة البلاد الجغرافية ( الجبلية ) قـــد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصـــعب اجتيازها مما قسم الأندلس إلى أقـــاليم شـــبه منفصـــلة ، وساعد على الميـــل إلى النزعة الانفصـــالية فى كثير من الأقاليم التى كانت تسكنها عناصر غير عربية تفـــذيها عـــوامل قومية فى كثير من الأحيان .

وأمام هـــذا الخليط العجيب من الأجناس تكتلت العناصر العـــربية وألفت نوعا من العصبية وظهرت آثار ذلك فى صراع العرب مـــع البربر من جهـــة ومـــع المولدين من جهـــة أخرى .

* * *

---

(٩) د. السيد ســـالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٤ .
(١٠) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ .

## النزاع بين العــرب وبعضهم

لم يمض وقت طـويل على استقرار المسلمين فى الاندلس بعـــد فتحها ، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التى أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمنية .

وقــد لعبت سياسة بعض الولاة فى الأندلس دورا كبيرا فى إذكاء نيران هــذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه .

فكان إذا ما تولى شــخص من القيسية قــدم قــومه وآثرهم على اليمنية ممــا يؤدى إلى إثارة النزاع والقلاقل والفتن وعلى ســبيل المثال : فقــد تعصــب كل من عنبسة بن ســحيم الكلبى ، وعــذرة بن عبد الله الفهرى ، ويحيى بن ســلامة العاملى خلال مدة ولايتهم التى استمرت سبع سنوات ( شــوال ١٠٣ هـ - ربيع الأول ١١٠ هـ ) لليمنية ممــا أوغــر صــدر القيسية(١) ، وامتلأت نفــوسهم المــا واصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولمــا تولى أمر الأندلس ولاة منهم مثل : حــذيفة بن الأحــوص القيسى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنــانى ،

---

(١) كانت موقعــة مرج راهط سنة ٦٤ هـ بين جيــوش الأمويين بقيــادة مروان بن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيــادة الضحاك بن قيس الفهرى من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمنية أنصار الأمويين وبين القيسية أنصار ابن الزبير ، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعين ألفا من قيس وقبائلها ، مما أوغر صــدور القيسية ، فكانوا ينتظرون الفرصــة لتسوية حسابهم القديم مــع اليمنيــة .

( المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٠ هامش ٢ ، المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجــة ص ٣٤٠ هامش ٢ ) .

ومحمــد بن عبد الله الأشجعى لقى اليمنيون خلال عهودهم بلاء شديدا .

وقــد اشتد الهيثم مــع اليمنية شــدة اثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وبلغ من شـــدته أن انكر عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك — رغم أنه قيسى — وعزله وعاقبه عقابا صارما . وبدأت منــذ عهــد الهيثم خصومة القيسية واليمنية صريحة ، وإن لم تظهــر آثارها الخطرة نظرا لانشـــغال المسلمين حينئذ بالفتـــوح فيما وراء جبـــال البيرنيه ( البرانس ) .

وقــد تجلت حروب العصبيات والصراع المرير بين الفريقين فى ولاية عقبة بن الحجاج السلولى وظلت تخفت حينـــا عندما ينشغل المســلمون فى الفتح تلبية لداعى الجهاد فيتناس العرب ما بينهم من عصبيات ، وتشتد احيـــانا أخرى عندما يبــدأون فى الاستقرار(٢) .

وقــد أدى ذلك بالضرورة إلى عــدم استقرار الأوضـــاع بصـــفة عـــامة ، ودليـــل ذلك انه تولى الأندلس خـــلال ما يســـمى بعصر الولاة ( ٩٥ — ١٣٨هـ ) عشرون واليا فى فترة تقل عن نصف قرن ، منهم من مكث نحو عدة أشهر ومنهم من استمر بضع سنوات ، وبعبارة أخرى فإن متوســـط حكم الوالى منهم كان نحــــو سنتين ، وهـــذا وحــده يعطينا

---

(٢) أنظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ١٩١ وبعـــدها . د. منى حسن محمـــود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٥ وبعـــدها .

(٣) اصطلح معظم المؤرخين المحـــدثين على تحــديد بداية هـــذا العصر بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى ذى القعـــدة سنة ٩٥هـ . بينما ذهب البعض إلى اعتبارها تبدا بولاية طارق بن زياد منذ الفتـــح ( د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٤٠ ) . غير اننا نعتبر ان طارق وموسى هم فاتحـــو الأندلس وأن أول الولاة هـــو عبد العزيز الذى أسند إليـــه أبوه ولاية الاندلس قبـــل عـــودته إلى المشرق .

عكرة عن الاضطراب وعدم الاستقرار الذين سادا الأندلس فى هذه الفترة إذا ما استثنينا فترات قليلة حاول فيها بعض الولاة إشاعة الأمن والاستقرار(٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن المسلمين لم يبذلوا جهودا فى مواصلة الفتوحات كما يعتقد البعض ، وان كل ما بينهم كان نزاعا على السلطة والنفوذ أو صراعا على المصالح فهناك جهود بذلت ، وهناك محاولات لنشر الأمن والاستقرار والعمران . إلا أن هذه النزاعات قد استغرقت كثيرا من الجهد والوقت ولو انهما وجهت ضد اعداء المسلمين ، وفى الفتح ونشر الإسلام لكان ذلك اجدى وانفع ، ولكنها جذبت الكثيرين فى تيارها مما كان لهما آثارها السيئة والخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين فى الأندلس . ولا نستغرق فى تفصيلات هذا النزاع الذى حدث فى عصر الولاة وإنما نوجز الحديث عنه فى خلال حكم بنى امية .

لقد استغل عبد الرحمن الداخل ( صقر قريش ) هذا الأوضاع السائدة من العصبية والاضطرابات حتى يصل إلى هدفه فى إعادة دولة آبائه واجداده مرة أخرى فى الأندلس بعد أن سقطت فى المشرق(٥) فأخذ فى مراسلة موالى الأمويين بالأندلس الذين نشطوا لذلك وحاولوا استمالة الصميل بن حاتم زعيم القيسية لنصرة عبد الرحمن،

---

(٤) انظر نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠ وبعدها ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٩ ، احمد امين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٥ .

(٥) يرى ابن عذارى رأيا فريدا حين يذكر ان دولة بنى امية لم تنقطع وأن دولتهم فى المشرق اتصلت بدولتهم فى المغرب حتى سنة

ولكنه أبدى ترددا فلما يئسوا من مناصرة ربيعة ومضر ، عملوا على جذب اليمنية لمناصرته .

وقد وجدها اليمنيون فرصة سانحة للأخذ بثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة شقندة جنوبى قرطبة سنة ١٣٠ هـ(٦) ولاسترداد مكانتهم التى فقدوها .

---

=

٤٥٤ هـ ويبنى رأيه على أن عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية من قبل بنى أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس الذى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فى عهده، ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة وفائدة عجيبة ( البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ ) ، وكان من الممكن أن يعتد بهذا الرأى لو أن يوسف تنازل لعبد الرحمن وسلم إليه إمارة الأندلس ، ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية قد انتهت بالمشرق وأن عبد الرحمن هو الذى استطاع بجهوده إعادتها بعد ست سنوات من السقوط ( ١٣٢ — ١٣٨ هـ ) . ( المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٤٠ ) .

(٦) يروى المؤرخون فى سبب هذه المعركة أن رجلين اختصما عند أبى الخطار اليمنى والى الأندلس أحدهما يمنى والآخر مضرى ، فقضى أبو الخطار لليمنى ، فاعتبر المضرى أن ذلك الحكم غير عادل فشكا إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم فذهب ليكلم أبا الخطار فى شأن الرجل واشتد الجدال بينهما حتى أغلظ أبو الخطار للصميل فى القول وأمر جنده بإخراجه وضربه فخرج من مجلسه وقد مالت عمامته فلما سأله البعض : أبا حوشب ما بال عمامتك مائلة ؟ قال : إن كان لى قوم فسيقيمونها .

وكان ذلك سببا فى قيام المضرية بالثأر لزعيمهم فى تلك المعركة التى كان من نتائجها عزل أبى الخطار وتوليه يوسف بن عبد الرحمن الفهرى مكانه . ( الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٨٦ ، الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٨١ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٢ ) .

يقول ابن عذارى ( وكانوا قوما قد وغرت صدورهم يتمنون شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثارهم )(٧) .

فابدوا استعدادهم لمناصرته بزعامة أبى الصباح اليحصبى شيخ اليمنية فى غرب الاندلس وعلقمة الجذامى ، وابى علاقة الجذامى ، وزياد بن عمر الجذامى ، وغيرهم من زعماء اليمنية ولم ينضم إلى عبد الرحمن من المضرية سوى الحصين بن الدجن العقيلى لما كان بينه وبين الصميل بن حاتم المضرى من خصومة وتباعد(٨) .

وقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس واستطاع بمساعدة اليمنية وموالى الأمويين أن ينتصر على يوسف الفهرى فى موقعة المصارة سنة ١٣٨هـ ويتولى مقاليد الأمور فى الأندلس واعتبر اليمنية هذه الموقعة هزيمة للقيسية .

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار لعبد الرحمن ، فقد كان بداية لمسيرته الطويلة فى الكفاح والنضال فى سبيل بناء دولته وتوطيد

---

=

وكان زعيم اليمنية فى هذه المعركة يحيى بن حريث ، وكان زعيما المضرية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم . ويصفه صاحب اخبار مجموعة هذه المعركة بانها « أول حرب كانت فى الإسلام بهذه الدعوة — ربما يقصد فى الأندلس — لم تكن حرب قبل هذه الوقيعة وهى الفتنة العظمى التى بها يخاف بوار بالأندلس إلا أن أن يحفظه الله » . ( أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٥٩ ) ، كما يصفها ابن عذارى بأنها « لم يعهد حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصفين » ( البيان المغرب جـ ٢ ص ٥٣ ) .

(٧) البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٥ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٥ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

أركانها حيث كانت الأندلس تموج بالفتن والعصبيات التى لم تكن قاصرة على مضر واليمن فقط بل شملت كل قبيلة وكل بطن التفت حـول زعاماتها ، وكانت لهـا مصالحها الخاصـة ، وتمسكت باستقلالها ، وأبت الخضوع لأية سـلطة عامة ، وشملت كذلك البلديين والشاميين(٩) . كما شملت البربر الذين حرصـوا على الاحتفاظ بمـا حصلوا عليـه خـلال الفتن من أراض وضـياع .

وكان هناك ما هو أشد من ذلك خطـرا وهو الممـالك النصرانية فى الشمـال التى تخطت سريعا مرحلة الهـزيمة وبدأت تستعد لحرب المسلمين ، وكذلك ممـلكة الفرنجـة التى تمكنت من انتزاع ما فتحـه المسلمون خلف جبـال البيرنيه ( البرانس )(١٠) .

قامت دولة عبـد الرحمـن الداخـل على عـون كبير من العرب اليمنيين ، الذين تصـوروا أن الكلمة أصـبحت لهم(١١) — معتقدين أنهم

---

(٩) يقصـد بالبلديين العرب والبربر الذين قـدموا إلى الأندلس مع الفتح أو فى أثنـائه وكانوا يعتبرون أنفسـهم أصحاب الفتح ، ولهم قصـب السبق ولذلك ينبغى ألا ينازعهم أحـد فيه .

ويقصـد بالشاميين العرب الذين قـدموا فى طالعة بلج بن بشر سنة ١٢٤ هـ ورفضـوا الخروج من الأندلس لمـا رأوه من خيراتهـا وثرواتهـا وتم توزيعهم على كـور الأندلس المختلفة . ( انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ٦١ — ٦٣ ، المقتبس ص ٣٠٨ تحقيق د. محمـود مكى ، د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٦ ، د. محمد زيتـون : المسلمون فى المغرب والأندلس هامش ١٣ ص ٢٥٦ .

(١٠) د. محمد زيتـون : المسلمون فى المغـرب والأندلس ص ٢٥٤ ، د. منى محمود : المسلمون الأندلس ص ٥٧ .

(١١) يذكر ابن القوطية : أن أبا الصباح اليحصبى زعيم اليمنية قال لثعلبة الجـذامى وكان من وجـوه جند فلسطين بعـد موقعة المصـارة « يا ثعلبة هـل لك رأى فى فتحين فى فتح ؟ قال لـه وكيف ذلك ؟

لا يزالون فى عصر الولاة ، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد يحاول ان يزيل آثار ما سبق ويجعل الجميع وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد فى مواجهة الأخطار الخارجية . فاعتبروا ذلك إنكارا لجهودهم ولذلك قاموا بثورات عديدة ضد من ساعدوه بالأمس فى الجزيرة الخضراء ، وفى إشبيلية وطليطلة وباجة وغيرها . وانضم الكثير منهم إلى ثورة العلاء بن مغيث التى قامت فى باجة سنة ١٤٦ هـ وكان يدعو إلى طاعة ابى جعفر المنصور وخلع عبد الرحمن بن معاوية(١٢) ولكن عبد الرحمن استطاع بعد جهود كبيرة القضاء على هذه الثورات(١٣) .

وللأسف الشديد فقد تعاون بعض الزعماء العرب مع شارلمان للاستيلاء على الثغر الأعلى ( سرقطة وما حولها ) مثل سليمان بن يقظان الكلبى ( ابن الأعرابى ) والى برشلونة والحسين بن يحيى الانصارى والى سرقسطة انتقاما من عبد الرحمن الداخل ، وهان عليهم تعريض الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر فى سبيل أهواء وأحقاد ومطامع

---

=

قال : قد استرحنا من يوسف ، فاسترح بنا من هذا — يقصد عبد الرحمن الداخل — وتكون الأندلس قحطانية . ولكن ثعلبة أخبر عبد الرحمن بذلك ، فاحتاط وضم مواليه إليه ، وجعلهم حراسه ، ولما راى اليمنية ذلك عدلوا عن خطتهم . وهذا يدل على تطلعهم للملك والسلطان ( أخبار مجموعة ص ٣١ ) .

(١٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ ، أخبار مجموعة ص ١٠٢ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٧ .

(١٣) عنها انظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٢ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

شخصية . لولا أن أخفقت هذه المحاولات بفضل تماسك جمهور المسلمين تحت راية عبد الرحمن . وكانت مؤامرة المغيرة بن الوليد ابن معاوية سنة ١٦٨ هـ من سلسلة المؤامرات التى دبرت ضد عبد الرحمن — وكان ابن اخته — وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم زعيم المضرية ولكن تم اكتشافها ، وكذلك مؤامرة محمد بن يوسف الفهرى الذى أعلن الثورة فى قسطلونة شرق الأندلس وكان مصيره الهزيمة فى ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ(١٤) .

وفى عهد ابنه هشام ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى ومعه عدد كبير من اليمنيين وتمكن من الاستيلاء على طرطشونة فهزمه موسى بن فرتون القومس والى الثغر الأعلى واستطاع أن يستردها ، كما ثار مطروح بن سليمان الأعرابى بعد مقتل أبيه واستطاع أن يستولى على سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله(١٥) .

ثم جاء الحكم بن هشام بالربضى الذى تعتبر إمارته بداية النهاية لعصر القلاقل والاضطرابات التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية ، وكان كثير من زعمائهم حتى ذلك الوقت لا يسلمون بالطاعة والانقياد لها ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة لعصر العصبيات والفوضى . وكان لقوة الحكم وشدته وشجاعته أثر كبير فى القضاء على الكثير من الثورات التى قامت فى عهده .

ثم جاء عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى كان على العكس

---

(١٤) د. سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الأول ص ٢٢١ د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢١٤ : د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من أبيـــه لين الجانب هادىء الطباع فعادت العصبية العربية من جـــديد بين المضرية واليمنية فى كــورة تدمير لسبب تافه(١٦) أدى إلى قيــام حرب بين الفريقين استمرت نحو سبع سنوات ( ٢٠٧ — ٢١٣هـ ) وقــد اضطر عبد الرحمن إلى إرسال جيش بقيادة يحيى بن عبــد الله بن خلف فأوقــع بهم فى موقعة المصارة بلورقـــة وهزمهم وقتــل منهم نحو ثلاثة آلاف . وفى سنة ٢٠٩ هـ أرســل قائده أميــة بن معـــاوية بن هشـــام إلى تدمير فاشتبك مـــع اليمنية بقيادة أبى الشماخ محمد بن إبراهيم الذى ظــل عـــدة سنوات يتحـــدى ســـلطان الإمارة ولم تهـــدأ حركته إلا بعد طلبه الأمان وعـــودته للطاعة سنة ٢١٣ هـ . وكان ذلك سببا فى أمــر عبد الرحمن بهـــدم حاضرة تدمير ( مدينة الة ) ســـنة ٢١٠هـ وبنـــــاء مدينة مرسية مكانها سنة ٢١٦ هـ(١٧) .

* * *

---

(١٦) يذكر ابن عــذارى أن السبب كان قيـــام أحـــد المضريين بنزع ورقة داليـــة من جنان يمانى فقتله ( البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ ) ، بينما ذكر الحميرى العكس وهـــو أن رجلا من اليمنية أخـــذ ورقـــة من كرم رجـــل مضرى ليغطى بها قلة فأنكر ذلك المضرى ، واعتقد أنه فعـــل ذلك استخفافا به ( الروض المعطار ص ١٨١ ) . بينما يذكر د. حسين مؤنس : أن معظم جند تدمير ( مرسية بعـــد ذلك ) كانوا من اليمنية ، ولكن المضرية كانوا يحاولون السيطرة عليها رغم قلتهم ، ومن هنـــا كانت الفتنة . وهـــذا ما نميل إليه لأنه السبب الأقـــوى من وجهة نظرنا . ( انظر معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٠ ) .

(١٧) عنـــان : دولة الإســـلام فى الأندلس ص ٢١٤ .

## النزاع بين العــرب والبربر

كثرت انتفاضات البربر وثوراتهم ضــد العــرب فى بلاد المغرب ، وكان من أخطــر هــذه الثــورات التى لهــا أثــر فى ثورات البــربر بالأندلس ثورة ميسرة المدغرى(١) الذى اعتنق مذهب الخوارج ، ونصب نفسه إماما وتسمى بالخلافة والتف حــوله الكثير من البربر الذين تشبهوا بالخــوارج الأزارقة وأهل النهروان من أصــحاب الله بن وهب الراسبى فحلقــوا رءوسهم(٢) .

وقــد انتهــز ميسرة فرصـــة خروج حبيب بن أبى عبــدة بجيش من العرب فى حمــلة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقض طاعة عبيد الله ابن الحبحاب والى إفريقية فى طنجة وأقاليمها ، وتداعى البربر فى المغرب بأسره وثاروا فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ .

ووثب ميسرة على عمر بن عبد الله المرادى والى طنجـــة فقتــله ، وولى مكانه عبد الأعلى بن حــديج ، وزحف إلى إسماعيل بن عبيــد الله ابن الحبحاب فى منطقة السوس فقتله أيضا .

وهكذا أصبح موقف عبيد الله حرجا وســاء موقف العرب ، فغضب لقتل ابنــه وعامله على طنجة ، وكتب إلى قائده حبيب يأمره بالعــودة حتى يتمكن من مواجهة هــذه الثورة الخطيرة ، والتقى الفريقان بالقرب من طنجــة ، وتحقق النصر للعرب فى البداية ، وتراجــع ميسرة ، ممــا أدى إلى ثورة البربر عليــه وقتله وتولية ابن حميد الزناتى مكانه الــذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصـــار كبير فى موقعـــة عرفت بغزوة

(١) يسمى أيضــا المطغرى ويلقب بالحقير بائع المــاء بسوق القيروان ( ابن القــوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ ) .

(٢) أخبـــار مجموعة فى فتــح الأندلس ص ٣٢ .

الاشراف حيث قتل فيها « حماة العرب وفرسانها وكماتها وابطالها » كما يقول ابن عذارى(٣) .

وكان لهذه الهزيمة القاسية وقعها الأليم فى نفوس العرب بالمغرب فانتشر الذعر الشديد بينهم ، وانتقضت البلاد عليهم وعمت فيها الفوضى ، وبلغ خبر هذه الثورة بلاد الأندلس فوثب اهلها على اميرهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى . ولما بلغ ذلك الخليفة هشام عزل عبيد الله عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ وقال « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشا اوله عندهم وآخره عندى »(٤) .

وبعث بجيش تعداده سبعة وعشرون الفا من اهل الشام وانضم إليه ثلاثة آلاف من مصر وجعل على قيادته كلثوم بن عياض القشيرى الذى ولى المغرب بدلا من عبيد الله وجعل الأمر من بعده لابن اخيه بلج بن بشر القشيرى إن أصيب ومن بعده لثعلبة بن سلامة العاملى وكان من غلاة القيسية وانضم عرب إفريقية الذين استوطنوا بعد الفتح إلى هذا الجيش فأصبح عدده نحو سبعين الفا(٥) ، ولكن هذا الجيش لقى هزيمة اخرى قاسية عند بلدة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤ هـ قتل فيها عدد كبير على رأسهم كلثوم وحبيب ولم ينج منه إلا نحو عشرة آلاف على راسهم بلج بن بشر لاذوا بمدينة سبتة وتحصنوا بها ، وحاصرهم البربر حصارا شديدا حتى اشرفوا على الهلاك . واضطر بلج إلى الاستعانة بعبد الملك بن قطن الفهرى

---

(٣) البيان المغرب جـ ١ ص ٥٢ .
(٤) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ .
(٥) اخبار مجموعة ص ٣١ .

والى الأندلس ( ١٢١ — ١٢٥ هـ ) وطلب منه السماح باللجوء إلى الأندلس. له ولمن معه خشية الاستئصال والهلاك ولكن عبد الملك تقاعس عن نصرتهم خشية على سلطانه خاصة وأنه كان مهريا من عرب الحجاز الذين شهدوا موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ وما حدث فيها من جند الشام بالمدينة . ولما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك أمدوهم بقاربين من شعير وأدم ولكن لم يكن ذلك كافيا(٦) .

وتغير الموقف فجأة عندما ثار البربر فى الأندلس بعد أن علموا بانتصار إخوانهم فى المغرب « حيث انقضوا على عرب جليقية وقتلوهم ، واخرجوا عرب استرقة والمدنيين التى خلف الدروب » وكان البربر اكثرية بهذه المناطق .

واحس عبد الملك بالخطر الداهم عندما وجد أن البربر يتقدمون نحو قرطبة بقيادة ابن هدين الذى يقال له ( ابن زقطرتق )(٧) .

---

(٦) اخبار مجموعة ص ٣٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢ .

(٧) اخبار مجموعة ص ٣٩ لا تذكر لنا المصادر شيئاً واضحا عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس — رغم أنهم قد اشتركوا سويا فى الفتح — وكل ما نفهمه أنها يمكن أن تكون امتدادا طبيعيا وصدى لثورتهم فى إفريقية التى كانت بسبب استبداد بعض الولاة وسوء معاملتهم للبربر . وقد ذهب الكثيرون إلى أن هذه الثورة كانت بسبب سوء معاملة العرب للبربر ، واختصاصهم أنفسهم بأجود الأراضى والمناطق الخصبة تاركين للبربر المناطق الجبلية القاحلة . وذلك غير صحيح لأن جماعات كثيرة من البربر استقرت فى مناطق خصبة من الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كانت هناك أماكن تكاد تكون مقصورة عليهم مثل الجزيرة الخضراء ، ومن هذه

فخشى على مصيره ومصير بنى جنسه خاصة بعد هزيمة جيوشه التى أخرجها لقتال البربر مما جعله مضطرا إلى مد يد العون لبلج وجنده المحاصرين فى سبتة للتعاون فى القضاء على هذا الخطر الداهم . فارسل إليهم السفن للعبور إلى الأندلس ، واشترط عليهم العودة إلى سبتة مرة أخرى بعد القضاء على ثورة البربر ، وأخذ بعض الرهائن تنفيذا لذلك وانزلهم بالجزيرة الخضراء(٨) .

والتقى الفريقان العرب البلديون وجند الشام من ناحية والبربر من ناحية أخرى على وادى سليط فى حوز طليطلة فهزم البربر هزيمة نكراء .

---

=

الأماكن الخصبة التى نزل بها البربر مع غيرهم من العرب كورة فحص البلوط شمال قرطبة ، وكورة السهلة وكانت من أخصب المناطق فى الأندلس ونزلها بنو رزين من البرانس فنسبت إليهم واستقلوا بها فى عصر ملوك الطوائف . والعرب لم يكونوا من الكثرة بحيث ينفردون بكل المناطق الخصبة فى بلد واسع كالأندلس . وكان البربر يتفوقون عليهم فى العدد نظرا لقرب بلادهم وكثرة هجراتهم .

ويبدو أن سكنى الكثير من البربر فى المناطق الجبلية كان بناء على رغبتهم بحسب ما اعتادوا عليه فى بلادهم ، وكان العرب والبربر بعد الفتح ينزلون فى المناطق المناسبة لهم وبحسب اختيارهم دون ضغط أو اكراه او تحديد لأماكن معينة ينزل بها هؤلاء او هؤلاء فسكنوا سويا فى مناطق ومتفردين فى أخرى . انظر : د. حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ١٢٨ ، ٣٨٨ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ — ٢٤٥ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٣٧ — ١٣٨ ) .

(٨) يذكر البعض انه اشترط عليهم ان يعودوا بعد سنة واحدة ( د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٨ ) .

ولما انتهت الثورة طلب عبد الملك من بلج وأصحابه مغادرة الأندلس، فسألوه أن يهيئ لهم السفن التى تقلهم إلى تونس من ساحل إلبيرة وتدمير ، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن فى الجزيرة الخضراء لنقلهم إلى سبتة ، فقالوا له : أتريد أن تعرضنا لبربر طنجة ، ولما رأوا ما يراد بهم وثبوا عليه وأخرجوه من قصره وبايعوا بلجا مكانه فى أول ذى القعدة سنة ١٢٥ هـ(٩) .

ويبدو أن الشاميين كانوا يبيتون النية للبقاء فى الأندلس والإقامة فيها بعد ما حدث لهم فى إفريقية خاصة وأنهم سمعوا عن خيراتها ومحاسنها ، ولم يجدوا وهم فى موقفهم الحرج أثناء حصارهم فى سبتة إلا أن يوافقوا على شروط عبد الملك . ثم أخذوا يبحثون عن ذريعة تمكنهم من البقاء حتى وجدوا ذلك فى اتهامه بقتل رجل غسانى من أشرافهم كان ضمن الرهائن فى الجزيرة الخضراء ، وأدى ذلك إلى قتلهم له ، بالرغم من محاولة بلج أن يردهم عنه ولكنه لم يستطع خشية من تفرق كلمتهم وانفضاضهم من حوله(١٠) .

وقد أدى مقتل عبد الملك بن قطن إلى تحول النزاع بين البلديين والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمنية . حيث أثار موجة من الغضب واتحد العرب البلديون — بقيادة ولدى عبد الملك قطن وأمية — مع البربر الذين كانوا يتلهفون للأخذ بثأرهم من أهل الشام ، والتقى هؤلاء مع جيش الشام بقيادة بلج فى موضع يقال له ( أقوة برطورة ) وانتهت الموقعة بهزيمة البلديين وكان معظمهم من اليمنية وقتل بلج فتولى مكانه ثعلبة بن سلامة العاملى ، ولما علم الخليفة

---

(٩) أخبار مجموعة ص ٤٠ — ٤١ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٤٣ — ٤٤ .
(١٠) أخبار مجموعة ص ٤٢ .

هشام بن عبد الملك بذلك نصحه العباس بن الوليد بن عبد الملك بتولية احــد اليمنيين على الاندلس فولى ابا الخطــار بن ضرار الكلبى بعــد ان كتب إليــه بابيات يقــول فيها :

افــاتم بنى مــروان قيسا دماءنا
وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كانكم لم تشهدوا مــرج راهــط
ولم تعلموا من كان ثم لــه الفضل
وقينــاكم حــر الوغى بصــدورنا
وليست لكم خيل تعــد ولا رجــل
فلما رايتم واقــد الحرب قــد خبا
وطاب لــكم منها المشارب والاكل
تغــافلتم عنــا كان لم يكن لنــا
بلاء وانتــم ما قد علمنا لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
وزلت عن المرقاة بالقــدم النعــل
تصرم حبل الوصل وانقطع الهوى
الا ربمــا ياوى فينقطــع الحبــل(١١)

وفــد ابو الخطار إلى الاندلس فى رجب سنة ١٢٥ هـ ومعه سجل الولاية من والى إفريقية ( حنظلة بن صفوان ) وبرفقته ثلاثون رجــلا هم الطالعــة الثانية من العــرب الشاميين . وكانت الحرب ما تزال ناشــبة بين الشاميين والبلديين ، فبعــد مقتــل بلــج تولى ثعلبــة العاملى وقام بمحاربة العرب البلديين والبربر فى ماردة وهزمهم وسبى كثيرا منهم ( نحو

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٨ — ١٩ .
ابن الابار : الحــلة السيراء جـ ١ ص ٦٤ مع بعض الاختــلاف فى الالفــاظ .

عشرة آلاف ) ، واخذ فى بيع شيوخ البلديين من العرب لمن ينقص من اثمانهم حتى قيل إنه باع احد رجال عرب المدينة بكلب(١٢) وإن كنا نشك فى ذلك لما فيه من مبالغة شديدة . فلما اقبل ابو الخطار امر بإطلاق سراح الأسرى والسبى فسمى عسكره لذلك عسكر العافية(١٣) .

ونظر فى توزيع جند الشام على كور الاندلس بدلا من تجمعهم فى قرطبة حتى يقضى على عوامل الاضطراب فأنزل جند دمشق بالبيرة وسماها دمشق ، وانزل جند الاردن بكورة رية ، وجند فلسطين بشذونه ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند قنسرين بجيان وجند مصر بباجة وتدمير ( مرسية ) ، وكان إنزالهم على اموال اهل الذمة من العجم من ارض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص(١٤) .

وفى عهد عبد الرحمن الداخل قامت ثورة خطيرة للبربر فى شمال شرق الاندلس سنة ١٥٠ هـ وكان زعيمها فقيها بربريا يعلم الصبيان ويدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة ، وقد ادعى أنه من ولد الحسن ابن على ، وكانت امه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمى تسمى بعبد الله ابن محمد ، وذاعت دعوته بين البربر فى هذه الناحية نظرا لكونهم اكثرية فيها ، واستطاع بهم أن يستولى على شنت بريه جنوب غرب طليطلة وجعلها مقرا له ، ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعظم خطره وتمكن من هزيمة الجند الذين ارسلهم إليه حاكم

---

(١٢) اخبار مجموعة ص ٤٥ .

(١٣) اخبار مجموعة ص ٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) ابن الابار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦١ — ٦٣ . نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٦١ — ١٦٢ ) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

طليطلة بقيادة سليمان بن عثمان مما أدى إلى اتساع دعوته واستفحال حركته ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢هـ فالتجأ الثائر بمن معه إلى الجبال المحيطة بالمنطقة مما اضطر عبد الرحمن إلى العودة إلى قرطبة ، ثم أرسل مولاه بدرا لمقاتلته سنة ١٥٤هـ فامتنع بالجبال حتى لا يلتقى بالجيش الأموى ، ثم عاد عبد الرحمن لمقاتلته سنة ١٥٥هـ بجيش جعل عليه هلال المديونى كبير البربر فى شرق الأندلس — بعد أن استماله وأقره على ما فى يده وعهد إليه بولاية الأنحاء التى تغلب عليها شقنا بعد استخلاصها منه — وكان لذلك أثره فى بث الخلاف فى صفوف البربر ، فانفض عن شقنا كثير من أنصاره — واضطر إلى الانسحاب للاعتصام بالجبال مرة أخرى . وكانت المشاكل التى واجهت عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثائر مما جعل ثورته مستمرة قرابة عشر سنوات ، كما كان لاعتصامه بالجبال وتجنب اللقاء المباشر أثر فى هذا الاستمرار .

ولذلك لم يتمكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له أثنان من أصحابه بمساعدة هلال المديونى حيث قتلاه وحملا رأسه إلى قرطبة وبذلك انفضت جموع البربر من حوله ، وخبت ثورته بعد أن ظلت تحو عشر سنوات تهدد سلطان عبد الرحمن ، وبذلك حققت المؤامرة فى لحظات ما لم تحققه الحملات والجيوش المتعاقبة فى سنوات(١٥) .

وفى عهد هشام بن عبد الرحمن قامت ثورة للبربر سنة ١٧٨ هـ فى تاكرنا من إقليم رندة ، وكانوا كثرة فى هذا الإقليم ، فخرجوا على

---

(١٥) انظر أخبار مجموعة ص ١٠٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥، ابن خلدون : السير ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٧ .

الطاعة ، وقتلوا كثيرا من السكان العرب فارسل إليهم هشام جيشا استطاع هزيمتهم ، وفروا من تاكرنا التى ظلت خالية طوال سبع سنوات إلى طلبيرة وترجيلة(١٦) .

كما قامت ثورة أخرى للبربر فى ماردة سنة ١٩٠ هـ بقيادة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس بسبب وقيعة قام بها بعض خصومه فخشى اصبغ من الحكم وشدته فدخل ماردة وثار بها والتف حوله البربر ، فخرج إليه الحكم بنفسه وحاصره ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى قرطبة بسبب فتنة قامت فيها ، ثم تابع حملاته بعد ذلك سبع سنوات ولكنه لم يستطيع القضاء على هذه الثورة ، وأخيرا استطاع استمالة جماعة من أهل ماردة من ثقاة أصبغ ففارقوه مما دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم وخرج من ماردة وأقام بقرطبة(١٧) .

وفى سنة ٢١١ هـ ثار طوريل البربرى بتاكرنا فى عهد عبد الرحمن ابن الحكم ( الأوسط ) فأرسل إليه قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم فظفر به وقطع عاديته(١٨) .

وفى سنة ٢١٣هـ قامت ثورة للبربر فى ماردة أيضا وتزعمها رجل بربرى يدعى محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين ويدعى

---

(١٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٦ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٤٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٠ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٣٤ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس جـ ١ ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٤ .

سليمان بن مرتين ويلقب ( بقعنب ) ، وشقا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقى ، فارسل فرقة حاصرت المدينة سنة ٢١٤ هـ إلا أنها لم تحقق نصرا يذكر ، فسار عبد الرحمن فى السنة التالية وحاصرها حصارا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها إلا فى سنة ٢١٩ هـ . بعد أن فر منها الثائران حيث قتل سليمان سنة ٢٢٠ هـ ، وقتل محمود سنة ٢٢٥ هـ . وقد سجل عبد الرحمن إخضاعه لهذه الثورة ببناء قصبتها التى تعرف لدى العامة إلى اليوم باسم الدير وبها نقش عربى محفوظ إلى اليوم بمتحف القصبة فى ماردة يحمل تاريخ ٢٢٠هـ(١٩) .

وفى سنة ٢٣٦هـ ثار أحد البربر ويدعى حبيب البرنسى بجبال الجزيرة الخضراء والتف حوله جماعة من المفسدين فأخرج له الأمير عبد الرحمن الأجناد ففرقوا جموعه وقتلوا عددا كبيرا من رجاله(٢٠) .

وفى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كثرت الفتن والثورات كثرة بالغة من العرب والبربر والمولدين . ومن أشهر الثوار البربر فى هذا العهد الذين حاولوا الاستقلال بنو موسى بن ذى النون وكان أول من ثار منهم الفتح ومطرف اللذين ثارا فى شنت بريه واتخذاها حاضرة لهما ، وأقاما فيها الكثير من المنازل والقرى والمعاقل والحصون فعمرت وكثرت فيها المرافق ، وقد استقل مطرف

---

(١٩) انظر : ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٤١٠ ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٢٨ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢٠) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ .

بحصن وبدة ، ويحيى بحصن ولمة وكان اكبر الحصون ، وبنى الفتح حصن إقليش ومصره وعمزه . وقد قتل الفتح سنة ٣٠٣هـ ، ودخل أخوه يحيى فى خدمة الخليفة الناصر وتوفى اثناء غزوة سرقسطة سنة ٣٢٥ هـ ، أما مطرف فقد خدم الناصر أيضا واشترك معه فى بعض غزواته فولاه مدينة الفرج من الثغر الأوسط(٢١) .

وكذلك ثار عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى ، وكان من بربر قرية الملاحة من كورة جيان ، وكان مجرد جندى من جنود عاملها فوثب عليه وقتله واستطاع الاستيلاء على قصبتها ، واستفحل امره واخذ يعيث فسادا فيما جاورها من بلدان ، فارسل إليه الأمير عبد الله جيشا بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة فتمكن من هزيمته والقبض عليه والقدوم به إلى قرطبة .

وكذلك ثار زعال بن يعيش بن فرانك النفزاوى وكان من بربر نفزة وخرج على الأمير عبد الله ، فى حصن ام جعفر فى ماردة واستطاع ان يستقل بهذا الحصن استقلالا جزئيا حيث ظل متمسكا بطاعة الأمير ولو اسميا ولما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى حتى استنزل من الحصن ايام عبد الرحمن بن محمد(٢٢) .

كما ثار خليل وسعيد ابنا مهلب بكورة البيرة واستطاعا الاستيلاء على حصن قرذيرة واشبرغرة ورغم ثورتهما إلا أنهما كانا يدينان بالطاعة للأمير عبد الله فولاهما على ما فى أيديهما حتى كانت ايام الأمير عبد الرحمن ابن محمد فاستنزل سعيد — بعد موت اخيه — ضمن من استنزل من الثوار من حصونهم(٢٣) .

---

(٢١) ابن حيان : المقتبس ص ١٩ تحقيق ملشور انطونية .
(٢٢) د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢٥٦ — ٢٥ .
(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٨ .

ثم جاء عهد المنصور بن أبى عامر الحاجب فازداد نفوذ البربر زيادة كبيرة حيث استكثر منهم واعتمد عليهم وجعلته شيعته وأنصاره فى مواجهة خصومه ومنافسيه من الأمويين والعرب الذين كانوا يحقدون عليه لاستبداده وسيطرته على الخليفة الأموى هشام المؤيد ودليل ذلك يتجلى من خلال وصيته لابنه عبد الملك الذى تولى الحجابة بعده سنة ٣٩٢هـ حيث يقول له « ولا تنظر بك وأصحابك السلامة فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة »(٢٤) .

وقد أدى ذلك إلى مزيد من التنافس بين العنصرين .. حيث قدم المنصور البربر وأخر العرب وأسقطهم عن مراتبهم . وإذا كان ابن خلدون يرى أن سبب ذلك هو ضعف عصبية العرب مما أدى لاعتماده على البربر(٢٥) فإننا نرى أن ذلك هو الذى أدى إلى ضعف عصبية العرب ونفوذهم ، وكان سببا من أسباب انهيار دولة بنى أمية بالأندلس .

وقام صراع عنيف بين العنصرين تجلى بصفة خاصة فيما يعرف بالفتنة العظمى أو البربرية التى استمرت نحو عشرين عاما وبدأت فى مستهل سنة ٤٠٠هـ . وقام البربر فيها بالكثير مما أدى إلى تخريب الكثير من مظاهر الحضارة والعمران فى الأندلس وخاصة فى قرطبة ومدينة الزاهرة ، وإشاعة الكثير من مظاهر الفوضى والانحلال فى المجتمع مما كان له أثره فى سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ(٢٦) .

---

(٢٤) ابن بسام الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٥٧ .

(٢٥) المقدمة ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢٦) عن هذه الفتنة بالتفصيل انظر : بهجة المجالس ج ١ ص ١٠ ، ابن بسام : الذخيرة ج١ ق٤ ص ٢٥ ، ابن حيان : المقتبس ص ١١٥ وبعدها ، البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٤٧ وبعدها ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٩ وبعدها .

## الفتن بين العـــرب والمولدين فى الأندلس

كثرت الفتن والثـورات فى كل ناحية من نواحى الاندلس فى عهـد الامير عبد الله بن محمـــد بن عبد الرحمن الأوسط ( ٢٧٥ هـ — ٣٠٠ هـ ) ، ولم تقتصر على المناطق الجبلية فقط بل امتدت إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقـــة ومرسية وغيرها ، ولم تقتصر هذه الثورات على عنصر بعينه وإنمـــا شملت الكثير من العناصر ، فشـــارك فيها المولدون والعـــــرب والبربر ونشبت معـــارك عنيفـــــة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر فضـــلا عن المعارك التى دارت بين العرب انفسهم ، واستطاع الكثير من هـــؤلاء ان يستقلوا باماكـــن كثيرة ، حتى لم يبـــق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى العاصمة وأحوازها فقط(١) .

ويلخص لنـــا ابن الاثير الأوضاع فى عهـــد الأمير عبد الله فيقـــول « وفى أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وصـــــار فى كل جهـــة متغلب ، ولم تزل كذلك طـــول ولايته »(٢) .

والحقيقة ان هـــذا الامير لم يقعـــد عن مواجهة هـــذه الثورات ، وإنمـــا بذل قصارى جهـــده للقضاء عليها ، وظـــل يكافح طـــوال مدة حكمه دون هـــوادة لانقـــاذ دولة آبائه واجـــداده من الانهيار ، واستنفذ ذلك منـــه الكثير من موارد الدولـــة ، حتى ذكر ابن خلـــدون : ان خراج الأندلس قبله كان ثلاثمائة الف دينار مائة الف منهـــا للجيوش ومائة الف للنفقة فى النوائب . وما يعرض من الخطوب ، ومائة الف ذخيرة ووفـــر

---

(١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣١ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ٤٣٥ ، العبر جـ ٤ ص ١٣٣ .

فانفق الوفر فى تلك السنين وقل الخراج(٣) .

ويبين لنا الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب أسباب انتشار الثورات والفتن فى هذا العهد فيقول : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

**الأول :** منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقارنتهم بعدو الدين فلهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

**والثانى :** علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشراف يأنف بعضهم من الأذعان لبعض .

**والثالث :** الاستناد عند الضيقة أو الاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض » .

وقد كانت السياسة التى جرى عليها بنو أمية فى الأندلس منذ بداية أمرهم فى اصطفاء الموالى قد أخذت تحدث أثرها فى نفوس القبائل العربية التى أصبحت ترى فى هذه السياسة نوعا من المهانة لها ، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى والمناطق الجنوبية على يد ابن حفصون وجدت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها والانتصاف لعصبيتها وكرامتها(٤) .

وكان المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم الحكومة الأموية من ضروب

---

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٤٤ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣٤٠ ، د. زيتون : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢١ .

(٤) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، القسم الثانى ص ٣٥ .

الرعاية والتسامح يضمر أكثرهم لهـا الخصومة والكيد ، ولا يدينـون بالولاء لهـا على الدوام ، وينتهزون الفرص للخروج عليها ، وكانوا يلقون العـون والتأييد من بنى جنسهم من النصارى المعاهـدين(٥) .

ولذلك انضموا إلى ثورة ابن حفصون الذى كان مولدا ويرجـع إلى أصـل أسـبان مسيحى وكان يجيش بالمسيحية وعاد إليها بعـد أن أسلم وسبقه أبوه قبـل ذلك بعـدة أعـوام(٦) .

* * *

(٥) عنان : المرجـع السابق ص ٧٤ .

(٦) نفسـه ص ٤٢ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٣ وبعدها تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

## ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون

وقد كان من أخطر هذه الثورات التى قامت فى الأندلس ثورة ابن حفصون المولد(١) الذى كان يمثل فى ثورته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب من بغض وكراهية ، فكان يدعوهم ومن إليهم من العجم المستعربين إلى الخروج على سلطان العرب ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف واضطهاد على أيديهم ، وأنه قام ليرفع عنهم ذلك ويرد إليهم حريتهم وهو فى ذلك لا يبغى سوى تقوية نفوذه وتوطيد سلطانه الذى بسطه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية من الأندلس فيما بين البحر ووادى شنيل(٢) .

---

(١) عن هذه الثورة بالتفصيل : انظر البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢ وبعدها ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها ، عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ وبعدها ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٣٢٢ وبعدها . وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان ابن فرغلوش بن أذفونش القس ، ثار بالأندلس فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبدأت ثورته سنة ٢٧٠ فى جبل بربشتر ( ببشتر ) فيما بين رنده ومالقة وانضم إليه الكثيرون من المولدين والخارجين على الطاعة والمفسدين ، واستولى على غرب الأندلس إلى رنده وعلى السواحل من استجة إلى البيرة وظل مستمرا فى ثورته حتى مات سنة ٣٠٦ هـ فخلفه أبناؤه إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ فى عهد عبد الرحمن الناصر .

( انظر : العبر ج ٤ ص ١٣٤٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨ عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ ) .

(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ( عصر الفتنة الكبرى ) ص ٣١٦٢٧ .

ويبـــدو انه كان يطمع في الإستيلاء على مقاليـــد الأمور في الأندلس بدليـــل انه أظهر الميـــل للدولة العباسية وقـــد قاوم هـــذه الثورة الأمير محمـــد وابنـــه المنذر كما قاومهـــــا الأمير عبد الله مقـــاومة شـــديدة وفي سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفيه فعـــاد إلى النصرانية وتسمى بصمويل . وقد أدى ذلك إلى انصراف الكثير من المولدين المسلمين عنه بينما فرح العجم بذلك ، واشتد السخط عليه في انحاء الأندلس وجـــد المسلمون في قتاله حيث رأوا أن حربه من الجهاد(٣) .

وحـــاول ابن حفصون أن يعوض ما فقـــده من أنصـــار ويقـــوى مركزه فخاطب الفونسو الثالث ملك ليـــون وعقـــد معه محالفة كما تودد لبني قسي في الثغر الأعلى ، وخاطب ابن الاغلب صاحب إفريقية وهاداه ، وكذلك الفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس ، وأظهر الدعـــوة العباســـية بالأندلس ، كما أظهر الدعوة لعبيد الله المهدي(٤) .

وقد كان للحملات التي أرســـلها الأمير عبـــد الله أثرها في استنزاف قـــوة ابن حفصون بحيث لم يعـــد يشن حربا هجـــومية كما كان يفعـــل سابقا في عهد الأميرين محمد والمنـــذر وفي الســـنوات الأولى من حـــكم عبد الله ، وكان لهـــذا كله أثره في إضعاف ثورته التي استمرت ما يقرب من النصف قرن حتى قضى عليها في عهـــد الخليفة عبد الرحمن الناصر ســـنة ٣١٥ هـ(٥) .

---

(٣) د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس جـ ١ ص ٣٢٥ ، عنـــان : دولة الإســـلام في الأندلس ص ٤٣ .

(٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٥ . د. محمد زيتون : المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٦٥ .

## ١ ـ الفتنة بين العـــرب والمولدين فى البيرة

ولم يكد يمضى عام واحـــد من إمارة عبد الله حتى اشتعلت نيران فتنة شـــديدة بين العرب والمولدين فى كورة البيرة ، وكانت مدينة قسطلة حـــاضرة هـــذه الكورة ( التى عرفت باسم غرناطة فيما بعـــد ) تذخــر بعـــدد هائل من أهل الذمة من نصـــارى ويهود وكان المسلمون فيها قلة حتى أنها سميت ( بإغرناطة اليهود ) نظرا لكثرتهم فيها كما كانت تضـــم الكثير من المولدين ، وكان النصـــارى والمولدون ـــ برغم إســـلامهم ـــ يؤلفون فى عهـــد الأمير عبد الله رابطـــة قـــوية متآلفة متحـــدة المصالح والأهداف حيث كان يغمر أكثرهم شعور بالكراهية ضـــد السكان العرب ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة المستعمرين المغتصبين لبلادهم ، ومن هنا فقد اضطر العرب إلى تأليف جبهة قـــوية لمناهضة جبهة المولدين والمعاهدين وعرفت هـــذه الجبهة ( بالعصبية )(٦) .

وكان أول من تزعم هـــذه الجبهة عربى من ناحية البراجلة فى كورة البيرة يدعى ( يحيى بن صـــقالة القيسى ) وكان شديد التعصب للعرب ضـــد المولدين والعجم ، فغـــدوا يترصـــدون له حتى أتى إلى حـــاضرتهم قسطلة فقتـــلوه بالرغم من عقـــده معهم أمانا مؤكدا واستولوا على حصن منت شاقر ( منت شقند ) بالقرب من البيرة .

فخلفه على رئاســـة عصبية العرب ســـوار بن حمـــدون القيسى « وكان فارســـا شجاعا محاربا فكثر أتباعـــه واشتدت شـــوكته وأعتزت العـــرب به »(٧) .

---

(٦) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٦ ، عنان : دولة الإســـلام فى الأندلس القسم الثانى ص ٣٥ .

(٧) ابن حيـــان : المقتبس ص ٥٥ .

وقام سـوار فى بداية سنة ٢٧٦ هـ بالثورة فى ناحية البراجـلة وانضمت إليه بيوتات العرب من كورة ألبيرة وجيان وريه وغيرها ، للأخذ بثار يحيى واسترداد حصن منت شاقر الذى استولى عليه المولدون والعجم وكان فيه نحو ستة آلاف منهم ، واستطاع استرداد الحصن وقتل الكثيرين فيه ، ثم أخذ فى فتح حصون المسالمة والنصارى واحدا بعد الآخر ، وقتل الكثير منهم حتى ضجوا منه واستغاثوا بجعد بن عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على البيرة ودعوه إلى قتاله ، وبينوا له انهم على طاعتهم للسلطان ، فخرج وخرجوا معه فى جيش كثيف لمقاتلة سوار ولكنه تمكن من هزيمتهم ، واعمل فى المولدين السيف حتى ذكر انه قتل منهم سبعة آلاف وأسر جعداً واساء معاملته ثم اطلق سراحه لكونه عربى ، وقد عرفت هذه الموقعة ( بوقيعة جعد )(٨) .

وقد أدى هذا الانتصار إلى قوة نفوذ سوار واشتداد باسه فكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح ، وصاروا يدا على المولدين والنصارى . وخاطب المولدون الأمير حتى يكف بأس سوار عنهم ، وراسله الأمير فأظهر الامتثال لطاعته وعقد مع أهل قسطلة الصلح ، ويظهر انه طلب من الأمير عزل جعد فعزله وولى مكانه عمر بن عبد الله بن خالد وكان شريكا لسوار ، وخرج سوار للاسهام فى مقاتلة ابن حفصون واغار على حصونه فى سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب أهل قسطلة لذلك وجمعوا جموعهم لقتاله فيما يزيد على عشرين الفا ، واستطاع سوار هزيمتهم وقتل منهم نحو احد عشر الفا وسميت هذه

---

(٨) ابن حيان : المقتبس ص ٥٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٠٢ .

الموقعة ( بوقعــة المدينــة ) حيث دار القتال فى سهل وادى شنيل بالقرب من غرناطــة(٩) .

وأمام ذلك لاذ المولــدون بابن حفصــون وخلعــوا طــاعة الأمير عبد الله ، واشتبك ابن حفصون مع سوار فى معركة هزم فيهــا وأصيب بجراح كثيرة فاضطر للعودة إلى حصنه فى ببشتر . وترك قائده حفص ابن المرة لمقاتلة ســوار ، حتى استطاع أن يستدرجه للقتال فى نفر قليل سنة ٢٧٧ هـ ، ونصب لــه عــدة كمائن خرجت عليه وتمكنت من قتــله وجئ بجثته إلى قسطلة فأظهر المولدون والنصارى فيها الشماتة والفرحة حتى ذكر « أن الثكالى من نسائهم قطعن لحمــه مزقا ، وأكله كثير منهن حنقــا عليه لمــا قــد نالهن من الثــكل فى بعــولتهن وأهليهــن واليتم فى أبنــائهم »(١٠) .

وقــد أدى ذلك إلى تصــدع جبهة العرب ، فاختاروا بعــده سعيد ابن سليمان بن جودى الذى حاول جمع شملهم ، ولكنه لم يتمــكن من سد الفراغ الذى تركــه ســوار ، فلم يكن مثــله فى القــوة والشجاعة والسياسة ، وظــل رئيسا للعرب فى البيرة نحــو سبع سنوات حتى تمكن أعــداؤه من قتله غيلة فى ذى القعدة سنة ٢٨٤ هـ(١١) .

---

(٩) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ وهو يذكر أن جموعهم كانت ٢٣ الف ، ابن حيان : المقتبس ص ٥٧ ، السيد سالم : مرجــع ســابق ص ٢٦٧ .

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ٦٠ .

(١١) ذكر ابن عــذارى أنه قتــل فى دار عشيقة له يهودية . ( البيــان المغــرب ج ٢ ص ٢٠٤ ) .

ويقال إنه قتــل بتدبير الأمير عبد الله بسبب أبيات قالها فى ذم بنى =

وقام برئاسة العرب بعده محمد بن أضحى بن عبد اللطيف الهمذانى صاحب حصن الحامة ( الحمة ) فسار على سياسة سلفه ، ولكنه هزم فى إحدى المعارك مع ابن حفصون وأسر وافتداه أصحابه بمال جزيل ، ومن ذلك الحين فقد العرب الزعامة المماثلة لسوار فى القوة والشجاعة والسياسة فتفرقت كلمتهم وانحلت عصبيتهم ضد المولدين ، وشبت العصبية فيما بينهم ووقع الاختلاف فتفرغوا للقتال مع بعضهم(١٢) .

## ٢ ــ الفتنة بين العرب والمولدين فى لبلة

ومثلما حدث فى البيرة حدث فى لبلة حيث ألف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسالمة ، وتزعم هذه الجبهة رجل يسمى عثمان ويعرف بابن عمرون .

وقد ثار على واليها عمرو بن سعيد القرشى واستطاع الاستيلاء على دار الإمارة وإخراج الوالى من المدينة ، وما لبث أن انضم إليه جماعة من العرب فأغار بهم على قرى إشبيلية . ولما علم الأمير عبد الله بثورته بعث إليه عثمان بن عبد الغافر ليستميله فنجح فى ذلك ، وعاد ابن عمرون إلى إظهار ولائه للأمير وفرق اتباعه ، وسكنت الفتنة إلى حين ، ثم لم تلبث

---

=

أمية جاء فيها :

**يا بنى مروان جدوا فى الهرب**
**نجم الثائر من وادى القصب**
**يا بنى مروان خلوا ملكنا**
**إنما الملك لأبناء العرب**

(١٢) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٨ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ( عصر الفتنة ) ص ٣٦ .

أن اشتعلت من جـديد بين العرب المولدين ، فسار ابن عمرون إلى حصن قرقبة فاستولى عليه وتحصن فيه ، وانضم إليـه عثمان ورجاله وخـرج العرب بقيادة عثمان لملاقاة المولدين فهزموهم وقتلوا منهم عـددا كبيرا ، وامتدت نيران هـذه الفتنة إلى منت ميـور التى ثار فيها رجل من المولدين يدعى ابن خصيب ، كما ثار مولـد آخر يدعى ابن عفير فى جبـل العيون وهو من حصون لبلة وأخـذت نيران هـذه الفتنة تمتد شيئا فشيئا حتى وصلت إلى إشـبيلية(١٣) .

## ٣ ـ الفتنة بين العرب والمولدين فى شـبيلية

كانت إشبيلية تعـد العاصمة الثانية للأندلس بعـد قرطبة ، وكان العـدد الأكبر من سـكانها من النصـارى المولدين ، بالإضـافة إلى مجموعات من السكان العرب أمثال بنى موسى وبنى الجـد ، وبنى الحجاج وبنى خلدون وغيرهم وكذلك من البربر . وكانت هذه القبائل العربية تؤلف فيما بينها العصبية العـربية فى إشـبيلية ، وقـد قامت بعـد الفتـح مصاهرات بين العرب والإسبان فى إشبيلية وغيرها من كور الأندلس فكثر زواج العرب بالاسبانيات ونشأ جيل عرف بالمولدين أصبح يشكل أغلبية السكان بمضى الزمن واحتفظ كثير منهم بأسمائهم القـديمة مثل بنى أنجلين وبنى شبرقـة وغيرهم .

غير أنه بمضى الزمن أخـذت العصبية تلعب دورها فأصبحنا نرى فى إشبيلية عصبية عربية يمثلها بنـو أبى عبدة بزعامة أمية بن عبد الغافر وبنـو حجاج برئاسة عبد الله وأخيه إبراهيم وبنـو خلدون بزعامة كريب وخالد بن عثمان وهم قوم المؤرخ المشـهور ابن خلـدون ، وعصبية من

---

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ٦٦ — ٦٧ .

المولدين يمثلها بنو انجلين وبنو شبرقة ، كما وجد فريق محايد من العرب والبربر والموالى لم يتعصبوا لفريق وظلوا على ولائهم للإمارة الأموية(١٤) .

وكان التنافس بين العرب والمولدين على النفوذ والرياسة من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكان المولدون فى إشبيلية كما يصفهم ابن حيان « أغلظ أهلها شوكة ، وأوسعهم نعمة وأعزهم جانبا ، وأحضرهم عدة ، يعتدون فى اثنى عشر رئيسا ، لكل رئيس منهم عقدة يعقدها وعدة يعتد بها »(١٥) .

وكان السبب فى اشتعال نيران هذه الفتنة هو قيام كريب بن عثمان بن خلدون بالتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الثائر بشذونة ، وعثمان بن عمرون الثائر بلبلة وكانا من اليمنية ، وكذلك جنيد ابن وهب القرمونى من البربر البرانس ضد المولدين والموالى بإشبيلية وعندئذ كون هؤلاء حلفا مع المضربين ، والبربر البتر من أهل كورة مورور المجاورة ونلاحظ هناك تداخل العصبيات فاليمنية والبربر البرانس فى جهة ، والمضرية والبربر البتر فى ناحية . وهذا يدل على مدى ما فعلته العصبية بالإضافة إلى المصالح فى الفتن والصراعات التى قامت بين عناصر السكان فى الأندلس .

ولكن كريب لم يستطع أن يحقق أهدافه فى السيطرة والنفوذ على إشبيلية أمام تكتل المولدين والموالى فاضطر إلى الخروج من إشبيلية ، واستوطن قرية تشرف عليها تسمى ( البلاط ) ، ومن هناك حرض بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فأغاروا على قرية

(١٤) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٩ كان الفريق المحايد يتألف من عرب قرشيين وبعض الموالى الأمويين وبعض البربر .
(١٥) المقتبس ص ٧٥ .

تسمى طلياطه فقتلوا الكثير من أهلهـا واستباحوها وسبوا الكثير من نسائهم وذراريهم ، فخرج موسى بن أبى العاص والى إشبيلية لصدهم ولكنهم استطاعوا هزيمته ، وانطلقوا يشنون غاراتهم على جميع جهاتها فأدى ذلك إلى عزل الأمير عبد الله له ، وتوليـه حسين بن محمد المـورى مكـانه .

وفى عهد هذا الوالى ظهر بين قرطبة وإشبيلية قاطع طريق بربرى الأصل يدعى (( الطماشكة )) فقـام أهل استجه من المولدين وعلى رأسهم محمد بن غالب بإقامة حصن فى قرية شنت طرش — بموافقة الأمير — وقام وبعض أتباعه من البربر البتر والموالى والمولدين بحراسة الطريق بين قرطبة وإشبيلية حتى علا شأنه ، وتردد ذكر اسمه . فحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية من العرب فهاجموه أملا للقضاء عليـه حتى تكون لهم الكلمة العليا ولكنه استطاع هزيمتهم وقتل أحدهم فشكوا إلى والى إشبيلية فطالب بثأر المقتيل من ابن غالب ، فأرسلهم إلى الأمير ، فالتبس عليه الحكم فى قضيتهم نظرا لتضارب الأقوال والشهادات ، وعـزل الوالى حسـين ابن محـمد المورى وولى مـكانه محـمد بن خـالد الخـالدى المعـروف بالمعوج ، ثم ما لبث أن عزله أيضا وولى مكانه ابن عمه امية بن عبد الغافر الخالدى فاستقر مع محـمد ابن الأمير عبـد الله فى قصر إشبيلية ، ووكل الأمير إلى ابنه البت فى القضية ، فجمع الفريقين ولكنه وجد تعصبا فى كل فريق لرأيه ، فاضطر إلى إرجـاء النظر فى القضية ايضـا وسمح لابن غالب بالعـودة لحصنه ، فأدى ذلك إلى غضب العـرب وازدادت قلوبهم كراهيـة وتعصـبا ضـد المولدين ، وخـرجوا من إشبيلية وارسـلوا إلى محالفيهم ، وشقوا عصا الطاعة على الأمير عبد الله .

واستطاعوا الاستيلاء على مدينة قرمونة ، وحصن قورية وجـزيرة

الأسيلة ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير اشار عليه وزراؤه بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب حتى يدخلوا فى طاعته مرة اخرى ، فاخذ الأمير بذلك .

وقد اثار مقتل ابن غالب ثائرة المولدين والموالى ، فوثبوا على عامل إشبيلية امية بن عبد الغافر بعد أن ارسلوا إلى حلفائهم من المضريين والبتر فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

وفر امية للاحتماء بمحمد ابن الأمير عبد الله ، فارسل إلى محمد بن خطاب بن انجلين زعيم المولدين بإشبيلية للتفاهم معه فى إطفاء نيران الفتنة ، وكان زعيم المولدين قد اتفق مع اصحابه من المحاصرين للقصر على مهاجمته عند اذان الظهر إذا لم يخرج هو ومن معه ، ولما مضى الوقت المحدد اقتحم المولدون القصر ونهبوا خيله ومراكبه ، وكان امية ورفاقه قد قبضوا على ابن خطاب ومن معه وامر غلمانه بالاستعداد لصد المهاجمين ، واستمر حصار المولدين للقصر حتى اليوم التالى واستنجد الأمويون بالجعد بن عبد الغافر فاقبل بمسكره من قرمونة ودخل إشبيلية واستطاع هزيمة المحاصرين وقتل منهم عددا كبيرا .

وامر محمد بضرب اعناق ابن انجلين ورفاقه ومصادرة اموالهم ونهب دورهم وكتب إلى ابيه بذلك فامره بالعودة إلى قرطبة ، واستقدم امية والى إشبيلية سادات العرب وقربهم فاقاموا فيها بعض الوقت ، ثم ما لبثوا ان عادوا للثورة مرة اخرى . وكان لمقتل الجعد فى كمين للطماشكة هو واخوبه أثره فى حزن امية عليهم ، وفى عودة العصبية بين العرب والمولدين من جديد حيث حمل عرب إشبيلية وقرمونة على

المولدين والأعاجم فى إشبيلية وما جاورها حملة عنيفة قتلوا فيها الكثيرين منهم .

وظلت الكلمة للجبهة العربية وحلفائها حتى استطاع الأمير عبد الله القضاء على شوكتهم بالقوة تارة ، وبالحيلة تارة أخرى إلى أن تمكن ابراهيم بن الحجاج من الاستقلال بإشبيلية سنة ٢٨٦هـ بعد أن كانت مقسمة بينه وبين حليفه كريب بن خلدون(١٦) .

واستمر إبراهيم فى حكم إشبيلية وقرمونة حتى توفى سنة ٢٩٨ هـ فخلفه ولداه عبد الرحمن فى حكم إشبيلية ، ومحمد فى حكم قرمونة حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الخليفة الناصر(١٧) .

★ ★ ★

(١٦) انظر الرواية كاملة فى المقتبس ص ٦٧ — ٨٥ .

(١٧) راجع تفاصيل ثورة بنى الحجاج فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٥ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٣٥ ، ج ٧ ص ٢٨٠ — ٢٨١ . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٣٨ — ٤٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٨ ، ٢٨١ .

## رابعـــا : العـــلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

كان فتـــح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا ( الأندلس ) فاتحـــة عصر جـــديد ، وبداية تطـــور هام بالنسبة لها ، فقـــد كانت تعانى قبل الفتح الإســـلامى لهـــا من كثير من مظاهر الجور والعسف والاستبداد تحـــت حكم القوط ، حيث كانت أقليـــة من الحكام والأمراء والنـــبلاء تمتـــع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب أغلبية فرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال ، فلمـــا جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله ، وأشاع مبادىء العـــدالة والمساواة والحرية . وأقبـــل عليه الكثير من أهـــل هـــذه البلاد ، لمـــا لمسوه فيـــه من قيم ومبادىء نبيلة خلصتهم ممـــا كانوا فيـــه .

أما من بقى على دينـــه منهم : فقـــد ترك لهم المسلمون الفـــاتحون الحرية الكاملة فى ممارســـة شعائر عقائدهم الدينية ، وضربوا بذلك مثلا أعلى فى التسامح . كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التى كانت مفروضة عليهم ، واكتفوا منهم بأداء الجزية التى كانت تتراوح قـــلة أو كثرة على حسب مقـــدرة الشخص المـــالية .

وكان الخراج يفرض بالتساوى على من يحوز الأرض ســـواء كان مسلما أو ذميا . وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الاقطاع والرق القديم ، وتملكوا الأراضى وأصبح لهم حـــق التصرف فيها . ولم يكن لهم هـــذا قبـــل الفتـــح(1) .

---

(1) عنـــان : دولة الإســـلام فى الأندلس ج ١ ص ٧٤ ، لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٤ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠ .

وقــد عومل أهل الذمة فى الأندلس بمقتضى معـــاهدات تنظم ذلك ، ويعتبر العهد الذى اعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حـــاكم شرق الأندلس خير مثال لذلك . وهــذا نصـــه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هــذا كتاب من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غنــدر يس إذ نزل على الصلح ان له عهد الله وميثاقه ، ومــا بعث به أنبياءه ورسـله ، وأن لــه ذمة الله عز وجــل ، وذمة محمــد ﷺ ، الا يقــدم لــه والا يؤخر لأحــد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائســهم ، ولا يكرهــون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مدائن ، وانه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحــل ما انعقد ، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه امره ، ولا يكتمنا خبرا علمــه ، وأن عليـــه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حــر دينار واربعة أمــداد من قمــح ، واربعة أمــداد من شعير ، واربعة اقساط خــل وقسطا عسل وقسط زيت ، وعلى كل عبــد نصف هــذا ــ شهد على ذلك عثمــان بن عبــد الله القرشى ، وسليمان بن قيس التجيبى ، ويحيى بن يعمر السهمى ، وبشير بن قيس اللخمى ، ويعيش بن عبد الله الأزدى ، وابو الأصــم الهــــذلى ، وكتب فى رجب ســـنة اربع وتسعين »(٢) .

ولقــد استطاع المسلمون الفاتحون أن يقضوا فى أعوام قليلة على الكثير من عناصر القلق والاضطراب ، وأن ينظمــوا إدارة البلاد ، فقــد

---

(٢) ابن الدلائى : ترصـــيع الأخبــار وتنـــويع الآثار ص ٥ ، تحقيــق د. الأهوانى ، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ســـنة ١٩٦٥ م . الحميرى : الروض المعطار ص ٦٢ ــ ٦٣ مطبعـــة لجنـــة التاليف القاهرة سنة ١٩٣٧م . د. حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ١١٤ ــ ١١٥ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٥٥ ــ ٥٦ .

ابقوا لأهل الذمة شرائعهم وقضائهم ، وعينوا لهم حكاما من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعون الضرائب المقررة منهم ، ويفصلون بينهم فى الأحكام ، كما عينوا الكثير من الأكفاء منهم فى مناصب هامة فى الدولة مثل أرطباس الذى عينه عبد الرحمن الداخل أول قومس للنصارى بالأندلس(٣) ، وجيزون قاضى النصارى بقرطبة الذى عينه الحكم المستنصر واتخذه إلى جانب ذلك مترجما له(٤) ، وحسداى بن شبروط اليهودى الذى اتخذه الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا خاصا له وغدا من أصحاب النفوذ والثراء فى عهد المستنصر(٥) .

وهكذا تمتع أهل الذمة بالكثير من الحقوق فى ظل الحكم الإسلامى ، وكان لهذا التسامح أثره فى رضائهم بالنظام الجديد ، واعترافهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقوط كما يقول لين بول(٦) .

ويعترف بهذه الحقائق بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين المعتدلين فيقول دوزى مثلا : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل ، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا احدا فى شؤون الدين ، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج .
ويقول معترفا بآثار الفتح الإسلامى الإيجابية « كان الفتح العربى

---

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٨ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .
(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٠ .
(٦) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٣٨ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٤ - ٦٥ .

نعمة لاسبانيا ، فقد احدث ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على الكثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد من قرون ... الخ » .

ويقول لين بول : « يجب الا يخطر ببال احد أن العرب عاثوا فى البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم فى عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحين » .

ويقول ايضا « وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم ، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف . وكان التسامح الدينى سائدا فلم يدع للأسبان سببا للشكوى »(٧) .

ويقول المؤرخ الأمريكى سكوت : « كان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية ، والأحبار يزاولون لشؤونهم فى سلام . أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون للعرب فيها أفظع المثالب فهى محض مبالغة وافتراء » .

وإن كنا لا نوافقه فى أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بآرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التى سيأتى ذكرها .

وينوه المؤرخ الأمريكى الدكتور ( لى ) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وعن بغض الأجناس والتفرقة بينها .

---

(٧) انظر : العرب فى اسبانيا ص ٣٨ وبعدها ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٧ — ٢٨ .

ويذكر المستشرق ( التاميرا ) أن أغلبية الشعب الإسبانى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضائها وأساقفتها ، وكنائسها ، وبالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل ، وقنع الولاة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية » .

وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصا من الاعتراف بذلك مثل المستشرق الإسبانى سيمونت الذى يقول « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة »(٨) .

انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة ، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض ، أو للخلاص من دفع الجزية ، أو لرفع مكانته الاجتماعية .

ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها ، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين — وسموا بالمسالمة — أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقلون شيئا فشيئا وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم . وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم — برغم بقائهم على دينهم — فأخذوا يقلدونهم فى كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب ، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموا بالمستعربين . وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضا

---

(٨) انظر : عنان : دولة الإسلام فى الأندلس العصر الأول ص ٦٠ — ٦٥ .

د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ١٨٧ — ١٩٠ .

من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت فى فتحهم لإسبانيا خلاصا لها من الجور والاضطهاد الذى كانت ترزح تحته أثناء حكم القوط(٩) .

وبالرغم من هذا التسامح التام الذى أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى ، إلا أن فريقا من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مغتصبون ، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمروق والخيانة للدين والوطن .

وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة ، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها ، وكانوا يبغضون المسلمين ، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسلمين من إسبانيا(١٠) .

وكان تغلغل حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد أحدث رد فعل قوى لديهم فأخذوا يبدون أسفهم الشديد وتحسرهم لذلك . وحاولوا عبثا وقف هذه الحركة دون جدوى ، فلم يجدوا أمامهم سبيلا إلا الطعن فى الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيهم معتمدين

---

(٩) أنظر د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩ — ٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٥ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٣ .

(١٠) عن هذه الحركة راجع : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٦٨ وبعدها . عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ( العصر الأول ) ص ٢٠٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١ وبعدها ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٣٨ وبعدها .

على طائفـــة من الخرافات والاباطيل التى يروجها رجال الكنيسـة .

ولم تكن العـــوامل الدينية هى وحـــدها مبعث ذلك التعصب ، بل كان للعـــوامل الاجتماعية أيضـــا دور فى ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير قلوبهم ما يحيط بالحكم الإسلامى فى الأندلس من مظاهر العز والسؤدد ، وما يظهر به الحـــكام المسلمون من مظاهر الفخـــامة والعظمة ، وما ينعم به المجتمع الأندلسى من حياة رغدة آمنة مستقرة(١١) .

وكان يذكى هـــذا الحقـــد فى نفوسهم ما يتعرضون له — نتيجـــة لتعصبهم — من معاملة خشنة وخاصـــة من العامة . وبلغ هـــذا التعصب مداه فى عهـــد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذى بدأت حضـــارة الأندلس فى عهـــده فى التألق ، واصـــبحت الأندلس فى عـــداد الدول العظمى فى العالم الإسلامى والمسيحى على السواء(١٢) .

وكان فى وســـع هؤلاء المتعصبين فى طليطلة وغيرها من المـــدن البعيدة عن العاصمة ( قرطبـــة ) أن يرفعوا علم الثـــورة أو ينضـــموا إلى الثورات التى تقوم ضـــد الأمويين ، ولكنهم فى قرطبة قاموا بحـــركة دينية خطيرة سنة ٢٣٧ هـ حيث عمـــدوا إلى تحقيق أهـــدافهم بوسيلة بسيطة وخطيرة فى نفس الوقت وهى المجاهرة بسب الإســـلام ونبيـــه فى الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا عـــلى ذلك ، وأن تلك جريمـــة شنعاء تعرض مرتكبها لعقـــوبة القتـــل ، غير انهـــم انزلقـــوا فى هـــذا المنحـــدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين فيؤدى ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة(١٣) .

---

(١١) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٩ .

(١٢) د. السـيد ســـالم : تاريـــخ المسـلمين وآثارهـــم فى الأندلس ص ٢٢٩ — ٢٤١ .

(١٣) يذكر أن هـــذه الفتنة التى سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحـــوار دار بين قسيس من قرطبـــة يدعى برفكتوس مـــع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعيسى ، وحميت المناقشة فتحولت إلى جـــدال =

وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولوخيوس او (ايلوج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الاسبان الذين اعتنقوه ، ويحبب لأتباعه الاستشهاد فى سبيل نصرة المسيحية ضد الإسلام ، وكان يساعده فى ذلك شاب مسيحى من أغنياء قرطبة يدعى ( الفارو ) أخذ ينتقد الأسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وآدابها ويتركون اللاتينية وشروحها . وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى ( برفكتوس ) ، وفتاة اسبانية تدعى ( فلورا ) كانت قد أسلمت ثم ارتدت . وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معا ، فاستدعى مجلسا من الأساقفة عقد فى قرطبة برئاسة ( ريكفارد ) مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فى هذا المجلس كاتبه النصرانى جوميز ابن انطونيان بن جوليان عامل أهل الذمة(١٤) وتم فى هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الغلاة من عواقب خطيرة ، وأصدر المجلس قرارا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين ، ويحذر باقى النصارى من الانضمام إليهم ، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك .

غير ان ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ، فقد تمادى هؤلاء فى غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم فى السجون ، وقدموا للمحاكمة فأخذوا يطلقون السنتهم بالسب والقذف فى الإسلام ونبيه ،

---

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم مما أدى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استغلال ذلك وعلى رأسهم يولوخيوس للقيام بدعاياتهم ضد الإسلام ( د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٥ ) .

(١٤) يسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانه وقد اعتنق الإسلام فيما بعد وسمى بحمامة المسجد ( انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣ ) .

وحاول القضـــاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجـــد نفعـــا ، عند ذلك اخـــذوا يحكمون عليهم بالقتـــل جـــزاء ما يصنعون ، وكان الأحبـــار يكرمون رفات هـــؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضراما ، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فرأوا عـــدم مقابلتها بالعنف حتى لا تزداد اشتعالا فأخـــذوا فى مراجعة هؤلاء المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتـــل ولكنهم كانوا يطالبـــون بالموت حتى يلحقـــوا بإخـــوانهم الشهداء ، حتى أن القاضى الذى حاكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن اخـــذت تطالبه بالحكم عليها بالإعـــدام وتمـــادت فى السب والقـــذف أمامه حتى حكم عليها بالموت ، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحـــو أحـــد عشر متعصبا فى شهرين(١٥) .

واعتقـــل يولوخيـــوس وغيره من زعمـــاء الحـــركة ، ورغـــم ذلك استمرت الفتنة ، ولمـــا توفى الأمير عبـــد الرحمن أفـــرج عنـــه وعـــين أسقفا لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هـــذه الفتنة فهـــدأت قليلا ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصـــل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبـــض عليـــه واعـــدم فى مارس ســـنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م بأمر من الأمير محـــمد الأول بن عبد الرحمن ، وبقتله اخـــذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت ، وهكذا انتهـــت هـــذه الفتنة الخطـــيرة التى استمرت ما يقرب من ثمانى سنوات ٢٣٧هـ / ٨٥١م — ٢٤٥هـ / ٨٥٩م ولم تحقق شـــيئا من أهـــدافها بل على العكس أدت إلى مقتـــل نحـــو اربعـــة واربعين من المتعصـــبين ، وإلى إثارة الســـخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يقـــدرون تسامح المسلمين(١٦) .

---

(١٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإســـلامى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١ عنان : دولة الإســـلام فى الأندلس ص ٢٥٨ — ٢٦١ .

(١٦) د. محمـــد زيتـــون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٧ ، د. أحمد شلبى : المرجـــع السابق ج ٤ ص ٥١ د. السيد سالم : تاريخ المســـلمين ص ٢٤٢ ، عنـــان : دولة الإســـلام فى الأندلس ص ٢٦١ .

# الفصل الثالث

## الحالة الدينية

من الطبيعى أن يكون التدين ، والعناية بشعائر الدين أمرا واضحا ، وسمة مميزة فى بلد شغل بالحروب طويلا ، واتقدت فيه روح الجهاد والمرابطة كالأندلس . وقد كان لمجاورة المسلمين للنصارى فى أسبانيا وأوربا أثر بالغ فى ازدياد هذا الشعور(١) .

ولذلك فقد اتصف أهل الأندلس عامة بالتدين والمحافظة على شعائر الدين إلا القليلين ، وكانوا يجلون رجال الدين ويقدرونهم وخاصة الفقهاء ومن هنا كان لقب فقيه عندهم من أرفع الألقاب ، وكانوا إذا ما أرادوا تكريم عالم أو أمير عظيم اطلقوا عليه هذا اللقب .

كما كانوا يقيمون الحدود الشرعية ، وينكرون التهاون فى تعطيلها إذا رأوا فى ذلك تهاونا من قبل السلطان كما ذكر ابن سعيد المغربى(٢) .

وعندما دخل المسلمون الأندلس اظهروا حماسة بالغة فى نصرة الإسلام ونشره ، وخاضوا من أجل ذلك معارك شتى ، وحروبا تكاد تكون متصلة ضد الأعداء بحيث يمكن القول : إن حياة المسلمين فى الأندلس كانت فى مجموعها أو مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم من ناحية بفعل العصبية والتنافس على الملك والرئاسة ، وبينهم وبين النصارى من ناحية أخرى . وبالخص بعض المؤرخين الإسبان

---

(١) يقول القزوينى : « ومن عجائب الدنيا .... المملكة الإسلامية بالأندلس مع إحاطة الفرنج بها من جميع الجوانب » عجائب المخلوقات ص ٣٨٨ .

وهى أعجوبة حقا بذل المسلمون فى سبيل تكوينها الكثير ، ومكثوا فى صراع لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد لمدة ثمانية قرون ، واستطاعوا فى خلال فترات الهدوء والاستقرار القليلة إقامة تلك الحضارة الباذخة .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

تاريخ المسلمين فى الأندلس مع الأسبان وحلفائهم من النصارى بأنها « معركة القرون الثمانية Labatalle de Ocho » . ولذلك فإن الحروب المتتالية للمسلمين مع الأسبان وحلفائهم من الأوربيين كانت تبعث فى نفوسهم الحمية والحماسة الدينية فيما عدا فترات قليلة تعاون فيها بعض الطامعين فى الملك والرئاسة — وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — مع هؤلاء الأعداء ، خاصة وانهم ادركوا أن بقاءهم وبقاء دولتهم فى الأندلس رهين ببقاء الإسلام والالتزام بنصرته ، فيذكر المقرى عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق « أن أهل الأندلس أصحاب جهاد متصل »(٢) .

## اولا — المذاهب الفقهية

وإذا كان المسلمون قد شهدوا فى المشرق نشأة الفرق والأحزاب السياسية والدينية التى ادت إلى مزيد من الصراع والتشتت والانقسام الفكرى والدينى والسياسى ، فإنهم لم يشهدوا مثل ذلك الصراع فى الأندلس ، حيث كانت مذاهب اهل السنة هى المعمول بها فى الأندلس .

فقد كان مذهب الإمام الأوزاعى إمام اهل الشام ( ١٥٧ هـ / ٧٤٤ م ) هو المذهب المعمول به فى بداية الأمر ، ثم بدا مذهب الإمام مالك فى دخول الأندلس منذ عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضا ( ١٧٢هـ — ٧٨٨م — ١٨٠هـ/٧٩٦م )(٣) .

---

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٧١ .

(٣) يذهب ليفى بروفنسال إلى ان مذهب مالك دخل الأندلس قرب نهاية حكم الأمير هشام الأول او فى السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم ( الحضارة العربية ص ١٥٨ ) . وقد ذهب د. حسن ابراهيم حسن وكذلك د. حسن على حسن : إلى أن مذهب مالك لم ينتشر

يقول ابن الفرضي في ترجمة زهير بن مالك البلوي : « كان فقيها على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه اهل الأندلس قبل دخول بني امية »(٤) .

وكان تلميذ الإمام الأوزاعي في الأندلس ، والذي يرجع إليه الفضل في نشر مذهبه الفقيه صعصعة بن سلام الشامي ( قاضي قرطبة وصاحب الصلاة فيها ت ١٩٢ هـ )(٥) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن مذهب الإمام مالك قد بدأ في الانتشار في الأندلس في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وان اول من ادخله زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون ( ت ١٩٣ هـ ) . وكان قد رحل إلى المدينة بعد عام واحد من إمارة هشام ، وتتلمذ على يد الإمام مالك الذي كان معاصرا لهشام وكان يثني عليه وعلى حسن سيرته ، ثم اصبح المذهب العام والسائد والرسمي منذ عهد الحكم ابن هشام ولذلك يذكر ابن سعيد « انه لا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به »(٦) .

---

= إلا في عهد الحكم بن هشام ( انظر الحياة الدينية في المغرب في القرن الثالث الهجري ص ١٠٧ ، تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٣٣ ) .

والحقيقة ان معظم المصادر تتفق على ان هذا المذهب قد بدأ في الانتشار في عهد هشام ، واصبح المذهب الرسمي في عهد الحكم .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ص ١٥٣ . الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م القاهرة .

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ ، تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ٥٩ ، ١٥٨ .

(٦) وقد ذكر البعض : أن الغازي بن قيس ( ت ١٩٩ هـ ) هو اول من أدخل الموطأ إلى الأندلس في أيام عبد الرحمن الداخل ، وكان مؤدبا بقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وأدرك نافع بن أبي نعيم القارىء ، وأخذ عن الأوزاعي ، ويقال إن عبد الرحمن عرض عليه القضاء فأبى واشتغل بالفقه والفتوى

وتختلف الروايات فى سبب تحول الأندلسيين عن مذهب الإمام الأوزاعى إلى مذهب الإمام مالك . فمن قائل : إن العلماء والفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قابلوا الإمام مالك فى المدينة فأعجبوا بشخصه وفقهه المعتمد على الكتاب والسنة ، والذى يميل إلى الناحية العملية — فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتفق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض من أوامره ونواهيه — وقد أخذت المذاهب الأخرى من هذه القاعدة بأطراف ولكن الإمام مالك يعمم ذلك ، ويجعله قاعدة ولم يكن يلجأ إلى الرأى إلا فى حالات الضرورة القصوى(٧) .

ومن قائل : إن الإمام مالك سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن أميرهم هشام فأثنوا عليه خيرا — وكان تقيا ورعا مجاهدا — فقال مالك — وكان فى نفسه من بنى العباس شىء — : ليت الله أن يزين موسمنا بمثله ، أو ليت الله أن يزين حرمنا بملككم » .

فلما سمع هشام هذا سمح لتلاميذه من أمثال الغازى بن قيس ، وزياد ابن عبد الرحمن ( شبطون ) ويحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، وقرعوس بن العباس بتدريس مذهبه ونشره ، وأمر القضاة بالعمل به . ومن هنا أخذ مذهب مالك فى الانتشار حتى غدا المذهب الرسمى فى الأندلس(٨) .

---

= ( أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ج ٢ ص ١٧٧ ) .

(٧) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ .

(٨) أنظر د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم والأندلس ص ٢١٨ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٤ — ٥٥ . ويذهب د. الشكعة : إلى =

ويذكر المقرى سبب دخول مذهب مالك إلى الأندلس فيقول : « ذهب الجمهور إلى أن السبب فى ذلك هو رحلة علماء الاندلس إلى المدينة ، وعند رجوعهم أفاضوا فى الحديث عن فضل مالك ، وسعة علمه ، وجلال قدره ، ومن هنا اقبلوا على مذهبه ، على أن هناك رأيا يذهب إلى أن مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة أميرهم فسره ما سمع من حسن سيرته وعدله فى حكمه » وقد كان مالك يكره سلوك بنى العباس وخاصة المنصور ، وذلك لما فعله بالعلويين فى ثورة النفس الزكية ، ومن هنا تمنى أن يهب الله المشرق خليفة عادلا ، وبلغت امنيته الحكم بن هشام فحمل الناس على اتباع مذهبه وترك مذهب الأوزاعى(٩) .

كما نقل المقرى عن ابن حزم رأيه فى ذلك حيث يقول ( ابن حزم ) : « مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبى حنيفة فى المشرق ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول فى القضاء ، وكان لا يلى قاضى فى أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس

---

=

ان الحكم بن هشام هو الذى نشر مذهب مالك بن جمهرة الناس ، وخلط بين هشام وبين ابنه حين قال « فسمع الحكم ثناء مالك عليه » . وقد اتفقت غالبية المصادر على أن هشام هو الذى اثنى عليه الإمام مالك ( أنظر الأدب الأندلسى ص ٧٤ ) .

(٩) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

ويمكن دمج الرأيين فى رأى واحد فنقول : إن مالكا سأل بعض علماء الأندلس الذين التقوا به وتتلمذوا على يديه واسوا جلال قدره وسعة وعلمه عن أميرهم فأثنوا عليه خيرا مما جعله يثنى عليه فتمنى ما تمنى مما كان سببا فى إقبال الناس فى الأندلس على علمه ومذهبه وقام هؤلاء التلاميذ بدور أساسى فى ذلك .

سراع إلى الدنيا فاقبلوا على ما يرجون به أغراضهم(١٠) . ولكننا لا نوافق ابن حزم على أن السبب فى إقبال الناس فى الأندلس على مذهب مالك هو طمعهم فى الدنيا ، والحق أن مذهب مالك مذهب واقعى أو عملى يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين وفى صالح جمهورهم يعد من الإسلام ما لم يتناقض مع مبادئه وأحكامه أو أوامره ونواهيه ، هذا فضلا عن أنه مذهب أهل المدينة مستقر رسول الله ﷺ ومثواه والتى عاش فيها كثير من صحابته ، وتهوى إليها النفوس .

ويضيف ابن خلدون سببا آخر على طريقته فى فلسفة أحداث التاريخ فيذكر أن البداوة كانت هى الغالبة على أهل المغرب والأندلس وأنهم لم تكن لهم حضارة أهل العراق ، فكانوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة(١١) . ونضيف إلى ما قاله ابن خلدون أن مذهب مالك يعتمد على النصوص أكثر مما يعتمد على العقل والقياس ، وهذا أيضا مما يناسب البداوة . ويعد أكثر ملائمة لعقلية الأندلسيين .

ويفسر الأستاذ العبادى انتشار مذهب مالك بعوامل سياسية فيذكر أن النفور كان شديدا،والخصومة مستحكمة بين الأمويين والعباسيين حيث كان العباسيون على المذهب الحنفى لأن مالكا لم يكن يستريح لسياسة العباسيين(١٢) .

وبالاضافة إلى هذه الأسباب فإننا نستطيع أن نضيف سببا آخر له أهميته وهو أن الأندلس لم تكن بمنأى عن التيارات المذهبية فى المغرب الذى لا يفصلها عنها إلا مضيق صغير ، وكان المذهب المالكى قد انتشر فى بلاد المغرب على يد سحنون وأسد بن الفرات اللذين

---

(١٠) نفح الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .
(١١) المقدمة ص ٤٢٥ المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ .
(١٢) المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٨٩ .

ادخــلاه إليها وعمــلا على نشره مـــع طائفة من الفقهاء(١٣) .

ومن هنـــا امتد هـــذا المذهب إلى الأندلس حيث كان كثير من البربر الذين شاركوا فى فتحها على المذهب المــالكى الذى غــدا بمثابة الهوية والقومية بالنسبة للسكان فى المغرب والأندلس(١٤) .

وقــد كان شــبطون أول من ادخــــل الموطــأ كاملا إلى الأندلس على رأى الكثيرين واخــذه منـــه يحيى بن يحيى الليثى المصمودى ، الذى اشـــار عليه زياد بالرحيل إلى المدينة للتتلمذ على يد الإمام مالك فلازمـــه مدة وسمع عنه الموطأ ، ثم رحل إلى مــكة فســمع من سفيان بن عيينة ، كما سمع بمصر عن فقيهيها الليث بن ســعد وعبــد الرحمن بن القــاسم المتقى ، ولمــا عاد إلى الأندلس عمــل هــو الآخر على نشر مذهب مالك، وتولى الرئاســـة فى الفقه والقضاء واصبح إمام عصره ، وغــدا لـــه منزلة ســـامية ومكانة عظيمة فى عهــد هشام الذى قرب الفقهــاء حتى سمى عصره بعصر نفـــوذ الفقهاء(١٥) .

وكذلك غــدا لـــه منزلة كبيرة فى عهــد حفيده عبد الرحمن الأوسط وبلغ من نفــوذ يحيى انه كان لا يولى احــدا فى القضاء إلا بمشورته .

---

(١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ . وسحنون هو عبد السلام بن سعيد ، وكان من اشهر فقهاء المــالكية بالمغرب ، وعليــه تتلمذ الكثيرون من فقهاء الأندلس . فيذكر أنه كان بكسورة إلبيرة ســبعة سمعوا كلهم منه فى زمن واحــد واصبحوا يدورون حــول كتابه المدونة الذى جمعـــه من آراء عبد الرحمن بن القاسم العتقى تلميذ مالك وفقيه المــالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ هـ .
( انظر : الذخــيرة ق ١ جـ ١ ص ١٤٠ — ١٤١ ، ابن حيـــــان المقتبس ص ٣٠٣ تحقيق د. محمود مكى ) .
د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ( عصر سيادة قرطبـــة ص ٢٤ ، ص ٢٥ . الحياة الدينية فى المغرب ص ١٠٣ .

(١٤) د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب ص ١٠٧—١٠٨ .

(١٥) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ٤٤ .

وقد اصبح المذهب المالكى فى الواقع هو المذهب الوحيد المعترف به رسميا فى الاندلس واقام الغالبية العظمى من فقهائه انفسهم حراسا له وتحمسوا له تحمسا شديدا وصل بالكثير منهم إلى درجة التعصب له ، وانتهى بهم إلى التقليد والجمود .

وقد وصل التعصب بالبعض لدرجة انه إذا تناظر فقيهان فى قضية أو مسالة وقال أحدهما : قال رسول الله رد الآخر قائلا : وقال مالك وهذا من الجهل المؤدى إلى العصبية لأن مالكا ما استقى إلا من الرسول ﷺ .

كما وصل التحمس لدرجة ان بعضهم الف كتبا فى مناصرة هذا المذهب على غيره مثل عبد الوهاب بن نصر البغدادى الذى الف كتابا فى مائة جزء كما يذكر المقرى عن « الوادى آشى » سماه ( النصرة لمذهب إمام الهجرة ) ويذكر أن الكتاب وقع فى يد أحد قضاة الشافعية بمصر فالقى به فى النيل لما فيه من عصبية شديدة(١٦) .

ظل الأندلسيون فى الأعم الأغلب على هذا المذهب وتحمسوا له وتعصب بعضهم له تعصبا شديدا ، ولذلك لم تكد الأندلس تسمع غير صوت هذا المذهب بفضل التأثير الذى مارسه فقهاؤه ، ولكن كان هناك أناس اعتنقوا مذاهب اخرى غير أن صوتها كان خافتا ، وكان هناك امراء عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء المالكية كالحكم الربضى ، ويسمحون بل ويشجعون دخول تيارات فكرية ومذهبية جديدة ما دامت لا تمس سلامة العقيدة ولا تهدد نظام الحكم مثل الأمير محمد الأول ( ٢٣٨هـ — ٢٧٣هـ ) والحكم المستنصر ( ٣٥٠ — ٣٦٦هـ ) ولكن الفكر المناصر للمذهب المالكى حاول التقليل — إن لم يكن القضاء — على هذه التيارات

(١٦) انظر المقرى ج ٣ ص ٢٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٥٤ .

الوافـدة ، وإهمال شأنها ، وقصر النشاط الديني في مجالات الفقـه والتشريع على هـذا المذهب وحـده(١٧) .

وقد كانت سيادة مذهب مالك مما قلل من المذاهب الأخرى المخالفة لأهـل السنة عموما ، وجعل الأندلسيين من عامة وعلماء يصـدرون في الغالب عن رأى واحد وعاطفة واحدة(١٨) .

غير أن سيادة هـذا المذهب لم تلغ وجـود مذاهب أخرى سـواء أكانت مذاهب فقهية كالمذهب الشافعي والمذهب الحنفي والمذهب الظاهري ، أو مذاهب دينية كالخوارج والشيعة والمعتزلة .

**موقف فقهـاء المذهب المـالكي من المذاهب الأخرى :**

تعصب فقهـاء المـالكية لمذهب مالك تعصبا شديدا ، وتحمسوا له تحمسا بالغا ، ولذلك وقفـوا ضـد انتشار المذاهب الأخرى سواء أكانت مذاهب فقهية أو دينية . فقـد كان الإمام مالك عندهم هـو صاحب الكلمة العليـا والأخيرة فيما يتصل بالفقه والعقيدة وعلم الكلام .

ودليـل ذلـك موقفهـم من بقى بن مخـلد الذى ادخـل مصـنف ابن أبى شيبة كاملا ، كما ادخل كتاب الفقه الكبير للشافعي ، كما أدخـل ايضـا كتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى ، وصنف تفسير القرآن ومسند النبى ﷺ ليس لأحد قبله كما قيل . واحتفظ بلون من الاستقلال الفكرى فلم يكن يتبع مذهبا معينا وإنما يصـدر فتاواه تبعـا لاجتهاده الشخصى معتمدا على القرآن

---

(١٧) ليفي بروفنسـال : الحضـارة العربية فى اسبانيا ص ١٥٤ .

(١٨) ابن الاحمر : نثير فرائد الجمان ص ٤٥ تحقيق د. رضـوان الداية دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

والسنة(١٩) وهو شيء لم يكن لفقهاء المالكية أن يتركوه عليه .

ولكنهم لم يستطيعوا مهاجمته مباشرة وانتهزوا فرصة تدريسه لمسند ابن أبي شيبة الذى يعرض آراء مالك وآراء الفقهاء الآخرين فهاجموه .

وقد واجه بقى معارضة عنيفة من فقهاء المالكية وعلى رأسهم ابن مرتنيل(٢٠) ، وأصبغ بن خليل الذى ينسب إليه انه قال « لأن يكون فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند ابن أبى شيبة »(٢١) ، ومحمد بن حارث(٢٢) . وقد أخذ هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المالكية فى إثارة العامة ضد بقى واقترح بعضهم إصدار فتوى بإباحة دمه وقرر بقى الرحيل فرارا بنفسه ، وبلغ الأمير محمد ما يحدث فاستدعاه وجميع الفقهاء وعقدت مناظرة دافع فيها بقى عن آرائه بقوة فطلب منه مسند ابن ابى شيبة ليطلع عليه ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب لا تستغنى عنه خزائننا فانظر فى نسخة لنسا ، وقال لبقى فى صراحة : انشر علمك وارو ما عندك . ونهاهم عن أن يتعرضوا له(٢٣) .

وإذا كان هذا مثل واحد يبين لنا كيف كان موقف فقهاء المالكية من المذاهب الفقهية ، فما بالنا بموقفهم من المذاهب الدينية والكلامية مثل مذهب المعتزلة والشيعة والخوارج ، لا شك أن الموقف كان أشد ويدلنا على ذلك قول المقدسى ( وهم يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه )(٢٤) .

---

(١٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس ترجمة رقم ٢٨٣ .
(٢٠) انظر ترجمته فى ابن الفرضى المرجع السابق رقم ٢٤٥ .
(٢١) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٦٢٢ .
(٢٢) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ١١٠٧ .
(٢٣) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٢٨١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ .
(٢٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ .

ويكفى أيضا لفهم ما صنع المالكية بالتعليم فى الأندلس حيث قصروه فى الغالب على دراسة المذهب المالكى وعادوا ما سواه ولكن كانت هناك أوقات يستطيع فيها أصحاب المذاهب الأخرى تدريس مذاهبهم ولكن على استحياء أو فى خفاء غالبا . ومن ثم فقد فشلت هذه المذاهب فى أن تجد لها اتباعا كثيرين مثل المذهب المالكى(٢٥) .

ومع مجىء المنصور بن أبى عامر اشتدت قبضة الفقهاء المالكية حيث كان فى حاجة إلى التأييد من جراء استبداده بالسلطة فقربهم إليه وأمر بحرق كتب الفلسفة ، وأطلق لهم العنان فى محاسبة الكثيرين على عقائدهم فاتهم الكثيرون بالزندقة(٢٦) ، ولذلك أخذت حرية العلماء تقيد فى إلقاء دروسهم . ويبدو أن المنصور قد قام بذلك سياسة حيث يقال إنه كان محبا للفلسفة فى قرارة نفسه(٢٧) .

كما واجه ابن حزم الظاهرى نفس الموقف فأحرقت كتبه فى ميادين إشبيلية(٢٨) .

وفى بعض الأحيان كانت تخف حدة المواجهة للمخالفين فى المذهب نظرا للحاجة إلى توحيد الصف ضد العدو المسيحى المتربص بالمسلمين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم . وربما كان لهذا الاعتبار أثره فى عدم انتشار المذاهب المخالفة للمذهب المالكى فى الأندلس كثيرا .

---

(٢٥) ريبرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٢٥ - ٢٦ ترجمة د. الطاهر مكى . دار المعارف سنة ١٩٨١ .

(٢٦) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٦٧ ط بولاق .

(٢٧) نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، ريبرا : التربية الإسلامية ص ٢٦ - ٢٧

(٢٨) انظر : الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم ط ٢ مكتبة وهبة سنة ١٩٧٧ م .

## المذهب الشافعي

بالرغم من سيادة المذهب المالكي بالأندلس إلا أن المذهب الشافعي وجد له طريقا إلى هذه البلاد منذ حكم الأمير محمد الأول ( ٢٣٨ — ٢٧٣هـ ) الذي كان أول أمير أموي يتسامح ويشجع دخول المذاهب الأخرى ، لما رآه ولمسه من قوة نفوذ الفقهاء المالكية ، ورغبته في الحد من نفوذهم كما حاول الحكم الربضي ذلك من قبل ، وأيضا توسيع آفاق الحياة الفقهية بحيث لا تقتصر على مذهب واحد . وذلك بالرغم من تحذيرات الفقهاء المالكية له(١) .

وكان قاسم بن محمد بن سيار القرطبي أول دعاة المذهب الشافعي في العاصمة الأندلسية ، حيث كان قد تفقه في المشرق على هذا المذهب وارتبط به ولما عاد إلى الأندلس دعا إلى ترك التقليد ، والأخذ بالحجة والنظر والاستنباط والاعتماد على الاجماع والقياس ، وأخذ يدرس هذا المذهب في قرطبة تحت رعاية الأمير محمد ، الذي منحه الحماية في مواجهة دعاة التقليد من فقهاء المالكية بخاصة ، وعهد إليه بتحرير وثائقه وشروطه ، وظل في هذا المنصب حتى توفي سنة ٢٧٦ هـ/٨٩٠ م .

---

(١) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٦٤ .

(٢) قاسم بن محمد بن سيار : هو مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قال عنه ابن الفرضي : « كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ومال إلى مذهب الشافعي . يذكر أن أباه أوصاه بالأخذ برأي الشافعي ، ولم يكن مثله في حسن النظر والبصر والحجة قال عنه أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة ( ما رأينا أفقه من قاسم ابن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحل ) وذكر أنه توفي سنة ٢٧٧ ، ٢٧٨هـ ( تاريخ علماء الأندلس ص ٣٥٥ — ٣٥٦ ترجمة رقم ١٠٤٩ . م

وقد تأكد هـذا التشجيع من الأمير محمد عندما شمل برعايته فقيها آخـر هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخلد القرطبى صـاحب التفسير الذى أشاد به ابن حـزم وقال عنـه :

« الكتاب الذى أقطع قطعا لا أستثنى فيـه ، أنه لا يوجد فى الإسلام تفسير مثله لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »(٣) .

وقد قام بمحاولات لإدخال المذهب الشافعى إلى الأندلس إلا أنها لم تؤد إلى نتائج هامة فى سـبيل نشر هـذا المذهب(٤) .

وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وسمع من عدد من الأعلام فى مـكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد ، واختلف إلى علماء المـالكية والشافعية ، كما سمع من الإمام أحمد وروى عنـه وعن ابن أبى شيبة ، كما سمع بإفريقية عن سحنون وغيره ولم يتبع مذهبـا معينا ، وإنما كان يصدر فيما يعرض له من قضايا بحسب ما يتراءى له من اجتهاد معتمـدا على الكتاب والسنة ، وأخـذ يدرس الحديث فى قرطبة ويقرأ مسـند ابن أبى شـيبه ، وأصبح له تلاميذ ساروا على نهجه من أبرزهم محـمد ابن وضـاح(٥) ، وقد صنف فى الحديث كتابا رتبه على أسـماء الصحابة روى فيـه عن ألف وثلاثمائة صحابى وعلى أبواب الفقه المختلفة فهو مصنف ومسند قال عنـه ابن حـزم « وما أعلم هـذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته

---

(٣) انظر ترجمته فى البغية ص ٢٤٥ وبعدها (٥٨٤) ، الجذوة ص ١٧٧ وبعدها (٣٣١) ، تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ٩١ وبعدها (٢٨٣) .

(٤) بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ص ٦٠ .

(٥) هو محمد بن وضـاح بن بزيع مولى عبد الرحمن الداخل ، كان من الرواه المكثرين طوف بالمشرق فى طلب العـلم ، وسمع من كثيرين منهم سحنون بن سـعيد التنوخى بإفريقيـة ويحى بن يحيى الليثى بالأندلس ، وأخـذ يحدث بالأندلس مدة طويلة وروى عنـه كثيرون ونشر علما كثيرا وتوفى سنة ٢٨٦هـ ( بغية الملتمس ص ١٣٣ ـــ ١٣٤ ترجمة رقم ٢٩١ ) .

وضبطه وإتقـانه وإحتفاله فيـه بالحديث وجودة شيوخه »(٦) .

وقد ملأ الأندلس حديثا ورواية ، وقد ثار عليـه فقهاء المـالكية لأن مسند ابن أبى شيبة الذى كان يقراه لم يكن يعرض وجهـة نظر اهل المدينة فقط ، وإنما كان يعرض آراء خصومهم ايضـا مما جعلهم يثيرون عليـه العـامة ويغرون به الأمير محمد ، وينكرون عليـه ما ادخـله من كتب الاختلاف وغريب الحديث مما جعل الأمير يتحدث إلى وزيره هشـام ابن عبد العزيز فى هـذا الامر ويدعوه إلى ان يضع له حـدا ، فأحضره وخصومه من المـالكية امام الأمير الذى تصفح الكتاب ثم قال لخازن كتبه « هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنـه فانظر فى نسخه لنـا » ثم قال لبقى انشر علمك واروا ما عندك ، ونهاهم ان يتعرضوا له .

فاخذ فى نشر حديثه وقراءة روايته وانتشر الحديث من يومئذ بالأندلس ثم تلاه تلميذه ابن وضـاح « فصارت الأندلس دار حديث وإسناد وكان الغالب عليها قبـل ذلك حفـظ راى مالك واصـحابه » كمـا يقـول ابن الفرضى .

وكان مما انفرد به بقى انه ادخل مصنف ابى بكر بن ابى شـيبة كاملا ، وكتاب الفقه للشافعى وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقى . وقد اعتبره بعـض المؤرخين شافعى المذهب على حين اعتبره البعض الآخـر مستقلا عن اى مذهب فقهى(٧) .

وقد عرفت الأندلس بعـد ذلك عددا من فقهاء الشافعية الذين تولوا تدريس المذهب ونشره فيهـا وخاصة فى عهد الحـكم الثانى ( المستنصر )

---

(٦) بغيـة الملتمس ص ٢٤٥ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩٢ ، بغية الملتمس ص ٢٤٦ .

بعد أن كانوا فى عهد ابنه الناصر قد التزموا جانب الظل فيما يبدو ، حيث لم يعد صوتهم قويا كما كان فى عهد الأمير محمد ، بينما عاد صوت المالكية قويا ، واشتدت قبضتهم على مقاليد الحياة الدينية والثقافية من جديد فى حماية المنصور بن ابى عامر(٨) .

وقد كان الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر احد الدعاة النشطين للمذهب الشافعى فيقول عنه الحميدى « كان فقيها شافعيا شاعرا اخباريا متنسكا »(٩) . وقد اتهم بالاشتراك فى مؤامرة ضد والده فكان مصيره القتل سنة ٣٣٨هـ/٩٥٠م .

وكان من اتباع المذهب الشافعى أيضا ابو الجعد اسلم ابن عبد العزيز بن هاشم القرطبى الذى تتلمذ على يد بقى بن مخلد ، ورحل للمشرق سنة ٢٦٠هـ ، ولقى بمصر عددا من أصحاب الشافعى ومنهم محمد ابن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم . وقد ولى قضاء الجماعة مرتين فى عهد الناصر ، وبالرغم من انه كان يميل للمذهب الشافعى إلا انه كان يقضى طبقا للمذهب المالكى لأنه المذهب الرسمى للدولة ، وقد توفى سنة ٣١٩هـ »(١٠) .

ومنهم احمد بن بشر بن محمد بن اسماعيل التجيبى المعروف بابن الأغبش وكان من اهل قرطبة سمع من ابن وضاح والخشنى وغيرهما ، وكان متقدما فى معرفة لسان العرب والبصر بلغاتها منفردا فى ذلك ، وكان مشاورا فى الأحكام ، ويذهب فى فتياه إلى مذهب الشافعى ويميل إلى النظر والحجة وتوفى سنة ٣٢٧هـ(١١) .

---

(٨) بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٦ .
(٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ ترجمة ( ٥٥٥ ) .
(١٠) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٨ ، جذوة المقتبس ص ٣٢٢ ، الخشنى : قضاة قرطبة ص ١٨٢ — ١٨٨ ، ١٩٠ — ١٩١ .
(١١) ابن الفرضى ص ٣٣ ترجمة (١٠٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بابن صلى الله ، من أهل قرطبة . كان حافظا للفقه ، عالما بالاختلاف ، بصيرا بالحجاج حسن النظر ، وكان يميل إلى مذهب الشافعى ، وله سماع من شيوخ وقته صحب عبيدا الشافعى وتفقه معه ، وكان له حظ وافر من العربية واللغة وسار فى جملة المقابلين للمستنصر ، وكان ينسب أيضا إلى مذهب الاعتزال(١٢) .

وخلال السنوات التى حفلت بالاضطرابات والفتن ، وسبقت سقوط الخلافة الأموية وجد المذهب الشافعى بعض انتصار له فى قرطبة من ابرزهم ابن حزم الذى درس المذهب المالكى ، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعى بعض الوقت ، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الظاهرى، واصبح أكبر داعية بالأندلس ، وسخر مواهبه لبعثه وإحيائه من جديد(١٣) .

* * *

(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٤٧ ترجمة ١٥٤ .

(١٣) د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ص ٥٨ .

## المذهب الحنفى

الواقع ان هـذا المذهب لم يجد له اتباعا فى الأندلس فى عصر بنى امية إلا افرادا قلائل . وقد أبدى المقدسى دهشته من ذلك حين ذكر : إنهم فى الأندلس يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك ، على حين ان ثمة اتباعا كثيرين لمذهب أبى حنيفة فى المغرب .

وكان الرد عليه أن هـذا من فعل الأمير ، ثم يروى قصة ينسبها إلى هـذا الأمير الذى لم يذكر اسمه ــ ولعله هشام بن عبد الرحمن ــ فيقول : إن الاحناف والمالكية تناظرا بين يديه ذات يوم فقال : من أين ابو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، قال : ومالك ؟ قالوا : من المدينة . فقال : عالم دار الهجرة يكفينا . وأمر بإخراج أصحاب أبى حنيفة وقال : لا أحب أن يكون فى عملى مذهبان(١) .

ولكن يبدو فى هذه القصة طابع الصنعة والتكلف بالرغم من ذكر المقدسى أنه سمعها من عدة مشايخ فى الأندلس وهى من نوع الحكايات التى تجرى على ألسنة الناس دون تحقق من صحتها . فهل كان الأمير الأموى يجهل موطن أبى حنيفة ومالك حتى يسأل عن ذلك ؟ . ويظهر أن السبب فى ذلك هو عدم ميل الأمويين لهذا المذهب نظرا لأنه كان مذهب خصومهم العباسيين ، ولذلك مالوا إلى مذهب الاوزاعى إمام اهل الشام أولا ، ثم إلى مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة الذى أثنى على سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل بعكس العباسيين ، هـذا بالإضافة إلى أن مذهب ابى حنيفة مذهب يعتمد على العقل والمنطق اكثر من مذهب مالك الذى

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٧ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ١٦٣ ــ ١٦٤ .

يعتمد اكثر على النصوص ، مما جعل الأندلسيين - وكان فيهم كثير من البربر الذين انتشر مذهب مالك فى بلادهم قبل ذهابهم إلى الأندلس - يقبلون عليه اكثر نظرا لتوافقه مع طبيعتهم وثقافتهم البسيطة ، ثم إنه مذهب اهل المدينة مثوى رسول الله ﷺ ، ولها من المنزلة والمكانة ما لها .

ومن اشهر اتباع المذهب الحنفى فى الأندلس الذين عثرنا عليهم فى كتب التراجم الأعشى القرطبى الذى كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقه اهل العراق(٢) .

ويظهر ذلك من خلال رايه فى شرب النبيذ فقد ذهب مذهب ابى حنيفة فى هذه المسألة(٣) حيث قال : يقصر اسم الخمر على عصير العنب فقط . وأما ما اتخذ من غير العنب من الاشربة كالتمر والشعير فيسمى نبيذا وهو حلال إذا لم يسكر اما إذا اسكر فإنه يلحق بالخمر فيصير محرما .

ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ : حرمت الخمرة بعينها والسكر من كل شراب ، وبما روى من أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها فى بطوننا(٤) .

---

(٢) وهو ابو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافرى المعروف بالأعشى القرطبى ، رحل من الأندلس إلى مكة سنة ١٧٩هـ ، وسمع من سفيان بن عيينة وغيره ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب إلى مذهب اهل العراق توفى سنة ٢٢١هـ ( نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥١ ) .

(٣) عن هذه المسألة راجع : تفسير آيات الأحكام جـ ١ ص ٢٧٧ وبعدها، الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام ابى حنيفة ص ٧٩ - ٨٠ .

(٤) الأصفهانى : محاضرات الأدباء جـ ١ ص ٤١٢ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ ٣ ص ٢٠٣ . يروى الجهشياوى : ان شريكا القاضى تحدث مع معاوية بن يسار وزير المهدى العباسى يوما بحديث فى تحليل النبيذ فقال عافية القاضى وكان حاضرا :

ويتجلى ذلك من قصته ( الأعشى القرطبى ) مع القاضى محمد بن زياد الذى قبض على رجل شرب نبيذا فحبسه ليقيم عليه الحد ، فذهب الأعشى إلى حارسه وأخبره بأن القاضى قد أمر باطلاق سراح الرجل فأطلق سراحه ولم يكن القاضى قد أمر بذلك . وكان قد عرض على الأعشى القضاء فرفض واشتهر بمزاحه وأنه صاحب حكايات ونوادر(٥) .

ومن الذين ذهبو مذهب أهل العراق أيوب بن سليمان بن حكم ابن عبد الله بن بلكايش بن إليان القوطى ، وقد رحل إلى المشرق ، ودخل العراق فسمع بها وعاد ومعه الكثير من كتب أهلها ، وكان يميل إلى الحجة والنظر ولا يرى التقليد ، ولذلك انصرف عنه الطلاب ولم يتلمذ عليه إلا ابنه(٦) .

وقد وجد اتباع هذا المذهب اضطهادا فى الأندلس كما يستدل على ذلك من قول المقدسى : « أما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فإن ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه »(٧) .

---

=

ما سمعنا بهذا الحديث فقال شريك : وما يضر عالمنا إن جهل جاهل . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد العلماء عن النبيذ فقال : حلال وقد أدركنا بعض أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه . أما مذهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل الورع فقد عدوا كل مسكر خمرا وحرموا كل أنواع المسكرات من العنب وغيره . ( انظر الوزراء والكتاب ص ١٤٤ ، ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ١ ص ٢٠٢ ) .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ص ٢٣١ تحقيق د. محمود مكى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥ .

(٦) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٧٠ .

(٧) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ١٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

## المذهب الظاهري

تأسس هذا المذهب بالعراق على يد داود بن على بن خلف الأصبهاني البغدادي ( ٢٠٠ ـ ٢٧٠هـ ) . وكان على المذهب الشافعي أولا ، ثم خرج عنه واظهر القول بالظاهر . وهو على حد قول الخطيب البغدادي : « أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس في الأحكام(١) .

وقد نشأ هذا المذهب كرد فعل للمذهب القياسي والإسراف فيه ، ويقوم على الأخذ بظواهر النصوص والتأويل ، ويتلخص في جعل مدارك الشرع كلها منحصرة في النصوص والإجماع ، ورد القياس الجلي والعلة المنصوص عليها إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع مجاليها(٢) . وجعل المصادر الشرعية هي النصوص فقط وإبطال القياس ، وعدم الأخذ به . ويذكر أن دواد لما سئل عن ذلك وقد أخذ الشافعي به قال : أخذت ادلة الشافعي في إبطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس(٣) .

وقد دخل المذهب الظاهري إلى الأندلس على يد عبد الله بن محمد ابن قاسم بن هلال القرطبي المتوفى سنة ٢٧٢هـ تقريبا وذلك في عهد الأمير محمد الأول . وكان عبد الله قد رحل إلى المشرق وتلقى العلم على

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) د. حسن على حسن : الحياة الدينية في المغرب ص ١١٣ ، د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه ص ١٥٨ ، د. صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٨ .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ص ٣٧٠ .

يد داود مؤسس المذهب وكتب عنه كتبه كلها وادخلها إلى الأندلس وغلب عليه هذا المذهب(٤) .

كما وجد عدد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق ومهدوا للفقه الظاهرى بعد عودتهم ومن اشهرهم بقى بن مخلد وأبو عبد الله محمد ابن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، حيث كانوا من علماء الحديث .

ومن ثم ظهر علماء أمكنهم أن يجهروا بظاهريتهم وعلى رأسهم القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م الذى كان « يؤثر هذا المذهب ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل بالأندلس »(٥) . ولذلك فإنه يعتبر الممثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس . يقول عنه ابن الفرضى « وكان مذهبه فى الفقه مذهب النظار والاحتجاج وترك التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن على

---

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس رقم ٦٥٥ .

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٣٣ . وقد لقب بذلك نسبة إلى موطن نشأته وهو فحص البلوط بالقرب من قرطبة ، ولى قضاء الأندلس فى عهد الخليفة الناصر سنة ٣٣٩هـ ، وظل فى هذا المنصب فى عهد المستنصر حتى توفى سنة ٣٥٥هـ فكانت ولايته القضاء ست عشرة سنة لم يؤخذ عليه فيها جور أو هوى — كما ذكر المقرى — وكان خطيبا مفوها خطب فى الاحتفال بسفارة قسطنطين بعد أن أرتج على أبى على القالى سنة ٣٣٨هـ .

قال عنه ابن حزم « كان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على الانتصار له ، ومن مصنفاته ( الإنباه على استنباط الاحكام من كتاب الله ( والإبانة عن حقائق أصول الديانة . ( انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٣٣٣ ، بغية الملتمس ص ٤٦٦ ، جذوة المقتبس ص ٣٤٨ — ٣٤٩ )

ابن خلف العباسى ويحتج له ، وكان بصيرا بالجدل ، منحـرفا إلى مذهب أهل الكلام لهجا بالاحتجاج (٦) .

وكذلك أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت (ت ٤٢١ هـ) ، الذى تتلمذ عليه ابن حزم ، وأخذ عنه المذهب يقول عنه الضبى « فقيـه عالم، زاهـد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حـزم ، وكان أحـد شيوخه »(٧) .

ويعتبر ابن حزم أكبر داعية لهذا المذهب بالأندلس ، فقد ناضـل من أجل إحيـائه ونشره بعـد أن كان قد خبـا فى المشرق ، ولولاه لاندثرت فروعه فضلا عن أصـوله وبقى أشتاتا متفرقات فى بطون الكتب هنـا وهنـاك .

وليست لدينا نصوص صريحة تبين سبب تحول ابن حـزم إلى هذا المذهب واعتناقه له ويمكن إرجـاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ ـ ضـيق صدر ابن حـزم بكثرة الآراء والاختلافات فى المسألة الواحـدة مما جعله يرد المصـادر الأخـرى غير النصوص والإجمـاع ، ويرفضها ويؤلف الرسائل فى إبطالها . مثـل كتابه ( ابطـال القيـاس والاستحسان ) ، وكتابه ( المحـلى ) الذى بين فيـه ضـعف هذه المصادر وتهافتها .

٢ ـ الخصومة والتنازع والفرقة بين أتبـاع المذاهب المختلفة نتيجة للاتباع والتقليد لأصحابها ، مما جعله يحمل على التقليد ويرى أن الاختلاف بين المذاهب ليس رحمـة كما يقـال ، وإنما هو شر كله ولا يمكن أن يأتى

---

(٦) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٤٤ ، ترجمة ( ١٤٥٤ ) .
(٧) بغية الملتمس ص ٤٦٧ ، جذوة المقتبس ص ٣٥٠ .

بخير ابدا ، ووجــد فى منهج الظاهر الراحة للنفس والاطمئنان للقلب .

٣ ــ الفسـاد الخلقى والنفــاق الاجتماعى الذى جعل طائفــة من العلماء والفقهاء فى عصره يتقربون إلى الحــكام بلوى عنــق النصـــوص مستخدمين فى ذلك القياس والاستحسان والمصـــالح المرسلة وغيرها . فانكر هـــذه الوصولية والأدوات التى استخدمها هؤلاء فى ســـبيل الوصول إليهــــا .

٤ ــ اقتناعه ببطلان التقليد ، وأن اتبـــاع مذهب معــين بدعة لأن « ســيرة الصــحابة والتابعين وطريقتهم هى الاجتهاد ، وطلب ســنن النبى ﷺ ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه »(٨) .

٥ ــ سعة علمه وكثرة اطلاعه على كتب الســنن والآثار والفقــه وغيرها مما جعله يرى نفسه مجتهدا توافرت فيــه صفات الاجتهـــاد . ويطمح إلى أن يكون صـــاحب مذهب يقول عنـــه الذهبى « كان رجـــلا من العلماء الكبار فيـــه أدوات الاجتهاد كاملة »(٩) .

ويقول عنـــه الكوثرى « وحيث كانت نشـــأته فى بيت عز واعتزاز كان يطمح إلى التفرد بمذهب ليكون متبوعا لا تابعا »(١٠) .

ولا غرو فقـــد بلغت تصانيفه فى علوم شتى نحو أربعمائة مجـــلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين الف ورقة وهـــذا شىء لم يجتمع لأحـــد قبله إلا لابن جرير الطبرى الذى ذكر انه كان اكثر أهل الإسلام تصنيفا(١١) .

---

(٨) رسائل ابن حزم : رسالتان اجاب فيهما عن سؤالين ص ٩٢ .
(٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٣ .
(١٠) مقدمة كتاب النبذ فى أصول الفقه الظاهرى ص ٥ ، تحقيق الكوثرى مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٩٤٠م .
(١١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٩٩ . المراكشى : المعجب ص ٣٠ ــ ٣١ .

ويعتمد منهج ابن حزم الظاهرى على أصلين : الأول : القول بظاهر الكتاب والسنة والاجماع . والثانى : إبطال القول بالقياس والاستحسان والرأى والتقليد .

ويعد ابن حزم من أشد دعاة المذهب الظاهرى وإمامه فى عصره ، وكتبه تعتبر المرجع الباقى للتعرف عليه حتى قيل « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهرى ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلى »(١٢) .

ولعل خير ما يوضح مذهب الظاهرية كتابه فى أصول الفقه المسمى ( الإحكام فى أصول الأحكام ) الذى سلك فيه مسلكا يدل على التجديد والابتكار حيث تحدث فيه عن مسائل لم يتحدث فيها ظاهرية المشرق . وقد عقد فيه فصلا بين فيه معنى الظاهرية ، وأنهم لا يعتمدون فى استنباط الأحكام على القياس بل على النص فقط ، وإذا كان النص مطلقا اخذ على إطلاقه إلا إذا قيده نص آخر . بيد أن اعتماد الظاهرية على النصوص فقط قد أوقعهم أحيانا فى بعض المتناقضات ومثال ذلك : أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يوجبون غسله من ولوغ الخنزير مع أنه أشد نجاسة لعدم ورود النص .

وبينما يوجبون غسل اليد ثلاثا بعد القيام من النوم ، ويحكمون بنجاسة الماء الذى مسته يد مستيقظ لم يغسل يده ، نراهم يجيزون لاجنب قراءة القرآن والجلوس فى المسجد . إلى غير ذلك من المسائل التى جعلت البعض يحمل عليهم بشدة(١٣) .

---

(١٢) صلاح الدين رسلان : السياسة والأخلاق عن ابن حزم ص ٥٣ .
يعد مذهب الإمام احمد أقرب المذاهب للظاهرية لأنه يترك القياس إلا فى أضيق الحدود ، ويأخذ بالمأثور ، ويقف عند النصوص .

(١٣) انظر احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٤ .

وقد اخذ ابن حزم يدعو إلى مذهبه الظاهرى الجديد الذى يقوم أول ما يقوم على التفسير الحرفى للنصوص فنراه يقول « ولذا وجب علينا اتباع النص لانه كاف بنفسه واضح ظاهر » ، ويقول : « وحمل الكلام على ظاهره الذى وضع له فى اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص او إجماع ، لأن من فعل غير ذلك افسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله »(١٤) . ولكنه يجيز التأويل حين يكون هناك نص آخر محيل لهذه الدلالة ، او إجماع متيقن أو ضرورة حس فحينئذ يعمل بالتأويل المخالف للظاهر على مقتضى البلاغة العربية(١٥) .

وكنتيجة حتمية للتمسك بالنصوص رفض ابن حزم القياس والتقليد والرأى والاستحسان لان هذه فى نظره هى التى فتحت باب الخلاف والنزاع على مصراعيه . فنراه يقول : « فجميع أهل القياس مختلفون فى قياساتهم ، وهم كلهم مقرون على ان كل قياس ليس صحيحا ، ولا كل راى حقا »(١٦) .

ولم يقتصر ابن حزم فى منهجه الظاهرى على ميدان الفقه واصول الفقه فقط وإنما حاول تطبيقه على العقائد والمذاهب الكلامية . ويعتبر تطبيقه لهذا المنهج فى هذا المجال من المبتكرات التى انفرد بها(١٧) .

وقد أصبح ابن حزم صاحب مذهب نسب إليه شمل كثيرا من الاتباع الذين سموا بالحزمية ، وهو فى كتابه المحلى يدعه إلى مذهبه

---

(١٤) الفصل فى الملل والاهواء والنحل جـ ٢ ص ١١٦ ، جـ ٣ ص ٣ .
(١٥) صلاح رسلان : الاخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٦ .
(١٦) المحلى جـ ١ ص ٥٨ . القاهرة سنة ١٣٤٧هـ .
(١٧) ديلاسى اوليرى : الفكر العربى ومكانته ص ٢٤٠ ، د. طه الحاجرى : صور اندلسية ص ٨٢٩ .

هـــذا دعوة صريحة ، نراها واضـــحة فى كل صفحة من صفحات هـــذا الكتـــاب(١٨) .

ومن اشهر اتباعه : ابن عبد البر القرطبى ، والحميدى صـــــاحب جذوة المقتبس ، كما اخـــذ بلون منه محيى الدين بن عربى الصوفى المشهور الذى اخـــذ بمنهج الظاهرية فى العبـــادة والفروع ، والفيلسوف الكبير ابن رشد وابن تومرت زعيم الموحدين ، والمنصور الموحدى الذى جعل مذهبه المذهب الرسمى لدولته(١٩) .

ولكن لم يجد مذهب ابن حزم قبـــولا لدى الكثير من الاندلسيين فى العصر الأموى حيث كانوا على المذهب المـــالكى الـــذى كان بمثـــابة دين لهم ، وجـــزءا لا يتجزءا من شخصيتهم .

وقد ثارت بينـــه وبين الفقهاء ــــ وخاصة المـــالكية ــــ مســـاجلات عديدة ومناظرات عنيفة ولذلك فقـــد عاش شـــطرا كبيرا من حياته فى عنت وأذى ومضايقات دفاعا عن آرائه . ودارت بينه وبين معاصريه من العلماء والفقهاء مناظرات شديدة وخاصة بينه وبين أبى الوليد البـــاجى الفقيه الأشـــعرى المعروف .

يقول المقرى « إنه لمـــا قدم الاندلس وجـــد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا إنه كان خارجا عن المذهب ( يقصد المذهب المـــالكى ) ولم يكن بالاندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجـــادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها ، وتبعه اهلها ، فلما قـــدم ابو الوليـــد كلموه فى ذلك فدخل إليـــه وناظـــره ، وشهر باطله ، وله معـــه مجالس كثيرة »(٢٠) .

---

(١٨) احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .
(١٩) الشيخ ابو زهرة : ابن حزم ص ٥١٧ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٣ .
(٢٠) نفح الطيب ج ٦ ص ١٧٦ تحقيق د. فريد رفاعى ، احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٩ وبعدها .

وكان من أشهر الذين تصدوا للرد على آرائه ونقدوه نقدا لاذعا بعد وفاته ( ٤٥٦هـ ) القاضى المالكى أبو بكر بن العربى فى كتاب سماه ( الدواهى والنواهى ) يصف فيه الظاهرية بأنهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على رضى الله عنه يوم صفين فقالوا : لا حكم إلا لله وكان أول بدعة لقيت فى رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم ، نشأ وتعلق بالمذهب الشافعى ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل ، واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرا للقلوب منهم ... الخ »(٢١) .

وقد اضطهد ابن حزم وشدد عليه وشرد عن وطنه وأحرقت كتبه علنا فى إشبيلية فى عهد المعتضد بن عباد . ويصف ابن حزم شيئا من ذلك فيقول « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح ، وأرزمت الفتنة — الفتنة البربرية — وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤هـ وتقلبت فى الأمور »(٢٢) .

ويقول الذهبى « وقد امتحن هذا الرجل ، وشدد عليه ، وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه

---

(٢١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٩ .
(٢٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٥٥ .

فى ائمة الاجتهاد ، باقبح عبارة وافظ محاورة وامنع رد »(٢٣) .

لقد كان ابن حزم ضيق الصدر ، متقلب المزاج ، حاد اللسان ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة اسباب منها :

١ ـ مرض الكبد والطحال الذى اصيب به فى صباه وهو يشير إلى ذلك فيقول : « لقد اصابتنى علة شديدة ولدت وفى ربو فى الطحال شديد ، فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر امرا جاشت نفسى فيه ، إذا انكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ووضح عندى ان الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده » . وهذا تحليل دقيق ينم عن ثقافة طبية واسعة .

٢ ـ ما عاناه من جمود الاندلسيين على مذهب مالك وحده وتعصبهم له ، ورفضهم لاى مذهب آخر سواه ، مما الجاه إلى هذا الاسلوب العنيف لنشر مذهبه خاصة وانه لقى صدا وهجوما عنيفا فبادله بمثله .

٣ ـ الظروف السياسية المتقلبة التى عاش فى ظلها ، واكتوى بنارها هو واسرته مما ادى به إلى التنقل المستمر وهو يشير إلى ذلك فيقول « انت تعلم ان ذهنى متقلب وبالى مضطرب مما نحن فيه من نبو الديار ، والجلاء عن الاوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال وتبدل الايام »(٢٤) .

ويشير ابن حزم فى قصيدة له إلى مذهبه وما لقيه بسببه فيقول :

**قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت**

**اقوالهم واقاويل العدى محن**

---

(٢٣) سعيد الأفغانى : ابن حزم ص ١٢١ ، ١٣٠ وصفه البعض بقوله « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » . ( الاخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٥ ) .

(٢٤) طوق الحمامة ص ١٥٤ .

فقلت هل عيبهم لى غير انى لا
اقول بالراى إذ فى رايهم فتـن
واننى مولع بالنـص لسـت إلى
سواه انحو ولا فى نصره اهـن
لا انثنى، نحو آراء يقـال بهـا
فى الدين بل حسبى القرآن والسنن

ويقول فى قصيدة اخرى بعد أن أحرقوا كتبه ساخرا :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن انزل ويدفن فى قبرى
دعونى من إحـراق كاغـد وقولوا
بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعـودوا فى المـكاتب بداة
فكم دون ما تبغون لله من ستر(٢٥)

واخيرا ننهى حديثنا عن ابن حزم بقول عبد الواحد المراكشى — الذى كان قريبـا من عصره — عنه « وهو أشهر علماء الاندلس اليوم ، واكثرهم ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به أحد قبلـه ممن علمنـا ، وقد كثر اهل مذهبه وأتباعه عندنا اليوم بالاندلس »(٢٦) .

---

(٢٥) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ طبعة فريد رفاعى .
(٢٦) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٤٦ وبعدها .

## ثانيـــا ــ المذاهب الدينيـــة ( الكلامية )

### مذهـــب الشـــيعة

كان الفاطميون بعـــد تأسيس دولتهم فى المغرب يهدفون إلى نشـــر مذهبهم الشيعى فى الأندلس ، وإلى غزو هـــذه البـــلاد لجعلها مع المغرب وحدة واحدة تخضع لسلطانهم ولمذهبهم ، وبهذا ينقسم العـــالم الإسلامى إلى قسمين :

قسم شرقى تابع للخلافـــة العباسية ، وقسم غربى تابع للخلافـــة الفاطمية . ولهذا أخـــذ الفاطميون فى إرســـال عيونهم إلى الأندلس للتعرف على أحوالها مثل أبو اليسر الرياضى ، وابن هارون البغدادى ، وابن حوقل النصـــيبى .

وقد لعب هؤلاء العيون « الجواسيس » دورا مهما فى الدعـــاية للفاطميين والمذهب الشيعى بالأندلس ، بالاضـــافة إلى جمعهم للمعلومات من أحوالها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حـــكم الأمويين .

وقد دخل هؤلاء متسترين إما بغرض العـــلم كابن هارون البغدادى أو بغرض الرحلة والتجـــارة كابن حـــوقل النصيبى ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتجسسون للفاطميين(١) .

يقول ابن الفرضى عن ابن هارون « أدخل بعض كتب أبى محمـــد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية ، وانصرف إلى المشرق بعـــد ما تردد فى الأندلس أعواما وأخبرنى سليمان

---

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٨٧ .

ابن ايوب ان ابا جعفر البغدادى — وهــذه كنيته — إنما دخل الاندلس متجسسا »(٢) .

وقد قدم ابن حوقل تقريرا مفصلا للفاطميين عن الاندلس يغــرى بالزحف عليها جــاء فيــه انها بلاد غنية طيبة الهواء ، كثيرة المــاء ، وان حكومتها ضعيفة لا تقوى على المقــاومة .

ومما قاله فى تقريره « ومن اعجب ما فى هــذه الجــزيرة بقــاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام اهلها ، وضــسة نفوســهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من الباس والشجاعة والفروسية والبسالة »(٣) .

وقد بدا الفاطميون لذلك يرســلون دعــاتهم متخفين إلى الأندلس ، ونجحوا فى اجتذاب بعض انصار لهم فيها مثل ابن أبى المنظور الذى رحل إلى المغرب وتولى القضــاء للخليفــة المنصــور الفاطمى ، وابن هانىء الأندلسى الشاعر المشهور الذى التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله(٤) .

---

(٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦ ترجمة « ٢٠١ » .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ ، د. احمد شلبى ، موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٦٠ ، د. مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٥ .

(٤) هو ابو القاسم محمد بن هانىء الأزدى ، أصله من بنى المهلب الأزديين بافريقية ، انتقل ابوه إلى الأندلس وسكن البيرة فولد له محمــد الذى برع فى الشعر واشتهر . يذكر انه قصد جعفر بن على الأندلسى ملك الزاب من المغرب الأوسط فوجد بابه عامرا بالشعراء ، فتزيا بــزى بربرى وكتب على كتف شاة بيتين من الشعر هما :

**الليــل ليــل والنهــار نهــار**

**والبغــل بغــل والحمــار حمــار**

**والديك ديك والدجاجة زوجه**
**وكلاهما طير له منقار**

وادخلهما إلى وزيره فأراد أن يضحك الملك فابلغه بذلك فأمر بدخوله فانشده قصيدة مدح رائعة منها :

**كأن لواء الشمس غرة جعفر**
**رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا**

فقام إليه جعفر وعانقه بعد أن عرفه ، وخلع عليه وظل عنده حتى كتب له المعز الفاطمي ليتوجه إليه ، فاتصل به في المغرب ، ولما توجه إلى مصر تبعه ابن هانيء ، ثم عاد لأخذ أولاده ولكنه قتل برقة سنة ٣٦٢ هـ.وكان المعز يؤمل عليه آمالا كبارا وأسف لوفاته اسفا شديدا وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

وله قصائد كثيرة في مدح الفاطميين وخاصة المعز ، وكان شيعيا متحمسا ، وبلغ من تحمسه أن وصف سيفه بالتشيع كذلك حيث يقول :

**لي صارم وهو شيعي كحامله**
**يكاد يسبق كراتي إلى البطل**
**إذا المعز معز الدين سلطه**
**لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل**

وقد بالغ ابن هانيء في وصف المعز حتى جعله في مرتبة الانبياء بل نسب إليه بعض صفات الالوهية والقدرة على الإتيان بالمعجزات ومن أجل ذلك اتهم بالكفر . مثل قوله :

**ما شئت لا ما شاءت الأقدار**
**فاحكم فأنت الواحد القهار**

ويذكر المستشرق ليفي بروفنسال : أن الدعوة للمذهب الشيعي قد بدأت في الأندلس خلال حكم عبد الرحمن الناصر ، ولكنه لا يعرفنا على وجه التفصيل كيف بدأت ؟ ولكننا نعتقد أنها بدأت قبل ذلك منذ أن استطاع الفاطميون تأسيس دولتهم في المغرب فمدوا أبصارهم إلى الأندلس التي كون الأمويون لهم فيها دولة .

ويبدو أن عددا من عيون الفاطميين ودعاتهم المتخفين قد تولوا أمر هذه الدعوة في الأقاليم الأندلسية القريبة من المغرب ، والمطلة على البحر المتوسط لسهولة الوصول إليها والخروج منها بسبب موقعها الجغرافي ، وبعدها النسبي عن العاصمة الأندلسية ( قرطبة ) .

وقد أشار ابن حزم في القرن الخامس الهجري إلى وجود نواة

---

=

وكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

انظر : ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ ترجمة ( ٤٠٩ ) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ ، ديوان ابن هانيء ص ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ طبعة بيروت سنة ١٣٢٦هـ . وإن ذهب البعض إلى أنه تشيع لا عن عقيدة ، ولكن طمعا ذهب المعز وعطاياه .

وقد فسر البعض أمثال هذه الأقوال حسب نظرية المثل والمثول التي آمن بها الشيعة حيث جعلوا الإمام مثل العقل الكلي الذي يعتبر في نظرهم أول ما خلق الله ، ولذلك فالإمام عندهم متصل بالله لأن ممثوله وهو العقل الكلي متصل بالله . ولذلك فإنها في نظرهم لا تعد كفرا ( انظر : د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والمثول القاهرة سنة ١٩٤٨م دار الفكر العربي ) .

للشيعة بين ســكان إقليمى المرية ، وبلفيق ، ولكننا لا نعرف عنهم المزيد من الأخبار(٥) .

وقد استطاع القاسم بن حمود ــ الذى ينتمى إلى الأدارسة العلويين ــ أن يعتلى عرش الخــلافة الأموية مرتين فى الأندلس ٤٠٨هـ ، ٤١٣هـ لعدة شهور قبــل سقوطها ، وجاهر بآرائه الشيعية ، وقدم نفسه كممثل لهــا ، وهى بلا شك نفس آراء الأدارسة الذين حاصر الأمويون نشاطهم المعــادى لهم فى شمال المغرب(٧) .

ويذكر المراكشى والضبى : أن القاسم كان يذكر عنــه أنه تشــيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا(٨) . وعلى اى الاحوال فإنه يعد من الشيعة بالاندلس سواء جاهرا أو لم يجاهر ، كمــا كان من الشعراء المتشيعيين بالاندلس الشاعر والمؤرخ أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذى تشتم من كتاباته واشعاره رائحة التشيع والتعصب ضد بنى اميــة وهو ينتسب إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى ، واشتهر بالموشحات ،

---

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٦) بنو حمود : اسرة يتصل نسبها بأدارســة شــمال إفريقية ، وكانت تقيم فى سبتة ، ثم دخلت قرطبة ، وقبضت على زمام الأمور ، وأخذت تعبث بالخلفاء الأمويين فمرة تضع خليفة دون أن يكون له من الأمــر شىء ، ومرة يتولى افراد منها الحــكم ويدعون انهم خلفاء . ولــم يستطيع بنو حمود أو الأمويين الذين وضعوهم على عرش الخــلافة أن يحافظوا على وحدة الأندلس فسقطت الخــلافة ســـنة ٤٢٢هـ وبدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

(٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٨) المعجب فى تلخيص اخبــار العرب ص ٣٣ ؛ بغيــة الملتمس فى تاريخ رجال اهل الأندلس ص ٢٨ .

واتصل ببنى جهور بعد انهيار الخلافة الأموية ، واختص ببنى حمود العلويين ، ولذلك كله اتهم بالتشيع(٩) .

وممن ذكرتهم المصادر الأندلسية على أنهم من المتشيعين الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، وكان من وادى الحجارة ، ورحل إلى المشرق نحو خمسة عشر عاما فسمع بصنعاء ومكة وبغداد ومصر ، ولقى جماعة من أصحاب الإمام أحمد وكان كما ذكر المقرى « إماما فى الحديث ، حافظا للعلل ، بصيرا بالطرق ، ولم يكن بالأندلس قبله ابصر بالحديث منه ، لم يذهب مذهب مالك ، وكان يظن به التشيع لشىء كان يظهر منه فى حق معاوية » وقد توفى بقرطبة سنة ٣٠٥هـ(١٠) .

ونظرا لشدة الخصومة بين الفاطميين الشيعة بالمغرب وبين الامويين السنة بالأندلس فقد أخذ الأمويون وبخاصة منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مجابهة الفاطميين بعدة وسائل وأساليب منها :

١ — التلقب بألقاب الخلافة حيث تلقب الناصر بألقاب الخليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لتوطيد مركزه ، وتثبيت دعائم دولته فى الداخل والخارج ، وإظهار أنه لا يقل عن الخليفة العباسى أو الفاطمى . وأن دولته لا تقل عن الدولة العباسية أو الفاطمية بل تنافسهما .

٢ — بث بذور الفتن والخلافات والقلاقل بين القبائل البربرية فى بلاد المغرب لإزعاج الفاطميين ، واجتذاب بعض زعماء هذه القبائل . ومد الخارجين على الفاطميين بما يحتاجونه .

٣ — الحرص على تقوية الأسطول الأندلسى لمنافسة اسطول

---

(٩) ابن حيان : المقتبس فى اخبار بلد الاندلس ص ٣٤٥ — ٣٤٦ تحقيق د. محمود مكى .

(١٠) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٤٦ .

الفاطميين فى البحر المتوسط ورد هجماته والسيطرة على مضيق جبل طارق بعد الاستيلاء على طنجة وسبتة وهما معبرى الأندلس من المغرب .

٤ — توطيد العلاقة ببعض الدويلات المغربية بالرغم من مخالفتها فى المذهب مثل دولة بنى رستم الخارجية فى تاهرت(١١) .

٥ — عقد المعاهدات مع اعداء الفاطميين من الدول الأجنبية مثل ملك إيطاليا هوجو البروفانس ( هوجو دى بروفانس ) الذى كان يحنق على الفاطميين لمهاجمتهم ميناء جنوه وتدميره ، وامبراطور بيزنطة الذى كان يهدف إلى استرجاع جزيرة صقلية من أيدى الفاطميين ، والاخشيديين فى مصر لمجابهة محاولات الفاطميين المتكررة لغزوها .

٦ — محاربة المذهب الشيعى فكريا فى الداخل والخارج ؛ وحظر التاليف فى مسائل الفكر الشيعى والمعتزلى . حتى استقر فى أذهان الأندلسيين ان تناول هذه المسائل يعتبر خروجا عن الدين الإسلامى القويم الذى يمثله المذهب المالكى . ولذلك ذكر المقدسى عنهم قولهم « لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك »(١٢) .

٧ — تاليف الكتب فى الرد على هذا المذهب الذى كان يخشى من تسربه إلى الأندلس ، ومن تعدد الفرق المذهبية فتصاب البلاد بالتمزق والانقسام مرة أخرى بعد أن بذلت جهود مضنية فى توحيدها بالقوة سياسيا وبالمذهب المالكى دينيا .

كما نرى الناصر يرسل مجموعة من الفقهاء المالكية إلى مصر فى

---

(١١) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ، د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢١ .

(١٢) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣

عهد الإخشيديين لمجابهة مذهب الشيعة فى الخارج . مثل محمد بن القاسم ابن شعبان المعروف بابن القرطى(١٣) .

٨ — استقبال العلماء والأدباء المناوئين للفاطميين والفارين منهم مثل الخشنى صاحب كتاب ( قضاة قرطبة ) . الذى فر من بطشهم ، واتصل بالحكم وحبب إليه العلم وغرس فيه هواية جمع الكتب . ومثل حكم بن محمد ابن هشام القيروانى المقرىء الذى فر منهم إلى الأندلس فأكرمه المستنصر وأجرى عليه العطاء حتى توفى سنة ٣٧٠هـ(١٤) .

وقد أثمرت هذه السياسة التى اتبعها الناصر تجساه الفاطميين فادت إلى فشلهم فى النيل من الأندلس ، والتوجه ناحية مصر لفتحها .

كما اهتم الخليفة الحكم المستنصر بمحاربة الفاطميين ومذهبهم الشيعى مثل أبيه وسار على سياسته تجاههم قبل رحيلهم إلى مصر . وبالغ فى ذلك حيث رأى فى محاربتهم نوعا من الجهاد ضد خصوم سياسيين ودينيين فى آن واحد . وكان حماسه للفقه السنى على مذهب مالك مما جعله ينظر إليهم على أنهم زنادقة تجب محاربتهم خشية انتقال مذهبهم إلى الأندلس(١٥) .

هذا فضلا عن أنه — مثل بقية بنى أمية — كانوا ينظرون إليهم على أنهم مدعين للنسب الفاطمى ، ودليل ذلك تلك الرسائل المتبادلة بينه وبين العزيز بالله الفاطمى فقد ذكر ابن خلكان : أن العزيز كتب إلى الحكم رسالة يسبه فيها ويهجوه فرد عليه الحكم قائلا « أما بعد

(١٣) د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ . ويذكر أن الناصر أرسل إليه عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية بمصر ، فأخرج الإخشيد مثلها لشيوخ الشافعية . انظر : خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٤ ) .

(١٤) د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ ص ٣٥٢ ، تاريخ علماء الأندلس ص ١٢١ .

(١٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك »(١٦) .

كما ذكر العينى : أن الحكم كتب إلى العزيز كتابا هجاه فيه وذكر انه دعى فى نسبه وأن جده ميمون القداح ينتسب إلى الباطنية(١٧) .

ويبدو انه بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وزوال خطرهم عن الاندلس نهج المستنصر نهجا آخر حيث كان محبا للعلم والثقافة — مثل المأمون العباسى — فاتسعت حركة التأليف والترجمة فى عهده لتشمل الوان الفكر المختلفة بما فيها الفكر الشيعى حيث لم يعد هناك ما يخشى منه من تهديد أمن البلاد . وأصبح لدى الأندلسيين من الوعى الدينى ، والتعصب الشديد للمذهب المالكى ما يضمن عدم تحولهم عنه أو انحرافهم لمذهب آخر . فنراه يطلب من بعض العلماء التصنيف فى أخبار الفاطميين وانسابهم ، فيؤلف له معاوية بن محمد بن هشام المروانى المعروف بالشبانسى أو ابن الشبانسية ( ت. ٣٩٠هـ ) كتابا فى نسب العلويين سماه ( التاج السنى فى نسب آل على ) ويحتوى على أخبار الشيعة فى المغرب والأندلس(١٨) .

والخلاصة أن الفاطميين لم يتمكنوا من نشر مذهبهم الشيعى فى الاندلس ، كما فعلوا فى المغرب ، ولم يسجل هذا المذهب إلا نتائج محدودة وغير ذات اثر كبير تمثلت فى تلك الاقليات الشيعية التى عاشت فى بعض البلاد الأندلسية وخاصة بعد عصر الخلافة الأموية كما اشار إلى ذلك ابن حزم فى القول الذى ذكرناه آنفا .

(١٦) عقد الجمان ج ١٩ ص ٣٩٦ ، تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٣٠ .
(١٧) د. محمد زغروت : مجلة البحوث الاسلامية ص ٣٥٢ .
(١٨) التشيع فى الأندلس : ج ٢ ص ١٢٦ مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد مجلد سنة ١٩٥٤م ، الحلة السيراء : ج ١ ص ٤٠ هامش ٣ ، د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الاسلامية مجلة البحوث الاسلامية عدد ١٧ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

## مذهب المعتزلة

وجدد دعاة المعتزلة كغيرهم من دعاة المذاهب الأخرى ـ كالشيعة والخوارج ـ متنفسا لهم فى بلاد المغرب ، واستطاعوا نشر آرائهم وافكارهم فى أوساط البربر بصفة خاصة . ويرجع نشاط المعتزلة إلى أوائل القرن الثانى الهجرى حيث ارسل واصل بن عطاء الذى ينسب إليه تاسيس المذهب مجموعة من الدعاة لنشره فى كثير من الأقطار كما يتضح من شعر صفوان الأنصارى احد شعراء المعتزلة حيث يقول عن واصل :

**له خلف شعب الصين فى كل ثغرة**
**إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر**
**رجال دعاة لا يفل عزيمهم**
**تهكم جبار ولا كيد ماكر(١)**

وكان من هؤلاء الدعاة الذين ارسلهم إلى بلاد المغرب لنشر المذهب عبد الله بن الحارث(٢) ويبدو أن نشاطه قد لقى رواجا فى أوساط البربر حيث تشير بعض المصادر إلى اعتناق بعض قبائل البربر لمذهب الاعتزال(٣) .

وإذا كان مذهب الشيعة قد وجد مقاومة شديدة من الأمويون فى الاندلس ولذلك لم ينتشر ولم يحرز إلا نتائج محدودة ، فإن مذهب المعتزلة

---

(١) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨ بيروت سنة ١٩٦٨م .
(٢) أحمد امين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٩٢ .
(٣) انظر : د. حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٤١ .

قد وجـــد مجالا اوسـع وعددا اكبر من المؤيدين ربما يفوق بكثير ما اورده لنا المؤرخون الأندلسيون الذين ترجموا لعلماء وطنهم .

ولعلل السبب المهم في ذلك يعود إلى ان الأمويين كانوا ينظرون إلى المذهب الشيعي على أنه مذهب يريد به اصـــحابه ان يصلوا إلى أهداف سـياسية ، بخـــلاف مذهب المعتزلة الذين لا يبغون من ورائه إقامة دولة مثل الشـيعة والخوارج ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأمويين قد رحبوا بهذا المذهب بل إنهم قاوموه ايضـــا ولكن لم تكن مقـــاومتهم له مثل مقـــاومتهم للمذهب الشيعي وبخاصة اولئك الأمـــراء والخلفاء الذين اهتموا بالعـــلم والثقافة ، وحاولوا مقـــاومة نفوذ وتسلط الفقهاء المـــالكية على مقاليـــد الحيـــاة الفكرية والدينية في الأندلس .

وما لا شك فيـــه أن تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المـــــالكي قـــد جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية والدينيـــة ( الكلامية ) نظـــرة تشدد واضـــطهاد . كما يستدل على ذلك من قـــول المقـــدسي السابق . « وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطا مالك ، فإن ظهروا على شافعي أو حنفي نفوه ، وإن عثروا على معتزلي أو شيعي ربما قتلوه »( ٤ ) .

وقد واجه فقهاء المـــالكية هـــذا المذهب باستنكار شديد ، والذى كان يكتشف أمره وانه يدعو لهـــذا المذهب كان يتم إبعاده من اولى الأمـــر بواسطة تاثيرهم وتدخلهم كما حـــدث عندما وصل إلى قرطبة ابو الطيب ابن أبى بردة ســـنة ٣٦١هـ ، في عهد الخليفة المستنصر فاحسن استقباله على انه من كبار الشافعية ، ولمـــا اكتشف انه من المعتزلة ابعـــــد على الفـــور سنة ٣٧٣هـ(٥) .

---

( ٤ ) احسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٠ .

ورغم ذلك فقـــد وجـــد من يعتنق مذهب المعتزلة ، ويدعو إليه ، ويبدو أن سبب ذلك هو أن المعتزلة التزموا العمل سرا أكثر من الشيعة ، واستطاع بعضهم أن يبث آراءهم خفيــة دون أن يلحظهم احـــد ، أو يثيروا غضب المتشددين من فقهاء المــالكية الحريصين على الاتجــاه الســنى المحــافظ . ودليل ذلك ما يذكره ابن حـــزم « من أن وادى بنى توبة كان كله معتزليــا »(٦) .

ومن الصعب تحـديد الوقت الذى بدأت فيـه آراء المعتزلة تتسلل تدريجيــا بين أكثر عناصر الشعب الأندلسى ثقــافة ـــ نظرا لطبيعة هذا المذهب الذى يعتمد على العقل كثيرا ـــ وإن كنا نعتقد أن ذلك لم يحدث قبــل حــكم الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط ( ٢٣٨ ـــ ٢٧٣هـ ) الذى سمح للكثير من الآراء والأفكار بالدخول إلى الأندلس فدخلت كثير من كتب المعتزلة إلى الأندلس وتلقفها الكثير من المثقفين وخاصة القضاة(٧) .

ومن أوائل القائلين بهــذا المذهب فى الأندلس : أحمــد بن موسى ابن حدير الذى كان يقول : إن الله عاقل وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس . كما كان منذر بن سعيد البلوطى يتهم بالميل إلى هذا المذهب أيضا . أما ابنه الحكم فقد كان رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم كما يقول ابن حزم(٨) ، ومنهم أيضا عبد الأعلى بن وهب القرطبى ت ٢٦٢هـ(٩)

---

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ، دراسات عن ابن حزم ص ٦٠ .

(٧) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ ٤ ص ٢٠٣ .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٧٢ ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمــة ١٥٤ ، وترجمة ١٤٥ .

(٩) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٨٣٧ .

وكان من الفقهاء المشهورين الذين آمنوا بحرية الاختيار ونفى خلود الروح(١٠) .

وكذلك خليل بن عبد الملك بن كليب القرطبى الذى اشتهر باسم خليل الغفلة(١١) وكان معاصرا لبقى بن مخلد ، وقد رحل إلى المشرق ، ودرس على الكثيرين وأخذ يتحدث بعد عودته إلى الأندلس عن استقلال الإرادة ، وحرية الإنسان فى أفعاله ورفض مبدأ الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور فى أفعاله(١٢) .

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بآرائه دون تستر ، وكان فى أول أمره صديقا لمحمد بن وضاح فلما تبين له أمره هجره وكان يؤول كثيرا من الأشياء . ويذكر أنه جاء إلى بقى بن مخلد فسأله بقى عن أربعة أشياء . قال : ما تقول فى الميزان ؟ قال عدل الله ونفى أن تكون له كفتان . فقال : ما تقول فى الصراط ؟ قال : الطريق ( يريد الإسلام ) فمن استقام عليه نجا ؟ قال فما تقول فى القرآن ؟ فلجلج ولم يقل شيئا وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال : ما تقول فى القدر ؟ قال : أقول إن الخير من عند الله والشر من عند الرجل . فقال بقى : لولا حالتك لأشرت بسفك دمك ، قم فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت(١٣) .

ويظهر أنه لم يتعرض لأذى فى حياته ، وإن تعرض للهجر والمقاطعة من أصدقائه نظرا لآرائه ، ولكنه بعد وفاته جاء جماعة من الفقهاء المالكية ومنهم أبو مروان بن أبى عيسى وأخرجوا كتبه من بيته وأحرقوها إلا ما كان فيها من كتب المسائل ( الفقهية )(١٤) .

---

(١٠) الحضارة العربية ص ١٧١ .
(١١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٤١٩ جا ص ١٣٩ وبعدها .
(١٢) الحضارة العربية ص ١٧٢ .
(١٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس جـ ١ ص ١٣٩ .
(١٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وكان لخليل مؤيد قوى فى مذهبه وهو تلميذه ابو بكر يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ( ت ٣١٥هـ ) وكان كما يقول ابن الفرضى « متصرفا فى ضروب من العلم ، متفننا فى الآداب ورواية الاخبار ، مشاركا فى الفقه والرواية وعقد الشروط ، بصيرا بالاحتجاج وعلم الكلام ، نافذا فى معانى الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب » .

وكان قد رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين ، ثم عاد إلى الأندلس واصيب بمرض النقرس ، وظل ملازما لداره يقصده فيهما الكثيرون ، وكان يعلن بالاستطاعة اخذ ذلك عن استاذه خليل ابن عبد الملك (١٥) .

ويبدو ان مذهب الاعتزال قد اخذ يشق طريقه رويدا رويدا بين المثقفين والعامة ايضا حيث يصف ابن حزم سكان وادى بنى توبة بانهم من المعتزلة(١٦) كما ذكر ايضا : أنه كان فى الأندلس قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون فيه(١٧) .

وبعد ذلك وخلال عصر الخلافة الأموية طوى الصمت مذهب المعتزلة الكلامى البحت وظهر مذهب جديد على يد ابن مسرة الابن ( ولد سنة ٢٦٩هـ وتوفى سنة ٣١٩هـ )(١٨) .

---

(١٥) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٨٨ ترجمة ( ١٥٨٠ ) .
(١٦) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٤ .
(١٧) انظر أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٩ .
(١٨) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلى القرطبى ، كان ابوه مولى لرجل من البربر من أهل فاس ، وقيل لبنى هاشم ، وقيل لبنى امية ، رحل الأب إلى المشرق وسمع بالبصرة عن كثيرين . والمعروف انها كانت مقر المعتزلة الأول ، ولذلك كان متهما بالقول بالقدر وكان يكتم ذلك ولا يظهره ، وكان خليل الغفلة صديقا له ، وكان ورعا فاضلا طويل الصلاة ، رحل فى آخر عمره إلى المشرق

=

وقد تتلمذ على يد أبيه الذى اعتنق المذهب ، كما تتلمذ على يد محمد بن وضاح الخشنى وخرج إلى المشرق فى أواخر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة(١٩) . ودخل القيروان ولبث فيها مدة ، وهناك رآه الخشنى فى مجلس أستاذه أبى جعفر أحمد بن نصر أحد تلاميذ سحنون ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج وزار قبر الرسول وظل بالمدينة مدة يتتبع آثاره فدل على دار زوجه مارية القبطية وكانت دارا بسيطة ، وفى أعلاها سقيفة ، فصلى بها ، وحددا مساحتها ، ولما عاد إلى الأندلس بنى مثلها لسكناه فى جبل قرطبة(٢٠) .

وقد صحبه فى هذه الرحلة اثنان من معتنقى مذهبه وهما محمد ابن حزم بن بكر التنوخى ويعرف بابن المرينى وكان من أهل طليطلة ، وأيوب بن فتح ، واثنان آخران هما أحمد بن غانم ، ومحمد ابن وهب المعروف بابن الصيقل(٢١) .

---

=

ونزل بمكة وتوفى بها فى ذى الحجة سنة ٢٨٦هـ ويقال : إن خروجه كان بسبب دين عليه ، ولكن يبدو أنه اتهم بالاعتزال وطورد فكان ذلك سببا لخروجه ( انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ ) .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة رقم ( ١٢٠٤ ) . حدد د. إحسان عباس مولده بأنه سنة ٢٩٩هـ ( تاريخ الأدب الأندلسى ( عصر سيادة قرطبة ) ص ٥٢ ) وربما كان خطأ مطبعيا ، والصحيح أنه ولد سنة ٢٦٩هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى فى ترجمته له ( تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة ١٢٠٤ ) . كما حدد خروجه فى سنة ٣١١هـ فى أواخر عهد الأمير عبد الله وربما كان هذا خطأ مطبعيا أيضا لأن عبد الرحمن الناصر قد ولى الحكم سنة ٣٠٠هـ ، ولذلك ذهب البعض إلى أنه خرج فى عهد الناصر سنة ٣٠١ هـ ( د. محمود حماية ابن حزم ومنهجه ص ٣٨ ) .

(٢٠) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ٣٦٥ .

(٢١) التكملة ص ١١ ، ص ١٩٩ ، ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الفرضى : ان ابن مسرة اشتغل فى الشرق بملاقاة اهل الجدل واصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الاندلس فأظهر النسك والورع ، واختلف الناس إليه وسمعوا منه ، ثم انقسموا فى موقفهم منه إلى فريقين : فريق رآه إماما فى العلم والزهد ، وفريق آخر طعن عليه ووصف مذهبه بالفساد وسوء المعتقد والابتداع والخروج عن العلوم المعلومة بالأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم(٢٢) .

ويبدو من الاخبار القليلة التى وردت عنه فى كتب التراجم والتاريخ ان مذهبه كان يجمع بين التصوف والاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا ولا باطنيا خالصا(٢٣) .

فاما مبادىء الاعتزال التى كان يقول بها فهى القول بالاستطاعة ، وانفاذ الوعيد والتأويل فى كثير من القرآن(٢٤) . يقول ابن حزم « إن ابن مسرة شارك المعتزلة فى القول بالقدر ، وكان يقول : إن علم الله وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان ، وأن الله تعالى علمين احدهما : أحدثه جملة وهو علم الكتاب او علم الغيب ، والثانى : علم الجزئيات وهو علم الشهادة فإنه لا يعلم منه شيئا حتى يكون واستشهد على ذلك بقوله تعالى ( عالم الغيب والشهادة )»(٢٥) .

---

(٢٢) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٣) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى انه كان معتزليا كأبيه ، وأسر مذهبه مثله ، ولذلك اعتزل الناس ، ولم يستطع المحافظة على ذلك طويلا فاتهم بالإلحاد ، وفر من الأندلس واظهر التقية واخذ يبث تعاليمه ( ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ ) .

(٢٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(٢٥) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٨ مصر سنة ١٣١٧هـ .

وقد ذكر ابن الفرضى : انه كان يحـرف التـأويل فى كثير من آيات القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الاعمال ، ومحاسـبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى المصرى ، وابى يعقوب النهرجورى ، وانه كان له لسان يصـل به إلى تأليف الكلام وتمويه الالفـاظ وإخفاء المعـانى وانه وفد عليـه جماعة من اهل المشرق منهم ابن زياد الاعرابى وابن سالم التسترى(٢٦) .

واما المبادىء الباطنيـة فى مذهبـه فإنه بنـاها على آراء نسبت لانبيذوقليس الفيلسوف اليونانى الذى يعـد أول الحكماء اليونانيين السبعة ونسبت إليـه كرامات كالصوفية ، والحقيقـة انهـا بعض آراء فيـلون الاسكندرى وافلوطين .

ومن هـذه الآراء المنسوبة إليـه الجمع بين معانى صـفات الله ، وانهـا كلها تؤدى إلى شىء واحـد ، وانه إذا وصف بالعـلم والجـود والقـدرة الخ فليس هو ذا معـان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة ، بل هو الواحـد بالحقيقة الذى لا يتكثر بوجه . وتزعم الفرقة الباطنيـة ان له رموزا قلما يوقف عليها(٢٧) .

وقد يستنتج مما جـاء فى كتب ابن مسرة ان النبـوة من الممـكن اكتسابها وانه قد يصل إليها من بلغ الغـاية فى الصلاح وطهارة النفس وإن انكر بعض اصحابه نسبة هذا القول إليه(٢٨) .

وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية كانت موجودة عنـد افلوطين

---

(٢٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٠ ترجمة سنة ١٢٠٤ .
(٢٧) القفطى : اخبار الحكماء ج ١ ص ١٣ .
احمد امين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢٨) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

وهى القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهيـــة . واعتبرت هذه المـــادة أول صورة برزت للعالم العقلى الذى يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . ويذكر المستشرق الإسبانى بالنثيا : أن ابن مسرة قـــد دافع عن هـــذا المذهب تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(٢٩) .

ويذكر ليفى بروفنسال : انه أراد بنـــاء منهج فلسفى يقوم على مبدأ وحـــدة الوجود ، وان أصـــالة فلسفة ابن مسرة تكمن فى الاستفادة من هذه الفـــكرة ، وانه بنى على هذا المذهب فكرته عن كونية العالم ، وعقيـــدته فى الإرادة الحـــرة ، والعلم الإلهى السابق وعدم تطهير الروح إلا بعـــد عودتها للعالم الروحانى(٣٠) .

ويرى جولد زيهر : انه تأثر بنظرية الأفلاطونية الحـــديثة التى كانت منتشرة بالمشرق فى ذلك الوقت وكون مدرسة تدعو إلى حرية الفكر(٣١) .

وقد انتهى المستشرق الإسبانى آسين بلاسيوس إلى نتـــائج تختلف بعض الشىء عن نتـــائج ليفى بروفنسال وجولد زيهر فهو يرى وجـــوب الفصل عند دراســـة أفكار ابن مسرة بين المنهـــج اللاهـــوتى والمنهـــج الفلسفى . وحـــاول أن يتبين خصائص كل منهما معتمدا على آراء اثنـــين من الاندلسيين وهما ابن حـــزم وصاعد الطليطلى ، واثنين من المشـــارقة وهما الشهرزورى والشهرستانى(٣٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع ابن مسرة أن يجتذب إليـــه تلامـــذة

---

(٢٩) تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٨٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

(٣٠) الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٨٠ ترجمة د. الطاهر مكى .

(٣١) المرجـــع السابق ص ١٧٩ .

(٣٢) الحضارة العربية فى اسبانيا ص ١٨٠ .

كثيرين عاش معهم فى عزلة بجبل قرطبة ، وكان كما تصوره الروايــات ذا قدرة ســاحرة مؤثرة فى النفوس ، والف بعض الكتب فى مذهبـــه ومنها كتاب الحروف وكتاب التبصرة ، ويذكر ابن الابار : انه لم يكن يخرج كتابا إلا بعــد ان يتعقبه حــولا كاملا(٣٣) . وكانت بعض كتبه معروفة فى الأندلس وراى ابن حزم عددا منها(٣٤) .

وقد اثارت آراء ابن مسرة خصومات جدليــة فى الأندلس والمشرق ، وتصدى للرد عليها علماء من الأندلسيين والمشارقة فممن تصدى للرد عليه من المشارقة احمد بن محمد بن زياد الأعرابى ، وأحمد بن محمد بن ســالم التسترى .

وممن تصدى للرد عليــه من الاندلسيين ابن أبيض الذى الف كتابا كبيرا فى ذلك اكثر فيــه من الحديث والشواهد(٣٥) ، وكذلك الزبيــدى العــالم اللغوى المشهور الذى الف كتابا فى الرد عليــه ايضــا(٣٦) ، والقاضى ابن زرب ( محمد بن يبقى ) الذى كان يعارض آراء ابن مسرة معارضة شديدة والف كتابا اخــذ عنه عدة مرات بقرطبة(٣٧) . وقــد منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سلطات واســعة ومعه الزبيدى لمحاصرة

---

(٣٣) التكملة ص ٢٨٤ — ٢٨٥ . يذكر أنه كان حريصا على عدم اطلاع أحــد على كتبه حتى المقربين إليــه من تلاميذه ويقال : إنه لمــا الف كتاب التبصرة احتــال صاحبه يحيى بن عبــد الملك الذى كان يسكن معه فى خلوته بالجبل فاستخرج هذا الكتاب ونسخ منه نسخة لنفســه ثم اراها له فلما تصفحها قال : لا نفعك الله به ولم يخرج هــذا الكتاب بعــد ذلك لأحــد ( التكملة ص ٢٨٥ ) .

(٣٤) احسان عباس : مرجع سابق ص ٥٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٤٤ .

(٣٦) الصــلة ص ٤٦٥ .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٤ .

آراء ابن مسرة ، فأمر باعتقال تلاميذه وطلب منهم التبرؤ من أفكارهم علنا ، وأحرق كتبهم التى نسخوها من كتبه خارج مسجد قرطبة .

ثم جاء عهد الخليفة الحكم المستنصر فخفت حدة ملاحقتهم بعض الشىء نظرا لاهتمام هذا الخليفة بالعلوم العقلية ومنها الفلسفة إلى جانب العلوم الدينية . ولكن ما إن جاءت خلافة ابنه هشام المؤيد الذى تولى حجابته المنصور بن أبى عامر حتى عادت ملاحقتهم من جديد — حيث كان المنصور شديداً على المشتغلين بالفلسفة — وتم تعيين ابن زرب قاضيا للجماعة ، فاهتم بالكشف عنهم وتتبعهم واستتابتهم فتاب على يديه عدد منهم وأحرق ما وجده من كتبهم وكان ذلك فى حدود سنة ٣٧٠هـ (٣٨) .

وفى سنة ٣٦٨هـ/٩٧٩م اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطى القاضى المشهور فى عهد الناصر والمستنصر وقد حكم على عبد الملك بالقتل والصلب حيث اتهم بأنه معتزلى وأنه ضم ثلاثة من إخوته وهم سعيد وعبد الوهاب والحكم إلى مذهب ابن مسرة ، وأخذوا يبثونه فى قرطبة ، وساعدهم فى ذلك نظام الخلوة التى أقامها ابن مسرة بعيدا عن العاصمة فى جبل قرطبة . وتكوين مقر آخر لأتباع المذهب فى مدينة بجانة(٣٩) .

وكان هناك أناس انضموا إلى مذهب ابن مسرة دون أن يلتقوا به أو يتتلمذوا على يديه ومنهم طريف الروطى ، وأضحى بن سعيد وكانا من

---

(٣٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ ، د. محمود حماية : ابن حزم ومنهجه ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : مرجع سابق ص ٥٨ .

(٣٩) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ — ١٨٢ .

اهل الزهد والخير وقد الف بعضهم كتابا فى اخبار ابن مسرة واصحابه نقل عنه ابن الابار فى التكملة(٤٠) .

ومن اشهر اتباع ابن مسرة وتلاميذه أيضا : إلياس بن يوسف الطليطلى ت ٣٢١هـ ، واخوه عون بن يوسف الطليطلى ، وخليل ابن عبد الملك (ت ٣٢٣هـ ) الذى تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان يجاهر بالقول بالاستطاعة والقدر والتاويلات التى تفسر لنا شيئا من تأويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق أى الإسلام ، والميزان هو عدل الله(٤١) .

وأيوب بن سليمان بن اسماعيل الطليطلى ت ٣٤٣هـ وكان قديم الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له(٤٢) ، ومحمد بن مفرج المعافرى ( ت ٣٧١هـ ) الذى لم يقف عند حد الاعتقاد بالمذهب وإنما كان يدعو إليه(٤٣) ، ومحمد بن فضل الله بن سعيد الذى تفقه بكتب ابن مسرة ، واحمد بن وليد ( ت ٣٧٦ هـ ) وهو من أهل بجانة وكان من الذين استتابهم القاضى محمد بن يبقى(٤٤) ، ورشيد بن فتح الدجاج من اهل قرطبة ( ت ٣٧٦هـ ) وكان يتهم بمذهب ابن مسرة ولما توفى صل عليه القاضى محمد بن يبقى ودفن بمقبرة قريش ويظهر انه استتابه(٤٥) .

وابان بن عثمان ( ت ٣٧٧هـ ) من أهل شذونة وكان نحويا لغويا ،

---

(٤٠) التكملة ص ١٢ ، ٣٤٦ .
(٤١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .
(٤٢) ابن الابار : التكملة ص ١٩٩ .
(٤٣) تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ٨١ — ٨٢ ترجمة رقم ( ١٣٣١ ) .
(٤٤) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٥٣ ترجمة ( ١٨١ ) .
(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ ترجمة ( ٤٣٩ ) .

لطيف النظر . جيـد الاستنباط ، بصيرا بالحجة متصرفا فى دقيق العلوم ، حسن الشعر ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة(٤٦) .

وعبد العزيز بن حـكم الاموى ( ت ٣٧٨هـ ) وكان مائلا إلى الكلام والنظر وقد غض منـه انتحـاله لمذهـب ابن مسرة كمـا يقـول ابن الفرضى(٤٧) ومحمد بن أحمد بن حمدون القرطبى المعروف بابن الإمام ( ت ٣٨٠هـ ) وكان مشهورا باعتقاد مذهب ابن مسرة يجاهر به ولا يتستر، وكان مولعا بالتشريق فى صلاته(٤٨) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسى القرطبى ( ت ٣٨٢هـ ) وأصله من جيان وكان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ويبدو أنه تاب عنـه(٤٩) .

وآخـر من عرف من أصحاب ابن مسرة اسماعيل بن عبد الله الرعينى وهو متأخر عن الجيل الثانى من اتباعه ، وقد أدركه ابن حزم ولكنه لم يلقه وقال عنه « وكان من المجتهدين فى العبـادة المنقطعين فى الزهد »(٥٠) . وقد أحدث فى المذهب اقوالا نفرت سـائر من بقى من أتباعه منـه وكفروه لذلك إلا القليل منهم ومنها قوله : إن الأجساد لا تبعث أبـدا وإنما تبعث الأرواح ، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ، ويصير إما إلى الجنـة وإما إلى النـار ، وانها لا تبعث إلا على هذا الوجه أبدا .

وقوله : إن العـالم لا يفنى أبدا ، وكان لا ينسب الفعل إلى اللـه

(٤٦) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٢ ترجمة (٥٤) .
(٤٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ ترجمة ( ٨٣٦ ) .
(٤٨) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٣ ترجمة ( ١٣٦١ ) .
(٤٩) المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦ ترجمة ( ١٣٦٦ ) .
(٥٠) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

وينزهه عن ذلك ، ويرى أن العرش هو الذى يدير العـــالم وينسب قوله هـــذا إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال فى كتبه .

ولكن ابن حـــزم يدافع عن ابن مسرة فى ذلك قائلا : « ليس فيهـــا لعمرى دليـــل على هـــذا القول » ويذكر انه عرض هـــذه الأقـــوال على ابن لإسماعيل فأنكرها ، ولمـــا برىء منـــه أتباع ابن مسرة بقيت ابنـــة له تتبعه وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة(٥١) .

ويذكر ابن حزم أيضـــا انه رأى من أصـــحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر بأشـــياء قبل أن تكون فتكون .

ويبدو أن اسماعيل قـــد حاول تكوين مذهب جـــديد يكون إماما له ونادى بمبادىء جـــديدة وانه اتبعه اناس على هـــذا المذهب ويستشف ذلك من قول ابن حزم : « وهناك أمور لا شك فيهـــا وهى انه كان عنـــد فرقته إماما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض ، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المـــرء من صـــــناعة أو تجـــارة أو ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق ، وأن الذى يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخـــذه هـــذا أمر صحيح عندنا عنـــه يقينـــا ، وأخبرنا عنـــه بعض من عرف باطن أمورهم انه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصـــحابه فقـــط ، وصح انه كان يقول بنـــكاح المتعـــة »(٥٢) .

وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت فى سبيل القضاء على هـــذا المذهب سواء من الخلفاء أو الفقهاء المـــالكية إلا أن ذلك لم يؤد إلى منـــع بعض مبادئه إن لم يكن كلها من البقـــاء لتأخذ فى الانتشار بعـــد ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لتحـــدد بدقة ووضـــوح ملامح الحيـــاة الصوفية الجماعية فى الأندلس وتطورها(٥٣) .

---

(٥١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .

(٥٢) انظر الفصـــل ج ٤ ص ٢٠٠ ، إحســـان عبـــاس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .

(٥٣) بروفنســـال : الحضارة العربية ص ١٨٢ .

## مذهب الخوارج

إذا كان مذهب المعتزلة قد لقى معارضة شديدة فى الأندلس ، فإن مذهب الخوارج بلا شك قد لقى معارضة ومقاومة أشد .

ومن المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية والصفرية(١) .

---

(١) **الإباضية :** تسمية أطلقت عليهم من قبل خصومهم وهى نسبة إلى عبد الله بن إباض الذى اشتهر بالدفاع عن المذهب . ومؤسسه الحقيقى هو الإمام جابر بن زيد أستاذ عبد الله ، وقد استخدم أسلوب التقية الدينية فى البصرة ، وعرف بأنه أحد التابعين المحدثين الثقات ومن فقهاء البصرة وعلمائها . ( الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٩٧ )، وهم لا يعتبرون أنفسهم من الخوارج وإنما هم الجماعة المؤمنة ولذلك يتبرأون من فرق الخوارج الأخرى التى حكمت على مرتكبى الكبائر بالشرك وأحلت دماءهم وأموالهم . وقد بين الشهرستانى وغيره من كتاب الفرق آرائهم حيث قالوا : « إن مخالفينا من أهل القبلة غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال وما سواه حرام ، وحرام قتلهم ، وسبيهم فى السر غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة ، وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى ، وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وقالوا فى مرتكبى الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون » ( الملل والنحل ص ١٣٤ ، مقالات الاسلاميين جـ ١ ص ١٧١ ) .

وفى هذه الآراء نلمس مدى المسالمة والاعتدال الذى اتسم به الإباضية بالقياس إلى الفرق الأخرى من الخوارج التى كفرت المسلمين واستباحت دماءهم وأموالهم وأعراضهم ( انظر د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٠١ ).

قد وجد له مجالا وصدى فى بلاد المغرب ، ووجد اتباعه فيها مجالا خصبا لبث افكارهم وتشريعاتهم بعيدا عن قبضة الخلافة ، واقبل عليه الكثير من البربر لانه كان يتلائم مع نزعتهم وعقلياتهم وطبيعتهم بما فيه من بساطة ووضوح من ناحية ، وصلابة وتشدد وقوة مراس من ناحية اخرى .

---

**الصفرية** : اصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل سموا بذلك نظرا لاصفرار وجوههم نتيجة لكثرة العبادة . ومبادئهم فى الجملة كمبادىء الأزارقة فى أن مرتكبى الكبائر مشركون ، غير أنهم لا يرون قتل مخالفيهم مثل الأزارقة ، وهم يقولون بموالاة عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير السعدى واتباعهما من المحكمة الأولى ويقولون بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى وعمران بن حطان السدوسى بعده ( الفرق بين الفرق ص ٧٠ — ٧١ ط ٢ بيروت سنة ١٩٧٩م ) .

وقد أشار الشهرستانى إلى الخلاف بين الصفرية من ناحية والأزارقة والنجدات والإباضية من جهة أخرى فقال « إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد ولم يسقطوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النار ، وقالوا التقية جائزة فى القول دون العمل . وأما قضية الإيمان والشرك والبراءة عند الصفرية فيلخصها قول نسب لزياد « نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله . والشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بانكار النعمة ، وكفر بانكار الربوبية والبراءة براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود فريضة » ( الملل والنحل ص ٢٥٠ — ٢٥١ تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م ) .

ويشير ابن خلدون إلى شيء من ذلك فيقول : « ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدانوا بهـا ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية ... الخ »(٢) .

وقد ساهمت الظروف والأوضـاع السياسية والاجتماعية التى كان يمر بهـا المغرب فى تمهيد السبيل لانتشار مذاهب الخوارج فيه ، والمتصفح لأسماء القبـائل التى انضمت للمذاهب الخارجية يجـد انها شملت البتر والبرانس أصـل البربر . فقد اعتنقت زناتة المذهب الإباضى ، وساندت الدولة الرستمية الإباضية ، مما دفـع أحـد ولاتها إلى القول « بأن هـذا الدين إنما قام بسيوف نفوسة وأموال زناتة »(٣) .

وكذلك قبيلة نفوسة التى تعـد من أكبر قبائل البربر ، وقد اعتنقت المذهب الإباضى ، وقبيلة لمـاية التى اعتنقت المذهب الإباضى ايضـا . وقبيلة هوارة التى تنتمى للبرانس التى اعتنق اغلبها المذهب الإباضى(٤) .

والى جانب المذهب الإباضى التى انتشر فى مناطق كثيرة من بلاد المغرب فقـد وجـد المذهب الصفرى الذى انتشر أيضـا واعتنقه العديد من البربر وخاصـة قبـائل مكناسة ومطغرة وبرغواطة وكانت اول ثورة خارجية تندلع على ارض المغرب سـنة ١٢٢هـ بقيـادة ميسرة المدغرى ( المطغرى ) ويعرف بالحقير بائع المـاء بسوق القيروان(٥) .

وقـد اسـتطاع ميسـرة ان يقـود جمـوع اتبـاعه من الخـوارج الصـفرية وغيـرهم ليقـضى عـلى ولاة طنجـة وإقليم السوس واتبعه هؤلاء وبايعوه بالخـلافة وخاطبوه بامير المؤمنـين وفشت دعوته فى سـائر القبائل بافريقية(٦) . ويذكر أن اتباعه كانوا

---

(٢) العبر جـ ١ ص ١١٠ ط بيروت سنة ١٩٧١م .
(٣) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٥٤ — ١٢٥ .
(٤) العبر جـ ٦ ص ٥٨٦ .
(٥) الكامل جـ٥ ص ١٩١ — ١٩٢ ، العبر جـ٤ ص ١٨٩ ، تاريخ افتتـاح الأندلس ص ١٤ .
(٦) عن هذه الثورة انظر السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٤ — ١٥٥

يحلقون رءوسهم تشبها بالخوارج من الأزارقة وأهل النهروان من أتباع عبد الله بن وهب الراسبى(٧) .

وقد استطاع المذهب الخارجى بشقيه الإباضى والصفرى أن يحقق نجاحا سياسيا بإقامة دولتين خارجيتين إحداهما دولة صفرية فى سجلماسة فى المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ والأخرى إباضية فى المغرب الأوسط وهى الدولة الرستمية سنة ١٦٠هـ(٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق الذى دخل الأندلس وهى مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة وكلهنا متفرعة من زناتة(٩) . ومن المعروف أن قبيلة مطغرة كانت تعتنق المذهب الصفرى ومنها ميسرة المدغرى الذى قام بأول ثورة خارجية فى المغرب وامتد صداها إلى الأندلس .

ولا شك انه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتنق المذاهب الخارجية وان كانت المصادر لم تورد لنا كثيرا من ذلك . والدليل على ذلك أن هناك ثورات بربرية رفعت شعار الخوارج وتشبهت بهم ومن أخطرها ثورة ابن هدين أو زقطرتق سنة ١٢٥هـ التى حلق فيها البربر رءوسهم اقتداء بميسرة « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا » . وقد ذكر ابن حزم : أن النكارية كانوا هم الغالبين على خوارج الأندلس(١٠) .

ويذكر دوزى : أن رجع ثورة البربر بقيادة ميسرة فى افريقية كان شديدا فى إسبانيا حيث رحب بربرها بمبعوثى الخوارج الوافدين من إفريقية لدعوتهم إلى حمل السلاح لاستئصال شأفة العرب فنشبت فتنة سياسية دينية كفتنة إفريقية(١١) .

---

(٧) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٣٢ ، د. السيد سالم : تاريخ : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٥٤ .
(٨) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٨ .
(٩) القيروان المبتدأ والخبر ج ٦ ص ١٠٦ وبعدها .
(١٠) أخبار مجموعة ص ٣٩ — ٤٠ ، الفصل : ج ٤ ص ٢٠٢ .
(١١) تاريخ مسلمى إسبانيا ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م .

## التصـــوف

هنـــاك ناحية جديرة بالبحث فى الحالة الدينية وهى ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف فى المشرق فى القرن الثانى ، كذلك نشأ فى الأندلس فى نفس القرن بعـــد الفتح غير أن التصوف فى المشرق كان مزيجـــا من التعاليم الإسلامية وتعاليم الفرس واليونان والهنود وتصوف الأندلس كان مزيجا من تعاليم الإسلام والأفلاطونية الحديثة والتعاليم اليونانية والرومانية وما جاء من قبل المشرق من تعـــاليم فارسية وهندية ، حيث كانت الأندلس تجـــاور هـــذه البـــلاد .

يضاف إلى ذلك أن الأندلس قد كثر فيها العنصر البربرى ، وقـــد اشتهر هـــذا العنصر من قديم بأن أهله أصـــحاب خيـــال واعتقاد بالمغيبات وسرعة تصـــديق أصحاب الدعاوى الغيبية ولا ننسى ما لقيـــه العرب عند فتحهم للمغرب من شـــدة مقاومة هـــذا العنصر وخاصة على يد امرأة تدعى ( الكاهنة ) حيث التف حولها الكثيرون ، وقاوموا العرب مقاومة شديدة . وحتى الآن فى كثير من بلاد المغرب لازال للبربر شهرة قوية فى فتح الكتب، وكشف الكنوز وقراءة الكف والتنجيم وإدعاء معرفة المستقبل وهى أشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى ولذلك كله اتسعت عند الأندلسيين حـــركة التصوف(١) .

وأول من عرف تصوفه فى الأندلس ابن مسرة محمد بن عبد الله المولود سنة ٢٩٦هـ وقد عرف أبوه بالاعتزال وكان ذلك المذهب قليـــلا وغير مرغوب فيـــه فاضطر أن يخفى ذلك . وأورث هـــذا المذهب لابنه فاعتزل الناس قبل الثلاثين فى خلوة بجبل قرطبة يتعبد فيـــه ويبث هـــذا المذهب لأتباعه . وساعدته عزلته على ســـعة الخيـــال وعمق التفكير والصفاء ولكن ما لبث أن انكشف أمره فاتهم بالزندقة فخرج من الأندلس مظهرا أنه يريد الحج

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٨ ــ ٦٩ ، إحسان عبـــاس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

حتى كانت خلافة عبد الرحمن الناصر فعاد مرة أخرى واخذ فى نشر مذهبه فازداد اتباعه ، ويبدو انه اتخذ التقية وسيلة لاخفاء حقيقة مذهبه الذى يجمع بين الاعتزال والتصوف(٢) .

ويبدو ان تطور مذهب الاعتزال وانتشاره فى الأندلس قد ارتبط بحياة الزهد والتصوف(٣) .

وهنا يصح لنا ان نتساءل هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف ، أو أن ميله الطبيعى ومزاجه وتعاليم النصارى الإسبان والفلاسفة اليونان هى التى انتجت ذلك ؟ فيكون التصوف الأندلسى مستقلا عن التصوف فى المشرق . ليس بين أيدينا ما يقطع بالاجابة خصوصا وقد كان فى الأندلس قبل الإسلام زهاد من الرهبان المسيحيين انقطعوا للعبادة . ولا مانع من ان يكون التصوف الأندلسى قد اخذ من هذا وذاك . وعلى اية حال فقد كان ابن مسرة أول من عرفنا فى الأندلس من المتصوفة وكان من تلاميذه أبو بكر محمد الهاشمى الذى أخذ عنه محيى الدين ابن عربى وكان متقشفا زاهدا ولم نعرف له كتبا ، وعاصره صوفى آخر يدعى أبو عبد الله القرشى الهاشمى الذى نسبت إليه اقوال صوفية كثيرة منها « من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبه فيها » ، « من لم يراع حقوق الإخوان يترك حقوقه حرم بركة الصحبة » وقد توفى ببيت المقدس سنة ٥٥٩ هـ وكان الناس يتبركون بضريحه هناك(٤) .

ويرى أسين بلاسيوس ان حياة الزهد كانت هى الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة فى عصر الخلافة لمن يريدون الفرار من سيادة رجال

---

(٢) ظهر الاسلام ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

(٤) ظهر الاسلام ج ٣ ص ٧٠ .

الدين المالكية فى الأندلس ، وأن يبثوا تعاليمهم فى دائرة ضيقة من الأتباع والمؤيدين دون أن يتعرضوا لخطر جسيم .

واستطاع هؤلاء الزهاد بورعهم أن يكتسبوا مكانة عند السلطان والفقهاء والعامة ، واستعانوا بالتفسيرات الرمزية للتوفيق بين النصوص وبين الأفكار الباطنية المشرقية(٥) .

وكان هؤلاء يشكلون على نحو ما رواد الحركة الصوفية فاعتزلوا الحياة فى المدن ، واعتكفوا فى الجبال والغابات ، واجتهدوا فى العبادة والطاعة وحرمان النفس من الشهوات والملذات ، وآثروا الفقر على الغنى وكانوا يقطعون الليل فى تلاوة القرآن ، والنهار فى الصيام ولا يأكلون إلا القليل ، ويصبرون على المرض ويفضلون حياة العزوبية ، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء ، يفتدون الأسرى ، ويقطعون حياتهم فى العزلة والتأمل والفكر والعبادة ، أو يرابطون فى الثغور لمحاربة النصارى طلبا للشهادة .

وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون عليهم العباد والنساك والزهاد والصوفية وكان الكثيرون منهم قد قطعوا كل صلة لهم بالحياة العامة فى مجتمعاتهم بينما أبقى البعض منهم على صلاته بالأوساط العلمية والدينية . وتميزوا بملابسهم الغريبة الخشنة ، وحياتهم القاسية ، وممارسة الأعمال اليدوية للتعيش منها ، ومن حين لآخر يشاركون فى الحملات الحربية الموجهة ضد النصارى .

وقد قدم لنا الضبى فى كتابه بغية الملتمس نموذجا حيا لواحد من هؤلاء الزهاد ويدعى محمد بن طاهر القيسى فيقول عنه « ورع فاضل من أهل بيت جلالة وصلاح برع بخصاله المحمودة فكان فى نفسه فقيها عالما زاهدا خيرا ناسكا متبتلا فى طلب العلم ، ورحل فى التماسه إلى

---

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

قرطبة فروى الحديث بها وتفقه بأهل الشورى المفتين وناظرهم وأخذ بحظ وافر من العلم ، ثم ارتحل إلى المشرق عند إتمام الثلاثين فسكن الحرمين ثمانية أعوام يتعيش من عمل يده بالنسخ ، ورحل إلى بيت المقدس ثم إلى العراق ، ودخل مدينة واسط ، واستكثر من لقاء العلماء والفقهاء ، وصحب الأخيار والنساك وتألفهم واقتدى بهم ولبس الصوف وقنع بالقرص وتورع جدا وأعرض عن شهوات الدنيا فأصبح عالما عاملا منقطع القرين ، قد جربت منه دعوات مجابة ، وحفظت له كرامات ظاهرة ، يطول القول في تعدادها حملها عنه رواة صدق » .

ثم قدم تدمير سنة ست أو سبع وثلاثمائة ولم يزل بمدينة مرسية قاعدة تدمير وطنه ، ونزل خارجا عنها في القرية المنسوبة إلى بني طاهر ، وابتنى لنفسه بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطرفاء(٦) آوى إليه وكانت له هناك جنينة يعمرها بيده ويقتات بما يزرعه فيها من البقل والثمر . وكان لا يدع في خلال ذلك الجهاد مع محمد بن أبي عامر وقوادة وشهد معه فتح مدينة سمورة ، وقلمرية من قواعد مملكة جليقية المسيحية ثم ترك قريته ورحل إلى الثغر . وواصل الرباط بفروجه المخوفة .

وكان ذا بأس وشجاعة وثقافة تحدث بها أهل الثغر في حكايات عجيبة وظل مرابطا بطلبيرة حتى استشهد سنة ٣٧٩هـ(٧) .

وثمة نموذج آخر وهو عثمان بن محامس ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م قال عنه الضبي « زاهد عالم مشهور بالعزوف عن الدنيا من أهل استجة ....

---

(٦) ورد في نفح الطيب بحطب السدر ، وفي هامشه بحطب الشعراء ، والسدر شجر النبق ، والشعر والشعراء شجرة ليس لها ورق ولها أهداب تحرص عليها الابل أشد الحرص ( بغية الملتمس ص ٨٤ هامش ٢ ) .

(٧) الضبي : بغية الملتمس ترجمة رقم (١٥٤) ( ص ٨٣ ــ ٨٤ ) .

كتب على باب داره ( ياعثمان لا تطمع ) »(٨) .

ويقول عنه ابن الفرضى « كان حافظا للتفسير ، عالما بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب منقل أكثره عن ظهر قلب وتوفى رحمه الله سنة ست وخمسين وثلاثمائة »(٩) .

وخلال عصر الخلافة بدأت الأندلس تستقبل أعدادا من هؤلاء النساك الجوالين الذين أخذوا يزدادوا فى القرون التالية وبخاصة فى شرق الأندلس ومملكة غرناطة ومن هؤلاء ابراهيم بن علق الديلمى الخراسانى ، واحمد بن محمد بن صالح الأنطاكى(١٠) .

ونجد فى هذه الفترة نزعة زهد واضحة عند بعض الشعراء مثل ابن أبى زمنين والغزال وابن عبد ربه وأبى بكر الزبيدى وغيرهم(١١) ونحس فيها بأفكار شاعر الزهد أبى العتاهية ونظرته إلى الحياة والموت . ومن العسير أن نحتكم بأن الشعراء الأندلسيين قد استعاروا هذه الموضوعات من أبى العتاهية أو إقتبسوها من شعره لأن الزهد نزعة لها أصولها الاجتماعية ولا تجيء كلها إقتباسا ، فموضوع الحياة والموت مشترك بين الناس جميعا ، ولكن أثر أبى العتاهية فى تقوية هذه النزعة الزاهدة فى الشعر الأندلسى لا يمكن إنكاره فعندما ننظر إلى الزبيدى فى قوله :

**تفكر فى الممات فعن قريب ... ينادى بالرحيل إلى الحساب**

**وقدم ما ترجى النفع منه ... لدار الخلد واعمل بالكتاب**

**ولا تغتر بالدنيا فعما ... قريب سوف تؤذن بالخراب**

---

(٨) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١١٩٤ ص ٤١٣ .
(٩) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٣٠٥ ترجمة ٩٠١ .
(١٠) انظر ترجمتهما فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٠ ص ٢٠ ، ورقم ٢٠٤ ص ٦٢ — ٦٣ .
(١١) راجع عن اشعار الزهد عند الغزال وكذلك ابن عبد ربه ظهر الإسلام جـ ٣ ص ١٠٩ — ١٢٣ .

فإننا نجده قد اتفق فى الشكل والموضوع بل والقافية مع قوله أبى العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب     فكلكم يصير إلى تباب

وإذا نظرنا إلى قول ابن أبى زمنين :

أيها المرء إن دنياك بحر     طامح موجه فلا تأمننها
وسبيل النجاة فيها مبين     وهو أخذ الكفاف والقوت منها(١٢)

وإلى قول أبى العتاهية :

كل أهل الدنيا تعوم على الغفلة
منها فى غمر بحر عميق
يتبارون فى السباح فهم ما
بين ناج منهم وبين غريق

فإننا نجد الموضوع واحدا بينهما وإن اختلفت الصورة فالصورة عند أبى العتاهية غير تلك التى يرسمها ابن زمنين وهى أقرب إلى أن تكون أندلسية أصيلة من تلك الصورة التى رسمها لنا الزبيدى فى أبياته السابقة(١٣) .

ويذكر د. إحسان عباس : أن شعر الزهد فى الأندلس قد ولد فى أحضان ثورة الربض التى قامت ضد الحكم بن هشام ، حيث كان الفقهاء والأتقياء ينظمون أشعار الزهد ، ويتغنون بها ليلا ، ويعرضون فيها بالحكم ، ثم أخذ هذا النوع يقوى ردا على الحياة اللاهية ، وانقيادا لدواعى التقى أيام الشيخوخة ، كما نرى فى زهديات الغزال وممحصات ابن عبد ربه — وهى قصائد نظمها بعد أن تقدمت به السن

---

(١٢) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٤١٠ .

(١٣) إحسان عباس : الأدب الأندلسى ص ٩٤ — ٩٥ .

لينقض بهـا قصائد اللهو التى قالها أيام شبابه(١٤) ووجـد من الأتقياء من تخصص فى هـذا النوع من الشعر مثل ابن ابى زمنين صاحب ديوان ( النصائح ) ، وقاسم بن نصير الذى الف كتابا فى شعر الفقهاء تكملة لهذا الاتجـاه الذى كان قد انتهجه فى شعره(١٥) .

ولكننا نعتقد أن شعر الزهد كان موجودا قبل ثورة الربض لأن الزهد ليس من الأمور التى تحدث فجاة فى المجتمع ، فاى مجتمع من المجتمعات يجتمع فيـه الجانبان جانب الترف واللهو وجانب الزهد والتصوف ، وقـد يتغلب اى منهما على الآخـر فى بعض الفترات لكن لا يخلو الأمر من وجود احدهما إلى جانب الآخـر ولكن بدرجات مختلفة حسب ظروف كل مجتمع من المجتمعات ودرجة تدينه .

ودليل ذلك اننـا نجـد فى كتب التراجم الاندلسية اسـماء الزهاد وجـدوا حتى منـذ بداية دخـول المسلمين إلى الاندلس وقال البعـض منهم اشعارا فى الزهد والحكمة(١٦) .

وقد كان تيـار الزهد فى الأندلس ثم التصوف بعـد ذلك رد فعل شديد لتيار الإسراف فى الترف واللهو الذى جـذب الكثيرين فـكان من الطبيعى أن يعلو صوت هـذا التيار الذى يهون من شأن الدنيـا ويبصر بحقيقتها ويدعو إلى الآخـرة فى مقـابل صوت الفريق الذى ينادى باللذة والمتعـة .

ويبدو أن عـدد الزهاد فى الأندلس كان من الكثرة بمـكان حتى إن

---

(١٤) ظهر الاسلام جـ ٣ ص ١٢٢ .

(١٥) تاريخ الأدب الاندلسى ( عصر سـيادة قرطبة ) ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(١٦) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، بغية الملتمس فى تاريخ رجـال أهل الاندلس للضبى ، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس للحميـدى ، د. مصـطفى الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٥٧ وبعـدها .

ابن بشكوال ـ حسب ما ذكر ابن الأبار ـ صنف كتابا بعنوان ( زهاد الأندلس وأنبائها ) ولكنه لم يصل إلينا(١٧) .

وإذا كان الأدب هو ظل الحياة في المجتمع وهو المرآة التي تنعكس عليها فإننا نستطيع من خلال الكثير من النصوص أن نتبين بوضوح جانب الزهد في المجتمع الأندلسي .

ومن هنا فإن أشعار الزهد تكاد تكون أضعاف مثيلاتها في المشرق ولا غرابة في ذلك حيث كان المجتمع مليئا بوسائل الترف وأسباب اللهو ومن هنا كان رد الفعل قويا ، فإذا كان الخليفة الناصر مثلا محبا للعمران والبناء ، مفتنا في مظاهر الأبهة والترف محبا لاقتناء الجواري والقيان ، فإن ابنه عبد الله كان شديد الزهد مبتعدا عن ترف الحياة ومتعها مستنكرا لإسراف أبيه في الترف(١٨) .

يقول عنه الحميدي والضبي ( وكان فقيها شافعيا شاعرا إخباريا متنسكا )(١٩) .

---

(١٧) انظر التكملة لكتاب الصلة ص ٧١٨ .

(١٨) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٥٧ دار العلم للملايين بيروت . وقد ذكر الدكتور الشكعة أن استنكاره لإسراف أبيه وإغراقه في الإقبال على الدنيا دفع به إلى التآمر عليه للتخلص منه ولكن مؤامرته باءت بالفشل فقبض عليه وقتله أبوه بيديه يوم عيد الأضحى . والحقيقة أن هذه المؤامرة كانت بسبب حسده لأخيه الحكم على العهد إليه بالخلافة ، حيث سول له بعض خاصته ومنهم الفقيه أحمد بن عبد البر وأحمد بن المطار وياسر الفتى وغيرهم قتل أبيه قبل أن يسلم الحكم لأخيه فانكشف أمر هذه المؤامرة وقتل عبد الله ومن شارك معه في ذي الحجة ٣٣٨هـ ( انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء جـ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، تحقيق د. حسين مؤنس ط٢ سنة ١٩٨٥ دار المعارف بمصر ، محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا جـ١ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٩ مصر سنة ١٨١٤ م ) .

(١٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ ـ ترجمة (٥٥٥) ، بغية الملتمس ص ٢٤٧ ترجمة (٩٣٢) .

# الفصل الرابع

## الفصـــل الرابـــع

## مظـــاهر الحيـــاة الاجتماعية

## العمـــــارة

### أولا ــ العمـــارة الدينيـــة

### المســـــاجد

اقترن عصر الفتوحات الإسلامية للبــلاد الأجنبية خــارج شـــبه الجزيرة العربية بإنشاء مراكز عمران إسلامية ( أمصـــــار ) كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز لجيوش المسلمين الفاتحة من ناحية ، ولصبغ البــلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من ناحية أخرى .

وقد كانت المساجد هى الأساس الذى اعتمـد عليـه الفــاتحون المسلمون فى صـــبغ المدن المفتوحة بالصبغة الإسلامية ، حيث يصـــبح المسجد الجامع بمرور الزمن هو مركز المدينة وقلبهـــا النابض . فمنه تتفرع الأزقة والطـــرق المؤدية إلى ابوابها ، وحـــول ساحته أو قريبـــا منـــه تقـــام الأسواق والفنادق والقيـــاسر والحـــمامات وغيـــرها ، وهو مركز الاجتماعات السياسية ، ومقر توزيع الجيوش ، ومـــكان عقـــد الحلقـــات العلمية ، والفصل فى الخصومات وغير ذلك ، فضـــلا عن كونه مـــكان إقامة شـــعائر الإســـلام . فليس غريبـــا أن يسيطر المســـجد فى المدن الإسلامية فى تلك العصور على مناحى الحيـــاة . وهكذا كان بناء المسجد الجامع فى الإسلام أساس الحـــركة العمرانية فى المدن الإسلامية .

وعندما فتح المسلمون الأندلس شاطروا الأسـبان فى كنائسهم فى قرطبـــة وغيرها حيث اقاموا فى جزء من كنيســـة ( شنت بنجنته ) الكبرى بقرطبة مسـجدا بســـيطا متواضع البنـــاء ، وقـــام حنش الصنعانى وابو عبد الرحمن الحبلى التابعيان بوضع قبلته بأيديهما ، وترك القسم الآخـــر للأسبان يقيمون فيـــه شـعائرهم .

فيذكر المقرى نقــلا عن الرازى : ( انه لمــا افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله ابو عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر من مشاطرة الروم بالشام فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذ صلحا ، فشاطر المسلمون فى الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى وكانوا يسمونها ( شنت بنجنت ) ( سانت فنسنت Sant Vencent ) — وكانت فى الأصل معبــدا رومانيا — وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعــا ، وبقى الشطر الثانى بيــد النصارى الخ »(١) .

كما اقام المسلمون جامعــا بالجزيرة الخضراء على انقــاض كنيســة قديمة على يد عبد الله بن خالد ، وكذلك جامعا فى طرطالة .

وإذا تحدثنا عن المساجد التى بنــاها الأمويون فى الأندلس فإننــا نجد الكثير(٢) وسوف نقتصر على ذكر أشهرها .

١ — **مسجد قرطبة** : يعتبر المسجد الجامع بقرطبة من أروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء فى العصر الوسيط . قال عنه الحميرى : ( إنه الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصــانع الدنيا كبر مساحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقــان بنيــة . تهمم به الخلفــاء المروانيون فزادوا فيــه زيادة بعد زيادة ، وتتميما إثر تتميم حتى بلغ الغــاية فى الإتقان ، فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن

(١) نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٥٦ ط الأزهرية ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٩ ، وكان له عدة تسميات كالمسجد الجامع ، والجامع الأعظم والجامع المبــارك والجامع المكرم .

(٢) يذكر أن عدد المساجد فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩١ مسجدا ولا شك أن معظمها كان مساجد صغيرة ووصلت فى عهد المنصــور ابن أبى عامر إلى ١٦٠٠ مســجد فى روايــة ، ٣٨٣٧ فى روايــة المقــرى ، ( انظــر : الحمــيرى : الروض المعطــــار ص ١٥٧ ، المقرى : نفــح الطيب ج ٢ ص ٧٨ — ٧٩ ، ويذكر ابن غــالب نقــلا عن ابن حيان أن مســاجد قرطبة بلغت عنــد انتهاء اكتمالها ١٨٣٦ مسجد ، ( **انظر فرحة الأنفس ص ٢٧** ) .

حسنه الوصف ، فليس فى مساجد المسلمين مثله تنميقا وطولا وعرضا »(٣) .

ولذا أصبح يضرب به المثل فى العظمة والفخامة والاتساع والزخرفة . وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفا ضافيا كالمقرى وابن بشكوال وابن الخطيب وابن عذارى وغيرهم . وكان يعد مفخرة من مفاخر قرطبة وفى ذلك يقول القاضى أبو محمد بن عطية :

**بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادى وجامعها**
**هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أكبر شىء وهو رابعها (٤)**

وقد بدأ ببناء هذا المسجد الأمير عبد الرحمن الداخل ( صقر قريش ) ، وذلك بعد أن ضاق المسجد القديم — الذى كان جزءا من الكنيسة — بالمصلين بعد تكاثر عدد المسلمين الوافدين على الأندلس وخاصة العاصمة قرطبة ، وشاهد عبد الرحمن ما يعانونه من زحام ومتاعب بسبب تقارب السقف من الأرض حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يقوم فى اعتدال وبخاصة فى المؤخرة حيث كان مستوى الأرض يرتفع كلما اتجهنا شمالا لأن ارضية الجزء القبلى من المسجد كانت منحدرة نحو النهر ، ولما كان المسجد يشغل الجزء الشمالى من الكنيسة فقد كان طبيعيا أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية وليس القبلية حيث المحراب . وعلى هذا فقد سبب انخفاض السقائف مضايقات شديدة للمصلين . ومن هنا فقد عزم عبد الرحمن الداخل على حل هذه المشكلة ، وذلك بضم ما بقى من الكنيسة للمسجد ، وإعادة بنائه من جديد ليتسع لجميع المصلين ، وليتناسب مع عظمة وفخامة الدولة الجديدة .

---

(٣) الروض المعطار فى خبر الأمطار ص ١٥٣ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

ولذا فقد ساوم نصارى قرطبة فى بيع نصيبهم ، وأوسع لهم ، فرفضوا فى البداية ، فظل بهم حتى وافقوا أخيرا بشرط أن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم خارج الأسوار وشرع فى هدم الكنيسة والمسجد القديم وبناء جامع قرطبة بأسلوب جديد فى سنة ١٦٨هـ ( ٧٨٤م ) ، وتم بناؤه واكتملت أسواره فى سنة ١٧٠هـ ( ٧٨٦ م ) . ويذكر أنه أنفق على بنائه ثمانين ألف دينار ، واشترى نصيب النصارى بمائة ألف(٥) وفى ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوى مادحا له :

**وأنفق فى ذات الإله ووجهه**
**ثمانين ألفا من لجين وعسجد**
**توزعها فى مسجد أسه التقى**
**ومنهجه دين النبى محمد**
**ترى الذهب النارى فوق سموكه**
**يلوح كبرق العارض المتوقد(٦)**

وكان المسجد الجديد الذى بناه الداخل على قسمين : قسم مسقوف وهو بيت الصلاة وقسم مكشوف وهو الصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة على اثنى عشر عقد ( قوس ) فى كل بلاطة ، وتقوم هذه العقود على عمد من الرخام جلبت من الكنائس الخربة(٧) .

وكان الصحن مغروسا بالأشجار حيث عهد عبد الرحمن الداخل إلى

---

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ .
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٢ ، نفح الطيب : جـ ٢ ص ٢٦٢ .
(٧) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٤ والبلاط أو البلاطة : المساحة الواقعة ما بين أربعة أعمدة .

صعصعة بن سلام الشامى ( ت ١٩٢ هـ ) صاحب الصلاة بالمسجد — وكان على مذهب الإمام الأوزاعى — أن يغرس فى صحنه الأشجار ، واتبع امراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك فى بقية مساجد الأندلس . ولذلك يقال : إن الأثر الباقى من مذهب الأوزاعى فى الأندلس بعد انتشار مذهب الإمام مالك يتمثل فى هذا .

وتوفى الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٢هـ قبل أن يتم بناء المسجد فلم تكن له مئذنة أو سقائف لصلاة النساء . فجاء ابنه هشام من بعده فأقام له مئذنة من خمس شيء ( أربونة ) ، وبلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو عشرين مترا ، كما أقام فى نهايته مما يلى الجوف ( الصحن ) سقائف للنساء ، كما أمر ببناء ميضأة فى شرقيه(٨) .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام زيدت بلاطات المسجد من تسع إلى أحد عشر بلاطا ليتسع المسجد وذلك سنة ٢١٨هـ ٨٣٣ م ، وجعل هذين البلاطين الجديدين فى سقيفتين ، ووصلهما بالسقائف التى كانت معدة لصلاة النساء . وبنى فى مؤخرة الصحن سقيفة أخرى ، كما زاد فى سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م فى بيت الصلاة فاتسع المسجد من جهة القبلة ، وبلغ طول هذه الزيادة نحو خمسين ذراعا وعرضها نحو مائة وخمسين ، وعدد سواريها ثمانين سارية(٩) . ونقل

---

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٢ .

لم يقدر لهذه المئذنة أن تعيش طويلا حيث تصدعت فى آخر عهد الأمير عبد الله ( ٢٧٥ — ٣٠٠هـ ) فهدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر واقام أخرى بدلا منها ، وقد تمكن أحد المهندسين الأثريين الأسبان من الاهتداء إلى اساسها وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار ( انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٨٧ ) .

(٩) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٤٣ .

المحراب القديم إلى جدار القبلة الجديد ، وفتح فى بيت الصلاة بابين فى جانبى المسجد الشرقى والغربى ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح له أربعة أبواب اثنان فى الجهة الشرقية ، وآخران فى الجهة الغربية .

وتوفى عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، فجاء ابنه محمد فأمر فى سنة ٢٤١هـ ( ٨٥٥م ) « بإتقان طرز الجامع وتنميق نقوشه » ، ثم أمر سنة ٢٥٠هـ بصنع مقصورة خشبية حول المحراب لها ثلاثة أبواب ، ولما تم ذلك صلى فيه فقال فى ذلك موسى ابن سعيد :

لعمرى لقد أبدى الإمام التواضعا
فأصبح للدنيا وللدين جامعا
بنى مسجدا لم يبن فى الأرض مثله
وصلى به شكرا لذى العرش راكعا
فطوبى لأن كان الأمير محمد
له إذ دعا فيه إلى الله شافعا(١٠)

وفى عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم فى صحن المسجد بيت المال على غرار بيوت المال فى جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأموى بدمشق ، كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف(١١) .

وفى عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد انشأ ساباطا ( طريقا مغطى ) معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، وفتح إلى المقصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بنى أمية ، وتابعه فى ذلك من جاء بعده(١٢) .

---

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .
(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .
(١٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٨٩ ، فون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر هدمت المئذنة القديمة التي أقامها هشام بعد أن تصدعت ، وأقيم مكانها مئذنة جديدة سنة ٣٤٠هـ ( ٩٥٠م ) كانت تسمو على سائر مباني قرطبة ، ويراها القادمون من بعيد كأنها المنار تطل على مياه البحر الهادية للسفن ، وتم بناؤها في ثلاثة عشر شهرا بالحجارة المنقالة ، وجعل لها سلمان منفصلان عن بعضهما بعد أن كانت مئذنة هشام ذات مطلع واحد ، لكل مطلع مائة وسبع درجات ، ولا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها ؛ وبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا حتى مكان المؤذن أي ضعف ارتفاع المئذنة الأولى ، ومن مكان المؤذن إلى أعلاها عشرين ذراعا ، ونصب بأعلاها سفود بارز ركبت فيه ثلاث تفاحات من الذهب والفضة(١٣) وبنى إلى جانب هذه المنارة حجرة للمؤذنين(١٤) .

كما قام الناصر بترميم واجهة بيت الصلاة المطلة على الصحن بعد تصدعها ، وأصلح الباب المواجه للقصر في الجانب الغربي وكان يعرف بباب الوزراء ( باب سان استبيان ) وأقام على الصحن ظلة لوقاية الناس من حر الشمس تستند على كوابيل على نحو تلك التي تقوم عليها واجهة بيت الصلاة .

وقد سجل أعماله هذه على لوحة بجوار المدخل في البلاط الأوسط ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله — أطال الله بقاءه — ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ،

(١٣) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

(١٤) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وجزيل الذخر مع بقـــاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب . »(١٥) .

وقد انفق الناصر فى بناء المئذنة وغير ذلك مما قام به فى المســجد سبعة أمداد وكيلين ونصف من الدراهم القاسمية كما ذكر ابن عذارى(١٦)

أما أعظم زيادة فى مسجد قرطبة فقد تمت فى عهد الخليفة الحـكم المستنصر بعــد تضاعف عدد سكان قرطبة بحيث لم يعد المسجد يتسع لجموعهم الغفيرة . وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبــد الرحمن الصقلبى بذلك ، فجلبت الأحجار من جبــال قرطبة ، واشرف الحــكم بنفسه على تقدير الزيادة وتفصيل بنائها وأحضر لذلك الأشياخ والمهندسين فرسموا بأن تكون بمــد بلاطات المسجد جنوبا على اثنى عشر عقــدا ، واستمر البناء فيها أربع سنوات انفق فيها مائتان وواحــد وستون الــف دينـــار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا (١٧) .

ويصف ابن سعيد هــذه الزيادة بقوله « وبهـــا كملت محاسن هذا الجـــامع ، وصـــار فى حــد يقصر الوصف عنه »(١٨) .

وفى جمادى الآخرة سنة ٣٥٤هـ أتم بنــاء قبـــة المحراب وأحاطها بقبتين جانبيتين وقبـــة أخرى على مدخل زيادته بالجامع تجـــاه قبـــة المحراب ، وهناك نقش يدور بعقد المحراب ومنه « أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحــكم أميــر المؤمنين وفقه الله مــولاه وحاجبــه جعفر

---

(١٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ . أنظر د. السيد سالم : تاريخ ص ٣٩١ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ .

(١٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .

(١٧) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٥٩ ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٤ .

(١٨) نفح الطيب جـ ٢ ص ٩٧ .

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هـذه البنية ، فتم بعون الله بنظـر محمد بن تمليخ ، واحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم اصـحاب شرطته ، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب »(١٩) .

كما شرع فى تزيين المسجد بالفسيفساء الذى كان ملك الروم قـد بعث إليه به مع صـانع يتقن ذلك ، ومنه تعلم بعض الصناع المسلمين حتى حذقوا ذلك وتفوقوا فى الصنعة . ويوجد فى أعلى عقد المحراب نقش بالخط الكوفى جـاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم امير المؤمنين اصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ، بعمل هذه الفسيفساء فى البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة اربع وخمسين وثلاثمائة »(٢٠) .

كما أمر الحكم بوضع المنبر القـديم إلى جانب المحراب سنة ٣٥٥هـ، ونصب فى قبلة الزيادة التى زادها مقصورة من الخشب منقوشـة من الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولهـا خمسـة وسبعون ذراعا ، وعرضها اثنـان وعشرون ، وارتفاعها ثمانية اذرع وجعل لها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش(٢١) .

كما أمر بصنع منبر جـديد « ليس على معمور الأرض أتقن منـه ، ولا مثله فى حسن صنعته وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاقلى » .

---

(١٩) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٩٢ .
(٢٠) نفس المرجـع ص ٣٩٣ .
(٢١) ابن عذارى : البيـان المغـرب ج ٢ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ويذكر ابن غالب الأندلسى : ان باب هـذه المقصورة كان من الذهـب المضروب ، وان عضادتاه كانتا من الابنوس ، بينما كان طـوله واوصاله من الفضة ( انظر نص أندلسى جديد من فرحة الأنفس مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١ ص ٢٨ تحقيق د. لطـفى عبد البديع ) .

ويذكر انه كان يعمل فيه ثمانية صناع ، واستغرق العمل فيه سبع سنوات ، وأن عدد درجاته تسع درجات ، وعدد حشواته ست وثلاثون الف حشوة سمرت بمسامير من الذهب والفضة ورصعت بهما ، وكان هذا المنبر يسير على عجل ، ويوضع بعد صلاة الجمعة فى غرفة خلف المحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك فى المغرب(٢٢) .

وفى سنة ٣٥٦هـ هدم الحكم الميضأة القديمة التى كانت تقع بفناء المسجد ويجلب لها الماء من بئر الساقية ، والتى أنشأها هشام ، وبنى بدلا منها أربع ميضآت فى الجانبين الشرقى والغربى للفناء ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة فى قناة حجرية متقنة البناء جعل فى جوفها انابيب من الرصاص لحفظ الماء من الدنس والأوساخ وكانت تصب فى احواض من الرخام ، كما أجرى الماء إلى سقايات من الرخام ايضا اتخذها على أبواب الجامع فى الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية . وفى ذلك يقول الشاعر محمد ابن شخيص :

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف
من اعذب الماء نحو البيت تجريها
طهر الجسوم إذا زالت طهارتها
رى القلوب إذا حرت صواريها
قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا
فى أمة أنت راعيها وحاميها(٢٣)

---

(٢٢) الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦١
ذكر ابن عذارى أن المنبر كان من عود الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعاج والعود الهندى وبلغت تكلفته ٣٥٫٧٠٥ دينار وكان تمامه فى خمسة أعوام ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٠ ) .
(٢٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

واخيرا فقد اختتم الحكم بناء المسجد بإقامة دار للصدقة فى غربيه لتكون مكانا لتوزيع صدقاته ، كما اقام فى ساحته وحوله مكاتب لتعليم اولاد الايتام والمساكين وفى ذلك يقول ابن شخيص :

**وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتبا لليتامى من نواحيها**

**لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليها وواعيها(٢٤)**

وتعتبر زيادة الحكم أعظم زيادة فى جامع قرطبة من حيث البناء والزخرفة حيث جعلته متناسقا متعادل الأجزاء ، واهم ما فيها تلك القباب التى تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة فى اشكال هندسية رائعة وقد كان لهذه القباب اثرها فى أوربا حيث اوحت للفنانين الفرنسيين بالقبوات القوطية الشهيرة(٢٥) .

اما المحراب الجديد فيعتبر اجمل عنصر معمارى فى المسجد اضافه الحكم ، حيث عنى به المهندسون عناية كبيرة ، فاقاموا القباب على بلاطه الأوسط ورواقه الأمامى ونقشوه من الداخل والخارج بالتوريقات ، وزينوا عضادتيه بلوحات من الرخام عليها حفر غائر على هيئة زخارف نباتية وتوريقات تتمشى مع الأسلوب البيزنطى .

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب بابا يؤدى إلى الساباط الجديد الذى يصل بين القصر والمقصورة ، ويتصل هذا الباب بمخزن لحفظ الأدوات والعدد والطسوت والحسك الخاص بإيقاد الشموع فى ليلة السابع والعشرين من رمضان ( ليلة القدر ) وذكر انه كان يحفظ

---

(٢٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ويذكر ابن عذارى أن عدد المكاتب التى انشاها الحكم بلغ سبعة وعشرين مكتبا منها ثلاثة حول المسجد والباقى فى الارباض ( احياء قرطبة ) .

(٢٥) د. السيد سالم : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ — ٣٦ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٩٤ .

بهذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان الذى كان يقرأ فيه يوم قتل وفيه نقط من دمه(٢٦) . وكان يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ، وله غشاء بديع الصنع ، وكرسى يوضع عليه ، ويقوم الإمام بقراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى مكانه .

ويذكر أن هذا المصحف ظل بالمسجد حتى آل الأمر إلى الموحدين فى الأندلس فأخرج فى ١١ شوال سنة ٥٥٢هـ أيام عبد المؤمن بن على فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بنى مرين ، وكان السلطان أبو الحسن المرينى يحمله معه فى أسفاره دائما ، حتى هزم فى موقعة طريف فوقع المصحف فى يد البرتغاليين ، وتحايل المسلمون فى استرداده حتى جاء به إلى فاس أحد تجار أزمور سنة ٧٤٥هـ ، وحفظ بالخزانة السلطانية(٢٧) .

ثم كانت الزيادة الأخيرة فى مسجد قرطبة على يد المنصور ابن أبى عامر والتى امتدت طولا من أول المسجد إلى آخره . وبدأت فى سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م حيث أضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية ، وذلك نظرا لاتصال الجانب الغربى منه بقصر الخلافة فوصلت جملة البلاطات تسع عشرة بلاطة . وذلك لما زاد الناس بقرطبة وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم ، وقد كان قصد المنصور إتقان البناء ، والمبالغة فى إحكام البنية دون الزخرفة .

---

(٢٦) الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ٨ — ١٠ . وقد شك المقرى فى نسبة هذا المصحف وما فيه من أوراق لعثمان حيث قال « وما توهموه من أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فلم يخط عثمان واحدا منها ، وإنما جمع عليها بعضا من الصحابة » ( نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٥ ) .

(٢٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وبالرغم من ذلك فإن الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا (٢٨) .

وقد قام المنصور بنزع ملكية الأراضى والدور الواقعة فى شرق الجامع ، وتعويض أصحابها بما يرضيهم من مال أو عقار وبلغ عدد سوارى المسجد بعد هذه الزيادة ١٤١٧ سارية ، وعدد ثرياته ٢٨٠ سرية . وبلغ عدد الائمة والمقرئين الأكفاء والمؤذنين والخدم والموقدين وغيرهم ١٥٩ شخصا (٢٩) .

وظل العمل فى هذه الزيادة مدة عامين ونصف كان المنصور فيها يعمل بنفسه فى أحيان كثيرة ، واستخدم مجموعة من أسرى النصارى فى ذلك . واصبح المسجد مؤلفا من تسع عشرة بلاطة ، ففقد المسجد تناسقه وتعادل اجزائه واصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة بعد أن كان يقع فى محور الجامع ، وهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل الشروع فى الزيادة ، وفتح فى الجدار الشرقى ببيت الصلاة القديم ثغرات واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، كما فتح فى الجدار الشرقى الجديد ثمانية أبواب فأصبح عدد الابواب المؤدية إلى بيت الصلاة ١٦ بابا يضاف إليها خمسة أبواب تفتح على جوانب الصحن فيكون عدد ابواب المسجد ٢١ بابا كانت ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما رائعا (٣٠) .

---

(٢٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢٩) ذكر ابن بشكوال : أن المنصور كان يطلب من صاحب الأرض أو الدار أن يطلب ما يشاء ثمنا لهما ثم يضاعفه له ، حتى أن امرأة كان لها دار بها نخلة ، فقالت لا اقبل عوضا إلا مثل ذلك فأمر بأن تشترى لها دار بنخلة حتى ولو ذهب فيها مال بيت المال . ( المقرى نفح الطيب ج ٢ ص ٨٤ ) .

(٣٠) تاريخ المسلمين ص ٣٩٧ ، الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ص ٢٦ .

وقد احتفظ المسجد بصورته تلك دون أن يطرأ عليه تغيير في نظام بنائه حيث لم تضف إليه أي اضافات فيما عدا أعمال الترميم اللازمة وخاصة في عصري المرابطين والموحدين وظل كذلك حتى سقطت قرطبة في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦م فتحول إلى كنيسة عرفت باسم كنيسة سانتا ماريا العظمى أو الكبرى(٣١) .

ويعكس المسجد الجامع بقرطبة التأثيرات السورية سواء في زخارفه المعمارية او في نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو في وضع المئذنة ، او في تصميم المجنبات حول الصحن كما تذكرنا عقوده المتعامدة على جدار القبلة بنظائرها في المسجد الأقصى .

ولا شك ان عبد الرحمن الداخل قد استعان بعرفاء ومهندسين شاميين في بناء هذا المسجد ، كما فعل حفيده الأمير عبد الرحمن بن هشام عندما استعان بأحد الموالي الشاميين ويدعى ( عبد الله بن سنان ) في بناء سور إشبيلية سنة ٢٣٠هـ بعد غزو النورمان لها(٣٢) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل فضل كبير في تطعيم حضارة الأندلس بالتأثيرات المشرقية وعلى رأسها التقاليد السورية .

وقد كان لهذا المسجد تاثيرات كبيرة في العمارة الإسلامية والمسيحية على حد سواء . ففي العمارة الإسلامية كان نموذجا يحتذى في كثير من المساجد التي أقيمت في الأندلس بعد ذلك في نواحي شتى مثل نظام القباب ذات الضلوع ، ونظام البلاطات المتجهة عموديا على جدار القبلة ويتضح ذلك جليا في جامع الباب المردوم بطليطلة ، ومثل اتساع الصحن

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٦٨ ، انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٨ .

(٣٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ .

ونظام العقود وأسلوب الزخارف كما يتضح فى جامع إشبيلية الذى أنشىء فى عصر الموحدين . كما امتد تأثيره الفنى إلى بعض بلاد العـالم الإسلامى كالمغرب ومصر والشام فمئذنة جامع ابن طولون تجاه عليها عقودا من النوع الشائع فى جامع قرطبة ، والقنطرة التى تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاورين على الطراز القرطبى وبأسفلها كوابيل من نفس تضـام كوابيل مسجد قرطبة(٣٣) .

وأما عن تأثيراته فى العمارة المسيحية فتتضح فى إسبانيا حيث ترى واضحة فى بعض الكنائس مثل كنيسة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس ديل ، وكنيستى سانتيا جو دى بينايبا ، وسان مرتينو بجليقية ، وكنيستى سان ميان ، وسان ثبريان فى مملكة ليون وغيرها(٣٤) .

٢ ــ **جامع إشبيلية** : وقد أنشىء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين أمر قاضيه عمر بن عديس بتشييده سنة ٢١٤هـ/٨٢٩ ــ ٨٣٠م ولذلك تنسب إليـه . وقد سجل تاريخ إنشائه على بدن عمود من الرخام لا زال محفوظا فى متحف الآثار الأهلى بإشبيلية بخط كوفى ونصـه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحـكم الأمير العـدل المهتدى الآمر ببنيان هـذا المسجد على يدى عمر بن عديس قاضى إشبيلية فى سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتب عبد البر بن حرون »(٣٥) .

وكان هـذا الجامع يشبه جامع قرطبة فى نظامه العـام وفى عـدد بلاطاته حيث كان يشتمل على أحـد عشر بلاطا متجهة عموديا على جدار القبـلة الذى بلغ طوله ما بين ٤٨ ــ ٥٠ مترا ، وكان البلاط الأوسـط أكثر البلاطات اتساعا وارتفاعا . وأقيمت له مئذنة فى منتصف الجـدار

---

(٣٣) انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٧٢ . تاريخ المسـلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٩ ــ ٤٠٠ .
(٣٤) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠٠ هامش ٢ .
(٣٥) تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

الشمالى تشبه نظام المآذن القرطبية التى ترجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مربعة من الخارج مستديرة من الداخل بلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٥ر٨٨ م .

وقد غرس فى صحنه أشجار النارنج والبرتقال ، وكانت تتوسطه قطعة من الرخام تنبثق منها نافورة على شكل محارة(٣٦) .

ويصفه المستشرق الألمانى ( فون شاك ) « بأنه جاء عملا رائعا وشهيرا ولكنه لم يكمله على ما أراد له » ، كما يذكر أن المؤرخين العرب يقصون : أن عبد الرحمن رأى فى نومه عند تمامه أنه دخله فوجد النبى عليه الصلاة والسلام ميتا ومسجى فى قبلته فانتبه مغموما وسأل أهل العبارة عن ذلك فقالوا : هذا موضع يموت فيه دينه . فحدث على أثر ذلك غلبة المجوس ( النورمان ) على المدينة ( إشبيلية ) واستيلائهم عليها ، وتحقق معنى الحلم عندما حاولوا هدم المسجد ، وقذفوا سقفه بالسهام الملتهبة المحمية ، وجمعوا كثيرا من الوقود ، وكوموه فى إحدى البلاطات لإحراقه ، وعندما هموا بذلك ظهر من جانب المحراب ملاك فى صورة غلام نادر الجمال فطردهم من المسجد(٣٧) .

ولا ندرى من أين جاء هذا المستشرق بهذه القصة ففى المصادر الأندلسية التى رجعنا إليها وهى كثيرة ومتعددة لم نجد أية إشارة ولو من بعيد لمثل ذلك ، ويبدو أن خيال هذا المستشرق هو الذى صور له تلك القصة ، أو خيال المستشرق دوزى الذى نقل عنه ذلك ، وعملية ظهور الملاك والتصديق به شىء موجود لدى هؤلاء فأرادوا أن يطبقوه على تاريخنا الإسلامى ، وللأسف فإن مترجم الكتاب لم يعلق على هذه القصة المزعومة بالرغم من تعليقاته الضافية فى مواضع كثيرة .

(٣٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .
(٣٧) الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٦٢ ترجمة د. الطاهر مكى .

وقد أصيب المسجد ببعض الأضرار نتيجة لغارة النورمان على إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وقد ظل يحتفظ بنظام بنائه ومساحته دون أن تدخل عليه زيادات لمدة ثلاثة قرون حتى ضاق بالمصلين فى عصر الموحدين فأنشىء إلى جانبه جامع القصبة الكبير بإشبيلية . وحدث فى سنة ٤٧٢هـ ( ١٠٧٩م ) أن هدم الجزء الأعلى من مئذنته على أثر زلزال شديد فجددها المعتمد بن عباد فى شهر واحد فقط ، كما تصدعت جدرانه الغربية ومالت بعد مدة بتأثير هذا الزلزال ، كما تأكلت جوائز سقفه وظل كذلك حتى أمر أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٢هـ بترميمه وإقامة ركائز قوية تسند هذه الجدران وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت متوقفة فيه منذ سنة ٥٧٠هـ(٣٨) .

وبعد سقوط إشبيلية فى يد الإسبان سنة ١٢٤٦م حول إلى كنيسة سميت (سان سلفادور) ثم أصيبت المئذنة بأضرار بالغة سنة ١٣٥٦م نتيجة زلزال عنيف هدم الجزء العلوى منها فأقام الأسبان مكانها برج النواقيس ، ثم قاموا بهدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١م باستثناء ما بقى من المئذنة والبهو لبناء الكنيسة الجديدة مكانه وتم بناؤها سنة ١٧٢١ م ولم يتبق من المسجد فى الوقت الحالى سوى جزء من الصحن وجزء من المئذنة يبلغ ارتفاعه ½ ٩ م فى داخله درج حلزونى عرضه ٨٠ سم يدور حوله دعامة اسطوانية ضخمة . وهو يعطينا صورة عن المآذن الأندلسية فى هذا العصر(٣٩) .

٣ — **مسجد الباب المردوم بطليطلة** : وقد قام بتأسيسه قاضى طليطلة أحمد بن حديدى من ماله الخاص . فقد تولى الوزارة أيام اسماعيل بن ذى

---

(٣٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٣٤ .

(٣٩) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠١ .

النون ملك طليطلة . وتعلو واجهته كتابة تاريخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم . أقام هـــذا المسجد احمد بن حديدى من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدى موسى بن على البناء وسعادة ، فتم فى المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (٤٠) .

وهو مسجد صغير المساحة ولكنـــه يعتبر من أهم مساجد الأندلس بعـــد مسجد قرطبة نظرا لاحتفاظه بتسعة قبــاب قائمة على الضـــلوع المتقاطعة تمثل أول مراحل التطور التي مرت بها قباب جامع قرطبة (٤١) .

وقد شيد من الحجر الجرانيتى والآجـــر وفقـــا للأســـلوب الـــذى اختصت به طليطلة . وهو على شكل مربع لا يتجاوز طول الجـــانب منـــه ثمانية أمتـــار . ويتألف من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعـــة أعمـــدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منهـــا اثنـــا عشر قوسا على شكل حـــدوة الفرس ، ويعلو كل اسطوان من هـــذه الأساطين قبـــة تتقـــاطع فيهـــا الأقواس على نحو ما رأينـــاه فى قباب قرطـــبة ، والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى .

أما واجهة المسجد الرئيسية — وهى الجنوبية الغربية — فتطل على الطريق المؤدى إلى البـــاب المردوم بثلاثة عقود ، ويوجد فى أعلاها نص التأسيس السابق . ويعلو هـــذه العقود الثلاثة بائكة صـــماء من أقواس متقاطعة . ويتوج هـــذه البائكة إفريز بداخله شبكات مخرمة على شـــكل معينات . أما الواجهة التى تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاورة تعتبر بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاورة صماء يتناوب

---

(٤٠) عرف هـــذا المسجد بذلك الاسم نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائما ويعرف بالباب المردوم .

(٤١) ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ١١٨ ، ابن الخطيب : أعمـــال الأعلام ص ٢٠٧ .

فيها اللونان الابيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الآجر والحجر على نظام أقواس جامع قرطبة(٤٢) .

وقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة سنة ١٠٨٥م أطلق عليها سانتا كروز ، وأضيفت إليه في الجانب الشرقي حنية من الطراز المدجن في القرن الثالث عشر الميلادي ، ووهبه الملك ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ويعرف اليوم باسم كنيسة ( الكريستو دي لالوث El Cristo de Lalus )(٤٣) .

٤ — **المسجد الجامع بالمرية :** يعتقد العالم الأثري الإسباني ( توريس بلباس ) أن هذا المسجد قد شيد في عهد الحكم المستنصر بعد زيادته في جامع قرطبة بسنوات قليلة ، وانتهي بعد دراسة ما تبقى منه من آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان — وهي لا تعدو المحراب وجزءا من جداره — أنه كان يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وأن البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات اتساعا ، وأن المحراب كانت تعلوه قبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى اليوم .

وأن نظام البناء — كما يتجلى من خلال ما بقي من جدار المحراب — كان على نمط النظام القرطبي القائم على تناوب حجرين عرضا مع حجر طولا وهو ما يعرف في عصرنا باسم ( آدية شناوى ) . وقد أضيفت إلى هذا المسجد زيادات من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بواسطة زهير العامري الصقلبي كما يتجلى من قول ابن الخطيب « وهو الذي بنى هذا المسجد وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة »(٤٤) .

وكان صحن هذا المسجد مغروسا بأشجار الليمون والبرتقال ، ومفروشا بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء ، شأن نظام مساجد الأندلس .

---

(٤٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .
(٤٣) تاريخ المسلمين ص ٤٠٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٣ .
(٤٤) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

وقد تحول إلى كنيسة سنة ١٤٩٠م وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢م وسميت بكنيسة ( سان خوان ) ، وقد حولت هذه بدورها إلى مخزن للمدافع والمهمات العسكرية سنة ١٨٤٥م . ثم سلمت إلى جماعة الآباء فرنسسكان فحفظت بقاياها وبقايا الجامع . وقد عثر فى أرضية هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة إلا انها تختلف عنها فى كثرة زخارفها القائمة على التوريقات وتبدو فيها أوراق مبسوطة مقسمة على اصابع ، وتتشابه مع زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة مما يرجح انها من عصر المعتصم بن صمادح(٤٥) .

٥ ـ **مسجد الزهراء :** كما اقام الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينة الزهراء التى اقامها إلى جانب قرطبة مسجدا كان يعمل فى بنائه كل يوم الف رجل منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتى نجار ، وخمسمائة من الصناع والأجراء وتم بناؤه فى ثمانية واربعين يوما سنة ٣٢٩هـ ، وكان يتكون من خمس بلاطات ، كان البلاط الأوسط منها اكثر إتساعا ، وكان صحن المسجد مفروشا بالرخام الخمرى اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع مئذنته اربعين ذراعا وهى شبيهة بالمئذنة الأولى لجامع قرطبة التى اقامها الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل . أما منبره فقد جاء فى غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب بديعة الصنع . وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف ( الصحن ) سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعا(٤٦) .

---

(٤٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٤٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ ، ازهار الرياض جـ ٢ ص ٢٦٥ـ ٢٦٢ . هذا وقد ذكر د. حسن ابراهيم : أن الذى بناه هو الحكم ابن الناصر وأنه قد تم بناؤه فى شعبان سنة ٣٢٩هـ وهذا خطأ واضح حيث ان الحكم لم يل الخلافة إلا بعد وفاة ابيه سنة ٣٥٠هـ ، إلا إذا كان المقصود انه هو الذى أشرف على بنائه . ( انظر تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٤٧٣ ) .

## العمــارة المدنيــة

## القصــور والـدور

حظيت قرطبة منــذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس بنصيب كبير من عنــاية ولاة الأندلس وأمرائها وخلفائها ، وغــدت حـاضرة للمسلمين فى الأندلس ، وظلت تحتل المكانة الأولى بين المدن الأندلسية حتى ســقوط الخـلافة الأموية(١) .

---

(١) قرطبة مدينة قديمة ، يرجــح انهــا انشــئت فى العصر الأيبيرى ويستدل على ذلك من اسمها الأيبيرى Corduba الذى عربه المسلمون إلى قرطبــة ، ومن الحفائر الاثرية التى اجريت فى نطاقها حيث عثر على تماثيل برونزية ايبيرية . وقــد ظلت تتمتع بمكانة لائقـــة حتى أواخر القرن السابع الميلادى حيث أخذت تفقد أهميتها شيئا فشيئا أمام طليطلة فى العصر القوطى .

وعنــدما جاء الفتح الإسلامى لشبه جزيرة إيبيريا كانت قرطبــة من بين المدن التى فتحها المسلمون حيث ارسل إليها طارق بن زيــاد قائده مغيث الرومى فى سبعمائة فارس ففتحها بسهولة عن طــريق الحيلة والمفاجأة . وأصبحت قرطبة منذ ولاية أيوب بن حبيب اللخمى حاضرة الأندلس فى سنة ٩٩هـ ، ونقلت إليها العاصمة من إشبيلية التى كان موسى بن نصير قد اتخذها قاعدة للحكم بعــد الفتــح ، وظلت عاصمة للأندلس نحو ثلاثة قرون حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ .

وتقــع قرطبة على سهل مرتفع فى سفح جبــل قرطبة ( جبــل العروس ) ، الذى يعتبر جــزء من سلسلة جبــال سيراموريناً ، وتشرف من جهـــة الجنوب على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير

يقول ابن حوقل الرحالة الشيعى فى وصفها ، وقد زارها فى القرن الرابع الهجرى فى عهد الخليفة الناصر : « وهى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(٢) .

ويرجع الفضل فى تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة فيها إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، فقد كان عصر الولاة عصرا مضطربا سادت فيه المنازعات والقلاقل نتيجة العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية . فلما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل بدأ فى إرساء قواعد الحكم والإدارة التى كانت سائدة فى الدولة الأموية بالمشرق ، وسرعان ما ارتقت الأندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة . ويشير ابن حيان إلى هذا التطور الكبير فيقول « لما الفى الداخل الأندلس ثغرا قاصيا ، غفلا من حلية الملك عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانية ، وحنكهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فاكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك هيبته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا

---

وترتفع عن سطح البحر بما يتراوح بين ١٠٠ — ١٢٣ م ، وهى تعتمد فى ثروتها على الزراعة خاصة فى سهلها الجنوبى الذى يعرف بالكنبانية وأهم محاصيلها الكروم والزيتون ، كما تشتهر بالكثير من المعادن والأحجار كالفضة والزئبق وحجر الشادنة الذى يستعمل فى التذهيب . كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ .

حوزته ولم يلبث ان دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها »(٣) .

وقد عمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة ملكه بهالة من الأبهة والفخامة يعيد به ملك آبائه وأجداده ، فزود حاضرته بالكثير من المنشئات والعمائر ، فقامت فيها حركة عمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت مظهر المدن والعواصم الكبرى فيذكر المقرى : أنه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور(٤) ، ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة ، نقل إليها غرائب الغراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار .

ويقول فى موضع آخر « إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وبنى قرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام »(٥) .

ويبدو الطابع السورى فى تلك المنشآت التى أقامها عبد الرحمن الداخل بقرطبة فقد حاول أن يعيد ما طمس لآبائه وأجداده من معالم الخلافة ، وما درس من آثارها ، ويطعم الحضارة الأندلسية بالتقاليد السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الأموية فى بلاد الشام .

---

( انظر : د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٥ وبعدها ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٩٣ وبعدها ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٥ — ١٦ ) .

(٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) ذكر المقرى أن عدد مساجد قرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩٠ مسجدا ( نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ ) .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣.

**قصر الإمـــارة ( الخلافة ) فى قرطبة :**

عندما فتح المسلمون الأندلس نزل قادتهم ورؤساؤهم بالقصور التى كانت موجودة فى المدن المفتوحة ، وعندما فتح مغيث الرومى قرطبة أقـــام فى قصر أميرها القوطى والمعروف ببلاط قرطبة . ورأى موسى بن نصـــير أن هـــذا القصر أنسب لأن يكون مقرا للوالى فأعطى مغيث « دارا شريفة ذات مسقى وزيتون وثمار يقال لها البسانة كانت للملك الذى أسره وسميت بلاط مغيث »(٦) .

وتتـــابع ولاة الأندلس فأقاموا فى قصر الإمارة بقرطبـــة ، ونزل به عبد الرحمن الداخل وصار مقرا له ولأبنـــائه ، ودخلت عليـــه الكثير من الإضافات والزيادات ، وأصبح يعرف بالقصر الخلافى بعـــد ذلك . ويقول عنه ابن بشكوال « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم وفيـــه من المبـــانى الأولية ، والآثار العجيبة ـــ لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السابقة ـــ ما يعجز عن الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان ـــ منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيهـــا ـــ البـــدائع الحسان ، وآثروا فيـــه الآثار العجيبـــة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيـــه الميـــاه العـــذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ســـاحة من ساحاته ، وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصـــانع ( الأبنية المختلفة ) صـــور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه . . . إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشـة العجيبة » ويضيف ابن بشكوال قائلا : « وفى هـــذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم يـــر الراءون

---

(٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٤ .

مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها »(٧) .

وقد وصف المقرى قصر قرطبة بقوله « ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — فى قصرها البدائع الحسان ، وآثروا الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة لأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة ، وفى القصر القباب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها »(٨) .

ويبدو أن هذا القصر كانت له مناظر تطل على نهر الوادى الكبير والربض الجنوبى من قرطبة ، وأنه قد أضيف إليه فى عهد عبد الرحمن الأوسط « الذى اتخذ القصور والمتنزهات ، وجلب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة »(٩) ولعله بنى القصر المسمى بالكامل أيضا(١٠) .

ويذكر ابن خلدون أن الحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد قد اهتموا بتشييد المجالس ( شبيهة بالاستراحات ) فى هذا القصر ومنها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف . كما أضاف إليه الأمير عبد الله

(٧) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦ ، جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٨) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٩ .
(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٥ .
(١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ .

ابن محمد ( ٢٧٥ — ٣٠٠هـ ) ففتح فيه بابا عند الركن القبلى سماه باب العدل كان يجلس فيه يوما فى الأسبوع لمباشرة أحوال المتظلمين بنفسه ، كما أقام ساباطا ( طريقا مسقوفا ) يصل بين القصر وجامع قرطبة المواجه له ، كما أن الناصر أضاف إليه إضافات كثيرة . حيث يذكر ابن عذارى أنه « لم يترك فى قصر الإمارة بنية إلا وترك فيها أثرا محدثا إما بتجديد أو بتزييد ، ومن هذه الاضافات بناء عرف بدار الروضة(١٢) بجوار المجلس الزاهر — الذى استقبل فيه سفير بيزنطة سنة ٣٣٨هـ — كما أسس الدار المعروفة باسم دار الرخام(١٣) .

ويغلب على الظن أن هذه المجالس أو القصور التى أقامها هؤلاء الأمراء فى قصر قرطبة القديم كانت أبنية جديدة على أجزاء من أنقاض القصر القديم .

وكان هذا القصر يضم قصورا أو مجالس داخلية منها — بالاضافة إلى ما مر ذكره — المجدد ، والحائر ، وقصر الوزراء ، والمعشوق ، والمبارك ، والرشيق ، والسرور ، والتاج ، والبديع ، والبستان(١٤) .

وكان لهذا القصر عدة أبواب منها باب السدة وهو الباب الرئيسى فى الناحية القبلية ، وباب قورية ، وباب الصناعة فى الناحية

---

(١١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١١٢ .

(١٢) لعلها سميت بذلك لأنها كانت تطل على تربة الخلفاء داخل القصر والمعروفة بالروضة . ( انظر ابن حيان : المقتبس ص ٣ نشر ملشور انطونيه ) .

(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٣ نشر د. عبد الرحمن الحجى . ويبدو أن السبب فى تسميتها بذلك هو استخدام الرخام فيها بكثرة .

(١٤) المقتبس ص ٢٣٠ نشر الحجى ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٢ ، ج ٢ ص ١٥٣ .

الشمالية ، وباب الجامع فى الناحية الشرقية وكان يدخل منه الأمراء يوم الجمعة . أما الجهة الغربية من القصر فلم يكن فيها أبواب حيث كانت تلها بساتين وروضات(١٥) . وقد تعرض هذا القصر للتخريب عقب دخول البربر قرطبة سنة ٤٠٣هـ فيما يسمى بالفتنة البربرية(١٦) .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦م سمى بالقصر الأسقفى بدلا من القصر الخلافى ، ثم حوله الأسقف ( دون سانشورى روخاس ) فى القرن الخامس عشر إلى قصر من الطراز القوطى ، وتهدمت واجهته الجنوبية فى أوائل القرن السابع عشر ، ثم احرق سنة ١٧٤٥م ولم يبق منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار جامع قرطبة ، وجزء من الجدار الشمالى ، ويحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة بما فى ذلك الركائز التى تدعمها(١٧) .

**قصر الرصـــــافة :**

كان عبد الرحمن يحن إلى قصور آبائه واجداده وخاصة رصافة جده هشام(١٨) فاقام المنية المعروفة بالرصافة — على بعد ٢ كم —

---

(١٥) عنها بالتفصيل انظر : السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٦) نفح الطيب : جـ ٢ ص ١٣ .

(١٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٦ .

(١٨) الرصافة : كان بعض الخلفاء الأمويين يتخذون قصورا لهم فى بادية الشام بعيدا عن العاصمة لقضاء بعض أوقاتهم فيها ومنها قصير عمرة الذى بناه الوليد بن عبد الملك ، وقصر المشتى الذى ينسب للوليد بن يزيد ، وقصر الحير المغربى الذى يقع على بعد اربعين ميلا جنوب غربى تدمر ، وقصر الحير الشرقى الواقع على بعد ستين

=

شمال غربى قرطبة وبنى بها قصرا للتنزه والسكنى فيه فى بعض الأوقات ، وسماها بذلك نسبة إلى رصـــافة جــده هشام(١٩) .

يقول المقرى « فاتخذ بهـــا قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه سفر بن زيد مولاه إلى الشام من النوى المختارة ، والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعتــرف بفضلها عــلى أنواعها »(٢٠) .

وقد كان من أشهر الفواكه التى غرست فى منية الرصـــافة ( الرمان السفرى ) الذى وصفه ابن حيان بأنه « الموصوف بالفضيلة ، المقدم على

---

=

ميلا إلى الشمال الشرقى منها وأربعين ميلا من الرصافة . وقد أشار الطبرى إلى نزول هشام بهـــا وابتنائه قصرين فيها ولعلهما هذان القصران ( قرطبة حاضرة الخلافة ) ( تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٥٠٢ ) . وأشار السيوطى إلى أن هشام قد بنى قصر الرصافة بقنسرين ليخلو فيه ( تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨ ) .

(١٩) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٤ ، كما أقام ابنه عبد الله المعروف بالبلنسى ربضـــا ببلنسية سماه بالرصافة . ولعل هذه الرصافة التى أقامها عبد الله هى الولجة التى ذكرها ابن الأبار فى الحـــلة السيراء ( انظر جـ ٢ ص ١٢٧ ) وقد كان موضع منيـــة الرصافة التى أنشأها الداخل بستانا يعرف باسم ( رينالش ) ولا زال هذا الاسم يطلق على ضاحية سكنية على بعـــد ٥ كم شـــمال شرق قرطبـــــة .

(٢٠) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٤ .

اجناس ، الرمان بعـــذوبة الطعم ، ورقة الحجم ، وغزارة المـــاء ، وحسن المصــورة » .

ويذكر أن أم الأصبغ أخت عبد الرحمن الداخل قـــد احضرت نوعا من الرمان من رصـــافة هشام بن عبد الملك بالشام ، وارســلته إلى اخيها عبد الرحمن الداخل مع رسول له ، فعرضـــه عبد الرحمن على خواصـــه مزهوا به ، وكان من الحاضرين ســـفر بن زيد الكلاعى من جنـــد الأردن الذين قدموا الأندلس ، فأعطاه منـــه « فراقه حسنه وخبره ، فسار به إلى قربة بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله ، حتى طلع شجرا أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب فى حسنه » ، ثم حمل بعض ثماره إلى عبد الرحمن ، فلما سأله عن مصدره ، اخبره بطريقته فى استنباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وغرس منـــه فى منيته وغيرها ، فأدى ذلك إلى انتشار زراعته ، وغـــدا يعـــرف ( بالرمان السفرى ) نســـبة إلى ســـفر الكلاعى(٢١) .

كما ارسلت أم الأصبغ إلى أخيها شتلات من اشجار النخيل فغرسها فى منيته بالرصافة . ويذكر أنه عندما نزل بهـــا لأول مرة شاهد نخـــلة أهاجت اشجانه ، وذكرته بموطنه الذى تركه فارا منه ، فقال مرتجلا :

**تبدت لنا وسط الرصـــافة نخلة**

**تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل**

**فقلت شبيهى فى التغرب والنوى**

**وطول التنائى عن بنى وعن أهلى**

---

(٢١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٧ . ولا يزال هـــذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم فى اسبانيا ( السفرى Azifri ) . ( انظر دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ص ٣٨٤ ) .

نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنتهى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالوبل(٢٢)

ويقول أيضا فيها :

يا نخل أنت غريبة مثلى
فى المغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى مكبسة
عجماء لم تطبع على خبل ؟
لو أنها تبكى إذا لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلنى
بغضى بنى العباس عن أهلى(٢٣)

وكان عبد الرحمن يؤثر الجلوس فى علية بالرصافة لمشاهدة الجنان المحيطة بالقصر الذى أنشأه بها ، وكان يحيط به سور له عدة أبواب منها : باب الجبل الذى عرف بذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط(٢٤) .

---

(٢٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ . وقد ذكر ابن الأبار : أنه قيل إن هذه الأبيات لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان قالها عند دخوله الأندلس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الداخل والمشهور أنها لعبد الرحمن كما فى الكثير من المصادر .

(٢٣) الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ وقد ذكر أيضا أن هذه الأبيات لعبد الملك بن عمر بن الحكم ولكن نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل أقوى كما ذكر ابن بشكوال أيضا ( الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ — ٣٨ ) .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٤ ، مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس : ص ١١٥ .

ويمكن ان نستنتج مما ذكره صـاحب اخبار مجموعة : ان عبد الرحمن كان يلجأ إلى هـذا القصر ايضـا عندما كانت تواجهه مشـكلة كبيرة ، وبخاصة من الثائرين والمتمردين. ففيه أمر بقتل وهب بن ميمون ، وابن سليمان الاعرابي ، وهذيل بن الصميل ، ومغيرة بن الوليد ابن اخته الذى ثار عليه وساعده هذيل ، كما حبس فى هـذا القصر أيضـا جماعة منهم كيحيى ابن يزيد بن هشام ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام وأعوانهما ، ثم أمر بقتلهم فيـه ، وسحبت جثثهم إلى نهر قرطبـة حيث صلبت أمـام القصر (٢٥) .

وقد ظلت الرصافة من الاماكن الاثيرة لدى أمراء بنى أمية ، فزادوا فى عمارتها ، ونزلوا بهـا ، كما نزل بقصرها بعض ملوك الدول الأجنبية الذين قدموا إلى الأندلس ، مثل الملك اردون الرابع ملك قشتالة المخـلوع الذى اسـتعان بالخليفـة الحـكم المستنصر لاستعادة عرشه فوعـده بذلـك (٢٦) .

وقـد وصف هـذه الرصافة الكثير من الشعراء ، وظلت بعد سقوط الخلافة الأموية منتدى للأدباء ، وملتقى للشعراء ، يتبادلون فيها الأشعار .

ومن امثلة ذلك قول قاسم بن عبود الرياحى :

**اسـقنيها إزاء قصر الرصـــافة**
**واعتبر قليلا فى مآل الخـــلافة**
**وانظر الأفـق كيف بدل أرضـا**
**كى يطيل اللبيب فيه أعترافه (٢٧)**

---

(٢٥) أخبار مجموعة ص ١١٠ — ١١٥ .
(٢٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٩ .
(٢٧) نفح الطيب ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦م ، أصبحت منية الرصافة ، مقرا لجماعة الآباء الفرنسيسكان . وقد بقى منها إلى اليوم بعض آثار جدران وقاعات ، وفى جوف هذه الأطلال باب يؤدى إلى نفق فى باطن الأرض يقال : إن عبد الرحمن كان يرتاده كلما أراد أن يخلو بنفسه ، ويصل ما بين الرصافة وقرطبة ، وهناك آثار نخلة قديمة هرمة قد تآكلت أجزاء كثيرة منها ، وتداخلت فيها قطع الحجارة ، وبقايا أبنية قديمة يقال إنهما نخلة عبد الرحمن الداخل ويطلق عليها نخلة عبد الرحمن(٢٨) .

قصر الدمشق :

ولم يكن قصر الرصافة هو الوحيد الذى أقامه عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتضحت فيه التأثيرات الشامية ( السورية ) فهناك قصر آخر ذكره بعض المؤرخين ويعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن أنه من بناء عبد الرحمن أيضا ، وقد ذكر المقرى : أن هذا القصر شيد « بالصفاح والعمد ، وأبدع فى بنائه ، ونمقت ساحاته ، وكسيت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله فى ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة » .

وقد أضاف إليه أمراء بنى أمية بعد ذلك وزخرفوه ، واتخذوه « ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم » ، وقلدوا به قصور أجدادهم فى الشرق(٢٩) .

وقد ظلت أطلال هذا القصر قائمة فى عصر ملوك الطوائف ، وقد زاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار وقال فيه :

---

(٢٨) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٢ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٩ ، (٦٤) ص ١٢٧ .
(٢٩) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩٢ .

**كل قصر بعد الدمشق يذم**
**فيه طاب الجنى ولذ المشم**
**منظر رائق وماء نمير**
**وثرى عاطر وقصر أشم**
**بت فيه والليل والفجر عندى**
**عنبر أشهب ومسك أحم(٣٠)**

**قصر ابن الشالية :**

ومن القصور التى تعود إلى العصر الأموى أيضا ، وأقيم خارج قرطبة قصر عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية وعنه يقول الشاعر عبيديس ابن محمود وكان كاتبا له :

**قصر الأمير ابى مروان منتسخ**
**من جنة الخلد بالسراء معمور**
**فيه مجالس قد شيدت بلا عمد**
**بنيانها مرمر بالتبر مطمور(٣١)**

وكان عبيد الله من كبار الثوار فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، واستطاع أن يسيطر على جبل شمنتان وما يليه من كورة جيان ، ومد نفوذه إلى حصن قسطلونة وغيره . وبنى المبانى الفخمة ، واتصل بعمر ابن حفصون زعيم ثورة المولدين فى ببشتر ، وصاهره بتزويج ابنته من

---

(٣٠) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٧ .

(٣١) ابن حيان : المقتبس القسم الثالث ص ١١ تحقيق ملشور أنطونية ، دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا ج ٢ ص ٢٦٣ ، فون شاك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ص ٦١ .

جعفر ولد ابن حفصون . حتى تم القضاء على ثورته فى عهد الخليفة الناصر(٣٢) .

وفى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت معالم الحضارة الاندلسية تتضح شيئا فشيئا ، وشهدت قرطبة العاصمة سيلا من التاثيرات المشرقية فى الفنون والآداب والعلوم . وكان عبد الرحمن « أول من فخم السلطنة بالاندلس ، فنظم الشرطة ، وميز ولاية المدينة عن ولاية الأسواق ، واحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخل المسلمون الأندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتا للوزارة فى قصره واتخذ القصور والمتنزهات ، وأحدث الطرز ، وكسا الإمارة ابهة الجلالة »(٣٣) .

وقد تشبه عبد الرحمن بجده الداخل ، بل وفاقه فى بناء القصور ، وأسرف فى الإنفاق عليها ومنها : البهو والكامل والمنيف ، ويصف عباس ابن فرناس ما رآه فيها من فخامة وترف فيقول :

**حنايا كأمثلة الأهلة ركبت**
**على عمد تعتد فى جوهر البدر**
**كأن من الياقوت قيست رءوسها**
**على كل مسنون مقيض من الصدر**
**ترى الباسقات الناشرات فروعها**
**موائس فيها من مداولة الوقر**

---

(٣٢) انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٣٠ — ٢٣١ ترجمة رقم ٨٩ .

(٣٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٦٢ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٦ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٢٠ .

**كأن صناعا صاغ بين غصونها**
**من الذهب البادى عراجين من تمر**
**نشت لؤلؤا ثم استحالت زمردا**
**يؤول إلى العقيان قبل جنى البسر**

وهذا شاعر آخر يصف أحد هذه القصور فيقول :

**ومن عمد تزهى بماء محاسن**
**يصوبه عنه كل طرف مصعد**
**حكت حمرها الياقوت والدر بيضها**
**ومن خضرها اشتق اخضرار الزبرجد**
**يجول السنا فيها مجال الشعاع فى**
**صفيحة سيف الصيقل المتقلد**
**عشيق ومعشوق وبهو زاهر**
**إلى كامل فى حسنه ومجدد(٣٤)**

اما فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فقد وصلت قرطبة إلى الذروة ، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها ، وبلغت مستوى من التقدم والازدهار لم تبلغه أى حاضرة أخرى فى الأندلس من قبل ، بل إننا لا نبالغ عندما نقول : إنها صارت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد شهد لها الرحالة الشيعى ابن حوقل — برغم ما عرف عنه من عداء للأمويين — فقال : « هى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق »(٣٥) .

---

(٣٤) الكتانى : التشبيهات ص ٧٠ — ٧٨ .
(٣٥) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٨ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٨ .

وقد شهدت قرطبة فى عهد الناصر عصرا من الرخاء والازدهار والعمران لم تشهده حاضرة من قبل . وقد كان الناصر شغوفا بالبناء والعمران ، وساعده فى ذلك ما وصلت إليه جباية الاندلس وخراجها فى عهده من كثرة واتساع ، فجعل ثلثها للبناء والعمران (٣٦) . وينسب إليه انه قال :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظم الشان(٣٧)

ولذلك يقول ابن عذارى عنه إنه « أسس الأسوس ، وغرس الغروس ، واتخذ المصانع والقصور ، ولم يبق له فى القصر الذى هو من مصانع أجداده ، ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد أو بتزييد »(٣٨) .

ويقول ابن خلدون : « ولما استفحل الملك للناصر صرف نظره إلى تشييد القصور والمبانى »(٣٩) .

---

(٣٦) يذكر المقرى أن جباية الاندلس بلغت فى عهد الناصر خمسة آلاف ألف ألف دينار ، وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ، ومن المستوق المستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألفا ( نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ ) .

(٣٧) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣٩) العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، وانظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

**مدينـــة الزهــراء :**

ويمكن أن نقسم المدن الإسلامية في الأندلس إلى نوعين :

**الأول :** المدن السابقة على الفتـــح والتى نزل بهـا المسلمون مثـل قرطبـــة وإشبيلية وغيرها .

**والثاني :** المدن التى أسسها المسلمون بعــد الفتح ، واستقروا بهــا وصبغوها بالصبغة العربية والإسلامية ، وهـــذه المدن تنقسم إلى قسـمين أيضـــــا :

١ ـــ مدن حربية أو عسكرية : مثل مدينة قلعة رباح ، وقلعة أيوب ، وحصن القصر ، وحصن الفرج ، ومدينة القنعة ، ومدينة القليغة وغيرها .

٢ ـــ مدن أميرية يبنيها الأمراء والخلفــاء للراحة والاستجمام وأحيانا للإقامة مثل مدينة الزهراء التى بناها الناصر ، ومدينة الزاهرة التى بناها المنصور بن أبى عامر(٤٠) .

ويهمنا فى هـــذا المقـــام الحديث عن هـــذا النوع الأخير ونخـــص بالذكر مدينتى الزهراء والزاهرة .

أما الزهراء فإن تاريخ بنائها يحيط به نوع من القصص أقــــــرب إلى الأساطير حيث ذكر المؤرخون فى سبب بنائها : أن الناصر قـــد ماتت له جـــارية تركت مـــالا كثيرا ، فأمر بأن يفتـــدى بذلك المـــال أســـرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجـــد لديهم أسرى . فطالبت منـــه جارية لـــه تدعى الزهراء ـــ وكان مغرما بهـــا ـــ أن يبنى لها بهذا المـــال مدينـــــة ويسميها باسمها ، فاستجاب لذلك وأخـــذ فى بنـــاء المدينة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعـــد ثلاثة أميال أو نحـــو ذلـــك(٤١) .

---

(٤٠) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣٦ .

(٤١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ .

والواقع ان الناصر كان محبا للبناء والعمران بطبعه ، ويرى ان البناء إذا تعاظم قدره اضحى يدل على عظيم الشأن كما قال ، وانه احد أسباب تخليد ذكرى الإنسان . فرأى أن يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، خاصة وانه قد تلقب بلقب الخلافة منذ وقت قصير سنة ٣١٧هـ(٤٢) .

ويبدو ان قصة الجارية إنما هى محض خيال من ابتكار المؤرخين العرب الذين يريدون ان يجعلوا لكل تسمية اصلا ، ويحبكون القصة حتى تبدو حقيقية ، فيذكرون انه نقش صورة هذه الجارية فى تمثال وضعه على باب المدينة مبالغة فى حبه لها ، وحقيقة الأمر أن هذا التمثال لا يعدو أن يكون احد التماثيل الرومانية التى نصبت على احد ابواب المدينة تقليدا لتمثال على هيئة امرأة وضع على باب القنطرة بقرطبة ، والذى عرف بباب الصورة أو باب العذراء(٤٣) .

أما اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التى أسسها الخليفة فى هذه المدينة ، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار

---

(٤٢) يذكر د. حسن ابراهيم : ان عبد الرحمن الناصر لما وطد دعائم ملكه ، ووحد بلاد الاندلس واصبح خليفة فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى جعفر المنصور عندما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ ، وعبيد الله المهدى حين بنى المهدية سنة ٣٠٣هـ ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد . وإذا كان للناصر ان يتمثل بالمنصور والمهدى ، فكيف يتأتى له أن يقتدى بالمعز ، والقاهرة لم تنشأ إلا سنة ٣٥٨هـ ؟ وهو قد بدأ بناء الزهراء سنة ٣٢٥هـ ! ( انظر تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٧٠ ) .

على جبل قرطبة التى تقـع المدينة على سفحه ، وخاصة أشجار التـين واللـوز(٤٤) .

وقد بدأ الناصر فى بنـاء هـذه المدينة فى المحرم سـنة ٣٢٥هـ ، على بعـد خمسة أميال تقريبـا إلى الشمال الغربى من قرطبة(٤٥) .

وقد كلف الناصر عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبى ، وعلى بن جعفر الاسكندرانى بجلب الأعمدة والرخـام إليها . وكان يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير ، وعلى كل سـارية بثمانية دنانير سجلماسية كما ذكر ابن عذارى ، أو بعشرة دنانير على كل رخـامة كبيرة أو صغيرة كما ذكر المقرى ، فجلبوا لها الرخـام الأبيض من المرية ، والرخـام المجزع من ريـة ، والوردى والأخضر من قرطاجنة وإصفاقس . وكان يورد إليها من الجير والجص الف ومائة حمل كل ثلاثة أيام .

وقد ذكر ابن عذارى : انه كان يصرف فيهـا كل يوم من الصـخر المنجور سـتة آلاف صـخرة ، سوى التبليط فى الأسـاس ، وأن عـدد السوارى التى جلبت لها بلغ ( ٤٣١٣ ) سـارية ، جلب منها ( ١٠١٣ ) سـارية من إفريقية ، وأهـدى ملك الروم للنـاصر (١٤٠) سـارية ، والباقى من رخـام الأندلس من طركونة وغيرها .

وذكر انه كان يعمل فيها كل يوم من الخـدم والفعـلة عشرة آلاف رجـل ، ومن الدواب الف وخمسمائة دابة ، وكان المشرف على البنـاء الحكم ابن الناصر . واستمر العمل فى بنـائها بقيـة عهد الناصر وعهـد

---

(٤٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .
(٤٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ .
(٤٥) ذكر المقرى أن المسـافة بين الزهراء وقرطبة اربعة أميـال وثلث ، وطولها من الشرق إلى الغرب ( ٢٧٠٠ ) ذراع ، وعرضها ( ١٥٠٠ ) ذراع ، وعدد سواريها (٤٣٠٠) سـارية ، وأبوابها تزيد على ١٥ الف باب ( نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ ) .

ابنه الحكم إلى سنة ٣٦٥هـ أى نحو أربعين سنة(٤٦) .

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس ( جبل قرطبة ) ، وكانت تشتمل على ثلاث مستويات متدرجة فى البناء كما يتبين من وصف الإدريسى لهـا حيث قال « وهى فى ذاتهـا مدينـة عظيمة مدرجة البنية ، مدينـة فـوق مدينـة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجـزء الأوسط ، وسطح الثلث الأوسط ، يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور . فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط للبساتين والروضـات ، والجزء الثالث للديار والجوامع »(٤٧) .

وقد جلب الناصر من القسطنطينية حوضـا من الرخـام منقوشـا بالذهب ، وعليه رسوم بارزة ، ونصـبه فى بيت المنـام بالقصر الشرقى بالمدينة ، الذى عرف بقصر المؤنس ، وأقام عليـه اثنى عشر تمثـالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس المصنوع بدار الصناعة بقرطبة(٤٨) .

كما أقام الناصر فى المدينـة القصر الخـلافى والذى عرف بالمجلس الزاهر ، وكان آية فى الترف . فقـد ذكر أنه اتخـذ فيه قبة قراميدها من الذهب والفضـة أنفق فيها مالا كثيرا ، وجعل فى وسطه صهريجا عظيما مملوءا بالزئبق ، إذا سطعت عليـه أشعة الشمس أحدثت نورا وبريقـا يخطف الأبصـار ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى ليخيل للناظر أن المجلس يتحرك ، وقيل إن الناصر كان إذا أراد أن يفزع أحـدا من أهـل مجلسه أومأ إلى أحـد الصقالبة ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس لمعان

---

(٤٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .
(٤٧) صـفة المغرب والأندلس ( من كتاب نزهة المشتاق ) ص ٢١٢ .
(٤٨) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٦ ، ابن عذارى : البيـان المغرب جـ ٥ ص ٢٣١ .

كالبرق . وقيل إن هـذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس أينما دارت ، وهـذا من قبيل مبالغات المؤرخين .

وكان فى كل جانب من جوانب هـذا القصر ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا قائمة على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافى ، وقد رصعت هـذه الحنـايا بالذهب وأصناف الجواهر . إلى غير ذلك من الأوصـاف التى تحمل فى طياتها كثيرا من المبالغة(٤٩) .

كما بنى إلى جانب المجلس الزاهر قصرا سماه ( دار الروضة ) . كما أخـذ فى بنـاء المتنزهات ، فاتخـذ منية الناعورة خـارج القصور ، وسـاق إلى هـذه القصور والمنيـات المـاء من أعلى الجبل على مسافة بعيـدة . ويصف ابن خلدون ما أنشأه الناصر فى مدينة الزاهرة فيقول : « وأنشأ فى مدينة الزاهرة من المبـانى والقصور والبساتين ما عفا على مبانى من سبقه ، واتخذ فيها دورا فسيحة للوحوش متباعدة السـياج ،

---

(٤٩) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . ويذكر النباهى : أن النـاصر لمـا بنى هـذه القبة جلس فيها وقال لمن حوله « هل رأيتم أو سمعتم ملكا فعل مثل هـذا ، أو قـدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين » وبينما هو كذلك فى غبطة وسرور دخل عليه القاضى منذر بن سعيد البلوطى فقـال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشـيطان يبلغ منك هـذا المبلغ ؟ فقال الناصر غاضبا : انظر ما تقول . قال : أليس الله يقول ( **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضـة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لمـا متاع الحياة الدنيـا والآخرة عنـد ربك للمتقين** ) .

فوجم الناصر وأطرق مليـا ثم بكى ، ودعـا للقاضى بخير ، وقام عن مجلسه وأمر بنقض سقف هـذه القبة ، وجعل قراميدها من التراب ( نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠ ) .

ومسارح للطيـور مظللة بالشباك » ، كما بنى الناصر بهـا ايضـا دورا لصناعة الآلات من السلاح والحلى وغير ذلك(٥٠) .

وكانت هنـاك بحيرة بالقصر تربى فيها الحيتان ، وكان طعامها فى كل يوم ثمانمائة خبزة ، وقيل اثنى عشر الف خبزة ، وينقع لها من الحمص الأسود ستة اقفزة فى كل يوم(٥١) .

**قصر منيـة الناعـورة :**

كما انشا الناصر فى منية الناعورة(٥٢) غربى قرطبة قصرا له نسب

---

(٥٠) العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، بينما يذكر ابن عذارى أنه كان يخبز كل يوم برسم حيتان البحيرات ١٨ ألف خبزة ويعلق على ذلك قائلا « وهذا من أعظم الأشياء » ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ ) .

(٥٢) سميت بذلك نسبة للناعورة ( الساقية ) التى كانت ترفع الميـاه إلى بساتينها ( قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٠٣ ) ، وكانت منية الناعورة فى بداية الأمر أرضـا تقع على شاطىء نهر قرطبة بجوار مصلى فحص المصـارة العتيق ، اشتراها الأمير عبد الله أيام والده محمد بن عبد الرحمن الأوسط بما حولها من المزارع من رجل يسمى خليل البيطار سنة ٢٥٣هـ « فأنشأها منيـة عجيبة ، واسـعة الخطة ، أرادها للفرجـة ، وأوسـع خطتهـا ، وأكثر غراساتها ، واقتصد مع ذلك فى الانفـاق عليها » وكانت بساتينها تسقى من نهر قرطبة بواسطة النافورة ولذلك سميت بهـا ثم انتقلت ملكيتها لعبد الرحمن الناصر ، فاقام بهـا هذا القصر ، واجـرى له المـاء العـذب من جبل قرطبة فى جسر أو قنـاة على حنـايا معقودة استغرق بناؤها أربعـة عشر شـهرا ، وكان أثيرا لديه يقصده للراحة والنـزهة ، وخاصة بعـد عودته من الغزوات ،

إليها فى سنة ٣٢٩هـ « واجرى له المـاء العـذب من جبل قرطبة فى قناة يجرى ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسـد عظيم الصورة بديع الصنعة ، يجوز المـاء إلى عجزه فيمجه بفمه فى تلك البركة فيسقى جنان القصر على سعتها » كما ذكر المقرى(٥٣) .

وقد ذكر ابن عذارى : ان عدد الدور التى كانت تضمها مدينة الزهراء ١١٣ الف دار للرعية ، بخـلاف دور الوزراء والكبراء . وهـذا دليل على انتقال الكثير من الناس إليها من قرطبة ، وخاصة بعـد أن اتخذها الناصر مقرا جديدا للخـلافة . هـذا بخلاف عـدد دور القصر الخـلافى وتبلغ اربعمائة دار لسكنى الخليفة وحاشيته واهل بيته ، وذكر أن عـدد الفتيان الصقالبة فى القصر بلغ ٣٧٥٠ فتى ، وعدد النساء من الجوارى والخـدم بلغ ٦٣٠٠ امرأة ، وانه كان يصرف لهم من اللحم فى كل يوم ١٣ الف رطل سوى الطيـور والأسماك(٥٤) .

وقد بالغ المؤرخون والرحالة فى وصف قصور الزهراء ، وما احتوته من مظاهر الثـراء والتـرف باوصـاف لا يصـدقها العقل فى كثير من الأحيـان .

غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الاثرية التى اجريت فى موضع هـذه

---

وفيـه نزل الملك أردون الرابع ملك قشـتالة لمـا قـدم يستنجد بالمستنصر لرده إلى عرشـه سنة ٣٥١هـ ( انظر : المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملثور انطونيه ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٠٢ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ ) .

(٥٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ هـذا بينما يذكر المقرى أن عـدد الفتيان الصقالبة بالزهراء ١٣٫٧٥٠ ، وعـدد النسـاء ٦٣١٤ ، وقيل عـدد الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ أو ٣٧٨٧ أو ٦٠٨٧ ( انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٥ ) .

المدينة قد أثبتت صدق كثير من هذه الأوصاف إلى حد كبير(٥٥) .

وما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهى من بناء قصـــور الزهراء ، حتى شرع فى إقامة الأسواق والحمامات والخانات والمتنزهات بهـــا ، وشجع الناس على السكنى فيها . ويذكر أنه أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس أن من يبنى بهـــا دارا ، أو يتخذ بهـــا مسكنا فله أربعمائة درهم معونة « فتسارع الناس إلى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيهـــا الرعيــــة »(٥٦) .

وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها حتى ازدحمت بالســـكان ، وامتد العمران خارجها فى الطريق الممتد بينها وبين قرطبة حتى كادت الأبنية تتصل بينهما . وتوفى الناصر قبل أن يتم بنـــاء المدينة بأكملها ، فأخذ ابنه الحكم المستنصر فى إكمالها . ولكن لم يتح لهذه المدينة الفخمة أن تنعـــم بالحياة والازدهار طويلا ، حيث شرع المنصور بن أبى عامر فى بناء مدينته الزاهرة سنة ٣٦٨هـ لمنافسة الزهراء فسلب منها الكثير من مظاهر النشاط والازدهار ونقل منها الدواوين ، وبيت المـــال ، والخزائن ، وغير ذلك ، حتى جاءت الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس لتعصف بحياتها مـــع الزاهرة ، ولم يتجاوز عمرها نحو ثلاثة أرباع قرن — وقد ندبها الكثير من الشعراء ومنهم السميسر الألبيرى الذى يقول :

**وقفت بالزهراء مستعبرا    معتبـــرا أنـــدب أشـــتاتا**

---

(٥٥) انظر عن هـــذه الحفائر : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ملحق رقم ٣ ص ٢٠٨ وبعدها ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤١٠ — ٤١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صـــورة الأرض ص ١٠٧ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٢ .

فقلت يا زهــرا الا فارجعى     قالت وهل يرجــع من ماتا ؟
فلــم ازل ابكى وابكى بهــا     هيهات يغنى الدمع هيهــاتها

وأبو الحزم بن جهور الذى زارها يوما ووقف على أطلالها فقال :

قلــت يوما لــدار قــوم تفــانوا
اين ســكانك العـــزاز علينــا
فاجــابت هنــا اقــاموا قليــلا
ثم ساروا ولست اعلم اينــا(٥٧)

**مدينــة الزاهــــرة :**

بعــد وفاة الخليفة الحــكم المستنصر ، وتولى ابنه هشام مقاليــد الخلافة وكان لا يزال غلاما فى العاشرة من عمره ، تولى محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور الحجابة له ، وأخــذ نفوذه فى الازدياد ، وســيطر على مقــاليد الأمور فى الأندلس ، وحجر على الخليفة الصغير بعــد أن تخلص من منافسيه .

وأراد أن يسجل ما وصل إليه من نفــوذ وسلطان فأقام على نهــر الوادى الكبير بالقــرب من قرطبــة قصرا له كان نواة لمدينته التى سميت بالزاهرة ، وغدت منافسة لمدينــة الزهــراء التى بدأها الناصر وأكملها المستنصر .

ويعبر الفتح ابن خاقان عن ذلك بقوله « عندما استفحل أمره ، واتقد جمره ، وظهر استبداده ، سما إلى ما ســمت إليــه الملوك من اختــراع قصر ينزل فيه ، ويحل به أهلــه وذويه ، ويضم إليــه رياسته ، ويعم به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيــانه وغلمانه » .

---

(٥٧) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ، تاريــخ المسلمين وآثــارهم ص ٤١٠ .

كما يذكر المقرى أيضـا انه « بنى على طريق المباهاة والفخـامة مدينة العـامرية ذات القصور والمتنزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مخترعاته العجيبة »(٥٨) .

وهناك عامل آخـر فى بناء المنصور للزهراء واتخاذها مقرا له وهو خشيته على نفسه من دخـول قصر الخليفة هشام بعـد أن حجر عليه ، واستبد بالأمر من دونه ، وكثر حساده ومنافسوه وخصومه(٥٩) .

وقد شرع المنصور فى بنـاء هـذه المدينة سنة ٣٦٨هـ ، فحشـد لهـا العمال والفعـلة ، وجلب لها ما تحتاج إليه من مواد البناء ، وبـدأ العمال فى تسوية ارضها تمهيدا للبناء . وقد وسع المنصور فى تخطيطها ، فامتدت رقعتها امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار عاليـة ، وفتح فيه عدة ابواب منها باب الفتح ، وباب السباع ، وباب الجنان .

وقد استغرق البناء فيها مدة عامين حيث انتقل إليها المنصور سـنة وامتعته ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل داخلها الأهراء ( مخازن الغلال ) ، واطلق بساحتها الأرحـاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقـواده وحجابه ، فابتنوا بهـا كبار الدور ، وجليلات القصور واتخذوا خـلالها المستغلات المفيـدة ، والمنـازة المشيدة ، وقامت بهـا الأسواق وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها ، والحلول باطرافها للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حولها ، حتى اتصلت أرباضها

---

(٥٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٩ .

(٥٩) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٥٨ .

بأرباض قرطبة »(٦٠) .

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقـدان الزهراء لمكانتها ، فقد أخـذ الكثيرون من أهلها فى الرحيل عنها إلى الزاهرة ، ليكونوا بالقرب من صاحب النفوذ والسلطان .

وكان المنصور قـد رتب جلوس الوزراء والكبراء والشيوخ بهـا ، وندب إليها أرباب الخطط ، وجعلها مقرا للشرطة ، وعين عليها واليـا على نحو ما كان معمولا به فى الزهراء وقرطبة ، كما أقام بهـا مسجدا جامعا لتكتمل جميع مرافقها ، وتصبح مدينة مستقلة بذاتهـا ، وهكذا حلت محل الزهراء وأصبحت قاعدة الحـكم ومركز السلطنة بالرغم من وجود الخليفة فى الزهراء . فقـد كانت تصل إليها الضرائب والجبايات ، ويقصـدها الولاة والحـكام وطلاب الحاجات ، وغـدت مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى ، ومكانا لاستقبال الملوك والأمراء الأجانب . فقد استقبل فيهـا المنصور سنة ٣٨٢هـ شانجة ( سانشو ) ملك بنبلونة — الذى أهـدى للمنصور ابنته فتزوجها وولدت منـه عبد الرحمن المعـروف بشنجول — استقبالا حـافلا .

كما استقبله عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٤هـ ، واستقبل عبد الملك أيضـا الخليفة هشام المؤيد فيها سـنة ٣٩٨هـ بعـد أن أعـد له نزهة فيها(٦١) . وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا وتزايد فيها البناء وأقيمت فيها المنيـات والمتنزهات ، والبساتين والرياض إلى جانب القصور .

---

(٦٠) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٠ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٣ .

(٦١) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٧٣ ، ٨٨ .

ومنها قصر ناصح ، وقصر الزاهى الـذى كسيت جدرانه بالمرمر ، واجريت فيــه المياه والغدران التى تحف بهـــا الأشجار والأزهار ، وقصر الحاجبية الذى اقامه المظفر إلى جانب المدينة خارج السور(٦٢) .

ومن منياتها : منيـــة السرور ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين روضـــة وغـدير(٦٣) وذات الواديين ، ومنيـــة أرطـــانية ومنيـــة اللؤلؤة(٦٤) .

ومن أشهر المنيات منية العامرية أو منية المنصور(٦٥) التى كان يقضى بهـــا الكثير من أوقاته مع خاصته . وقد احتفى بهـــا الكثير من الشعراء ، بسبب ســـحر حدائقها ومنهم ابن أبى الحباب الشاعر ، الذى دخل على المنصور فى منيته « والروض قـــد تفتحت انواره ، وتوشحت أنجـــاده وأغواره ، وتصرف فيها الدهر متواضعا ، ووقف بهـــا السعد خاضعا » . ووقف على روضـــة فيها ثلاث سوسنات تفتحت اثنتان منهما دون الثالثة فقـــال :

---

(٦٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٢ .

(٦٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٦٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ .

(٦٥) أسسها المنصور سنة ٣٦٩ إلى جـــانب مدينة الزهـــراء وحاطهـــا بالرياض والجنان وأجرى فيها قنـــاة تنساب ملتوية كالثعبان بـــين بساتينها وعلى ضفتيها تكثر الأشجار ، وتقـــع آثارها اليوم على بعد ثلاثة كم من مدينة الزهراء وتسعة كم غربى قرطبة ( انظـــر البيان المغرب جـ ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٥ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢١٣ ) .

لا يوم كاليوم فى ايامنـــا الأول
بالعامرية ذات الـمـــاء والظـــل
هواؤها فى جميع الدهر معتـــدل
طيبـــا وإن حـــل فصل غير معتدل
ما إن يبالى الذى يحتل ســـاحتها
بالسعد الا تحل الشمس فى الحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل
ابدت ثلاثا من السوســـان مائلة
اعنـــاقهم من الإعيـــاء والكســـل
فبعـــض نوارها للبعـــض منفتـــح
والبعض منغلق عنهن فى شــــغل
كأنهـــا راحــــة ضـــمت أناملهـــا
من بعد ما ملئت من جودك الخضل
واختهـــا بســـطت منهـــا اناملها
ترجو نداك كما عودتها فضل(٦٦)

ويذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخـــل على المنصور بهـــا وعنـــده صاعدا البغدادى فقال منشدا :

فالعـــامرية تزهى على جميع المبـــانى
وانت فيها كسيف قد حل فى غمدان(٦٧)

فقام صاعد وكان منافسا له فقال : اسعد الله تعالى الحاجب الأجل ، ومكن سلطانه . هـــذا الشعر الذى قاله قـــد أعده وروى فيـــه ، اقـــدر

(٦٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧ .
(٦٧) غمدان : قصر سيف بن ذى يزن باليمن .

ان اقول احسن منـــه ارتجالا فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعـ واك فقـــال :

يا ايها الحـــاجب المعتـــلى على كيوان
ومن به قــد تناهى فخــار كل يمان
العـــامرية أضـــحت كجنـــة الرضوان
فريـــــدة لفـــــريد ما بين اهل الزمان

ثم قــال فى وصــفها :

انظـــر إلى النهـــر ينســـاب كالثعبان
والقضب تلتف سكرا على ذرا الأغصان
والطير يخطب شكرا بميس القضـــبان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنـــة النعمان
وراحة الريح تمتـــا ر نفحة الريحان
فـــدم الدهر فيهـــا فى غبطـــة وأمان(٦٨)

وفى منيات الزاهرة وقصورها يقول صاعد البغدادى اللغوى :

اما ترى العين تجرى فوق مرمرها
زهوا فتجرى على احفافها الطربا
اجـــريتها فطمـــا الزاهى بجـــريتها
كما طموت فسدت العرب والعجما
تخال فيه جنود المـــاء رافـــلة
مستلئمات تريـــك الدرع والقلبـــا

---

(٦٨) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٨٤ ، ٥٨٢ .

تحفهـا من فنون الأيـك زاهـرة
قـد أورقت فضة إذ أورقت ذهبا
بديعـة الملك مـا ينفك ناظرها
يتلو على السمع منها آية عجبـا
لا يحسن الدهر أن ينشي لها مثلا
ولو تعنت فيها نفسه طلبـا(٦٩)

وكان يكثر فيها النرجس والياسمين والبنفسج وقـد وصف الوزير الجزيري مجلسا للمنصور فيها فقال :

وتوسـطتها لجـة فى قصرها
بنت السـلاحف ما تزال تنقنـق
تنسـاب من فـكى هزبر إن يكن
ثبت الجنـان فإن فاه أخـرق
صاغوه من نـد وخـلق صفحتى
هادية محض الدر فهـو مخـلق
للياسمين تطـلع فى عرشـه
مثل المليك عـراه زهو مطـرق
ونضـائد من نرجـس وبنفسـج
وجنـى خيـرى وورد يعبـق
ترنـو بسـحر عيـونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسـان تنطـق
وعلى يمينك سوسـنات أطلعـت
زهر الربيـع فهن حسـنا تشرق

---

(٦٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٤ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١١٥ .

كما أنشد الشاعر الجزيرى على لسان النرجس فيهما مخاطبا المنصور :

**حيتك يا قمر العلا والمجلس**
**أزكى تحيتها عيون النرجس**
**زهر تريك بحسنها وبلونها**
**زهر النجوم الجاريات الكنس(٧٠)**

وإذا كانت حياة الزهراء قد امتدت نحو سبعين عاما ، فإن حياة الزاهرة لم تبلغ نصف هذه المدة ، حيث ثار العامة على عبد الرحمن شنجول سنة ٣٩٩هـ وهاجموها ونهبوها وهدموا مبانيها ومحوا رسومها ، فخربت وتلاشى أمرها وصارت كأمس الدابر ، وكانت كارثتها أعظم من الزهراء ، حيث أن موجة التخريب ضدها كانت أشد وأعتى نكاية فى العامريين .

وذكر أن بعض ما نهب منها بيع فى العراق وغيرها من بلاد المشرق . ويروى ابن عذارى : أن العامة نهبوا ما كان فيها من الأموال والسلاح والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب الضخمة وغيرها مما حوته القصور ، وصارت تباع بكل جهة .

ثم أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموى بهدمها ، وقلع أبوابها ، وتحطيم أسوارها ، وتشعيث قصورها ، وأضرمت النيران فيها حتى طمست معالمها ، وأعاد العاصمة إلى قرطبة(٧١) .

---

(٧٠) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٠ ، ٧١ .

(٧١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٣ ص ٦٤ ، وقد وجد فى بهو الجص بقصر إشبيلية — الذى بنى فى عهد بنى عباد ( ملوك إشبيلية ، وأضيف إليه فى عصر الموحدين — أعمدة تيجانها متخذة من أطلال الزاهرة والزهراء . ( دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٨ ) .

ويبدو أن المنصور قد كان يتوقع خراب الزاهرة وضياع معالمها فقد ذكر ابن حزم : انه كان مع المنصور وجماعة فى نزهة بالزورق فى نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه المدينة فقال : « ويها لك يا زاهرة الحسن لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك . فليت شعرى من المريد الذى يعدمك ، ويوهن ركنك ويهدمك ، ويخلى ميدانك ، ويضوى قضبتك وأفنائك . فبؤسا له إذ لا يودنه حسنك . فكيف عن تغييرك ؟ . الا تسبيه بهجة منظرك فكيف عن محو أثرك ؟ » قال ابن حزم : فاستعظمنا ذلك وأنكرنا ما صدر عنه وظننا أن الراح قد غلبت عليه ، وخيلت ذلك إليه فقال : « والله كأنكم لا تعلمون ذلك ، نعم سيظهر علينا عدونا فى اقرب مدة فيهدم هذا كله ويعدمه ، وكأنى بحجارتها فى هذا النهر »(٧٢) . وقد حدث ما كان يحس به المنصور بعد أن فرط فى حق الكثيرين ووصل إلى النفوذ والسلطان بكل حيلة ووسيلة ممكنة .

وذكر ابن سعيد : انه كان فى بلنسية كثير من المتنزهات والمسارح ، ومن ابدعها واشهرها الرصافة ومنية ابن ابى عامر ، تحيط بها الجنان والأنهار من كل جانب(٧٣) .

كما كانت هناك منيات أخرى اقيمت بها بالطبع مجالس أو قصور للإقامة أو النزول فيها ومن أشهرها :

**منية نصر الفتى فى الربض :** وكان مولى للأمير عبد الرحمن الأوسط ، ومن أكبر الفتيان الخصيان فى بلاطه ، وقد وكل إليه عبد الرحمن القيام ببناء الزيادة التى زادها فى جامع قرطبة(٧٤) . وقد اتخذ نصر هذه المنية

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .
(٧٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .
(٧٤) المقتبس ص ٢٤٤ تحقيق الحجى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

فى عـدوة الربض التى تشرف على نهـر الوادى الكبير بجـوار مقبرة الربض(٧٥) . وكان موضعها بيتـا للرحا فى أيام أبى الخطار الكلبى فى عصر الولاة . ويبدو أنه اقيم مكانها فنـدق « كان متقبله من أهل الإضرار والفسق »(٧٦) فأمر عبد الرحمن بهـدمه بعـد مبايعته بالإمارة سـنة ٢٠٦هـ .

ويظهر أن الأمير قـد اقطع فتاه — وكان اثيرا لديه — هـذه الأرض فاقام عليها منيته ، وظلت بحوزته حتى مات مسموما سنة ٢٣٦هـ على يـد الأمير نظرا لتآمره عليه مع جاريته عجب(٧٧) ، ثم آلت إلى زرياب المغنى المشهور ، ثم آلت بعـده إلى الأمير عبد الله بن محمد حفيد عبد الرحمن « فشيد بنيانها واتقن مصانعها » وكان يوزع أوقاته بينها وبين منية الناعورة السالفة الذكر . وفى عهد الخليفة الناصر آلت إلى ابنه الحـكم ولى عهده ، وفيها نزل سفراء الامبراطور البينطى قنسطنطين السابع فى صفر سـنة ٣٣٨هـ عنـد قدومهم إلى قرطبة(٧٨) .

**منيـة عجب :** كما أقامت عجب جـارية الحـكم الربضى منية لهـا فى الربض القبلى فى مواجهة رصيف قرطبة الكبير — وهو الطريق المرصوف بالحجارة الذى كان يمتد من شرق قرطبة حتى الناحية الغربية للقصر ، ويقع ما بين الضـفة اليمنى للنهر وبين القصر ، ويفتح عليـه البـاب القبـلى للقصر المؤدى مباشرة إلى القنطرة المقـامة على النهر . وكانت هذه المنية تشتمل على عدة مساكن موقوفة على المرضى(٧٩) .

---

(٧٥) المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملشور انطونيه .
(٧٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ .
(٧٧) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ ، المغـرب فى حلى المغـرب جـ ١ ص ٤٩ .
(٧٨) المقتبس ص ٣٨ تحقيق انطونية .
(٧٩) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٠١ ، ٢١٩ .

**قصر الفارسي :** وكان من القصور المقصودة للنزهة والفرجة شمال قرطبة . وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بنى أمية التى شهدت أول إشراقة عشق ابن زيدون الوزير الشاعر لولادة بنت المستكفى . وفيه يقول أحد الشعراء :

**ويهتاج قصر الفارسي صبابة**

**لقلبي لا يألو زناد الأسى قدحا(٨٠)**

**منية ابن أبى الحكم بن القرشية :** وكانت تقع على نهر قرطبة الأعظم ( نهر الوادى الكبير ) بمنطقة تعرف باسم ( الشامات )(٨١) ، وكانت منيعة محصنة مرتفعة الأسوار ، بها عمارات مسورات ، وقد نزل بها أبناء على بن الأندلسى صاحب المسيلة ، وعيال أخيه جعفر عند قدومهم إلى قرطبة سنة ٣٦٠هـ فى عهد الحكم المستنصر مبالغة من الحكم فى إكرامهما بعد خروجها على المهدى الفاطمى .

**منية ابن عبد العزيز :** وكانت تقع فى الصحراء الممتدة ما بين قرطبة والزهراء وكان قاصدها يصل إليها بعد مروره على السدة والمصارة ومسجد الحاجب ابن أبى عبدة — الذى أنشىء فى عهد عبد الرحمن الأوسط — ثم ربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الإلبيرى أو البردى(٨٢) . وقد نزل فيها يحيى بن على المعروف بابن الأندلسى وأخوه جعفر فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٣٦٠هـ .

**منية جعفر المصحفى :** أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى فى خلافة الحكم المستنصر . وقد ذكر ابن عذارى أنها كانت فى منطقة تسمى

---

(٨٠) نفح الطيب جـ ٢ ص ٥٥ .

(٨١) المقتبس : ص ٤٣ ، ٢٢٨ نشر الحجى .

(٨٢) نفسه ص ٤٦ .

الش غربى قرطبة . وذكر أن السبب فى بنائها : أن الخليفة الحكم كان متخوفا على ابنه هشام من ابن أبى عامر ، وكان لشدة نظره فى الحدثان متيقنا من انه سينزع السلطان من ولده ، ويؤسس لنفسه مدينة فى موضع يسمى الش ( بفتح اللام ) فأمر حاجبه بالمسارعة إليها والشروع فى البناء عليها وأنفق فيها مالا عظيما ، ولكنه اكتشف بعد بنائها ان هناك موضعا آخر يقع فى شرقها بنفس التسمية ولكن بضم اللام عند منزل رجل يسمى ابو بدر . وقد كان هذا الموقع فعلا هو الذى أختاره المنصور ابن أبى عامر لبناء مدينة الزاهرة التى جعلها مقرا له(٨٣) . وقد آلت هذه المنية بعد نكبة جعفر المصحفى إلى المنصور . وفيها يقول أبو بكر ابن جعفر :

**قف بالمصحفية واندب مقلة اصبحت بلا إنسان**

**واسالنها عن جعفر وسطاه ونداه فى سالف الأزمان(٨٤)**

* * *

(٨٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٥ .

(٨٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

## الـــــدور

وإذا كانت قصور الأمراء والخلفــاء والوزراء قــد كثرت فى الأندلس فى العصر الأموى ، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا(١) . حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة فى البناء والعمران والزخرفة والتأثيث كل على قــدر إمكاناته .

وليس من السهل تحــديد مواقع دور الخاصة فى قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، أو وصفها حيث لم تزودنا المصـــادر بالكثير فى هذا الصدد فيما عــدا الإشارة إلى بعض دور المشاهير من القضاة والفقهاء والعلماء . بينما أفاضت فى وصف القصور . ويمـــكن تقسيم الدور فى الأندلس إلى قسمين : دور رسمية تابعـــة للدولة ، ودور خاصة بالناس . أما الدور الرسمية فكان منها بقرطبة :

**دار الوزراء :** ويبدو أنهـــا أنشئت فى عهـــد الأمير عبد الرحـــمن الأوسط لأنه كان « أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر » وذلك للتشاور معهم فى أمور الدولة(٢) وعلى هـــذا فإن هـــذه الدار كانت تقع بجانب قصر الإمارة ، أو أنهـــا كانت من ملحقـــاته . وقد ذكرها ابن القوطيـــة وابن حيـــان(٣) .

---

(١) ذكر المقرى : أن عدد دور الخاصة والكبراء وصـــل فى عهد المنصور ابن أبى عامر فى قرطبة وحـــدها ( ٦٠٫٣٠٠ ) دار ، وأن عـــدد دور العـــامة فيها وصل إلى ( ٢١٣٫٠٧٧ ) دار ، سوى الدور التى أعدت للكراء ، وهو ما نطلق عليـــه فى العصر الحـــاضر مســـاكن الإيجار ( نفح الطيب جـ ٢ ص ٧٩ ) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ ، المقتبس ص ٢٥ تحقيق الحجى .

**دار القومة :** ويبدو أنها أنشئت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد الزيادة التى أضافها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكانت خاصة بسكنى قومه هذا المسجد ، وكانت تقع بداخله فى الجهة الشمالية . ويذكر أنها تعرضت لحريق « أتى على غرفها ، ودمر سقفها ، وأدى إلى تشعيثها » فى ليلة الجمعة لخمس خلون من شهر رجب سنة ٣٦٢هـ(٤) .

**دار الرهائن :** وكانت تجاور باب القنطرة ، وفيها كان يتم حبس بعض الرهائن حتى يتم الفصل فى أمرهم ، فقد حبس فيها صالح وعلى ابنا رافع صاحب حصن ( حجبة ) ونفر من بنى عمهما(٥) .

**دار الصدقة :** وقد أنشأها الخليفة المستنصر غرب المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة التى أضافها للمسجد وكانت مزودة بعلية وكان يتم من خلالها توزيع الصدقات(٦) .

**بيت العمال :** وكانت دويرة من ملحقات القصر الخلافى ، اتخذت فى الأصل لعمال القصر ، ثم تحولت إلى سجن ، وكان موضعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها كانت نفس سجن قرطبة القديم فى عهد الإمارة(٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الدور الرسمية بعض الدواوين والمصالح الحكومية مثل :

**دار الصناعة :** وكانت تقع بجوار مسجد أبى عثمان بقرطبة ( وهو عبيد الله بن عثمان زعيم موالى الأمويين قبل دخول عبد الرحمن

---

(٤) المقتبس ص ١٠٤ تحقيق الحجى .
(٥) نفسه ص ١٧٦ .
(٦) نفسه ص ١٩ .
(٧) المقتبس ص ٢٠٢ تحقيق الحجى .

إلى الأندلس ) ، وكان هـذا المسجد يقـع شمال القصر الخلافى حيث كان هنـاك باب للقصر يعرف ( بباب الصناعة ) لأنه كان يشرف عليها .

ويظهر أن هـذه الدار أنشئت فى عهـد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعـد غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٢٩هـ ، وكانت تصـنع فيها المراكب والسفن ، ولكنها اقتصرت منذ زمن الناصر على صناعة الآلات والحلى والتماثيل فيما يبدو ، وذلك نظرا لكثرة دور الصناعة التى أنشئت لبنـاء السفن فى سواحل الأندلس ، وفيها تمت صـناعة الاثنى عشر تمثالا من البرونز المرصـع بالدر النفيس والتى وضعت فى مجلس المؤنس بمدينة الزهـراء(٨) .

**دار الطراز والبرد :** ويذكر أنها أنشئت فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فهو الذى أحـدثها واستنبط عملها كما ذكر ابن عذارى ، وإن كان ابن حيان يذكر أنها من بنـاء عبد الرحمن الداخل(٩) .

ويبدو أن الداخل هو الذى أنشأها واختصت بصناعة البرود الأميرية ولذلك عرفت بالدار البردية ، ثم تطورت فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، واتسعت مرافقها ومهامها وما يصنع فيها . فقد ذكر ابن الخطيب « أنه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق »(١٠) .

ومعنى هـذا أنه أنشأ دار للطراز لنسج الثياب الأميرية له ولأهله وحاشيته ويبدو أنها أنشئت إلى جانب الدار البردية التى أقامها الداخل .

وفى عصر الخليفة الناصر اتسعت وأصبح ينسج فيها ما يحتاج إليه من الخـلع والكسوات وملابس الحريم وغير ذلك . ويذكر ابن الخطيب معلقـا على ذلك « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ،

---

(٨) ابن عذارى : البيـان المغـرب ج ٢ ص ١٥٥ ، نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٤ .

(٩) المقتبس ص ٦٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .

(١٠) أعمال الأعـلام ص ٢ .

ويناغسون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب »(١١) . وقد أشار ابن حوقل إلى شهرة قرطبة فى زمن الناصر فى صناعة الجيد من الثياب والكسوة من الكتان والخز والقز(١٢) .

وقد ذكر ابن حيان : ان هذه الدار نقلت من موضعها الأول سنة ٣٦١هـ فى عهد المستنصر من غرب القصر إلى دار الزوامل بالمصارة فى غرب قرطبة ، واما دار الزوامل فقد نقلت من موضعها إلى دار تقع بالقرب من المحبس عند قصر الناعورة . واما دار البرد القديمة فقد أمر الحكم بإقامة حوانيت للبزازين مكانها(١٣) .

وكان لها قيم يشرف عليها حيث تولاها فى عهد الأمير عبد الله زيان الفتى ، وفى زمن الناصر خلف الفتى الكبير ، وفى زمن المستنصر فائق الفتى المعروف بالنظامى(١٤) .

**دار السكة** : وكان أول من انشأها فى قرطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حيث لم تكن هناك دار سكة للمسلمين بعد فتح الأندلس ، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الأموية والعباسية وبعض العملات المغربية ، وكذلك بعض العملات التى كانت موجودة بالأندلس كالرومانية والقوطية ، وكانت تسك دراهم وفلوسا يتعامل بها الناس كل ستين فلسا بدرهم ، وفى سنة ٣١٦هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بإقامة دار جديدة للسكة داخل قرطبة بدل الدار القديمة التى كانت تقع بجوار

---

(١١) أعلام الأعلام ص ٤٠ .

(١٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٨ .

(١٣) المقتبس ص ٦٦ نشر الحجى .

(١٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٣ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ ، المقتبس ص ٦٦ ، ٣١٧ واغلب الظن انها كانت تقع بجوار قصر الإمارة فى قرطبة من الجهة الغربية استنادا إلى ما ذكره ابن حيان وابن الخطيب . ( انظر المقتبس ص ٦٦ ، أعمال الأعلام ص ٤٠ ) .

بباب العطارين خارج قرطبـــة(١٥) لضرب الدنانير والدراهم الأندلسية ، وولى خطتها أحمد بن موسى بن حـــدير ، ثم نقلها بعـــد ذلك إلى مدينـــة الزهراء التى أسسـها(١٦) .

اما دور الخاصة فكان من اشهرها : دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وكانت قريبة من باب القنطرة .

**ودار القاضى منذر بن سعيد البلوطى** : وكانت تقع بجوار مســـجد السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة .

**ودار بقى بن مخلد** : وكانت تقع بظاهر المدينة فى فحص المطرف على شارع المبطلة الممتد من باب عبد الجبار .

**ودار الأمير عبد الله بن محمد** : وكانت تقع بجوار باب قرطبة الغربى ، ولها عليـــة تشرف على الطريق .

**ودار الفقيه المشاور ابى ابراهيم** : وكانت تقـــوم بجـــوار مســـجد ابى عثمان تجـــاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية .

**ودار محمد بن سعيد الأموى** : وكانت تقـــع بمنية عبد الله بالناحية الشرقية من قرطبة .

**ودار ريان الوصيف** : وكانت تقع بجوار منار الجـــامع بقرطبـــة . وغيرها(١٧) .

وقد كانت الدور فى الأندلس بصفة عامة تقوم حـــول فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حـــوله الغرف ، وتتألف من جزئين أساسيين : الواجهة الخارجية ، وداخل البيت . وبينما كانت الواجهة الخارجية بسيطة

---

(١٥) الهمذانى : مختصر كتاب البلدان ص ٨٨ تحقيق دى غويه ، ليـــدن ســـنة ١٨٥٥م .

(١٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٢١ .

(١٧) انظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

فى الغالب تكاد تخلو من الزخرفة ، كانت الغرف تزخر بالكثير من الزخارف الرائعـــة .

ويمكن تفسير ذلك بأن حياة الأسرة الأندلسية كانت تتركز فى داخل الدار حيث تقضى المرأة جل وقتها ، فكان من الطبيعى أن يتأنق النـاس فى تزيينها من الداخل ، وكسوتها بنوع من الزجـاج المفضض ، المعروف فى الشرق بالفسيفساء ، وكان يعرف عندهم ( بالزليجى ) ، وهو ذو ألوان عجيبة ، ويقوم عندهم مقام الرخام الملون المتخذ فى الشرق للزخرفة .

وكان له تأثير كبير فى ترطيب الأبهاء والقـاعات فى فصل الصيف . هـذا بالإضـافة إلى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية الرائعـة من آثار طيبة فى النفس . وكان المدخل فى دور الأثرياء عـادة ما يفضى إلى ردهة تؤدى إلى البهو ، أما فى دور العـامة فكان يفصل بممر منكسر على شـكل زاوية قائمة حتى لا يرى المـارة من فى الداخل .

وقد كانت المرأة الأندلسية تجـد فى ذلك تعويضا عن العزلة التى تعانيها فى البيت . ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب الدور فى مـدن الأندلس كانت تحتوى على عليـات أو غرف علوية ، أو مصارى ( جمع مصرية ) وهى غرف بارزة عن جدران البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقـاطعة وتسمى ( بالشراجيب ) . وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنـازل المصرية . وهكذا كان يتاح للمرأة الأندلسية التمتع بمشاهدة الخارج دون أن يراها أحـد .

وكان صحن البيت أو فناؤه عنصرا هاما باعتباره المكان الذى تقضى فيـه المرأة معظم وقتها ، ومنـه ينفذ الضوء والشمس والهواء إلى غرف الدار ، ولذلك فقـد اهتموا بتزيينه ، وفرشه بالحجر أو الرخام أو غير ذلك ، وغرسـه بالأشـجار كالبرتقال والليمون ، ومده بالميـاه الجـارية .

مما يزيده روعة وجمالا ، ويخفف فى نفس الوقت من حرارة الشمس(١٨) .

ولقد وصف ابن سعيد المغربى دور الأندلس بأنها « فى غاية الجمال لمبالغة أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها » وأضاف مقارنا بينها وبين الدور المصرية « إننى تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » . وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن فى بنائها ، واستخدام الطين فى تجصيصها ، وهو ما كان سائدا فى الريف المصرى إلى وقت قريب ، ويوجد منه أمثلة حتى الآن كما أثنى الشقندى فى رسالته على المبانى الأندلسية فقال « أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها ، واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى ، والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك »(١٩) .

* * *

---

(١٨) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٤ .

(١٩) عن دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢١ .

## مجـالس الموسـيقى والغنـاء

ازدهر فن الغنــاء والموسيقى فى الأندلس ، وســاعد على هــذا الازدهار عــدة عوامل نستطيع أن نجملها فيما يأتى :

١ ـ طبيعة بلاد الأندلس الجميلة التى تدعو إلى البهجــة والسرور واللهو والطرب .

٢ ـ ميل أهل الأندلس بصفة عامة للموسيقى والغنــاء ، ومما يدل على ذلك تلك النقوش المحفورة على علب العــاج الأندلسية التى عثر عليها ، وفيها مجالس طرب وموسيقى وشراب ، وقد أمسك فيهــا بعض الأشخاص بآلات موسيقية .

٣ ـ ولع كثير من الأمويين بالأندلس بالغنــاء والموسيقى ، وإجزالهم العطاء لأهلهما . كما يتجلى من خــلال الروايات التاريخية ، ومن خــلال بعض النقوش المحفورة على بعض التحف التى عثر عليها ، ومنها علب العاج الأندلسية(١) .

٤ ـ قــدوم كثير من مشــاهير المغنين والمغنيــات من المشرق إلى

---

(١) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ١٤٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦ ـ ٨٧ . ويروى أن المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان شاعرا مغلقا عالمــا بالغناء ( الحلة السيراء جـ ١ ص ١٢٨ ) ، وكذلك اثنــان من إخوته أيضا ( د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ ) . كمــا يروى أن أبا الأصــبغ عبد العــزيز ابن عبد الرحمن النــاصر كان مغرما بالغنــاء ، محبــا للشراب ، ولمــا انقطع عن الشرب سر أخوه المستنصر بذلك ، وتمنى أن يترك الغناء أيضا ، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال : والله لا تركته حتى تتــرك

الأندلس — وخاصة من الحجـاز والعراق اللذين انتشر بهما الغنـاء — وعلى رأسـهم زرياب .

٥ — اختراع الموشحات والأزجال فى الأندلس ، واستجابة الكثير من الأندلسـيين لها ، لأنهم رأوها أقرب إلى التعبير عما فى أنفسهم ، وأسهل فى التلحـين والغنـاء ، وأنسـب للمغنيـين المتجـولين الذين يتكسبون بغنـائهم (٢) .

---

==

الطيور تغريدها . ( دائرة معارف الشعب ص ١٠٠ هامش ١ ) .

ومما يدل على أن الغناء والموسيقى قـد أصبحا جزءا من كيـان معظم أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم ما ذكره أبو بكر الطرطوشى ( ٥٠٢هـ ) من أنهم فى أوسـاطهم الشـعبية كانوا يقرأون القرآن بالألحان والرقص بالأرجـل ، والتصفيق بالأيدى ، وهى عـادات اخترعوها على حـد قوله .

يقول : « وجعلوا لكل لحن من الحانهم فى القرآن اسما مخترعا ، فقالوا : اللحن الصقلبى ، فإذا قرأوا قوله تعالى ( **وإذا قيل إن وعد الله حـق** ) يرقصون فى هـذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلهم وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على نغمات متوازنة ، ومن ذلك الرهب ( الرهبـان ) أن نظـروا إلى كل موضع فيـه ذكر المسيح تمثلوا أصواتهم فيـه بأصـوات النصـارى والرهبـان والأسـاقفة فى الكنائس » . (الحوادث والبدع ص ٧٧ — ٧٨ تحقيق محمد الطالبى) .

ولا نعتقد أن ذلك قـد حدث إلا فى عصر ملوك الطـوائف الذى وصل فيه الترف واللهو والتمزق إلى درجة كبيرة ، فانصرف الكثيرون إلى الدنيا ، ويمكن أن يكون فى قول الطرطوشى بعض المبالغة حيث نظر إلى تمـايل البعض وإظهار إعجابه بالقراءة هـذه النظـرة ، كما هو حادث فى بعض سرادقات العـزاء حتى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٤ — ٤١٥ .

٦ — قيام بعض الأندلسيين بتأليف الرسائل والكتب فى الموسيقى والغناء ، ومنهم عباس بن فرناس ( ت ٢٧٤هـ ) الذى كان إلى جانب محاولاته فى الاختراع والابتكار(٣) « قد حذق الموسيقى ، وعانى ضرب العود وصوغ الألحان ، وهو أول من فك بالأندلس كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى »(٤)، وكذلك يحيى الخدج المرسى الذى ينسب إليه كتاب ( الأغانى الأندلسية ) على غرار كتاب الأغانى للأصفهانى(٥) .

ويذكر التيفاشى ( ت ٦٥١هـ ) : أن أهل الأندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقة النصارى — يعنى ألوان الغناء الشعبى التى كانت منتشرة فى أسبانيا قبل الفتح — أو بطريقة حداة العرب ( غن الحداء )

---

(٣) من هذه المحاولات محاولته الطيران التى تعتبر أول محاولة إسلامية للطيران فى الهواء ويذكر أن رجلا يونانيا يدعى إيكاروس سبقه فى هذه المحاولة . فقد صنع لنفسه كساء من الريش له جناحان وضع فيهما ذراعيه ، وقفز من أعلى تل قرب بلنسية يسمى ( مونت اجودو ) فطار بضعة أمتار ، ثم سقط نظرا لأنه لم يجعل لهذا الكساء ذيلا لحفظ توازنه .

ومن هذه المحاولات كذلك التى كانت بالنجاح صنعه آلة عرفت ( بالميقاتة ) لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، واختراعه طريقة لصناعة الزجاج من طحين الأحجار .

( انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ) .

(٤) ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ تحقيق د. محمود مكى ، المقرى : نفح الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

الذى كان من الطبيعى أن ينتقل مع العرب الفاتحين . كما انتقل الغناء الحجازى والعراقى أيضا مع القادمين إلى الأندلس من المشرق من مغنين ومغنيات .

ويقول « ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت الدولة الأموية ، وكانت مدة الحكم الربضى ، فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية من يحسن غناء التلاحين المدنية فأخذ الناس عنهم ، إلى أن وفد الإمام المقدم فى هذا الشأن على بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحاق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فجاء بما لم تعهده الأسماع واتخذت طريقته مسلكا ونسى غيرها »(٦) .

ويذكر أنه كان بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل قينة تسمى العجفاء(٧) ، كانت جارية لمسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فاشتراها من الأمير وضمها إليه(٨) . وهذا يدل على ميل الكثير من الأمويين للغناء منذ بداية عهدهم فى الأندلس بالرغم مما صادفهم من صعوبات فى سبيل تأسيس دولتهم ، وتوطيد أركانها ، والقضاء على المخالفين .

ويبدو أن ( علون وزرقون ) كانا أول مغنيين دخلا الأندلس من المشرق ، وكان ذلك فى عصر الحكم الربضى ( ١٨٠ — ٢٠٦هـ ) الذى

---

(٦) مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ٢٠ ( حضارة الأندلس ) .

(٧) لم تذكر لنا المصادر اسمها ، ويبدو أنها اشتهرت بذلك اللقب لأنها كانت نحيلة ، وكانت تسكن مع مولاها فى بيت صغير متواضع مساحته اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وليس به الكثير من الفرش والأثاث سوى نمرقتين ومقعدين مفككين من قدمهما كما يذكر المقرى عن رواية الأرقمى ( نفح الطيب جـ ٤ ص ١٣٨ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦ ) .

(٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ص ١١٩ .

وصـــفه الكثيرون بالميـــل إلى الترف واللهو وخاصة فى مرحـــلة شـــبابه برغم قضـــائه على الكثير من الثورات التى قامت ضـــده واشهرها ثورة الربض . كما اشتهر بالغنـــاء فى عصره رجل يسمى ( منصور اليهودى ) .

ولكن غناء هؤلاء ذهب لغلبة غنـــاء زرياب عليهم بعـــد قدومه إلى الاندلس(٩) .

ويعتبر الكثيرون عصر عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦هـ — ٢٣٨هـ ) عصر ازدهار لفن الغناء والموسيقى بالأندلس ، حيث كان أديبـــا شاعرا بعيـــد الهمة والغـــايات كما وصف . ويعتبر اول من اتخذ رسوم الخلافة وابهتها . وكان كما ذكره المقرى « مولعـــا بالغناء مؤثرا له على جميـــع لذاته »(١٠) . ولذلك فقـــد رفـــد إلى الاندلس فى عهده بعض القيـــان المغنيات من المدينـــة ، فأفـــرد لهن دارا ملحقـــة بقصره ســـميت ( دار المدنيـــات )(١١) .

ومن اشهر هؤلاء القينات ( فضل المدينة ) التى كانت جارية لإحدى بنـــات الخليفة هارون الرشيد ، ثم ذهبت إلى المدينة لتعـــلم الغنـــاء ، فاشتريت للأمير عبد الرحمن ومعها جارية اخرى تسمى ( علم ) ، وكان يؤثرهما لظرفهما وأدبهما وحسن غنائهما ، كما كانت هناك جارية اخرى تسمى ( قلم ) ، وكانت فى الأصل من سبى البشكنس ، ثم ارسلت إلى

---

(٩) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٠ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٠) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ .

(١١) نفح الطيب جـ ٢ ص ١١٨ ، وقد ذكر د. أحمد هيكل ( فى تاريخ الأدب الاندلسى ص ٧٣ ) أن الذى فعل ذلك هو عبد الرحـــمن الداخل وهو خطأ وربما كان سهوا أو نسيانا فجعل الداخل مكان الاوســـط .

المشرق ، فتعلمت الأدب والغناء ، وروت الشعر ، وحفظت الكثير من الأخبار(١٢) .

كما كان من القيان الوافدات من المشرق أيضا غير هؤلاء جارية بغدادية ذات فصاحة وبيان ومعرفة بالألحان تسمى ( قمر ) ويصفها المقرى بأنها « جمعت أدبا وظرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها »(١٣) .

وقد كانت جارية لإبراهيم بن الحجاج اللخمى ( ت ٢٨٨هـ ) الذى ثار على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستقل بإشبيلية . ومن شعرها فى مدح إبراهيم :

**ما فى المغارب من كريم يرتجى**
**إلا حليف الجود إبراهيم**
**إنى حللت عليه منزل نعمة**
**كل المنازل ما عداه سقيم**

ومن شعرها فى الحنين إلى موطنها :

**آها على بغدادها وعراقها**
**وظبائها والسحر فى أحداقها**
**ومجالها عند الفرات بأوجه**
**تبدو أهلتها على أطواقها**
**متبخرات فى النعيم كأنما**
**خلق الهوى العذرى من أخلاقها**

---

(١٢) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٤ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٣) نفح الطيب ج ٤ ص ١٣٦ .

**نفسي الفـــداء لهـــا فأى محاسن**

**في الدهر تشرق من سنا إشراقها(١٤)**

كما كان للمنصور بن أبى عامر جارية شاعرة مغنية تسمى ( أنس القـــلوب )، شـغف بهـــا وزيره أبو المغيرة بن حزم(١٥) .

كما كان من المغنيين الذين قدموا إلى الأندلس أيضـــا مغن من مصر يدعى عبد الواحـــد بن يزيد الاسكندرانى الذى قـــدم حدثا متظرفا يشدو بشىء من الغنـــاء ، واتصل بالحاجب عيسى بن شـهيد ، فلما رأى نجابته نصحه بالإقلاع عن الغنـــاء ، والاكتفاء بأدبه وفضـــله ، ففعل واتصـــل بالأمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه وصيره واليـــا ، ثم ترقى بعد ذلك إلى مرتبة الوزارة . وقد توفى سنة ٢٣٧هـ عن نيف وثمانين سنة(١٦) . على أن أهم واشـــهر مغن دخـــــل الأندلس هـــو أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب (١٧) تلميذ إسحاق الموصلى أشهر المغنين فى بغداد فى عصر الرشـــيد .

ويذكر ان الرشـيد طلب من اسحاق ان يأتيه بمغن مجيـــد للصـــنعة فجاءه بزرياب ومعه عوده الخـــاص بدلا من عود أستاذه ، ولمـــا ســـأله عن الســـبب قـــال : « عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس

---

(١٤) نفـــح الطيـــب ج ٤ ص ١٣٧ ، د. الشـــكعة : الأدب الأندلسى ص ١٣٠ ، ١٣٢ .

(١٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ ، الأدب الأندلسى ص ٨٨ — ٨٩ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن عذارى : البيـــان المغرب ج ٢ ص ٦٤ — ٨٦ .

(١٧) أطلق عليه هـــذا اللقب تشبيها له بطائر اسود اللون حسن التغريد وذلك لسواد بشرته وحسن غنـــائه ( انظـــر : تاريخ الحضـــارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ) .

خشبه ، فهو يقـع من وزنه فى الثلث أو نحـوه ، وأوتارى من حـرير لم يغزل بماء سـاخن يكسبها اناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسـد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والجـدة اضعاف ما لغيرها من سائر الحيوانات ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها »(١٨) . ثم غنى أمام الرشيد :

**يا ايها الملك الميمون طائـره**
**هارون راح إليك الناس وابتكروا**

فطرب الرشيد ، وعاتب إسحاق على أنه لم يخبره به ، وطلب إليـه العنـاية به حتى ينظر فى شأنه ، فدب الحسد فى قلب إسحاق ، وخشى ان يحتل تلميذه مكانه ، فهدده بالقتل أو مغادرة بغـداد ، فرحل إلى المغرب حيث قضى وقتـا قصيرا فى بلاط زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب امـير القيروان ، وكتب إلى أمـير الأندلس الحـكم الربضى يسـأله الإذن فى الوصول إليه ، ويعلمه بمكانه فى الغناء ، فأذن له فى دخول الأندلس(١٩) .

وأرسل إليـه منصور المغنى اليهودى لاستقباله ، ونزل بالجـزيرة الخضراء مدة ثم جاءته الأخبـار بوفاة الحكم فهم بالعودة ، ولكن منصور ثناه عن ذلك ورغبه فى قصـد من سـيحل محـل الحـكم فى الملك ، ولمـا تولى عبد الرحمن الأوسط كتب إليـه منصور يخبره بخبر زرياب ،

(١٨) نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠١ .
وغنى أمام الرشـيد :

(١٩) يذكر ابن عبد ربه : أن سبب مغادرة زرياب المغرب أنه غنى زيادة ابيـاتا لم تعجبه فأمر بصفع قفاه وطرده . ( العقد الفريد ج ٧ ص ٣١ مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٣ ) . ولكننا نميل إلى ان سبب خروجه من المغرب دعوة الحـكم له ، وانه توقع أن ينال فى الاندلس ما لم ينـله فى بغداد وتحقق له ما كان يتوقعه .

فكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويوصلوه إلى قرطبة وأمر خصيا من أكبر خصيانه بتلقيه(٢٠) . ولما وصل أنزل فى دار فخمة ، واستقبله الأمير وبالغ فى إكرامه ، وجعل له رزقا شهريا قدره مائة دينار ، ولكل ولد من أولاده الأربعة عشرين دينارا ، كما جعل له ثلاثة آلاف دينار فى كل عام ، ألفا فى كل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة فى كل من عيدى النيروز والمهرجان ، عدا ما خصص له من القمح والشعير ، وما وهب له من الضياع والبساتين التى قدرت بأربعين ألف دينار(٢١) .

وقد أعجب عبد الرحمن بمواهبه فقربه إليه ، حتى قيل إنه جعل له بابا خاصا فى قصره يدخل منه كلما استدعاه(٢٢) . وقد أدت هذه المكانة إلى حسد البعض له فيذكر ابن سعيد : أن زرياب غنى يوما أمام عبد الرحمن وأطربه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، فاحتوشه جواريه وولده فنثرها عليهم ، فكتب أحد السعاة إلى عبد الرحمن بذلك قائلا : إنه فعل ذلك لأن ذلك المال لم يعظم فى عينيه وفرقه فى ساعة واحدة ، فوقع عبد الرحمن على هذه الرسالة :

---

(٢٠) يذكر ابن خلدون والمقرى : أن عبد الرحمن خرج لاستقباله بنفسه ( العبر ج ٤ ص ١٧٤ ) ، ( نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ ) .

(٢١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٦ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٧ — ٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٨ — ٣٩ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٥ — ١٦٦ ، ويذكر الأخيران أن راتبه الشهرى كان مائتى دينار .

(٢٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤١٦ .
خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٩٤ .

« قــد راينا انه لم يفعل ذلك إلا ليحببنا إلى اهل داره ، ويغمرهم بنعمنا وقد شكرناه ، واذنا له بالمــال المتقــدم ليمسكه لنفسه ، فإن كانت عندك مضرة اخرى فى حقه فارفعها إلينا »(٢٣) وهــذا يدل على مــدى حــب عبد الرحمن لزرياب ، وعدم استماعه إلى وشاة الراشين فيه .

وقد ابدع زرياب فى تنســيق الالحــان ، واظهر براعة فائقــة فى الموسيقى والغناء حتى ادعى ان الجن هى التى تعلمه الأصوات ، ويبــدو انه قد ورث هــذا الشعور عن أستاذه اسحاق الموصلى الذى ورثه عن ابيه ابراهيم . وكان يهب من نومه سريعا ، فيدعو جاريتيه غزلان وهيندة ، فتمسك كل واحدة بعود ، ويمسك هو بعوده ، ويطارحهما الغناء ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه(٢٤) .

وقد كانت له ابتكارات فى مجال تطوير الآلات الموسيقية وعلى راسها العود ، فقد اضــاف إليه وترا خامسا بعــد ان كانت أوتاره أربعــــة ، واتخذ مضربه من قوادم النسر بدلا من الخشب . وقد اثر عنــه أنه كان يحفظ عشرة آلاف بيت مقطوعة من الاغانى بالحانها(٢٥) . وبذلك يعتبر

---

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ص ٥١ .

(٢٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٧ .

(٢٥) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، تاريخ الإســـلام السياسى جـ ٢ ص ٤١٨ ، ليفى بروفنســال : الحضارة العربية فى اســبانيا ص ٦٩ . ويذكر ليفى بروفنسـال ان الأوتار كانت ثلاثة ، ومعظم الباحثين أن الأوتار أربعة وهى : الزير والبم والمثنى والمثلث ، وكل منها يرمز إلى طبع من طباع النفس البشرية . وكان الوتر الخامس الذى زاده زرياب ولازال إلى اليوم وسـطا بين الهادىء والحاد وسمى صول رمز له بالروح وهو أحــد درجات السلم الموسيقى المعروف اليوم ( انظر تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥ ) .

زرياب هو المؤسس الحقيقى لمدرسة الموسيقى والغناء فى الأندلس ، حيث أورث فيها صناعة الغناء كما يقول ابن خلدون(٢٦) .

وقد تخرج على يديه الكثير من التلاميذ . ويذكر أنه كانت له طريقة فريدة مع تلاميذه المبتدئين ، فكان يبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والإهزاج .

وكان إذا أراد تعليم أحدهم أمره بالقعود على الوسادة المدورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت ، وإن كان لين الصوت أمره أن يشد على بطنه عمامة لأن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم فإن كان ألصق الأضراس لا يقدر على فتح فيه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق راضه بأن يدخل فيه قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع يجعلها فى فمه عدة ليال حتى ينفرج فكاه ، وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت من تلاميذه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته ( ياحجام ) أو يقول آه ، ويمد صوته ، فإن سمع صوته صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليمه وإلا أبعده(٢٧) .

ويذكر حسين مؤنس : أن زرياب ابتكر طريقة لكتابة موسيقاه . ولكننا لا نعرف إلى الآن كيف كان يكتبها ؟ وما هى نوتها الموسيقية ؟ وأنه ابتكر أيضا الفرقة الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن الصوت تلحينا يجمع بين العزف والإنشاد الجماعى والفردى ، وأنه يعتبر أول من أنشأ فى الأندلس التخت ( المسرح الصغير ) الذى تجلس

---

(٢٦) المقدمة ص ٣٠٠ المطبعة البهية .

(٢٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ( عصر سيادة قرطبة ) ص ٣٩ .

عليه الفرقة الموسيقية ، وكان يسمى بالستارة ، وأن موسيقاه التى أدخلها أصبحت تمثل الموسيقى الراقيـة فى الأندلس ، ونسبت إليـه فعرفت ( بالموسيقى الزريابيـة ) ، وأصبح الحـداء بمثابة الغنـاء العـامى أو الشعبى(٣٨) .

وقد علم زرياب أولاده الغناء والموسيقى ، وكانوا عنـد قدومه إلى الأندلس أربعة فأصبحوا ثمانية ذكور وبنتين هما عليـة وحمدونة ، فتعلموه ومارسوا صناعته ، وكان أشهرهم به عبد الرحمن الذى صـار مثـله فى الصـنعة والحظوة(٢٩) ، كما علم جـارية له تدعى ( منفعـة ) أحسن أغانيه ، وأهداها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك ( مصابيح ) جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل(٣٠) .

وإلى جانب هؤلاء المغنين والمغنيات فقد تعلم بعض رجـال الأندلس أصول فن الغناء مثل عباس بن فرناس ، وعقيل بن نصر الشاعر الذى كانت له أغان يجرى فيها مجرى إسحاق الموصلى . وقد أصبح لزرياب طرائق خاصة فى الغناء يتناقلها الناس وقـد ألف فيهـا البعض ، مثل أسـلم ابن أحمد بن سعيد الذى ألف كتابا فى أغانيه(٣١) .

وصفوة القول : أن زرياب كان أشهر مغن فى الأندلس ووصل إلى مكانة مرموقة حسده عليها الكثيرون فى الأندلس والمشرق لدرجة أنه كان يركب فى مائة غلام(٣٢) .

---

(٢٨) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩ .
(٢٩) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦١ .
(٣٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ .
(٣١) تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ .
(٣٢) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٨ — ٦٩ .

فهذا عبد الملك بن حبيب عالم الاندلس يقول مخاطبا عبد الرحمن :

**قد طاح امرى والذى ابتغى**
**هين على الرحمن فى قدرته**
**الف من الحمر واقال بها**
**لعالم اربى على بغيته**
**زرياب قد اعطيها جملة**
**وحرفتى اشرف من حرفته (٣٣)**

وهذا علوية الأعسر المغنى البغدادى يشكو للمهدى العباسى ويقارن بين ما هو فيه وما غدا فيه زرياب (٣٤) .

وإلى جانب قرطبة فقد اشتهرت اشبيلية باللهو والغناء ايضا — وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — فيذكر ابن خلدون « أنه طما من صناعة الغناء بإشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة الإفريقية والمغرب ، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » (٣٥) .

ويقول صاحب منهاج الفكر « وباهلها يضرب المثل فى الخلاعة ، وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة » (٣٦) وكان يقال « إذا مات

---

(٣٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٧ .
(٣٤) الحضارة العربية ص ٦٩ .
(٣٥) المقدمة ص ٣٠٠ وقد اشتهر بالغناء فى إشبيلية ابو بكر الإشبيلى والسوسى وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة إلى اليوم بالمغرب وتعرف بموسيقى الأندلس ( دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٢ هامش ١ ) .
(٣٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٦ .

عالم بإشبيلية فأريد بيــع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات مغن بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية لتباع فيها »(٣٧) .

ولمــا ابتكرت الموشحات والأزجال أعجب بهــا أهل الأندلس أيمــا إعجاب ، وأخــذت تغنى مثل القصائد الشعرية ، وازدهر فن الموشحات بصفة خاصــة فى عصر ملوك الطوائف(٣٨) .

وإلى جانب المغنين كانت هناك شخصية الزامر الذى لا يستغنى عنه فى الحفلات والأعراس . ومن أشهرهم الذكورى زامر عبد الرحمن الناصر الذى كان أنيقــا يلبس القلنسوه من الوشى والثوب من الخــز ويتوسط الناس فى الحفل . ومنهم ابن مقيم وكان طيب المجلس صــاحب نوادر . ومن أصحاب الطنابير زربوط الطنبورى الذى قتــل هو وقنبوط الملهى فى موقعة قنطيش زمن فتنة البربر مع سليمان المستعين(٣٩) .

هــذا وقد امتد اثر الغناء الأندلسى إلى الممالك المسيحية فى أسبانيا ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكنانى المتطبب قال : « شهدت يوما مجلس العلجــة بنت شانجة ملك البشكنس زوج الطاغيــة شانجة بن غرســية ابن فردلند .... لبعض ترددنا عن ثغرنا إليه فى الفتنــة ( الفتــنة البربرية ) وفى المجلس عــدة قينات مسلمات من اللواتى وهبهن له سليمان ابن عبد الحــكم ( المستعين ) أيام إمارته بقرطبة فأومأت العلجــة إلى جارية منهن فأخــذت العود وغنت :

---

(٣٧) نفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ص ٢٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٣١٧، هامش ١ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٩ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٤ .

(٣٨) عن الموشحات : انظر د. محــمد عنانى : الموشحات الأندلســية سلسلة عالم المعرفة (٣١) ســنة ١٩٨٠م .

(٣٩) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٩ — ٤٠ .

خليلى ما للريح تأتى كأنما
يخالطها عند الهبوب خلوق

أم الريح جاءت من بلاط أحبتى
فأحسبها ريح الحبيب تسوق

سقى الله أرضا حلها الأغيد الذى
لتذكاره بين الضلوع حريق

أصار فؤادى فرقتين فعنده
فريق وعندى للسياق فريق

فأحسنت وجودت ، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنهن فلقسات قمر »(٤٠) .

وقد كانت هناك مجالس غناء تعقد فى قصور الأمراء والخلفاء

(٤٠) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ مجلد ١ ص ٣١٨ .
وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية باقية حتى اليوم فى اسبانيا فيما يعرف بغناء ( السجيريا ) الذى يغنيه النور وهو غناء شعبى أشبه بالموال ، وفيما يسمى بالسوليارس أيضا ، وهو نوع من الغناء الشعبى كذلك . ويذكر بعض الباحثين أنه كان من عادة المغنين والمغنيات فى الأندلس أن يبدأوا الغناء بجس اللحن فيكررون جملة منه وهو ما يفعله الأسبان اليوم حين يبدأون بالمقطع التالى : Ay, Ay, Ay, Ojriomio ومعناه : آه ، آه ، آه يا حبيبى ، ويؤكد المستشرقان الأسبانيان أنطونيو أرفالو وخوليان ريبيرا أن الغناء الأسبانى المشهور ( بالفلامنجو ) ليس إلا أثرا من آثار الغناء الأسبانى . ( انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥ ) ، كما كان لهذا الغناء أثره فى فرنسا وخاصة فى إقليم بروفانس عند شعراء التروبادور ( تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٩ ) .

والاغنياء ، وكانت القيـــان المغنيات يغنين فيما يبدو من وراء ستارة (٤١) .

ومن أمثلة هـــذه المجالس التى ورد ذكرها : مجلس غناء لســـعيد الخير ابى عثمان أخى عبد الرحمن الأوسط . فقـــد بنى دارا جديدة ، واقام احتفالا ومجلس غناء دعـــا إليـــه الكثيرين ، وحـــدث أن سقط المجلس على من كان فيـــه ، ونجـــا سعيد بفضل عمود من الأعمدة التى كان يقوم عليها ، ومعـــه جاريته ( منتهى المنى ) أم ولده مروان ، وماتت أربع عشرة جـــارية من جواريه ، فارتجت قرطبة بالخبر ، ووصل إلى عبـــد الرحمن فسر بنجاته وعوضـــه عما أصـــابه ، وأعطاه بكل جارية ماتت جاريتين ، واعطاه مالا كثيرا ليعيد بناء ما تهدم من مجلسه(٤٢) . ومجلس غنـــاء للمنصور بن أبى عـــامر فى منيته السرور بمدينة الزاهرة ، كانت تغنى فيه جاريته أنس القلوب وكان معـــه الوزير الكاتب ابو المغير بن حـــزم فغنت شـــعرا منـــه :

**يا لقومى تعجبوا من غـــزال ... جائر فى محبتى وهو جـــارى**

**ليت لو كان لى إليه سبيل ... فاقضى من الهوى أوطـــارى**

قال أبو المغـــيرة : فلما أكملت الغناء أحسست بالمعنى فقلت :

**كيف كيف الوصـــــول للأقمـــــار**

**بين سمر القنـــا وبين الشـــفار**

---

(٤١) انظر : ابن حيان : المقتبس ص ٣٤٥ تحقيـــق د. مكى ، جـــذوة المقتبس ص ٧١ ، ويبدو ان لفـــظ الستارة كان يطلق فى البـــداية على المكان الذى تستتر فيـــه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء والوجهاء ، ثم استخدم بعـــد ذلك للدلالة على هؤلاء القيـــــان انفسهم حيث كن يغنين من وراء ستارة ، ثم استخدم للدلالة على المكان الذى تقـــام فيـــه مجالس الغناء .

(٤٢) المقتبس ص ٢٢٥ تحقيق د. مكى ، بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٣ .

**لو علمنا بأن حبك حـــق**
**لطلبنـا الحيـاة منك بثـار**
**وإذا مـا الكرام همـوا بشىء**
**خاطروا بالنفـوس فى الأخطـار**

وعنـد ذلك أحس المنصور بأن فى الأمر شـيئا فأغلظ فى القـول للجارية وقال لهـا أن تشيرين بهذا ؟ فبكت وانشدت :

**اذنبت ذنبا عظيما فكيف منـه اعتـذارى**
**والله قـدر هـذا ولم يكن باختيـارى**
**والعفو احسن شىء يكون عنـد اقتـدار**

فوهب الجـارية لأبى المغـيرة ، فانصرف بهـا فى الصـباح إلى منـزله(٤٣) .

وقد كان البعض يتبسط فى مجالسه إلى درجة كبيرة ، فيظهر الممازحة والهجاء ، ويسقط مئونة التحفظ(٤٤) . فقد ذكر ابن عذارى : أن الناصر طلب من وزيره أبى القاسم لب أن يهجو الوزير عبد المـلك بن جهـور ، فامتنع خشية من لســانه ، فطلب من ابن جهور أن يهجـو أبا القاسم ، فامتنع أيضـا ، فقال الناصر أنا اهجوه :

**لـب أبو القاسم ذو لحيـة طويلة فى طولها ميل**
**وعرضـها ميـلان إن كسرت**
**والعقـل مافـون ومخبـول**
**لـو انه احتـاج إلى غسـلها**
**لم يكفـه فى غسـلها النيـل**

---

(٤٣) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٤٤) انظر الحميدى : جـذوة المقتبس ترجمة ٥٦٠ ص ٢٦٤ .

وضحك الناصر ثم قال للب إنه هجاك فاهجه فقال :

**قال أمـين الله فى خلقـــه**
**لى لحيـــة أزرى بهـا الطول**
**وابن عبير قـال قـول الذى**
**مأكوله القرضيل والفـول**
**لولا حيـائى من إمـام الهدى**
**نخست بالمنخس شـــوقول**

وكان عندما بلغ إلى قوله ( شـو ) قد سكت ، فقال له الناصر ( قـول ) فأتم له البيت على نحو ما كان أضمر ، وقال : أنت هجـوته يا مولاى . فضحك الناصر وأمر له بصـلة(٤٥) . كما كان البعض يظهر غضبه ايضـا . فقد ذكر ابن عذارى أيضـا أن محـمد بن سعيد المكنى بابن السليم — وكان قـد تولى عدة ولايات للناصر واحتجن مالا كثيرا — حضر بعض مجالس الناصر الخاصة وشرب فأخـذ منـه الشراب ، فشق الناصر تفاحة بسكين وقال معرضا به « وددت أن اشـق هكذا رأس من اعرف له مالا كثيرا فأله دوننـا ، ولم يسهم ببيت المـال منه »(٤٦) .

وقد وصـل الأمر بالبعض إلى حـد خلع ثوب الوقار والرقص فى المجلس فقد ذكر المقرى : أن الوزير عبد الملك بن أحمد بن شهيد كان من وزراء المنصور بن أبى عامر ومن أخص ندمائه ، وكان يجتهد فى مرضاته ، ويحاول أن يدخل عليـه السرور والمرح . وحـدث أن قام وحـاول أن

---

(٤٥) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقرضيل : أو القـرط هو البرسيم ، وشوقول : لفظتان أسبانيتان باللهجة الرومانسـية الأولى تدل على ضـمير الغـائب والثانية تعنى الردف أى نخست بالمنخس ردفه اى إليتـه ( د. أحمـد هيـكل : الأدب الاندلسى ص ٢٢٧ ) .

(٤٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٢٦ .

يرقص فى مجلس له متحايلا على أصحابه ، رغم مكانته وكبر سنه ، وذلك ليبهج المنصور(٤٧) .

كما ذكر ابن عذارى أيضا أن المنصور دعا جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى إلى مجلسه ليتخلص منه بالحيلة سنة ٣٧٢هـ ، فقدم إليه ساقى المجلس كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر، فاستخفه الطرب ، وقام يرقص ، فلم يبق أحد فى المجلس إلا فعل مثله ، وشرب كثيرا حتى ثقل وانصرف مع غلمانه ، فخرج إليه البعض ، وقتله وحمل رأسه إلى المنصور فأظهر الحزن عليه(٤٨) .

**موقف الناس من الغناء بالأندلس :**

وجد الغناء والموسيقى بالأندلس قبولا يكاد يكون عاما ، ولم يتحرج من سماعه الكثيرون ، بينما تورع عنه بعض الفقهاء والعلماء(٤٩) .

وقد تناول ابن حزم الأندلسى الغناء من الناحية الفقهية فى رسالته ( الغناء الملهى وهو هو مباح أو محظور ) ، ورد الأحاديث التى تقول بحظره(٥٠) .

إلا أنه وجد من بين علماء وفقهاء الأندلس من انكر مذهب ابن حزم ، ورد عليه . وعندما أراد ابن حيان أن ينتقد أحد الفقهاء الذين يبيحون الغناء قال فيه « إنه رجل مرخص للسماع ، صب بإنشاد الأغانى

---

(٤٧) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٠ .

(٤٨) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٤٩) عن موضوع الغناء وموقف العلماء منه انظر : ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٢٢٣ — ٢٥٠ ، الشيخ محمد الغزالى : السنة بين الفقه والتشريع ، مائة سؤال عن الإسلام جـ ١ ص ١٧٥ وبعدها .

(٥٠) رسائل ابن حزم ص ٩٣ وبعدها .

الفاتنة »(٥١) فجعل ذلك من معـــايبه . والحقيقـــة انه كان فى الأندلس كغيرها من المجتمعات الإسلامية دائما رايان او فلسفتان : فلسفة تقـــوم على التشديد والتحريم فى كثير من الأشياء ، وفلسفة تقوم على التوسط والاعتدال والمرونة وعـــدم التضييق ، والحكم على الاشياء من منطلق أن الأصل فيها هو الإباحة ما لم يرد نص قاطع بتحريمها .

وقد تغلبت هذه الفلسفة فى كثير من الأوقات ، وكانت وجهة نظرها فى الغناء أنه كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن ، غير مثير للغرائز ، أو مله عن الفرائض ، أو مؤد إلى الوقوع فى المحرمات فـــلا حرج فى ذلك ، أما الحرج فيأتى من الغناء الهابط المعنى واللحن ، المثير للغرائز ، الملهى عن الفرائض ، المؤدى للوقوع فى المحظور . ويرى أصحاب هـــذه الفلسفة ومنهم ابن حزم انه لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغنـــاء(٥٢) .

ومن العسير أن نثبت أن كل رجـــال الدين فى الأندلس كانوا يكرهون الغنـــاء ، أو يشددون النكير على أهـــله ، بل كان منهم من يستمع إلى الغناء الجيـــد ويعجب به ولا يجـــد حرجا فى ذلك . ومن امثلة ذلك قصة قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن أبى عيسى ، وكان عنـــد رجل من بنى حدير ـــ وكانوا من بيوتات قرطبـــة ـــ وجارية له تغنى بتلك الأبيات :

**طابت بطيـــب لثـاتك الأقـــداح**
**وزهـــت بحمرة خـــدك التفـــاح**
**وإذا الربيـــع تنسمت ارواحـــه**
**طابت بطيـــب نسيـــمك الأرواح**

---

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ١/٢ ص ١٠٠ .
(٥٢) د. محمد الخطيب : دراســـات فى تاريخ الحضـــارة الإســـلامية ص ١٧٠ ـــ ١٧١ .

**وإذا الحنادس ألبست ظلماءها**

**فضياء وجهك فى الدجى مصباح**

فكتب القاضى هذه الأبيات على يده ، وخرج للصلاة على جنازة وهى مكتوبة على باطن كفه لم يغسلها(٥٣) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب العقد — وكان محافظا — مر ببعض الأحياء ، فسمع مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل تغنى ، فأعجبه غناؤها ، فوقف تحت الروشن منصتا حتى فرغت ، ثم ذهب إلى أحد المساجد فأخذ لوحا لبعض الصبية الذين كانوا يتعلمون وكتب عليه :

**يا من يضن بصوت الطائر الغرد**

**ما كنت أحسب هذا البخل من أحد**

**لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة**

**أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد**

فلما قرأ سيدها هذه الأبيات ، خرج مسرعا ولحق به ، وأدخله بيته ورحب به(٥٤) .

ويصف لنا ابن حزم فى كتابه ( طوق الحمامة ) كثيرا من مجالس الغناء ، وما كان يغنى فيها من شعر ، ويصور لنا شدة تأثره ومن معه بما كان يسمع فيها من غناء .

ويذكر أن حفنى العامرية إحدى بنات المظفر عبد الملك ابن المنصور كلفته بصنع أبيات تلحنها ففعل ، وذكر أنها كانت تجيد

---

(٥٣) جذوة المقتبس ترجمة ١٠٧ ص ٧٥ ، بغية الملتمس ترجمة ٢١٨ ص ١١١ .

(٥٤) جذوة المقتبس ص ٩٥ .

الغناء ولهـا صنعة رائمة فى الإنشـاد(٥٥) .

ويصف لنا التجيبى ( شـارح المختار من شـعر بشار ) مدى حبـه للغناء وهو مريض بمدينة مالقـة سنة ٤٠٦هـ فيقول « وكنت إذا جننى الليل اشتد سهرى ، وخفقت حولى أوتار العيـدان ، والطنابير ، والمعـازف من كل ناحيـة »(٥٦) .

***

(٥٥) طـوق الحمامة ص ٣١ ، ١١٠ ، ١١٤ .
(٥٦) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤١ ، ٤٢ .

## الطعـــــام والشراب

لـما فتح المسلمون من عرب وبربر الأندلس ، كانوا يعتمدون غالبا على الأطعمة التى عرفوها فى بلادهم ، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التى كانت موجودة فى هـذه البلاد شيئا فشيئا ، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان ، فأخـذت أطعمتهم تتغير وتتعدد ألوانها .

وقد كان من أطعمة العرب المعروفة : الثريد ، والخريزة ، والعصيدة والربيكة ، والجشيشة ، والسخينة وغيرها(١) .

وبمضى الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والأسبان اخـذت أنواع من الأطعمة الأسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين . وبدأت ألوان من التـرف والبذخ تتسرب إلى أطعمـة الأمراء والخلفـاء والخاصة ، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم ( الجوارشنات ) أو الأدوية الهاضمة ، إلى جانب أنواع الشراب الأخرى ، كما أن البعض كان يستشير الأطباء فيما يأكل ويشرب(٢) .

ولم تمدنا المصـادر الأندلسية إلا بالقليل النـادر فى هـذا المجال .

---

(١) انظـر د . حسن ابراهيم : تاريخ الإسـلام ج ١ ص ٥٧٧ ، ج ٢ ص ٤٢٧ . الخريرة : اللحم يقطع صغيرا على المـاء فإذا نضـج ذر عليـه الدقيق ، والعصيدة : ماء ودقيق وسمن . والربيكة : من البر والتمر المعجون بالسمن ثم يسوى ، والجشيشة : دقيق مجروش خشن يوضع فى قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ويطبخ ، والسخينة : طعام من الدقيق والسمن كان العرب يكثرون من أكله فى أحـوال الشدة . ( انظر : الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ) .

(٢) انظر : د . طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

ولكننا نستطيع من خلال الأمثلة القليلة التى عثرنا عليها من اخبار الأمراء والخلفاء الأمويين أن نتبين مقدار الترف والبذخ فى طعامهم .

فقد ذكر المقرى : أن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء بلغ ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى دخالتهم من اللحم كل يوم بخلاف الطير والحوت ( السمك ) ثلاثة عشر الف رطل ، أى بمعدل نحو رطل لفرد الواحد او أقل قليلا ، وأن المرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء ١٢ ألف خبزة ( رغيف ) كل يوم ، وانه كان ينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم(٣) .

كما ذكر أيضا أن المنصور بن أبى عامر كان له كل يوم اثنا عشر الف رطل من اللحم عدا الصيد والطير والحيتان ، وهذا لطعامه ومن فى قصره بمدينة الزاهرة من الخدم والحشم والجوارى(٤) .

ومما يدل على مدى التقدم والازدهار فى هذا العصر انه كانت هناك افران عامة — كما يبدو — يجهز فيها الناس طعامهم كما فى عصرنا الحاضر. فقد ذكر ابن حيان : أن سعيد بن سليمان القاضى صلى صلاة الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خرج متوجها إلى داره ، فلما انتهى إلى باب الفرن الذى كان يطبخ فيه قال لصاحبه : أطبخت خبزتى ؟ قال : نعم ، فأخذها تحت إبطه ، وسار إلى منزله ومعه جماعة أخروا دوابهم إجلالا له حتى أوصلوه (٥) .

وعندما قدم زرياب إلى الاندلس جاء معه بالكثير من الوان الطعام البغدادى ، وأخذ عنه الأندلسيون طرق طهيه ، وابتدع الوانا أخرى

---

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٣ .
(٥) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ تحقيق د. محمود مكى .

من الأطعمة المطيبة بالتوابل والافاويه ، كما ادخل لونا اطلقوا عليه اسم ( النقـايا ) يصنع بماء الكزبرة المرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ، وابتكر نوعا من ( التقلية ) نسبت إليه فأصبحت تعرف بتقلية زرياب ، ويطبخ فيها الدجاج والأرانب فى ماء كثير الافاوية والطيب .

ولعل الحلوى التى تعرف ( بالزلابيا ) حتى عصرنا تنسب إليه أيضا بعد التحريف عن زريابيـا(٦) .

كما أنه نظم طريقة إعداد المائدة ، وتقديم الطعام عليها ، حيث بدأ بالحساء ثم اللحوم والطيور ، ثم الفاكهة والحلوى من الفطائر المصنوعة بالجوز واللوز والعسل ، والعجائن المحشوة بالبندق والفستق ، والمعقودة بالفواكه . كما أنه فضل تقديم الماء والشراب فى أكواب زجاجية شفافة على آنية الذهب والفضة والأكواب المعدنية ، وجعل غطاء المائدة من الاديم أو الجلد الرقيق لسهولة تنظيفه بدلا من الغطاء المصنوع من القطن أو الكتان .

وقد شاعت تقاليد زرياب ومبتكراته فى مجال الطعام والشراب ، وآداب المائدة وبخاصة فى اوساط الطبقة العليا وعلى رأسها الامراء والخلفاء(٧) .

**أما عن الشراب :** فقد كان هناك من يشرب الخمر ، وقد كانت زراعة الكروم منتشرة فى الأندلس قبل الفتح ، وبعده أيضا ، وكان يزرعها بدون شك كثير من الأسبان غير المسلمين لصناعة الخمور ، لدرجة

---

(٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٣ .

(٧) انظر : لين بول : قصة العرب فى اسبانيا ص ٧٩ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١١٤ ، ص ١١٥ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

ان الخليفة المستنصر عـزم على قطع أشجارها فى جميع أنحاء الأندلس ، حتى يقضى على صناعة الخمر ، وشاور فى ذلك فقيل له : إنهم يعملونها من التين وغيره من الفاكهة فتوقف عن ذلك ، ولكنه أمر بإراقة الموجود من الخمور وتشدد فى ذلك(٨) .

ويذكر ابن سـعيد المغربى أن الأمير عبد الرحمن الأوسـط استفتح دولتـه بهدم فنـدق الخمر ، ويبدو أنه فنـدق اشتهر بتقديم الخمر فسمى بهذا الاسم(٩) . ويذكر ابن عـذارى : أن الأمير عبـد الله بن محـمد ابن عبد الرحمن « كانت اللذات فى أيامه مهجورة ، ولم يشرب قـط نبيذا ولا مسكرا(١٠) . كما كان هناك أيضا من يشرب النبيذ على مذهب أهـل العراق مثل : أحمد بن ابراهيم بن عروة اللخمى ، وكان من أهـل قرطبة ، وقد وصـفه ابن الفرضى بأنه « كان مغفلا ، وكان يذهب فى شرب النبيذ الصلب مذهب أهـل العـراق » وقـد توفى سـنة ٢٩٠هـ زمن الأمير عبد الله(١١) ، ومثل : صهيب بن منيع القرطبى ( ت ٣٠٨هـ ) ، الذى تولى القضاء بقرطبة ، ويذكر الحميدى : أنه شرب مرة مع موسى بن حدير الحاجب وكان من عظماء الدولة ، فلما غفل أمر موسى باختلاس خاتمه ، وكان نقشه ( يا عالمـا كل عيب كن رءوفا بصهيب ) ، وأحضر نقاشـا فزاد عليه ( واستر العيب عليه إن فيه كل عيب ) ثم رده ، فظل يختـم به زمنا حتى فطن لذلك فغيره(١٢) .

---

(٨) ابن الابار : الحـلة السيراء ج ١ ص ٢٠٣ ، الحميدى : جـذوة المقتبس ص ١٣ ، الضبى : بغيـة الملتمس ص ١٨ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ .

(١٠) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٣ ترجمة (٥٧) . انظر ما ذكرناه عن مسألة شرب النبيذ فى الفصل الثالث .

(١٢) جـذوة المقتبس ص ٢٤٥ ترجمة ٥١٣ .

## الملابس والأزيـاء والزينـة

تميز الأندلسيون بعـدة خصائص وصفات مميزة . وصـفهم بهـا ابن سعيد المغربى : من أهمها حبهم الشديد للنظافة ، وميلهم الواضح للتأنق فى ملبسهم ، وانفرادهم بتقاليد فى الزى تختلف عن أهل الأمصار الأخرى ، وحسن تدبيرهم فى شؤون حياتهم ، وحبهم للعمل وكراهيتهم للبطـالة والتسول ، ورغبتهم الشديدة فى العـلم والتعلم ، وتدينهم ومحـافظتهم على قواعد ديانتهم والمحـافظة على إقامة حدودها ، وإنكار التهـاون فى تعطيلها وقيامهم بذلك إذا ما أحسوا تهاونا من السلطان فى إقامتها .

وحبهم الشديد للغناء وشغفهم بسماعه حتى إنهم ليفضلون الضرورى من العيش مع سماعه على العيش المترف دونه . وهـذا يدل على صـفة بارزة فيهم وهى رقـة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم ، هـذا بالإضـافة إلى ظاهرة القـلق والتناقض فى حياتهم أو التطـرف فى الأمور ، وتدبير المعاش والاحتياط فيـه حتى ينسبون إلى البخل .

يقول ابن سعيد « وهم أشـد خلق الله اعتنـاء بنظـافة ملابسـهم وفرشهم وغير ذلك ، وفيهم من لا يكون عنـده إلا قوت يومه فيصوم ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها سـاعة على حـالة تنبو العـين عنهـا »(١٣) .

وقد أشار ابن سعيد أيضـا إلى زى أهـل الأندلس فى عصره — ونعتقد أنه لا يختلف كثيرا عما كان عليـه الحـال فى العصر الأمـوى فقال : « وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما فى شرق الأندلس ، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضيا أو فقيها مشارا إليـه إلا وهو بعمامة ، وأما الأجناد والعـامة فقليل من تراه بعمامة فى الشرق

---

(١٣) انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٤ .

او الغرب ، وكثيرا ما تزيا السلاطين والأجناد بزى النصارى المجاورين ، واكثر عوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلا انه لا يضعه على رأسه منهم إلا الاشياخ والمعظمون ، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حمرا أو خضرا ، وأما الصفر فمخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وإذا رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل الثياب »(١٤) .

ومن هذا النص يتضح أن الاندلسيين وخاصة فى شرق الأندلس كانوا يتميزون بكشف رءوسهم ، وعدم لبس العمائم ونحوها كما كان يفعل المشارقة . وأما الذين يلبسون العمائم وخاصة فى غرب الأندلس فبحكم مناصبهم مثل القضاة والفقهاء ، ويتخذون عمائم مغايرة عن عمائم أهل المشرق . ولذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة بهم لا تكاد تعرف فى المشرق . وربما كان من أهم مظاهر تلك المغايرة اتخاذهم البياض بدلا من السواد فى الحداد . ومما يشير إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

**إذا كان البياض لباس حزنى**
**بأندلس فذاك من الصواب**
**ألم ترنى لبست بياض شيبى**
**لأنى قد حزنت على شبابى(١٥)**

---

(١٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .
(١٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١١١ ــ ١١٢ ، د. احمد هيكل : الادب الأندلسى ص ٤٥ ــ ٤٦ ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨ .

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية أو ( المصبغات ) محبوبة في الأندلس ، وأحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضي مناصبهم شيئا من الحشمة والوقار والاقتصاد في الزينة والملباس . فالقاضي محمد ابن بشير قاضي قرطبة في عهد الحكم الربضي — والذي اتصف بالعلم والورع — كان يعقد جلساته أحيانا في جامع قرطبة في إزار مورد ورداء معصفر وشعر مصبوغ .

حيث يذكر الخشني : أنه أتاه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زيه من الجمة المفرقة والرداء المعصفر ، والكحل والخضاب ، والحناء في يديه ، اعتقد أنه ليس القاضي ، فطلب من بعض الحاضرين أن يدلوه عليه ، فأشاروا إليه فقال لهم : إني أراكم تستهزءون بي أسألكم عن القاضي وتدلونني على زامر ، فزجروه من كل ناحية فناداه ابن بشير وقال : اذكر حاجتك فذكرها ووجد من العدل والانصاف فوق ما كان يظن(١٦) .

وكان الفقيه يحيى بن يحيى الليثي — زعيم الفقهاء في عهد الحكم ابن هشام وعبد الرحمن الأوسط — من أشد الناس تعظيما لهذا القاضي وثناء عليه في حياته وبعد مماته . وقد سأل عن لبس العمائم فقال هي لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أمرهم في التدين ، فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس في لباسها . فقال : لقد لبس ابن بشير الخز

---

(١٦) قضاة قرطبة ص ٣٢ ، البيان المغرب ج ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢٤ ويقول لسان الدين ابن الخطيب عن أهل غرناطة في زمنه ونعتقد أن فيه شيئا من العصر الأموي : « ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء ... فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة » . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠ .

فلم يتبعه الناس ، وكان اهلا لأن يقتدى به فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير(١٧) .

وكان القاضى سعيد بن سليمان الذى ولى القضاء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط يجلس للحكم فى المسجد وعليه جبة صوف بيضاء ، وفى راسه أقروف ابيض وغفارة بيضاء من نفس القماش(١٨) .

وهذا مما يدل على عدم تقيد جميع أفراد كل طائفة أو طبقة بلباس أو زى معين ، ومدى حرية كل شخص فى اختيار ما يناسبه من الملابس . بيد ان اللباس العام الذى كان يلبسه الناس هو الطيلسان الموصول به غطاء الرأس — مثل لباس المغاربة الآن — او الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضاة والفقهاء فى غرب الأندلس .

وكان الشيوخ والمعظمون يغطون رءوسهم بغطاء الطيلسان إذا لبسوه ، اما العامة فيتركونه متدليا خلف رقبتهم . كما صنع البعض القلانس من الخز وكان يغطى بها راسه كمحمد بن بشير الذى كان

---

(١٧) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٣٦ .

(١٨) قضاة قرطبة ص ٦٢ — ٦٣ ، المقتبس : ص ١٨٩ تحقيق د. محمود مكى . يبدو ان الأقروف كان غطاء للرأس على شكل مخروط واحيانا كانت كلمة الغفارة تطلق على البرنس أو نوع من الطيلسانات ( الأدب الاندلسى ص ٣٥ ) . وكانوا يطلقون على القلنسوة اسم القالص ( القالس ) وكان يلبسها الفقهاء ، وكان الفقيه المقلص عندهم هو الذي يحفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث والمدونة . ( د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسى ص ٦٥ — ٦٦ ) .

يصلى الجمعة بالناس فى جـامع قرطبة وعليه قلنسوة خز(١٩) وكانت القلانس غطاء للرأس عنـد أكثر العـامة .

وكان الكثيرون يستعملون غفـائر الصـوف الحمراء أو الخضراء ، ويضعونها تحت القلانس ، ويتدلى جـزء منها على القفـا ، وكان اليهود لا يلبسون إلا الغفائر الصفراء تمييزا لهم .

وكان كثيرون من العلماء يرخون ذؤابات عمائمهم إذا ما تعمموا ، ولم يكونوا يجعلونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها تحـت أذنهم اليسرى(٢٠) . كما عرف البرنس وخاصـة بين البربر البرانس الذين تعودوا عليـه فى بلادهم ، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها(٢١) .

ويشير المقرى إلى أن المنصور بن أبى عامر حجر على الخليفة هشام المؤيد بحيث لم يكن يراه أحـد فى الغالب حتى لا يلتف النـاس حـوله ، وكان إذا أركبه للنزهة جعل عليـه برنسا ، وعلى جواريه مثل ذلك فـلا يعرف منهن(٢٢) .

كما كان الأندلسيون يطلقون على الثوب اسم الحـلة وتتـكون من قطعتين الرداء والإزار ، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديبـاج أو من الحـرير الموشى بخيوط ذهبيـة . وكانت هناك أنواع من الملابس الفاخـرة مثل الوشى اليوسفى والوشى الهشامى يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القضـاة والعلماء . فقد ذكر ابن حيان : أن الأمير عبد الرحـمن الأوسط أراد أن يركب للنزهة مع بعض كرائمه على العـادة ، فطلب من

---

(١٩) الخشنى : قضـاة قرطبـة ص ١٨ ، ٣٠ .

(٢٠) أحمد أمين : ظهر الإسـلام ج ٣ ص ٨ ، د. الشـكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

(٢١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩ .

(٢٢) نفح الطيب ج ١ ص ٥٩١ .

الراشدة القائمة على رأسه أن تدخل إلى خزانة الكسوة لتأتى برداء يوسفى من أفخر انواع الوشى ، وترسل به إلى عريف الخياطين بالقصر ليصنعه ثوبا يلبسه فى النزهة غدا(٢٣) .

وورد ذكر الوشى الهشامى فى قول الشاعر سعيد بن مؤمن فى وصف منية قنتيش ( كنتيش ) التى بناها عبد الرحمن الأوسط وما فيها من مبان فاخرة :

**ولابسة وشيا كأن رقيقه رقيق الهشامى العتيق المنضد(٢٤)**

وقد كان لتقدم صناعة النسيج فى الاندلس أثر كبير فى اهتمام أهلها بالزى واللباس ، حيث كانت هناك عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات المتنوعة ، وخاصة مدينة المرية التى كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات الفاخرة من الديباج والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والعتابى وغير ذلك .

وكانت هذه المنسوجات — برغم أن بعضها يحمل مسميات مشرقية — تصنع فى الأندلس وتصدر للمشرق وأوربا التى شغف كثير من أمرائها وملوكها بها حتى أن بعضهم طلب أن يكفن فى ثياب أندلسية من صنع هذه المدينة مثل الأمير دون فيليب وزوجته ، ودون رودريجو خيمنث دى دارا(٢٥) .

وقد كان الأندلسيون يتخذون الخفاف ، ويلبسون الجباب والثياب القطنية والسراويل ، وكانوا يطلقون كلمة الغفارة على البرنس ، أو نوع

---

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٦١ — ١٦٢ تحقيق د. مكى .

(٢٤) المقتبس : ص ٣٢٦ — ٣٤٩ ، تحقيق د. مكى .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

من الطيلسانات ذات الغطاء . وكلمة الارجوان على الصوف الأحمر فقط رغم شمولها للأحمر من الصوف وغيره . وكلمة الخمار على ما تغطى بـه المرأة رأسها من شقاق الحرير فقط رغم شموله لكل ما تغطى به المرأة رأسها من ثياب . كما كانوا يطلقون كلمة الجفافة على ما يجففون به المساء أو غيره من قطع القماش ، وكلمة البيطير على قطعة القماش التى توضع حول عنق الطفل لتصون ثيابه من اللعاب والطعام(٢٦) .

وكان من زينتهم الخضاب بالحناء والكتم والكحل والتطيب بالعنبر والغالية وغيرها .

أما عن ملابس النساء فكان طابعها الاناقة والنفاسة والترف وخاصة نساء الطبقة الراقية ، حيث كن يتفنن فى لبس المصبغات والمذهبات والديباجيات من الثياب ، ويبالغن فى زينتهن من التحلى بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة فى ذلك الوقت(٢٧) .

يقول لسان الدين ابن الخطيب فى وصف أهل غرناطة — وهو وصف يمكن أن نعممه على أهل الأندلس إلى حد ما حيث لا تتغير العادات والتقاليد بين يوم وليلة — « صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم مرسلة ، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر ، وألوانهم زهر مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة يتخللها إعراب كثير وتغلب عليهم الإمالة ،

---

(٢٦) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٦ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٥ .

(٢٧) انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ حيث يذكر من انواع الطيب العنبر الجيد المقدم على أجناسه فى الطيب ، ومن انواع البخور عود الانجوج الذى يضارع العود الهندى ذكاء وعطر رائحة . ويذكر الزعفران أيضا ، وانظر البيان المغرب جـ ٢ ص ٨١ ، ٩٢ ، ص ١١٣ ، ١٢٠ ، والحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم الملف المصبوغ شتاء ، فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة ، وزى جندهم في القديم زى أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم الإفرنج . وحريمهم حريم جميل موصوف بالحسن ونعومة الجسم ، واسترسال الشعر ، ونقاء الثغر ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، يندر فيهن الطول ، ويبالغن في التفنن في الزينة والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن في أشكال الحلى إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر »(٢٨) .

هذا وقد كان لقدوم زرياب أثر كبير في تطور الزى في الأندلس حيث أدخل كثيرا من التقاليد في هذه الناحية ، ومنها أنه جعل لكل فصل من فصول السنة ملابس مناسبة ، وجعل هناك مواعيد للبسها فملابس الربيع خفيفة ملونة من الخز والدراريع التى لا بطانة لها ، وملابس الخريف قريبة منها إلا أنها مبطنة ، أما ملابس الصيف فجعلها خفيفة بيضاء ، وملابس الشتاء ثقيلة داكنة ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ، وقد عدل في هيئات الثياب وتفصيلها فقصرها ، وضيق أكمامها بعد أن كانت واسعة ، وأعطاها هيئة جميلة(٢٩) .

كما ابتكر زرياب أنماطا جديدة لترتيب الشعر وتصفيفه فقد كان

---

(٢٨) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٥ القاهرة سنة ١٣١٩هـ .
أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣ — ٤ ومن المعروف أن سكان غرناطة كانوا خليطا من سكان الأندلس الذين التجأوا إليها بعد سقوط الأندلس شيئا فشيئا ومن هنا يمكن التعميم .

(٢٩) انظر د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٥ — ٨٦ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

اهل الأندلس رجـالا ونسـاء يرسلون الجمة مفروقة من وسط الجبـين فينسدل شعرهم عاما على الصدغين والحاجبين ، فلما رأوا زرياب وأولاده ونساءه مقصرين شعورهم دون جباههم ، وقد سووها مع حواجبهم ، وأداروها (٣٠) وراء آذانهم ، وأسدلوها على أصداغهم هوت نفوسهم إلى ذلك واستحسنوه فأخذوا فى تقصير شعورهم من الجانبين وإرسالها وراء آذانهم ، كما ابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه ومنها ( تصفيفة الجبهة ) وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب كما يفعـل بعض النساء اليوم .

كما ابتكر أنواعا من العطـور فابتعد عن العطـور الثقيلة كالعنبر والدهن ومال إلى الى العطور المستخرجة من الزهور (٣١) .

وهكذا تحكم زرياب فى كثير من العـادات الاجتماعية فى الأندلس من ناحية الملبس والأزياء والزينة ، كما تحـكم فى كثير من العـادات فى الطعام والشراب ، وآداب المجالس ، والموسيقى والغناء .

يقول لين بول « وتحكم زرياب فى الأزياء والعادات كما كان يتحـكم بترونيس وبروميل الموسيم » (٣٢) .

---

(٣٠) محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا ج ١ ص ١٦٦ .

(٣١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

(٣٢) العرب فى اسبانيا ص ٧٩ ، بروفنسال : الحضارة العربيـة فى اسبانيا ص ٧٠ ـ ٧٢ ، وبترونيس أو بترون كان قصاصا يونانيا اشتهر بكتاباته الساخرة وأعجب به نيرون وضـمه إلى حاشيته . وبروميل انجليزى ولـد فى لنـدن سـنة ١٧٧٨م وكان مشهورا بالأناقة ابتكر كثيرا من الأزياء حتى لقـب بمـالك الأناقة فى عصره وتوفى سـنة ١٨٠٤م ( انظر تاريخ الإسـلام ج ٢ ص ٤١٩ ، الحضارة العربية فى اسبانيا ص ٧٠ هامش ) .

ويقول المستشرق الإسبانى بالنسيا : « لم يستهو زرياب افئـــدة أهل قرطبة بصوته وجمـــال أغانيـــه فحسب ، بل بآدابه الاجتماعية وملابسه وطريقته فى إرسال شعره ، وولائمه البديعة التى كان يتفنن فى ترتيبهـــا فاخذ الناس عنـــه كل ذلك ، وأصبح ذوقه مقياسا لأهل قرطبة ، وأصبحت ملابسه النموذج الذى يحتذيه القرطبيون فى إعداد ملابسهم »(٣٣) .

ونســـتطيع أن نقول : إنه لم يستهو أفئدة أهـــل قرطبة فقـــط بل الأندلسيين بصفة عامة ، وأن ذوقه لم يكن مقياسا لأهل قرطبة فقـــط بل للأندلسيين على وجه العموم .

* * *

(٣٣) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

## الأعيـاد والمواسـم والحفـلات

لم تمدنا المصـادر بالكثير من الأخبار فى هـذا الصدد ، وإن كنـا نستطيع من خـلال الإشارات والروايات القليلة التى وردت أن نقـول : انه كانت هناك اعياد دينية إسلامية شـارك الأندلسيون إخوانهم المسلمين فى بقيـة العـالم الإسلامى الاحتفـال بها وعلى رأسها عيدى الفطـر والأضـحى .

وقـد كان الأمراء والخلفـاء يخرجـون فيهـا لحضور الصـلاة فى موكب حافل إلى المصلى(١) ، ثم يعودون إلى قصورهم حيث يتوافد عليهم كبار رجـال الدولة للتهنئة ، وما يتبع ذلك من ولائم تقـدم لهم ، وأعطيات وهبات تمنح لهم .

ويبدو انهم اخـذوا يحتفلون ايضـا بالمولد النبوى بعـد أن عرف الاحتفال به فى المشرق وخاصة فى مصر زمن الفاطميين(٢) ، ولعل ذلك

---

(١) كان من أشهر المصليات فى قرطبة مصلى المصارة ومصلى الربض . وكان مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، ولفظ ( مصـارة ) انتقل إلى المغرب من الاندلس ، ويعنى الفضـاء الفسيح الواقع خارج المدينة ، ويعد من متنزهاتها ، ولم تكن المدن الاندلسية تخلو من مصارة يخرج إليها الناس للنزهة فى أيام الأعياد ، **وما زالت هناك مواضع فى أسبانيا تحمل نفس الإسم** AL Muzara وكذلك فى المدن المغربية ايضا .

امـا مصـلى الربـض : فـكان يقـع عـلى الضـفة اليسرى من النهر جنوب قرطبـة ، على مقربة من مصلى الربض ، وكان مصلى المصارة اقرب من الربض ، ولذلك كان الأمويين يصلون به غالبـا صلوات الاعياد والاستسقاء ( انظر المقتبس ص ٢٩٣ — ٢٨٤ ) تحقيق د. محمـود مكى .

(٢) السندوبى : تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ص ٦٢ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سـنة ١٩٤٨م .

يرجع إلى تعظيمهم للنبى ﷺ بالاحتفال بمولده ودراسة سيرته الشريفة ، وإلى الشعور الدينى القوى لديهم الذى أدى بهم إلى التحدى لإثبات وجودهم فى هذه البلاد البعيدة التى تقع فى أوربا المسيحية ، وهذا يفسر لنا تلك الظاهرة الواضحة التى تميزت بها الأندلس كدولة إسلامية فى أوربا ، وهى ما يطلق عليه البعض ظاهرة ( المشاركة والتحدى ) .

وقد حرص الأندلسيون والمغاربة على الاحتفال به فى العصور المتأخرة احتفالا كبيرا لإيقاظ الشعور الدينى وخاصة بعد تساقط القواعد الإسلامية فى الأندلس واحدة إثر الأخرى وذلك على المستويين الرسمى والشعبى بمواكب الشموع التى لازالت موجودة حتى اليوم ببعض مدن المغرب وخاصة مدينة سلا(٣) .

كما يظهر أنهم كانوا يحتفلون كذلك بيوم عاشوراء بالصيام والتوسعة على أنفسهم وأولادهم فى هذا اليوم . فقد ذكر ابن حيان وابن عذارى والمقرى : أن الفقيه عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط فى يوم عاشوراء :

**لا تنس لا ينسك الرحمن عاشوراء**
**واذكره لا زلت فى الأحياء مذكورا**
**قال الرسول صلاة الله تشمله**
**قولا وجدنا عليه الحق والنورا**
**فارغب فديتك فيما فيه رغبنا**
**خير الورى كلهم حيا ومقبورا(٤)**

---

(٣) د. أحمد المرادى : المسلمون فى أرض الأندلس : مجلة المختار من عالم الفكر عدد (١) ص ١٤١ . الكويت سنة ١٩٨٤م .

(٤) المقتبس ص ١٨٤ — ١٨٥ ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢١١ . وقد ذكر المقرى البيت الثالث بصيغة مختلفة ، وارجع ذلك إلى أنه قد نسى لفظه لطول العهد به فكتبه بالوزن والمعنى هكذا :

**فيمن يوسع فى إنفاق موسمه ... أن لا يزال بذاك العام ميسورا**

ومن هـذا نستشف أن الخلفاء والأمراء كانت لهم عطايا وهبات فى هـذا اليوم يوزعونها على بعض الناس .

وإلى جانب الأعياد الإسلامية فقد كانت هناك أعياد مسيحية شارك الاندلسيون الاسبان فى الاحتفال بهـا مثل عيـد الميلاد ، وعيـد العنصرة وخميس العهد أو خميس إبريل الذى يسبق عيـد الفصح بثلاثة أيام(٥) .

وقد أشار الطرطوشى إلى أن الاندلسيين كانوا فى هـذه الأعيـاد يبتاعون الفـواكه والحلوى من المجبنات والأسفنج كالعجم تمـاما واعتبر هـذا من البـدع(٦) .

وكانت مشاركة المسلمين لأهل الذمة فى هـذه الاحتفالات على أساس من نظرة الاحترام والتسامح الدينى ، والحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون هناك جنبـا إلى جنب فى المجتمع الأندلسى سنين طويلة .

وهناك أعياد قومية أو شعبية ، مثل عيـد العصير AL acir الذى كان يحتفل به عنـد جنى محصول العنب ، وكان محصولا رئيسيا ، فكانوا يقيمون فى الحقول فى جـو يسوده المرح والغناء والرقص ، وهى عـادة لازالت موجودة فى إسبانيا إلى اليوم(٧) .

وقد كان هناك من النساء من يشـارك الرجال فى الاحتفال بهـذه الأعياد ، حيث يشير كثير من المؤرخين إلى خروج المرأة للفرجة فى أيـام الأعياد ، وكن يذهبن إلى سـاحة المصلى ، حيث يقمن الخيام للتفـرج لا للصلاة كما يقول الطرطوشى(٨) : وقد ازدادت هـذه الظاهرة وضوحا فى أواخر العصر الإسلامى بالأندلس .

---

(٥) مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

(٦) الحوادث والبدع ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٧) المختار من عالم الفكر ص ١٤١ .

(٨) الحوادث والبدع ص ١٤١ .

فيقول لسان الدين بن الخطيب فى وصف استقبال سلطان غرناطة ابى الحجاج يوسف : « واختلط النساء بالرجـــال ، والتقى أرباب الحجـــا بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود وحمر الخـــدود » .

ويقول فى وصف نساء مدينة رندة « يلبس نساؤها الموق ( الخف ) ، على الأملـــد المرموق ، ويســـفرن عن الخـــد المعشوق ، وينعشن قلـــب المشوق ، بالطيب المنشوق »(٩) .

ويتضح من خـــلال هـــذه النصوص وامثالها ان تحـــــرر المرأة فى الاندلس وخاصة فى العصـــور المتـــأخرة ، كان أكثر من بقيـــة العـــالم الإسلامى ، وذلك بحكم تأثير الجوار مع المسيحيين بعـــد سقوط قواعـــد المسلمين فى أيديهم . وبحكم إرغام الأسبان لهم على التنصر ، وممارســـة العادات والتقاليد المسيحية ، فتنصر منهم من تنصر .

وبالإضـــافة إلى ذلك فقـــد احتفـــل فى الأندلس بعيـــدى النيروز والمهرجـــان(١٠) .

---

(٩) د. احمد العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والاندلس ص ٩٦ ، ١٠٠ .

(١٠) النيروز : من أعياد الفرس القـــديمة ، وهو بداية السنة عنـــدهم فى فصل الربيـــع ، ويذكر البيرونى أن أول من احتفل به المـــلك جمشيد الفارسى ، حيث يقال : إنه لمـــا فقـــد خاتمه ذهب عنـــه ملكه ، ثم لمـــا رد إليه بعـــد أربعين يوما عـــاد إليه المـــلك ، فقال الفرس مهنئين (نوروز آمذ) أى اليوم الجديد ، فسمى بذلك ( الآثار =

الباقية عن القرون الخالية ص ٢١٧ ) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذين العيدين بعد فتح بلاد فارس ، ثم عاد الاحتفال بهما شيئا فشيئا ، حتى أصبحا من الأعياد الرسمية فى العصر العباسى .

وفى صدر الإسلام لم يكن للأعياد الفارسية شأن عند المسلمين . فيروى أن بعض الدهاقين من الفرس احتفلوا فى خلافة على رضى الله عنه بهذا العيد ، وبعثوا إليه بهدية من الحلوى على عادتهم ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إنه يوم نوروز قال : نوروزنا كل يوم . ( تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٣٦ ) .

أما عيد المهرجان : فقد كان الفرس يحتفلون به فى آخر العام ويسمونه ( روز مهر ) أى محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم ، وكانوا يتخذونه دليلا على نهاية العام فى فصل الشتاء ، كما يتخذون النيروز دليلا على بدايته فى فصل الربيع .

وقد نسبوا إلى سلمان الفارسى أنه قال : كنا على عهد الفرس نقول : إن الله أخرج لعباده زينة من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر . وهم بذلك يحاولون أن يجعلوا له أصلا ، وهو قول يظهر فيه الوضع جليا .

وقد زعموا أن تعظيمهم لهذا اليوم يرجع إلى انتصار ملكهم أفريدون على أزدهاك ( الضحاك ) بفضل نزول الملائكة لمساعدته ، وكانوا يتهادون فيه مثل النيروز ويقدم فيه الملوك إلى الجند كسوة الخريف والشتاء . ( انظر : الآثار الباقية ص ٢٢٢ — ٢٢٤ ، التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٥ ، د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦ ) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره المقرى : من ان عبد الرحمن الاوسط لما قدم زرياب إلى الاندلس بالغ فى إكرامه ، وقرر له راتبا شهريا الفا لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز انف لكل من عيدى الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدى النيروز والمهرجان ، عدا الشعير والقمح والضياع والبساتين التى وهبها له وقدرت باربعين الف دينار(١١) .

ويصف عبد الرحمن بن عثمان الاصم وهو من شعراء عصر الناصر يوم المهرجان بقوله :

**ارى المهرجان قد استبشرا**
**غداة بكى المزن واستعبرا**
**وسربلت الأرض افوافها**
**وجللت السندس الاخضرا**
**وهز الرياح صنابيرها**
**فضوعت المسك والعنبرا**
**تهادى به الناس الطافهم**
**وسامى المقل به المكثرا(١٢)**

وهذا يدل على أن الناس كانوا يتهادون فيه ، ويتنافسون فى ذلك . ومن قول ابى جعفر احمد بن عبد الملك بن سعيد فى وصف يوم المهرجان :

---

(١١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤١٧ .

(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٧٦ .

**يا حسن يوم المهرجـان وطيبه**
**يوم كما تهـوى اغـر محجـل**
**سرح لحاظك حيث شئت فإنه**
**فى كل موقع لحظة فتامل(١٣)**

وإلى جانب الأعياد فقـد كان هنـاك فى الأندلس ما يمكن أن نطلق عليـه اسم اجازة رسمية ، فقـد كان يوم الأحـد من كل أسبوع بمثابة عطـلة للموظفين . فقد ذكر ابن حيـان ( ٤٦٩هـ ) فى ترجمته لقومس ابن أنتنيان كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان نصرانيا فأسـلم فى آخـر حياته « أنه كان أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخـدمة تعطيل الخـدمة فى يوم واحـد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره ، وكان أول من دعـا لى ذلك لتنسكه فيـه ، فتبعه جميع الكتاب طلبـا للراحة والنظر فى أمورهم ، فانتخبوا ذلك ومضوا إلى اليوم عليه »(١٤) .

ويشير ابن سماك العاملى الذى عاش فى النصف الثانى من القـرن الثامن الهجرى إلى ذلك فى كتابه ( الزهرات المنثورة فى نكت الأخبـار المـأثورة ) حيث يقول عن المنصور بن أبى عامر « أصبح المنصور صبيحة أحـد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين اعفوا فيـه من الخدمة فى مطر وابـل »(١٥) .

ويبدو أن هـذا اليـوم كان عـادة مسيحية انتقلت بعـد ذلك إلى

---

(١٣) المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(١٤) المقتبس ص ١٣٨ وحاشية رقم ٢٦٨ تحقيق د. محمود مكى بيروت سـنة ١٩٧٣م .
(١٥) انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٤١٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

الأندلسيين كما نراه اليــوم حيث يتخذ الكثيرون وخاصة فى مصر من يوم الأحــد يوم عطلة لهم .

وهــذا يدل على أن التقليد الذى سنة ( قومس بن أنتنيان ) فى اتخــاذ يوم الأحــد عطلة رسمية للكتاب وأهل الخــدمة قــد ظل معمولا به في عصر المنصور وحتى أيام ابن حيان الذى توفى سنة ٤٦٩هـ ، ويبدو أنه ظل معمولا به بعــد ذلك .

ولقــد جــرت عادة الأندلسيين على الاحتفــال بأعيادهم ومواسمهم وحفلاتهم بوسائل شتى مثل الغناء والموسيقى والرقص ، وألعاب الفروسية وسباق الخيل ، فضــلا عن الاحتفالات الدينية التى تقام فى المســاجد والأربطة والزوايا ، وكذلك القصور والبيوت حيث يتــلى القرآن الكريم ، وتلقى القصائد الشعرية المناســبة ، إلى جــانب الأناشــيد والموشحات الدينية ، وحلقــات الذكر التى قــد يصاحبها العــزف على بعض الآلات مثل الشبابة اليراعة ، والضرب على الدفــوف ، وتوزع فيها الأطعمة . وهــذه الاحتفالات فى مجموعها تتشابه فى مظهرها العام مع الاحتفالات فى المشرق إلا أنهــا تختلف فى بعــض التفاصــيل التى تتفــق مــع البيئــة المحليــة(١٦) .

* * *

(١٦) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ — ١٤٣ .

## الحفــلات

وإلى جانب الاحتفال بالأعياد والمواسم فقد وجـدت هناك الحفــلات المتنوعة مثل حفــلات الزواج والميــلاد والختــان وغيرها . ولم تمــدنا المصــادر إلا باشارات بسيطة لا نستطيع من خــلالها أن نجـلى هــذا الموضوع أو نوفيه حقه . وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة لا تشبع نهمــا .

ففى حفلات الزواج مثــلا : لم تشر المصــادر التى رجعنــا إليها — بالرغم من كثرتها — إلا إلى زواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى صــاحب مدينة سالم فى عهد المستنصر حيث يقول المقرى « وكان أعظم عرس بالأندلس »(١) . ومن هــذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبذخ الذى كان فى هــذا العرس بالرغم من عــدم ورود تفاصيل عنه .

وفى حفلات الختان ، عثرنا على إشــارتين بسيطتين . حيث ذكر ابن عذارى أنه فى سنة ٣٢٠هـ صــنع الناصر صنيعا كبيرا بمناسبة فتح طليطلة ، ووافق ذلك تطهيره لبعض أولاده(٢) .

وذكر المقرى : أن المنصور بن أبى عامر قــد احتفــل بختان ولــده عبد الرحمن شنجول(٣) . ولا شك انه كان يقوم بذلك (المزين) أو المطهر، وقد يجلب فى الاحتفال بعض المغنين وأصــحاب اللعب والفكاهة . وتقدم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، بنيت هذه المدينة فى الثغر الأوسط سنة ٢٣٥هـ فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان يشرف على بنائها غالب الناصرى ،ونزلها الكثير من المسلمين (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٤) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٨ .

فيــه الهدايا لوالد الطفل ، وتقــام فيــه الولائم ، وتوزع الأطعمة ابتهاجا بهــذه المناسبة .

وفى حفلات الميلاد : روى أن الحــكم المستنصر لم يرزق بأولاد ذكور قبل تقــلده الخــلافة ، وكاد أن ييأس من ذلك حتى رزق سنة ٣٥٤هـ بولد من جاريته صبح البشكنسية فسر بذلــك سرورا عظيما ، واقام احتفـــالا كبيرا حضره كبار رجـــال الدولة يهنئون ويلقون القصـــائد الشعرية . ومن ذلك قول جعفر المصحفى الحاجب :

اطــلع البــدر من حجــابه
والــرد السيف من قــرابه

رجــــاءنا وارث المعـــالى
ليثبت الملك فى نصـــــابه

بشرنا ســـيد البـــرايا
بنعمــة الله فى كتـــابه

لو كنت اعطى البشير نفسى
لم اقض حقا لمـا اتى به(٤)

وسـائل اللهـو والتسـلية

لا شك فى أن الحياة المترفة التى عاشـــها الكثيرون فى الأندلس ، وخاصـــة فى الطبقات العليـــا ، قـــد اقترن بهـــا فراغ كبير كان لابـــد من شـــغله . فمنهم من شـــغله بالعمل الجـــاد والعلم النافع والعبادة ، ومنهم من شـــغله بألوان مختلفة من ضروب اللهو والتسلية واللعب .

وقد كان الغنـــاء والموسيقى على رأس هـــذه الوسائل حيث شغف به معظم الأندلسيين كما قدمنا ، وكانت له مجالسه التى تعقد فى القصور والمنى والمتنزهات ، ويتجمع فيها الكثيرون لسماع المغنيين والمغنيات .

---

(٤) د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ١٧ .

كما كان الصيد والقنص من هــذه الوسائل أيضــا ، وقد كان كثير من الأمويين يخرجون فى رحــلات للصيد ، ومنهم عبد الرحمن الداخــل الذى كان كلفــا به فى أوقات فــراغه . فقــد ذكر ابن الأبار نقــلا عن ابى الفرج الجيانى صاحب كتاب ( الحدائق ) : انه أتاه فى بعض غزواته آت ممن كان يعرف كلفه بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الفرانيق(٥) واقفة فى جانب من معسكره وحثــه على الخروج لصيدها فرفض قائلا :

**دعنى وصــيد وقــع الغــرانق**
**فإن همتى فى اصطياد المــارق**
**فى نفق إن كان او فى حالق**
**إذا التظــت لوافح الضــوائق**
**كان لفاعى ظــل بنــد خــافق**
**غنيت عن روض وقصر شاهق(٦)**

ومنهم ايضا الحكم بن هشام الملقب بالربضى الذى كان شغوفا بالصيد واللهو والقنص ايضــا . وكان هــذا من الأسباب التى اتخذها الفقهــاء لإثارة الناس ضــده وإشعالهم ثورة الربض(٧) .

وكذلك ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى يقول عنه ابن حيان : « وكان

---

(٥) الفرانيق : جمع فرنوق وهــو طائر مائى أسود او ابيض ، وقيــل الكركى ، وقيل يشبهه .

(٦) الحلة السيراء ج ١ ص ٤١ واللفاع والملفعــة ما يتلفع به من رداء أو قناع أو غيره .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٩٨ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٣ .

يخرج للصيد ، ويقعد للأنس مع جواريه ، ويستمع للأغاني »(٨) .

وقد ذكر الرازي أن عبد الرحمن الأوسط خرج مرة لصيد الغرانيق ، التي كان مولعا بهـا فأبعد ، وكان ذلك في فصل الشتاء ، ومعه ابن الشمر الشاعر فقال :

**ليت شـعري أم حـديد خلقنا**
**أم نحتنا من صـخرة صـماء**
**كل عام في الصيف نحن غـزاة**
**والغرانيق غزونا في الشـتاء**
**إذ نرى الأرض والجليـد عليها**
**واقـع مثل شـقة بيضـاء(٩)**

ويذكر ليفي بروفنسال : أنه كان يخرج في رحـلات مع حاشيـته للصيد بالصقور ، وخاصـة في سـهل الوادي الكبير الذي تطـل عليـه قرطبة ، وأنه كان يحب صيد الغرانيق ، ويحب ملاحقة طائر الكركي بصفة خاصة لأنه كان أكثر الطرائد طلبـا(١٠) .

كما كانت هنـاك رحلات صـيد للأمير عبد الله بن محمد في جهـة عدوة النهر الأعظم بقرطبة(١١) .

وهـذا يدل على مبلغ حب الأمراء للصيد ، وخروجهم إليه في رحلات منتظمـة .

وإلى جانب رحـلات الصيد فقـد كانت هناك رحـلات للنزهـة

---

(٨) المقتبس ص ٢٢٤ تحقيق د. مكي .
(٩) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب جـ ١ ص ١٢٥ .
(١٠) الحضارة العربية في أسبانيا ص ٦٣ .
(١١) البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤٦ .

يخرج فيها الأمراء ومعهم بعض أهليهم مع الحاشية . ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن حيان : من أن الأمير عبد الرحمن الأوسط طلبت منه بعض كرائمه النزهة على مقتضى العادة ، فأمر حاجبه عيسى بن شهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على أتم رسومها ، والتعجيل بذلك للتحرك فى صبيحة اليوم التالى ، وطلب من الراشدة أن تأتيه من خزانة الكسوة برداء يوسفى من الوشى ليصنع منه عريف الخياطين بالقصر ثوبا يلبسه فى هذه النزهة ، ولكنه لم يقدر له ذلك حيث توفى بعد صلاة المغرب ، فصار كفنا له(١٢) .

ويذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط خرج إلى الرصافة يوما للنزهة ومعه هاشم بن عبد العزيز الوزير ، فكان بها صدر نهاره على لذته ، فلما حل الظلام انصرف إلى القصر وبه اختلاط ، فقال له هاشم : يا ابن الخلائف ما أطيب الدنيا لولا الموت فقال له : يا ابن اللخناء لحنت فى كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت ، فلولا الموت ما ملكناه أبدا(١٣) .

كما كانت هناك ألعاب للرياضة والفروسية مثل اللعب بالصولجان وسباق الخيل فقد ذكر ابن عذارى : أن الحكم الربضى كان يلعب بالصولجان فى القصر ، فجاءه الخبر بأن جابر بن لبيد محاصر لمدينة جيان ، وكان أحد الخارجين عليه(١٤) .

ويذكر ابن عذارى أيضا : أنه فى سنة ٣٢٧هـ فى عهد الناصر خرج القائد أحمد بن يعلى صاحب الشرطة غازيا بالأسطول إلى المغرب لقتال

---

(١٢) المقتبس ص ١٦١ — ١٦٣ .
(١٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١١١ .
(١٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٨١ .

الفاطميين ، وكان خروجا فخما ، فخرج الكثيرون من أهل قرطبة رجـالا ونساء وأطفالا لمشاهدة العسكر وهم يمرون من الربض ، وأخـذ العوام والغوغاء يتقاذفون بالحجارة محاكين صفى القتال ، فدخل بينهم قـوم من الطنجيين من جند السلطان وحرشوهم ، فحمى الوطيس والناس يشاهدون ذلك ، فتغلب فريق على الآخـر ، فمال الطنجيون على المنهزمين ، فنهبوهم ومن حولهم من المتفرجين ، وسلبوا النساء ثيابهم ، فأخـذن يتوارين في الحقول حياء وخجلا حتى يحين وقت التفرق (١٥) .

وهـذا شبيه بما يحـدث في عصرنا من تجمع الكثيرين لمشاهدة مرور موكب من المواكب الرسمية ، أو عرض عسكرى أو رياضى ، وما قـد يحدث نتيجة للتزاحم والاختلاط من مثالب وأحـداث .

كما يبدو أنه وجدت في الأندلس لعبة الشطرنج وإن كنا لم نعثر على أمثـلة لهـا في العصر الأموى إلا أنه قـد وجـدت مخطـوطة لألفونسو الحكيم (١٦) ، فيها رسـم للعبـة شطرنج معقـدة .

ومن المعروف أن العرب قـد اقتبسوا النرد والشطرنج عن الفرس ،

---

(١٥) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(١٦) هو ألفونسو العاشر ابن فرناندو الثالث ملك قشتالة تولى الحـكم في مايو سنة ١٢٥٢م ولقب بالحكيم أو العـالم لشغفه بالعـلوم والآداب ، له المدونة الكبرى في تاريخ أسبانيا أو تاريخ أسبانيا العام وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة . وكانت له صلات بكثير من علماء الأندلس وتلقى منهم الكثير . (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ١٠٤ ، ص ١٦٩ ) ، ( د. لطفى عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ١٦٩ ) .

وادخلوا عليهما إضافات وتحسينات ، ثم انتقلت هاتان اللعبتان إلى أوربا واحتفظت ببعض الأسماء العربية(١٧) . وإذا كان الشطرنج قد عرف فى المشرق فلا شك وأن يكون قد انتقل إلى الأندلس أيضا ، كما عرف فى أوربا .

أما عن مصارعة الثيران : فالواقع أن العصر الأموى لم يشهد هذه الرياضة العنيفة حيث لم ترد إلينا نصوص تفيد ذلك ، وأول إشارة وردت إليها تعود إلى عصر الموحدين ، حيث ذكر أن الخليفة أبو يعقوب يوسف كان يروض الأبقار ، وأن حياته انتهت بطعنة من قرن بقرة فى صدره فقتل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ثم وردت إشارات كثيرة بعد ذلك من لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ غرناطة وابن زمرك شاعر الحمراء فى القرن الثامن تعطينا معلومات مفيدة عن هذه الرياضة(١٨) .

كما كان هناك ما يشبه حدائق الحيوان فى عصرنا . حيث يروى أن الخليفة الناصر عندما بنى مدينة الزهراء اتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك(١٩) . وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أماكن يقصدها أرباب اللهو والفسوق .

حيث يذكر ابن عذارى أن الحكم الربضى أمر بهدم فندق كان بالربض، وكان متقبله من أهل الإضرار والفسق ، ونستطيع أن نستشف منه أن هذا الفندق كان مكانا يجتمع فيه أهل اللهو والفساد لممارسة متعهم الدنيوية .

ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار فيقول إنه أظهر من الخلاعة

---

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣٠٩ — ٣١٠ .
(١٨) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(١٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٠ .

والمجون ما لم يظهره أحـد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابيـة ، ومائة بوق للزمر ، ومائة عود للضرب ، وكان له غـلام صقلبى يتعشـقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية تسمى بستان كانت لأبى القاسم المصرى الخيـالى ، وامرأة أبى الشرح وتسمى واجـد ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقـله أمر لا يظهر إلا من أهـل الدعارة المنتهكين فيها . ولم يزل طول مدته مشتهرا بالفسق مظهرا للخلاعة، لا يفيق من سكر ، ولا يرعوى عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى حتى قال بعضهم فيـه :

أمير الناس سخنة كل عين
يبيـت الليـل بـين مخنثين
يجشم ذا ويأثم خـد هـذا
ويسـكر كل يوم سـكرتين
لقـد ولوا خـلافتهم سـفيها
ضعيف العقل شيئا غير زين

وقد هجاه كثير من الشعراء . يقول ابن عذارى « وقيل فيـه كثير من هـذا يطول الكتاب به »(٢٠) .

ومن الواضح أن مجالس اللهو والشراب كانت من الظواهر الموجودة فى المجتمع الاندلسى وخاصة فى وادى إشبيلية ، فيشير الشـقندى فى رسالته فى تفضيل الاندلس على المغرب إلى أن هـذا الوادى لا يخـلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيـه غير منكرة ، لا ناه عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعربدة(٢١) .

---

(٢٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ ، ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .
(٢١) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٩ .

ويذكر المقرى : أن أهل الأندلس كان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد (٢٢) .

والحقيقة أن المجتمع الأندلسى قد اتسم بالحدة والتطرف فى نظرته للأشياء . فقد وجدت بيئات كلها علم وزهد وتقى ، كما وجدت إلى جانبها بيئات أخرى مالت إلى التحرر واللهو والترف والمجون ، وعاشت حياة صاخبة لاهية . وانساق الكثيرون مع هذا التيار العابث الذى فتنهم .

ونحن إذا قرأنا ما نظمه الشعراء الأندلسيون من شعر الخمر والغزل لخيل إلينا أن المجتمع الأندلسى لم يعرف غير ذلك ، وفى المقابل إذا قرأنا ما نظموه فى شعر الزهد والتصوف وما ألفه العلماء من مؤلفات لقلنا إن هذا المجتمع كان كله مجتمع زهد وتقوى وصلاح وعلم .

ولكن هذا المجتمع جمع بين هذين الجانبين شأن أى مجتمع آخر مع الاختلاف النسبى بين مجتمع وآخر فى ناحية من النواحى .

* * *

(٢٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٩٠ .

## المــرأة ودورها

لعبت المــرأة فى المجتمع الأندلسى دورا لا بأس به ، وبرزت بعض النساء فى مجالات شتى سياسية واجتماعية وثقافيـــة ودينية .

وتدل الكثير من الشواهد على أن المرأة فى الأندلس كانت تتمتع بقدر من حــرية الحركة ، والمشاركة فى الحيـــاة العامة أكثر من قرينتها فى المشرق(١) .

وقد كانت نساء الأندلس على وجه العموم أشبه شىء بنساء المشرق من ناحية التعليم والحجاب ، فمن ناحية التعليم كان أكثرهن أميات ، ومن ناحيـــة الحجاب فقـــد غلب على الحرائر منهن ، أما الإماء والسرارى فكن يسفرن عن وجوههن غالبا ، ولذلك يذكر أن ولادة بنت المستكفى لمـــا جالست الرجال ، وشاركتهم فى الشعر والأدب قوبل ذلك منها بشىء من الاستهجان والاستغراب(٢) .

ولم تمدنا المصـــادر بالكثير عن المرأة فى المجتمع الأندلسى وخاصة الحرائر ، وسنحاول من خـــلال الأخبار القليـــلة التى عثرنا عليها أن نتبين كيف كان وضع المرأة فى هـــذا المجتمع .

لقـــد كثرت الجوارى فى المجتمع الأندلسى نتيجـــة لكثرة الحـــروب والمعـــارك التى خاضها المسلمون ضـــد الممالك المسيحية فى اســـبانيا وبلاد الفرنجة ، وكذلك عن طريق تجـــار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى فى أوربا وغيرها . يقول المراكشى عن المنصور بن أبى عامر : « ومـــلأ الأندلس غنـــائم وســـبيا من بنـــات الروم وأولادهم ونســـائهم

(١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٦ .
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٣٠ .

... الخ »(٣) . ويذكر ابن الأبار أنه فى إحدى غزواته لمملكة جليقيــة ســـنة ٣٧١هـ عاد بأربعة آلاف سبية(٤) .

وامتلأت بيوت المسلمين فى الأندلس بالأسبانيات وغيرهن ، حيــث تزوجهن الكثير من العرب والبربر ، وكان لبعضهم تأثير كبير على أزواجهن وأولادهن من النسل المولد من ناحيــة العادات والتقاليــد واللغة وغير ذلـــك .

كما كان لبعض الجوارى وأمهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفـــاء والكبراء . ويشير ابن حــزم فى بداية الفصل الأول من كتابه ( طوق الحمامة ) إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفــائها فيقول « وقـــد أحب من الخلفـــاء المهديين والأئمـــة الراشدين كثير منهم بأندلسنا ، عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم ( هشام ) المؤيد بالله وامتناعه عن التعــرض للولـــد من غيرها ... وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصـــوا . وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبى عـــامر بواجد بنت رجل من الجنانين ( البستانيين ) حتى حمله حبها أن يتزوجها ... الخ »(٥) .

ومن الأمثلة التى وردت ما ذكر من أن الحـــكم الربضى كان شغوفا بخمس جوار عنـــده قـــد اختصصن لنفسه ، وملكهن أمره ، فذهب يومـــا

---

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .
(٤) الحـــلة السيراء جـ ١ ص ٢١٦ .
(٥) طوق الحمامة ص ١٩ ـــ ٢٠ .

الدخول عليهن فأعرض عنه وكان لا يصبر عنهن فقال :

قصب من البان ماست فوق كثبان
أعرضن عنى وقد أزمعن هجرانى
ناشدتهن بحقى فاعتزمن على
الهجران حتى خلا منهن هيمانى
ملكننى ملك من ذلت عزيمته
للحب ذل أسير موثق عانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى
غصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

ولما عدن عليه بالوصال قال :

نلت كل الوصال بعد البعاد
فكأنى ملكت كل العباد
وتناهى السرور إذ نلت ما لم
يغن فيهن تكاثف الأجناد(٦)

ويذكر أن من شعره فيهن قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا
ولقد كان قبل ذاك يدعى مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلما
وبعادا يدنى حماما وشيكا
تركته جآذر القصر صبا
مستهاما على الصعيد تريكا
يجعل الخد صاغرا فوق ترب
وهو لا يرتضى الحرير اريكا

(٦) الحلة السيراء جـ ١ ص ٥٧ .

**هــكذا يحسن التـــذلل للحـــر**
**إذا كان في الهــوى مـملوكا(٧)**

ومن أمثلة ذلك ايضـــا ( طروب ) جارية الامير عبد الرحمن الأوسط وأم ولده عبد الله التى وصلت إلى درجة كبيرة من النفوذ والسلطان ، نظرا لشغفه بها . بحيث ذكر انهـــا كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، ولم يكن الأمير يرفض لها طلبـــا . ويقال إنها دبرت مؤامرة مع هــذا الخصى لقتل عبد الرحمن حتى تصير الإمارة من بعـــده إلى ولدها عبد الله بدلا من محمد الذى كان من جارية أخرى تدعى بهير(٨) . وبالرغم من انكشاف هــذه المؤامرة ، ومعرفة الأمير بما كانت تضـــمره له إلا انه لم يعـــاقبها وظل على حبـــه لها(٩) .

ويذكر انه بلغ من حـــبه لها انها هجرته يوما ولزمت حجرتها فأراد

---

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٠ ، ويذكر ابن الأبار هــذه الأبيات بشىء من الاختلاف فى بعض الالفـــاظ ويقول : وله فى النسيب ثم يذكرها ولا مانع من أن يكون النسيب فيهن . ( انظر الحـــلة السيراء جـ ١ ص ٤٩ ) .

(٨) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ ، ابن عذارى : البيان المغـــرب جـ ٢ ص ٩٣ .

(٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٣٠ . ويشك د. حسين مؤنس فى هــذه المؤامرة مستدلا على ذلك بان الأمير لم يغضب على طـــروب ولم يعاقبها . ونقول إنه لا غرابة فى وقوع هــذه المؤامرة فأمثالها كثير فى عصور التاريخ المختلفة . والسبب فى عفوه عنها هـــو حبـــه الشـــــديد لها كما ذكرنا ، وعين الرضى عن كل عيب كليلة كما قال الشـــاعر . ( انظر الحلة السيراء جـ ١ ص ١١٤ هامش ١ ) .

ان يترضاها بعـــد ان تمنعت عليـــه فأمر بسد باب حجرتها ببدر الدراهم من الخارج . ولمـــا رضيت فتحت الباب فتساقطت البدر داخـــل الحجرة فاخذت فى جمعها ثم اقبلت عليه واكبت على رجله تقبلها(١٠) .

كما يروى انه اعطاها عقـــدا قيمته عشرة آلاف دينار ، ولمـــا استعظم بعض وزرائه ذلك قال : ويحك إن لابس العقد انفس خطرا ، وأرفـــع قـــدرا ، واكرم جوهرا ... الخ »(١١) .

ويذكر ان له فيها شعر يقول فيـــه :

فقدت الهوى مـــذ فقدت الحبيبا
فما اقطع الليـــل إلا نحيبـــا
وإما بدت لى شمس النهار طالعـــة ذكرتنى غـــروبا
فيـــا طول شـــوقى إلى وجههـــا
ويـــا كبـــدا أورثتهـــا ندوبـــا
ويـــا احسن الخـــلق فى مقـــلتى
وأوفرهم من فـــؤادى نصـــــيبا
لئن حال دونك بعد المـــزار من بعد أن كنت منى قريبا
لقد اورث الشوق جسمى الضنى
واضرم فى القـــلب منى لهيبـــا

---

(١٠) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٨ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢ .
ويذكر ابن عذارى أن مقـــدار هـــذه الدراهم كان عشرين الـــف درهم .

(١١) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ١١٦ وقد ذكر المقرى انه اعطاها حليـــا قيمته مائة الف دينار ( نفح الطيب ج ١ ص ١٦٣ ) .

**عداني عنـك مزارا لعــــدا**

**وقودى إليهم لهـا ما لهيبـا(١٢)**

وذكر ابن سعيد المغـربى انه فى إحـدى غزواته جـاءه طيفها فى المنـام فاشتاق إليها ، فاستخلف على الجيش قائدا ، ورجع إلى قرطبـة للقـائها(١٣) .

ولكننا نعتقـد ان امثال هـذه الروايات فيها شىء من المبـالغة فلا يمـكن ان تصل الأمور به إلى هـذه الدرجة - مهما بلغ حبـه لها - بحيث يترك جيشه ويعود إليها لمجرد انه راى طيفها فى المنام .

صحيح ان عبد الرحمن كان كثير الأولاد ، حيـث بلغ عـدد أولاده مائة كمـا يقـال - خمسـون من الذكور وخمسون من الإناث -(١٤) ، ووصـفه الكثيرون بانـه كان مولعـا بالنسـاء شـديد الميل لهن ، ولكن بالغ البعض فى ذلك مبالغة شديدة لا تتفق ومقامه كحاكم أو أمير مسلم .

(١٢) ابن الأبار : الحـلة السـيراء ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ وقد أورد ابن عذارى هـذه الأبيات ابتداء من البيت الأخير وبعـده الثمانية أبيات الأخرى التى ذكرها ابن الأبار ولم نذكرها خشية الإطـالة وقال ابن عذارى : إن عبد الرحمن قالها عندما خـرج لغزو مملكة جليقية سنة ٢٣٥هـ ، ولكنه اخطـأ فقـال عبد الرحمن بن الشمر وصحتها ابن الحكم وربما كان هذا خطئا مطبعيا ( البيان المغـرب ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦ ) .

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٧ .

(١٤) انظـر : ابن حيـان : المقتبس ص ١٤٩ تحقيـق د. مكى ، ابن عذارى : البيان المغـرب ج ٢ ص ٥١ - ٥٢ ، نفح الطيب : ج ١ ص ٢٢٤ . ابن سعيد : المغـرب ج ١ ص ٤٧ . وقـد ذكر ابن سعيد انه كان لا يتخذ منهن ثيبا البتة .

ومثال ذلك ما ذكره المقرى من انه بلغ من حبه للنساء أن وقع على جارية فى شهر رمضان كان يحبها ، فجمع الفقهاء وسألهم عن كفارة ذلك فقال له يحيى الليثى كبير الفقهاء : تكفر بصيام شهرين متتابعين ، فسكت بقية الفقهاء ولم يقولوا شيئا حتى انصرفوا ، فسأل بعضهم يحيى لماذا لم تفته بمذهب مالك فى التخيير ؟ قال : لو فتحنا هذا الباب له سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود(١٥) .

فلا يمكن لحاكم مسلم أن يفطر عمدا فى نهار رمضان من أجل جارية هى ملك يمين له فى أى وقت من الأوقات فى غير نهار رمضان .

ومن المبالغات أيضا قول بعض المستشرقين « إن عبد الرحمن ملك عليه امره طوال حياته أربعة : فقيه ومغن وجارية وعبد »(١٦) .

ويذكر انه كان لعبد الرحمن جوار أخريات منهن : ( الشفاء ) التى اعتقها وتزوجها ، وكانت جميلة تقية عاقلة خرجت معه فى إحدى غزواته فمرضت فأعادها إلى قرطبة ، فماتت فى الطريق ودفنت فى قرية مجاورة لطليطلة . وجارية أخرى تدعى ( مدثرة ) اعتقها وتزوجها كذلك(١٧) .

وجارية ثالثة تسمى ( فخر ) وهى التى ابلغته بخبر المؤامرة التى دبرت ضده بعد أن أخبرها الحرانى الطبيب الذى كلفه نصر بوضع

---

(١٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٨ .

(١٦) لين بول : قصة العرب فى اسبانيا ص ٧٦ ، يقصد بالفقيه يحيى الليثى كبير الفقهاء ، وبالمغنى زرياب ، وبالجارية طروب ، وبالعبد نصر الخصى .

(١٧) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٣ .

السم فى شرابه . بالإضافة إلى جواريه المغنيات ( فضل وعلم، وقلم )(١٨) .

ويروى انه كان للخليفة عبد الرحمن الناصر جارية تسمى الزهراء كان شغوفا بها ، وبلغ من شدة حبه لها أن بنى لها مدينة سماها باسمها عندما طلبت منه ذلك . فقد ذكر الكثير من المؤرخين أن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر بأن يفتدى به أسرى المسلمين لدى الإفرنج ، فلم يوجد أسرى فشكر الله ، وقالت له جاريته الزهراء : اشتهيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى فبناها تحت جبل العروس شمال قرطبة(١٩) .

وهذه أيضا من مبالغات المؤرخين الشبيهة بالقصص الخيالية ، والواقع أن الناصر كان شغوفا بالبناء فرأى أن يؤسس مدينة جديدة تليق به وبدولته بعد أن تلقب بألقاب الخلافة . يقول ابن خلدون : « ولما استفحل ملك الناصر صرف همه إلى تشييد القصور والمبانى »(٢٠) . ومما يدل على حبه للبناء لتخليد ذكراه تلك الأبيات التى تنسب إليه :

**همم الملوك إذا ارادوا ذكرها**
**من بعدهم فبالسن البنيان**
**أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم**
**ملك محته حوادث الأزمان**
**إن البناء إذا تعاظم قدره**
**أضحى يدل على عظيم الشان**

---

(١٨) الحلة السيراء ج ١ ص ١١٤ هامش ١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، د. الشكعة : الادب الاندلسى ص ٤٤ .
(١٩) انظر المقرى ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢٠) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

كما كانت للناصر جارية تدعى مهرجان أو مرجانة استولدها ابنـــه الحكم ، واطلق عليها لقـب ( السيدة الكبرى ) . ذكر أنهـا أرادت أن تبهج الناصر يوما ، فاشترت زرزورا وعلمته أبيـاتا من الشعر حتى إذا جلس الناصر للفصد ذات يوم فى بهـو المجلس الكبير المشرف على مدينة الزهراء ، وبدأ الطبيب فى العمل أطل الزرزور وصعد على إناء من ذهـب وأخذ يردد : **أيهـا الفاصد رفقـا بأميـر المؤمنينـا**

**إنمـا تفصـد عرقا فيه محيا العالمينا**

فسر الناصر بذلك واستظرفه ، وسأل عنه فذكر أن أم ولده هى التى فعلت ذلك ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار(٢١) .

كما كان لصبح البشكنسية(٢٢) حظيـة الخليفـة المستنصر ، وأم ولده هشام نفوذ كبير فى حيـاة زوجها وبعـد مماته عندما ولى ابنهـا الخـلافة وهو غلام صـغير فى العاشرة من عمره سنة ٣٦٦هـ ، وكان الحـكم قد تقدمت به السن دون أن يرزق بولد قبل الخـلافة ـــ يذكر أنه وصل إلى السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين ـــ وبعـد تقلده الخلافة بأربع سنوات رزق بهشـام من حظيته صبح فسر بذلك سرورا عظيما وجعلها أم ولده وسببت مكانتها عنـده(٢٣) .

---

(٢١) العبر ج ٤ ص ١٣٧ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢٢) كان اسمها بالأسبانية أورورا ، ويعنى صبح بالعربية ، وكان الحكم يناديها بجعفر تدليلا لها ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا ( عصر المنصور الأندلسى ) ص ٣٥ ) .

(٢٣) يذكر البعض أن الحكم كان قـد رزق بولد سماه عبد الرحمن سـنة ٣٥١هـ ولكنه توفى طفلا صغيرا . ( انظر ابن الأبار : الحـلة السيراء ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ هامش ١ ) .

وقد اتخذت من محمد بن أبى عامر الذى لقب بالمنصور كاتبا لها ووكيلا للنظر فى أموالها وضياعها ، واستطاع بما لديه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه ، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به »(٢٤) . وخاصة بعد أن ولى دار السكة فكان ينفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه . فيروى انه صاغ لها تمثالا من الفضة على هيئة قصر انفق فيه مالا كثيرا ، حتى أخذ الناس يتحدثون بشأنه زمنا طويلا . وقد أعجبت به صبح أيما إعجاب ولما تحدث السعاة إلى الحكم بذلك ، لم يجد ابن أبى عامر سبيلا إلا رد قيمته ، فاقترضها من صديقه الوزير ابن حدير حتى ترتفع عنه الشبهة(٢٥) .

وبالرغم من ذلك فإن الشبهات أخذت تثور ، واتسع المجال للأقاويل عن العلاقة بين المنصور وبين صبح ، حتى قيل إنه كانت تربطها به صلة عاطفية ، وأن ذلك كان وراء ما بلغه من نفوذ ومكانة(٢٦) .

وأيا ما كانت صحة ذلك ، فقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة — بمثابة رئاسة الوزارة — بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة ، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه ، واستبد بالأمور فى الدولة حتى استطاع أن يؤسس ما اصطلح عليه البعض باسم الدولة العامرية التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية(٢٧) .

ويذكر أن الحكم كان شديد الكلف بصبح ، فعندما خرج فى غزوته

---

(٢٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ .
(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ .
(٢٦) د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ١٩ وبعدها .
(٢٧) د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٤ وبعدها .

المعروفة ( بشنت اشتبين ) سنة ٣٥٢هـ أكثرت من التعلق به والحزن لفراقه فقال مستعبرا :

**عجبت وقد ودعتها كيف لم امت**
**وكيف انثنت عند الفراق يدى معى**

**فيا مقلتى العبرى عليها أسكبى دما**
**ويا كبدى الحرى عليها تقطعى(٢٨)**

وكما تمتعت زوجات الخلفاء بشىء من النفوذ فقد كان لبعض زوجات الطبقات الأخرى نفوذ أيضا مثل ( تكفات البربرية ) زوجة محمد بن زياد اللخمى قاضى الجماعة بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت كما يقول ابن حيان « ذات دالة عليه على ما تفعله الزوجات الحظيات »(٢٩) .

وقد كان الكثيرون يتنافسون فى إقتناء الجوارى منافسة شديدة وصلت إلى حد الغيرة والقتل . فقد ذكر ابن الابار : ان مروان بن محمد ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر كان يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم استأثر بها دونه ، فاشتدت غيرته لذلك ، وانتهز فرصة خلو أبيه معها فقتله ، فاعتقل وسجن فى عهد المنصور بن أبى عامر ست عشرة سنة ، ثم اطلق سراحه فسمى ( بالطليق ) ، وكان اديبا شاعرا مكثرا شبهه ابن حزم بابن المعتز من بنى العباس فى ملاحة شعره وحسن تشبيهه(٣٠) .

---

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .
(٢٩) المقتبس ص ٢١٠ تحقيق د. محمود مكى ، وقد ذكرها الخشنى : كفات بدون تاء فى البداية انظر ( قضاة قرطبة ص ١٠٦ ) .
(٣٠) الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

وإلى جانب الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة السياسية فقد لعبت دورا مهما كذلك فى الحياة الاجتماعية وخاصة الجوارى المغنيات اللائى كان لهن أثر كبير فى مجال الغناء والموسيقى ، والملابس والأزياء والزينة ، وغير ذلك . كما كان للأسبانيات دور كبير فى إدخال الكثير من العادات والتقاليد إلى بيوت المسلمين الذين تزوجوهن . كما شاركت بعض النساء مشاركة ايجابية عن طريق إنشاء بعض المؤسسات الدينية كالمساجد وغيرها مثل عجب جارية الخليفة الحكم الربضى التى أقامت مسجدا نسب لها فى غربى قرطبة ، وأقامت مقبرة عرفت باسمها أيضا ، ومثل جاريته متعة التى اقامت مسجدا ايضا على نفقتها نسب إليها(٣١) . ومثل طروب جارية عبد الرحمن التى ينسب إليها إقامة مسجد بالربض الغربى فى قرطبة(٣٢) .

كما شاركت بعض النساء ايضا فى مجال الحركة العلمية . فيذكر المراكشى انه كان فى الربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة لنسخ المصاحف بالخط الكوفى(٣٣) . وكان هناك بعض النساء اللاتى تعلمن وتفقهن فى الدين ودرس الأدب .

وكان كثير من الخاصة يعينون مؤدبات لبناتهم . فيذكر خوليان ربيرا المستشرق الأسبانى انه كان لبنى حزم — وهم غير أسرة ابن حزم الفقيه المشهور — مدرسة من اشهر مدارس قرطبة — يقصد مكتبا — يدرس

---

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٢٧ .

(٣٢) طوق الحمامة ص ١٩ هامش ١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٣ .

(٣٣) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ٢٤٨ ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ .

فيها الأب للصبيان والابن للفتيان والبنت للفتيات وذلك فى القرن الثـالث تقريبـا(٣٤) .

كما كانت بعض النساء ترحل للتعلم خارج الأندلس مثل راضية مولاة عبد الرحمن الناصر التى اعتقها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى الصقلبى وحجا معها ولقيا جماعة من العلماء أخذا عنهم ، ونسخا مجموعة من الكتب وقد توفيت فى حـدود سنة ٤٨٣هـ(٣٥) .

ومن النساء اللائى برزن فى مجال الأدب الشاعرة حسانة التميمية بنت ابى الحسن الشاعر وكانت من اهل البيرة ، وقد تأدبت على ابيهـا ولـما توفى ذهبت إلى الحكم الربضى ومدحته بأبيات منها :

**إنى إليك ابا العـاصى موجعـة**
**ابا الحسين سقته المواكف الديم**
**قـد كنت ارتع فى نعماه عاكفة**
**فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم**
**انت الإمام الذى انقاد الانام له**
**وملكتـه مقـاليد النهى الأمم**

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه ـ وكان يقرض الشـعر ـ وأمر بإجراء راتب عليها ، وكتب إلى عامله على إلبيرة ، فجهزها بجهـاز حسن(٣٦) .

---

(٣٤) التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٢ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٣٥٤ طبعة الدار المصرية للتـاليف والترجمـة ، التربية الإسلامية ص ١٦٢ .

(٣٦) انظر نفح الطيب جـ ٣ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، د. احمـد هيكل : الأدب الاندلسى ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ . وانظر عن شـاعرات الاندلس د. الشكعة : الادب الاندلسى ص ٢١٩ وبعدها .

ومن اللائى برزن فى مجال الادب كذلك الشاعرة حفصة بنت حمدون الحجارية وكان من شواعر الاندلس فى المائة الرابعة ، من وادى الحجارة ومن شعرها فى الغزل :

**لى حبيب لا ينثنى بعتاب**
**وإذا ما تركته زاد تيها**

**قال لى هل رأيت لى من شبيه**
**قلت ايضا وهى ترى لى شبيها(٣٧)**

ومن النساء اللائى اشتهرن بالعلم والزهد ايضا : البهاء بنت الامير عبد الرحمن الأوسط ، وكانت من خيرات نساء بنى أمية ، وقد اشتهرت بالزهد والتبتل والعبادة ، ويذكر انها كانت تكتب المصاحف وتحبسها على المساجد ، وينسب إليها مسجد باسمها من مساجد الرصافة وقد توفيت سنة ٣٠٥هـ(٣٨) .

وكذلك عابدة المدينة جارية ابن دحون الوليد بن حبيب المروانى ، وكانت جارية سوداء اهديت إليه عندما حج ، وقد اشتهرت برواية الحديث عن الإمام مالك وغيره حتى قيل : إنها كانت تسند عشرة آلاف حديث . أى تحفظها بسندها — وقد أعجب بها الوليد ، وقدم بها إلى الأندلس ، فتزوجها واستولدها ابنه بشر(٣٩) . الذى عرف بالحبيبى واصبح من المشهورين بقرطبة ، وكانت له ابنة تسمى عبدة اشتهرت بالرواية عنه ايضا(٤٠) .

وليس من شك فى ان إتاحة الفرصة للمرأة الاندلسية فى مجال العلم والثقافة قد صقل من شخصيتها ، ووسع من مداركها وآفاق تفكيرها ، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى مجتمعها .

---

(٣٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ٢ ترجمة ٣٥٧ .
(٣٨) ابن حيان : المقتبس ص ٢٦٣ تحقيق د. محمود مكى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧٦ .
(٣٩) المقتبس ص ٢٢٨ .
(٤٠) خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٠ .

# الفصـل الخامس

## الحـــالة الاقتصـــادية

## الحـــالة الاقتصـادية

### موقـــع الأندلس ومناخها :

وصـــف كثير من المؤرخـــين والجغرافيين والرحـــالة بلاد الأندلس بأوصاف كثيرة من نواحي شتى . فقـــد ذكر الرازي — وهو أحـــد مؤرخي الأندلس المتقـــدمين ( ت ٣٤٤هـ ) — « أن الأندلس تقـــع في الإقلـــيم الرابع من الأقاليم السبعة التي هي ربع معمور الدنيـــا . فهي موســـطة البلدان ، كريمة البقعة بطبع الخلقة ، طيبة التـــربة ، مخصبة القـــاعة ، منبسجة العيون الثراء ، متفجرة الأنهار الغزار ، قليـــلة الهـــوام ذوات السموم ، معتدلة الهـــواء أكثر الأزمان ، لا تزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبـــدان ، وكذا ســـائر فصـــولها في أعم سنيها تأتي على قـــدر من الاعتدال ، وتوسط الحال »(١) .

وأنها على شكل مثلث يعتمد على ثلاثة أركان الأول عنـــد قادس ، والثاني ما بين أربونة وبرذيل شرقا ، والثالث ما بين الشمال والغـــرب من إقليم جليقية(٢) .

وقال عنها ابن حوقل الرحـــالة الشيعي الذي زارها في القـــرن الرابع الهجري : « وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحـــلة ، تغلب عليها الميـــاه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والســـعة في الأحوال ، من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التملك الفاشية فيها ، ولمـــا هي به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهنيهم وأرباب صنائعهم لقـــلة

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم »(٣) .

وقال ابو عبيد البكرى ( ت ٤٨٧هـ ) — الذى يعتبر من أوائل الجغرافيين الذين انجبتهم بلاد الأندلس — : « الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، اهوازية فى عظيم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها »(٤) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض الوان الإنسان ، ونبل الأذهان وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار »(٥) .

وذكر ابو بكر بن عبد الحكم المعروف بابن النظام : ان الأندلس عند علماء اهله اندلسان : فالأندلس الشرقى ما صبت اوديته إلى البحر الرومى ( البحر المتوسط ) ما بين مرسيه إلى سرقسطة ، والأندلس الغربى ما صبتاوديته إلى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط ( المحيط الأطلسى ) .

ويضيف البعض إلى هذا التقسيم قسما ثالثا هو وسط الأندلس الذى يضم من المدن قرطبة وطليطلة وجيان والمرية ومالقة وغرناطة .

---

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٨ .

(٤) نفسه جـ ١ ص ٦٣ .

(٥) المرجع نفسه جـ ١ ص ٦٤ .

اما شرق الاندلس فتقــع فيــه من المدن الكبرى مرســية وبلنسية ودانية وسرقسطة ، وأما غرب الأندلس فتقع فيــه اشبيلية وماردة واشبونة ( لشـــبونة )(٦) .

**البيئـــة الطبيعيـــة :**

الاندلس عبارة عن شـــبه جـــزيرة تقـــع فى الجنوب الغـــربى من اوربا ، تحيط بهـــا الميـــاه من كل جوانبها ما عدا الجانب الشمالى الشرقى حيث تفصلها جبـــال البرتات ــ اى المنـــافذ ــ ( البيرينية ــ البرانس ) عن فرنســـا .

ويبـــلغ طولها نحو الف ومائة ميل ، وعرضها نحو ستمائة ميـــل . وتتألف من هضبة كبرى تسمى ( مسيتا ) تشغل جزءا كبيرا من مساحتها ، ومجموعة من السلاسل الجبلية التى تطوقها ، ومن اشهرها فى الجنوب جبـــال ( سيرامورينا ) اى سلسلة الجبال الحمراء ، ومن اهم جبال هـــذه السلسلة جبل قرطبة المعـــروف عنـــد المؤرخين العـــرب باسم ( جبـــل العروس )(٧) . وتنفصل هـــذه الجبـــال بين الهضبة الكبرى والســـهل الجنوبى الكبير المنبسط حتى اقصى الجنوب . وترتفع فى السهل الجنوبى سلسلة جبال اخـــرى تسمى ( سيرانيفادا ) اى سلســـلة الجبال الثلجية ، وتمتد فى شرق الهضبة الكبرى سلسلة جبال اخرى هى الجبال الايبيرية ، وتفصل هـــذه السلسلة بين الهضبة وبين السهل الشرقى المنبسط حتى

---

(٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

(٧) الإدريسى : وصف المغـــرب والأندلس من كتـــاب نزهة المشـــتاق ص ٢٠٨ ، الحميرى : صـــفة جزيرة الاندلس منتخبـــة من كتـــاب الروض المعطار ص ٥٣ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

ساحل البحر المتوسط . وفى شمال الهضبة تمتد جبال أخرى هى جبال ( كانتا بريسيا ) أو القنطرية كما تعرف فى المصادر العربية . وتلى هذه الجبال من الشمال بعض الأقاليم السهلية الضيقة ، ثم تنحدر الهضبة ناحية المغرب حتى تنتهى إلى السهل الغربى الكبير .

وتجرى فى الأندلس عدة أنهار أهمها نهر الوادى الكبير — الذى لا يزال معروفا بهذا الاسم فى أسبانيا حتى اليوم مع شىء من التحريف حيث يسميه الأسبان : ( جواد الكبير Guad al Quivir ) ويروى أراضى السهل الجنوبى ويمر بقرطبة وإشبيلية ويصب غربا فى المحيط الأطلسى ، ونهر التاجة ويسميه الأسبان التاخة ، ويمر بوسط الهضبة الكبرى ، وعليه تقع مدينة طليطلة ، ونهر دويرة فى الشمال منها ويطلق عليه الأسبان اسم دور ، وينحدر نحو الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى .

وهناك أنهار أخرى تصب فى البحر المتوسط ، ومنها نهر إبرة الذى تقع عليه مدينة سرقسطة ، ونهر شقر الذى يسميه الأسبان — خوكر — وعليه تقع جزيرة شقر التى كانت مصدر إلهام للكثير من الشعراء .

ونهر سجورا أو شقورة الذى يخترق مدينة مرسية ، ويروى قسما كبيرا من أراضى شرق الأندلس . وهناك أنهار أخرى صغيرة ، وعيون وآبار كثيرة اعتمدت عليها الزراعة إلى جانب مياه الأمطار والثلوج التى تعتمد عليها الزراعة أساسا فى منطقة الهضبة الوسطى(٨) .

---

(٨) انظر : د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٥ وبعدها ،
د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٦ — ١٠ .
د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٥ — ١٦ .
دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ — ٤ .

وهكذا نرى ان طبيعة الأندلس ليست واحـــدة ، وإنما هى مكونة من سهول وهضـــاب وجبال وأودية ، ففيها المنــاطق الخصبة ، والمنــاطق الجليلة القاحلة ، وليس كما صورها الكثير من الشعراء على انها جنـــة ليس فيها لا السهول الخضراء ، والحقول الخصبة ، والحدائق الغناء . ونظرا لأن المسلمين قـــد نزلوا بالمنــاطق الخصبة واقاموا فيهـــا وتركوا المناطق الشمالية الجبلية التى تقـــع ضمن الهضبة الكبرى ، واصبحت هى مركز المقـــاومة الإسبانية المسيحية ضـــد المسلمين لاسترداد البـــــلاد شيئا فشيئا . فقد تصور الكثيرون أن الأندلس عبارة عن جنان وارفة ومياه غزيرة وبساتين مثمرة كما يقول الشاعر الأندلسى ابن خفـــاجة الهـــوارى ( ٤٥٠ ـــ ٥٣٣هـ ) الذى عاش فى عهـــد المرابطين : ولقب بالجنان لكثرة وصفه للرياض والبســاتين :

**إن للجنـــــــة بالأندلس**
**مجتلى حسن وريـــا نفس**
**فسنا صبحتها من شــنب**
**ودجـــى ليلتهـــا من لعس**
**وإذا ما هبت الريح صبا**
**صحت واشوقى إلى اندلس(٩)**

وقـــوله :

**يا اهل اندلس للـــه دركم**
**ماء زرع واشــجار وانهار**

---

(٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٨ .

**ما جنـــة الخلد إلا فى دياركم**

**ولو خيرت هذه كنت أختار**

**لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا**

**فليس تدخل بعد الجنة النار(١٠)**

ومثل الشاعر الذى يقول :

**حبـــــذا أندلس من بلـــد**

**لم تزل تنتج لى كل سرور**

**طائر شـــاد وظـــل وارف**

**وميـــاه سائحات وقصـــور(١١)**

ومن هنا نتبين أن شـــبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة والمنـــاخ من إقليم لآخـــر نظرا لاتساعها الكبير ، وقد أدى هـــذا الاختلاف إلى التنوع فى حاصلاتها الزراعية .

**الزراعـــــة :**

كان المسلمون عنـــد فتحهم لبـــلد من البلاد صـــلحا يتركون الأرض بأيدى أهلهـــا فى مقـــابل أداء الخراج عنها ، وذلك حتى يتفرغوا لمواصلة فتوحاتهم لنشر الإسلام ، أما إذا فتحوها عنوة وعدل القائد أو الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على مصـــالح المسلمين ، فيؤخذ عنهـــا الخـــراج أيضـــا .

أما إذا قسمت الأرض بين المحاربين المسلمين ، فإنها تعتبر أرضـــا

---

(١٠) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٣١٨ .

(١١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢٤ .

دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٨ .

عشرية ، ولا يوضع عليها الخـراج(١٢) . وعندما فتح المسلمون الأندلس قضوا على النظام الذى كان سـائدا فى عصر القوط حيث كانت الأراضى فى يد عـدد قليل من الأشراف والنبلاء ورجـال الكنيسة ، بينما كان سائر السكان من المزارعين بمثابة الأقنـان الذين يعملون فى هـذه الأراضى لصـالح تلك الفئات القليـلة .

فأخذ الفاتحون فى تجزئة الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة ، وزعت على الفاتحين إلى جانب سـكان البلاد الآخرين الذين أصبح لهم حـرية التصرف فى هـذه الأرض . وكان ذلك عاملا مهما فى تحقيق فكرة التضامن الاجتماعى بين السـكان .

وأصبحت هـذه الملكيات الصغيرة ركنا أساسيا فى دعم النهضـة الزراعية بالأندلس . وكان ملاك الأراضى من المسلمين والمسيحيين واليهود وغيرهم يؤدون بالتساوى ضريبة الخراج . وكان هـذا أيضا من العوامل التى ساعدت على تقدم النشاط الزراعى . ومنذ ولاية السمح بن مالك الخولانى ١٠١هـ أصبح مالك الأرض والمزارع شـبه شريكين فيها ، وكذلك أصبح العرب شركاء للكثير من الأسبان بعـد توزيع الأراضى بين عـرب الشام والبلديين فى ولاية أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ على أثر توزيع الشاميين على كور الأندلس إلى جانب البلديين(١٣) .

وقد استطاع المسلمون فى الأندلس أن يوفقوا بين بيئتهم القـديمة وبين البيئة الجديدة التى استقروا فيها ، ولم يكن تقدمهم فى مجـال

---

(١٢) انظـر : المـاوردى : الأحـكام السلطانية ص ١٣١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(١٣) انظـر : ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٦١ — ٦٢ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٧ .

الزراعة باقل من تقدمهم فى مجـــال الحرب والجهاد ، ونجحوا فى تحويل اجزاء كبيرة من الأراضى المقفرة بالاندلس إلى أراض صالحة للزراعة(١٤).

كما ادخلوا محاصيل جـــديدة من المشرق مثل النخيـــل والرمان الذى ادخلت زراعته من الشـــام ــ وخاصة من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام ابن عبد المـــلك ــ فى عهد عبد الرحمن الداخل واستطاع سفر بن عبيد الكلاعى وكان من جند الأردن ، تهجين نوع منه ينسب إليه فسمى بالرمان السفرى . ويصف ابن حيان هذا النوع بأنه ( الموصوف بالفضيلة المقدم على اجناس الرمان بعـــذوبة الطعم وغزارة المـــــاء وحسن الصورة ، وكذلك النارنج الذى لازال يعرف فى الأسبانية بنفس الاسم Nakangi (١٥) .

والقطن الذى انتقلت زراعته إلى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، واشتهرت عدة بلاد بزراعته وعلى رأسها إشبيلية ، وكذلك التفاح الذى تكثر زراعته فى جبال سيرانيفادا ، والبطيخ السندى الذى لازال يعرف فى الاسبانية باسم ساندبا Sandia (١٦) .

كما أدخلت زراعة قصب السكر حيث يفهم من كتابات بعض المؤرخين الأندلسيين مثل الرازى وعريب بن سعد القرطبى انه كان ينتج بكميـــات كبيرة بالاندلس فى القرن الرابع الهجرى ، وكان من أهم مراكز زراعتـــه البيرة ، ومالقة ، واشبيلية(١٧) .

---

(١٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .
(١٥) عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الأندلس فى القـــرن الرابع الهجرى ص ٦٠ .
(١٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٧ ، د. السيد سالم : قرطبـــة حاضرة الخلافة ص ٥٠ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا جـ ١ ص ٦٨ ــ ٦٩ .
(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٣ ، ٣٨٤ .

وكذلك الأرز الذى ادخلت زراعته فى شرق الاندلس وخاصـة فى منطقة بلنسية التى تعتبر اليوم هى المستودع الرئيسى للأرز فى أسبانيا ، وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه ويسمى ( بائليا Paella ) .

ويلاحظ أن كلمة أرز قـد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بنفس اللفـظ Arroz وكذلك ادخلت بعض الخضروات التى لازالت تحتفـظ بأسمائها العربية أيضـا كالباذنجان والخرشوف والزيتون والزعفران ، والسـلق وغير ذلك(١٨) .

وقد كانت اكثر حاصلات البـلاد مما تجود زراعته فى حوض البحر المتوسط مثـل القمح والشـعير والقطن والكتان والأرز والبقول والموالح والكروم والزيتون والموز والتين والخـوخ وغيرها . يقول الرازى مؤرخ الأندلس : « وفواكهها تتصل طـول الزمان فـلا تكاد تعـدم »(١٩) . هـذا إلى جانب الغابات الكثيرة المنتشرة فى أنحاء البلاد مثل أشـجار البلوط والسنديان والصنوبر وغيرها(٢٠) .

وكان مما سـاعد على تقـدم الزراعة بالأندلس فى العصر الأموى الاهتمام بشؤون الرى مثل إنشاء الترع والجسور ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر إلى غير ذلك .

---

(١٨) الحميرى : الروض المعطار ص ٢١ — ٢٤ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسـلامية العربية ص ٣٤٥ .

(١٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٨٣ .

(٢١) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٣٠٩ .

وهناك ظاهـــرة طبيعية أحسن المسلمون استغلالها فى الأندلس فى الاندلس فى مجال الزراعة ، وهى كثرة تساقط المياه من المرتفعات الجبلية فكانوا يوسعون القيعان حتى تصبح أحواضا فسيحة تمتلىء بالمياه ، وترفع منها بالنواعير ( السواقى ) لتستخدم فى الرى . ولا تزال إحـــدى هـــذه القيعان ( الأحواض ) قائمة حتى اليوم فى جنوب بلنسية باسبانيا(٢٢) .

ومما يدل على إبداع المسلمين فى مجال الرى ( محـــكمة الميـــاه ) التى كانت تعقد ن الاهالى لتنظيم توزيع الميـــاه على الفـــلاحين ، وهى محكمة اهلية لا دخـــل للحكومة بهـــا ، وكان حكمها نافـــذا على الجميع ، وما زال هـــذا التقليـــد معمولا به فى بلنسية حتى اليوم حيث تعقد المحكمة كل يوم خميس عنـــد الظهر فى نفس المكان القـــديم الذى كانت تعقد فيـــه بجوار مسجد المدينة الذى تحول بعـــد الاســـتيلاء عليها من الإسبان إلى كنيسة . ويلاحظ فى هـــذا الصدد أن أسماء كثير من أدوات الرى والزراعة قـــد دخلت فى اللغة الاسبانية ولازالت إلى اليوم مثل الناعورة Noria والساقية Acequia (٢٣) . كما كانوا يستخدمون الدواليب ومنها نوع كانوا يسمونه ( الخطارة )(٢٤) .

وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف ( بالتقويم القرطبى ) أصبح

---

(٢٠) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢٢) د. حسين مؤنس : رحلة الأندلس ص ٢٧٥ ط ١ مطـــابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٢٣) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٧ .

(٢٤) انظر : الخشنى : قضـــاة قرطبة ص ٧٦ .

دليـلا تحـدد على اساسه مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة ، واخذه عنهم غيرهم من الأمم(٢٥) .

كما عرف الأندلسيون ( نظـام القلب والتـذييل ) لإعـداد الأرض للزراعة ، واستخدموا الثيران فى حـرث الأرض ، وكانوا يسمون المحصول باسم ( الرفـع ) ، ويسمون المرعى باسم ( المجشر )(٢٦) .

وقـد وجـد هناك نظام إقطاع عسكرى حيث يعطى جنـد الجيش اراضى تقطع لهم ليزرعوها بأنفسهم أو عن طـريق غيرهم ، ويتعيشـون منها . وظل هـذا النظام ـ كما يبدو ـ معمولا به حتى جـاء المنصـور ابن أبى عامر فاستبدله بنظام الأرزاق والرواتب فى الجيش ، وقـد أفـاد هـذا النظام الجديد فى القضـاء على العصبية القبلية والجنسية بين فرق الجيش المختلفة من عرب وبربر وصقالبة ، وظل الحال على ذلك حتى جاء المرابطون فاعادوا نظام الإقطاع العسكرى من جديد فى القرن الخامس .

ويفصل ذلك الطرطوشى فيقول : « وسمعت بعض شيوخ الأندلس من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ، وأمر العدو فى ضعف وانتقاص لمـا كانت الأرض مقطعة فى أيدى الأجناد ، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربى التاجر تجارته . وكانت الأرض عامرة ، والأموال وافـرة ، والأجنـاد متوافرين ، والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر فى آخر أيام ابن أبى عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال ، وقدم على الأرض جباة يجبونها فاكلوا الرعايا ، واجتاحوا اموالهم واستضعفوهم ، فتهاربت الرعـايا ، وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضـعفت

---

(٢٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٠٨ .

(٢٦) انظر : الخشنى : قضـاة قرطبة ص ٩٣ ، المراكشى : المعجب ص ٢١ .

الاجناد وقوى العـــدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العـــدو فى ظهـــور إلى أن دخلهـــا المتلثمون ( المرابطون ) فردوا الإقطاعات كما كان فى الزمان القديم »(٢٧) .

وقد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضيها وبساتينها وجنانها العامة التى كانت متاحة للجميع يتمتعون بهـــا ، ولذلك فقد تميز الأندلسيون بنـــزعة جمالية ، وميل كبير لحب النبات والورود والأزهار وزراعة الأشـــــجار . ونلمس ذلك بوضوح فى البيوت والدور ، فضـــلاً عن العمائر والقصور ، بل حتى فى افنيـــة المســـاجد . ودليـــل ذلك أن مذهـــب الأوزاعى الذى اعتنقوه قبل مذهب مالك كان يبيح غرس الأشجار فى صحن المســـجد ، ورغم تحولهم إلى مذهب مالك فى الأعم الأغلب الذى لا يجيز ذلك ، إلا أنهم ظلوا فى هـــذه المسألة على مذهبهم السابق . ويتضح ذلك من قـــــول ابى الحسن النباهى « ومن المســـائل التى خالف فيها أهل الأندلس قديما مذهب مالك بن انس ، هى انهم اجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها وهو مذهب الليث بن سعد ، واجازوا غرس الأشجار فى المساجد وهـــو مذهب الأوزاعى »(٢٨) .

ولازالت هـــذه العـــادة موجودة فى اسبانيا إلى اليوم حيث توجـــد اشجار الليمون والبرتقال فى صحن جامع قرطبـــة ، وفى بعض الكنائس ايضـــا(٢٩) .

---

(٢٧) سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢٨) المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص ١٤٩ . نشر ليفى بروفنسال القاهرة سنة ١٩٤٨م .

(٢٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٩٩ .

**الصـــــناعة :**

اما عن الصناعة بالأندلس فقد كان للمسلمين ايضـا أثـر كبير فى نهضتها وترقيتها وقــد ساعدت على ذلك عـدة عوامل منها :

١ — استغلال المسلمين لثروات البـلاد الطبيعيـة ، وبذلهم جهودا كبيرة فى هـذا المجال (٣٠) .

٢ — روح التسـامح التى ابداها المسلمون تجـاه أهـل الحـرف والصـنائع .

٣ — تشجيع المسلمين للصناعة والابتكار فيها لصناعة ما تحتـاج إليــه البـلاد .

ويرى ابن خلدون : أن رسوخ الصناعات فى الأمصار إنما هو برسوخ الحضـارة ، وطول أمدها ، ويتخذ من الأندلس مثالا فيقول « كالحـال فى الاندلس لهذا العهد . فإنا نجد فيها الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسـخة فى جميع ما تدعو إليه عوائد امصارها ، كالمبانى ، والطبـخ ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار ، وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضـاع فى البنـاء ، وصـوغ الآنيـة من المعـادن والخزف ... وسـائر الصـنائع التى يدعو إليها التـرف وعوائده ... وما ذاك إلا لمـا قدمناه من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جـرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر ايضـا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت

---

(٣٠) اشار المقـرى إلى كثير من هـذه الثروات فى نفح الطيب ج ٦ ص ٧٠ — ٧١ ) .

جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق »(٣١) .

وهكذا احتضن المسلمون حضارة الأسبان وشملوا اهـل الصـناعة والفنون المختلفة برعايتهم وعنايتهم ، وظل الصناع وأرباب الحرف المختلفة يسيرون فى نفس الطـريق الذى كانوا يسيرون فيـه من قبـل مع بعض التغيرات الطفيفة فى تكييف منتجاتهم وفقـا لـما يقتضيه الوضع الجديد ، ثم ما لبث أكثر هؤلاء أن وجـدوا انفسهم يخالطون المسلمون ، ويشاركونهم ويتعاملون معهم ، فاقبلوا على الثقافة العربيـة ، ودخـل الكثير منهم فى الإسلام ، وتحققت بذلك النقطة الحضارية الهائلة فى العصر الأموى وخاصة فى عصر الخلافة ، وصيغ فى ذلك العصر فن اسلامى أندلسى اخـذ يتدرج فى النمو والتطور(٣٢) .

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض الصناعات فى الأندلس فإننا نجـد منهـا :

**صناعة المنسوجات** : التى انتشرت فى انحـاء كثيرة من البـلاد نظرا لتوافر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف ، وكذلك الأصباغ اللازمة . فقد كان القماش المعروف باسم ( بوقلمون ) يصنع فى مدينة شنترين غربى الأندلس بالوانه المتغيرة(٣٣) . كما كان

---

(٣١) المقدمة ص ٢٨٢ فصل فى أن رسوخ الصنائع فى الأمصار إنمـا هو برسوخ الحضارة وطول امدها .

(٣٢) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٧٨ .

(٣٣) قيل : فى تفسير كلمة ( بوقلمون ) انها اسم للحرباء باليونانية ، وقيل : إنها اسم دابة بحرية لها وبر كانت تعيش فى المحيط الأطلسى غرب الأندلس ، وكانت تحتك بحجارة الشاطىء ، فيقع منها وبـر فى لين الحـرير ولون الذهب ، فيجمع وينسج فى مدينـة شنترين ثيـابا تتلون بعدة الوان ( المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٤٠ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣١ ) .

يصنع فى الاندلس أيضـا النسيج الحريرى المعروف باسم ( العتـابى ) الذى انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس (٣٤) .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى الأندلس نظرا لكثرة اشجار التوت ، حيث يشـير المؤرخ الأندلسى عريب بن سـعد القرطبى ( ت ٣٦٩هـ ) إلى قيام النسـاء بتربية دود القـز ، ورعاية بيضـه ، وانتقاء شرانقه من شهر فبراير حتى يفقس فى شهر مارس من كل سنة(٣٥) .

وكان من اهم مراكز هـذه الصناعة قرطبة والمرية التى يقدر المقرى عـدد الأنوال فيها فى عصره ( ت ١٠١٤هـ ) بنحو خمسة آلاف وثمانمائة نـول(٣٦) .

كما اشتهرت مرسية بصناعة الحلل من الحـرير والديباج ، ويذكر ابن سعيد المغربى عن الحضرمى قوله « وكما يتجهز الفارس من تلمسـان ، تتجهز العروس من مرسية »(٣٧) .

وحينما زار الرحـالة ابن حوقل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى اشـاد بانسجة الديباج الاندلسية ، وبالسروج الحريرية ، وذكر انها فاقت فى صنعتها أى مكان فى العالم ، وأنها تزيد فى كمياتها على ما ينتج فى بلاد العـراق(٣٨) .

كما اشتهرت صناعة المنسوجات القطنية وخاصة فى مدينة إشبيلية

---

(٣٤) سمى بذلك نسبة إلى محلة العتابية فى غرب بغـداد وهى موطن صناعته الأصلى .

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٦ .

(٣٦) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٣٧) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣٨) صـورة الأرض ج ١ ص ١١٤ .

التى كان يزرع فيها القطن ، وكان يصـنع بهـا نوع من الأقمشة يقى من الأمطار . كما وجـدت أيضـا صناعة المنسوجات الكتانية البديعة ، وكانت هنـاك أنواع منها لا يفرق بينها وبين الكاغد الجيـد المصـقل فى الرقة والبياض ، وكان من أهم مراكز صناعتها سرقسطة ولاردة وباجة(٣٩) .

كما وجدت صناعة الصوف وخاصة فى سرقسطة وجنجالة ، ولاتزال اسبانيا حتى اليوم تشتهر بصناعة الأغطية ( البطاطين ) والسـجاد ، ولعل الصوف الأسبانى المعروف باسم ( مارينو ) ينسب إلى قبائل بنى مرين الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس فى القرنين السابع والثامن الهجريين ، وكانت لهم مراع كثيرة لتربية الأغنام أشار إليها لسـان الدين ابن الخطيب فى كتابه ( نفاضـة الجراب فى غلالة الاغتراب ) .

أما صناعة السجاد والبسط فكان من أهم مراكزها مرسية وبسـطة وتنتالة فى شرق الأندلس ، ولعل كلمة ( الفومبرا ) الإسبانية التى تعنى سجادة قد جاءت من الكلمة العربية ( الخمرة ) أى الحصيرة أو من الحمرة لأن اللون الأحمر كان هو الغالب عليها(٤٠) .

وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة فى أوربا وحـرص الكثير من المـلوك والأمراء والأغنياء فيها على اقتنائها ، ولاتزال هنـاك نماذج فى بعض المتاحف الأوربيـة تشهد بمدى براعة الأندلسيين فى هـذه الصناعة مثل متحف فيجو بقطالونيا فى أسبانيا ، ومتحف الأكاديمية الملكية بمدريد ، ومتحف الفن فى بروكسل ، وكاتدرائية أوتون بفرنسا(٤١) .

---

(٣٩) الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .
(٤٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .
(٤١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

وقد كانت هناك دور خاصة لصناعة الملابس المختلفة للأمراء والخلفاء ورجـال الدولة والجند تسمى دور الكسوة أو دور الطـراز ، ويذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان أول من اتخذ من الأمويين دار للطراز بالأندلس . وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وفى ايامه اتخـذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق »(٤٢) .

يقول ابن خلدون عن الطراز « من ابهة الملك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم اسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعـدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب إلحاما وسدى بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيـوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقـدير ذلك ، ووضـعه فى صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصـدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه ، إذا قصـد تشريفه بذلك أو ولايتـه لوظيفـة من وظـائف دولتـه ... الخ »(٤٣) .

**صـناعة السـفن والأخشـاب :**

كما اشتهرت الأندلس بصـناعة السفن وسـاعد على ذلـك كثرة الغابات المنتشرة بهـا . وقد كانت صـناعة السفن والمراكب من الصناعات القديمة الموجودة قبل فتح الأندلس ، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التى كانت منتشرة فى عـدة أماكن مثل طرطوشـة وطركونة ودانية وبجانة

---

(٤٢) أعمال الأعلام ص ٢٠ ، دائرة معـارف الشـعب (٦٤) ص ١٩٠ هامش ١ .

(٤٣) المقدمة ص ١٨٦ — ١٨٧ .

وإشبيلية والجـزيرة الخضراء ، ولما قـدم عبد الرحمن الداخـل اتخـذ سـنة ١٤٤هـ دورا لصناعة السفن فى المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب بالإضـافة إلى توفر معدن الحـديد الذى تحتاج إليه وخاصة فى شلطيش(٤٤) .

وقد ازدهر فن النحت على الخشب ووجـدت أمثلة رائعـة للتحف المصنوعة منه مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ، ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جـامع اشبيلية ومقصورته . وقـد مر ذكر شىء من ذلك بالتفصيل عنـد الحديث عن بناء المساجد وتعميرها(٤٥) .

كما تمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى صـناعة العلب الخشبية المطعمة بالعـاج التى كانت تتخـذ لحفظ قنينات العطـر والمسك والعنبر والحلى ، وخاصة لزوجات الخلفـاء والأمراء وجواريهم .

وقد ازدهرت هـذه الصناعة بصفة خاصـة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر وكانت هناك دار للصناعة بقرطبة أسست على ما يبدو فى عهد أبيـه الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينـة الزهراء . ثم ما لبثت دور الصناعة أن أخـذت تنتشر فى أماكن أخرى . ومن أروع الأمثـلة علبـة صنعت بأمر الحكم لزوجته صبح بيـد درى الفتى الصقلبى سنة ٣٥٣هـ ، وصندوقان آخران صنعا فيها أيضـا لها سنة ٣٥٥هـ .

ويبدو أن هـذه الصناعة قـد توقفت أو أصابها الذبول بعـد وفاة الحـكم إلى أن كانت أيام عبد المـلك بن المنصور بن أبى عامر حـاجب الخليفة هشام المؤيد الذى أحياها من جـديد ، ومن أمثـلة ذلك صـندوق له غطـاء على شـكل هرم ناقص صـنع لعبـد الملك سنة ٣٩٥هـ على

---

(٤٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغـرب والأندلس ص ٢٤٩ ؛
د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .
(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٠ .

يــد نمير بن محمد الفتى العامرى ، وشاركه فى صناعته صانعان آخران من الصقالبة وهما عبيــدة وخير .

وزخارفه تتألف من جامات مفصصة تتضمن منــاظر من حياة البلاط الأموى ، وأخرى تمثل مناظر صــيد ومبارزات . ومن الأمثلة المتبقية صندوق من العاج صنع بمدينة قونكة فى طليطلة — وهو محفوظ فى متحف برغش — عليــه رسوم تمثل مناظر صــيد وحيوانات تتصــارع ، موزعة فى ثلاثة صــفوف أفقيــــة وعلى أعلى الصــندوق نقش بالخــط الكوفى نصــه « ... باقيــة لصاحبه أطال الله بقــاءه مما عمل بمدينة قونكة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله »(٤٦) .

**صــناعة الزجــاج :**

ومن الصناعات التى ازدهــرت فى الأندلس صــناعة الزجاج التى اشتهرت بهــا مالقة والمرية ، وخاصة صــناعة الأكواب والكئوس التى تعلق فى الثريات التى توضع فى المســاجد والقصور(٤٧) .

ونعتقد بأن هــذه الصناعة قــد أخذت تتقدم منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وخاصة بعــد دخول زرياب إلى الأندلس ، وتفضــيله استخدام الأكواب الزجاجية الصافية فى تقــديم المــاء والشراب ، بدلا من أكواب الذهب والفضــة والمعادن الأخرى(٤٨) .

**صــناعة الأســلحة :**

كما تقدمت صناعة الأسلحة فى الأندلس ، وأنتجت بكميات كبيرة ، وساعد على ذلك كثرة الحروب التى خاضها المسلمون ضــد أعــدائهم ،

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٤٧) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .
(٤٨) انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٤٢٧ .

وكذلك التى خاضوها ضد بعضهم البعض ، هذا بالاضافة إلى الاسلحة المستوردة . وقد وجدت انواع شتى من الاسلحة وعلى راسها السيوف والرماح والدروع والخوذات وغيرها . وقد ذكر ابن سعيد المغربى أن من آلات الحرب فى الأندلس : « التروس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » وقال : إن السيوف البرذليات — نسبة إلى مدينة برديل وهى بوردو الحالية بفرنسا — مشهورة بالجودة ، والفولاذ الذى باشبيلية إليه النهاية »(٤٩) .

وكان الفولاذ الأندلسى مشهورا بجودته ، ومن اهم مراكز صناعته طليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وكانت تصنع منه انواع كثيرة من الاسلحة .

**صناعة السكر :**

ومن الصناعات التى وجدت فى الاندلس ايضا صناعة السكر الذى كان يستخرج من القصب ، حيث كان إنتاجه وفيرا ، وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، كما اشار إلى ذلك الرازى وعريب بن سعد . وكان من اهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيرة ومالقة والمنكب وجليانة وإشبيلية .

وقد استمر إنتاج السكر وفيرا فى الأندلس حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م لدرجة ان الإسبان سمحوا لعدد من المدجنين (المسلمين المعاهدين) المشتغلين بزراعته بالبقاء ، ولكن كثيرا منهم رفض ذلك وغادر اسبانيا مما ترتب عليه تضاؤل إنتاجه(٥٠) .

---

(٤٩) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٤ .
(٥٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

**صناعة الورق :**

ومن الصناعات التى اشتهرت فى الأندلس ايضا صناعة الورق ومن المرجح أن تكون هذه الصناعة قد وجدت فى العصر الأموى ، وخاصة بعد تقدم الحركة العملية وانتقلت إليها من المشرق حيث يذكر الإدريسى فى كلامه عن مدينة شاطبة : ( انه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وانه يعم المشارق والمغارب )(٥١) .

وكذلك اشتهرت بلنسية وطرطوشة بصنعه أيضا ، ويبدو من المخطوطات المحفوظة فى المكتبات الإسبانية أن الورق كان يصنع من الياف القطن والكتان ونبات الشهدانج(٥٢) .

ويعزى إلى المسلمين انهم كانوا اول من ادخل الورق إلى أوربا عن طريق الأندلس ، وكانوا يستخدمون الرق قبل ذلك ، ولعل شاطبة كانت اول مكان فى قارة أوربا يصنع فيه الورق(٥٣) .

وكان الورق الشاطبى مشهورا فى العالم الإسلامى كله ، وبلغ من جودته أن بعض الكتاب كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، واشتهر إلى جانب جودته برخص ثمنه . وقد عرف الأندلسيون إلى جانب الكاغد نوعا آخر من الورق المتين السميك الشبيه بالقماش وهو الرق المعروف بالبارشمان ، وكان مطلوبا فى أوربا وخاصة لكتابة الأناجيل والوثائق الكنسية . وقد قلده الايطاليون بعد ذلك .

---

(٥١) الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٥٢) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٢٨ .

(٥٣) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٦٦ هامش ٢ ، ويظهر ان الصين كانت أول من عرف صناعة الورق بنحو قرن قبل الميلاد .

وإلى جانب صناعة الورق فقد تقدمت صناعة ادوات الكتابة وما يتصل بهـا من حبر واقـلام وشـمع للأختـام وغير ذلك . وقـد بـرع الاندلسيون فى صـناعة الاحبـار من البيئـة وعرفوا المعـدنى والنبـاتى والمطبـوخ وغير المطبـوخ ، والبسـيط والمركب منهـا ، وعرفوا اقلام الغاب وكانوا يسمونها ( الانبوب ) ، بل عرفوا اقلام الحبر ، وتفننوا فى صناعة المحابر من الزجاج والبلور والرخام .

وكانوا يزخرفونها ويكتبون اسم صاحبها عليها بواسطة الحفر مع بعض أبيات من الشعر ، ومنها محابر على هيئة الخنجر فى قرابه توضع فى حزام الثوب مع الاقـلام(٥٤) .

**صـناعة التماثيل والتحف المعدنية :**

كما اشتهرت فى الاندلس صـناعة التماثيل المعدنية ، وتشير كتب التاريخ الاندلسى إلى تلك التماثيل التى كانت تزين قصور الزهراء . فيذكر المقرى : ان الخليفة الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل على صورة إنسان والذى جلب من القسطنطينية فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصـعة بالـدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة على صورة أسد وبجـانبه غزال وتمساح وفى المقـابل صورة ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحـداة ونسر ... كل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج المـاء من أفواهها »(٥٥) .

وقد عثر فى الحفائر التى اجريت بمدينة الزهراء على تمثـال لوعل او غزال من البرنز فقـد قرنيه وهو محفوظ فى متحف قرطبة للآثار ، ولعله هو الغـزال الذى اشار إليه المقرى عنـد ذكره لهذه التماثيل الذهبيـة

---

(٥٤) د. حسنين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٤ .

(٥٥) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٦ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .

الحمراء ، ويبلغ ارتفاعه نحو اربعين سنتيمترا ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر او حلقات متصلة بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى إلى فمه عن طريق أنبوبة تمتد من وسط قاعدته وتصعد إلى رقبته(٥٦) .

وكذلك ازدهرت صناعة الثريات البرونزية . وقد ذكر المؤرخون أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون ( النحاس الاصفر ) عدد كئوسها سبعة آلاف وأربعمائة وخمس وعشرون كأسا ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمسة كئوس ، منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط . وأكبرها الثريا الضخمة المعلقة فى قبة المحراب وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا .

كما كان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من هذه الثريات التى احترقت عندما اشتعلت النيران فى هذا المسجد فى أثناء الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس الهجرى . وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بأرض هذا الجامع على ست ثريات اكبرها على شكل طبق مستدير مخرم فى شكل هندسى بديع ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكئوس التى تضاء بالزيت . وهذا المحيط مزود بحلقات صغيرة تعلق فيها السلاسل(٥٧) .

وكذلك ازدهرت صناعة التحف المصنوعة من الفضة والبرنز ، وقد وصلت إلينا تحفة فضية من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة ، الذى يبدو أن القطلانيين سلبوه من قرطبة من بين ما سلبوه بعد تخريبها فى القرن الحادى عشر الميلادى . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على انه صنع بأمر الخليفة الحكم المستنصر لابنه هشام المؤيد ،

---

(٥٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٥٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٦ .

على يدى جؤذر ، ونصه « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ... مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

وهذا الصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة ، وقاعدته مستطيلة يبلغ طولها ٣٩سم ، وعرضها ٢٣سم ويحتفظ بمفصلتين دائريتين وقفل ومقبض رائع الزخرفة(٥٨) .

كما عثر على مهراس كبير ( هاون ) من البرنز محفوظ بمتحف فيلانونيا ، وهو مزود بحلقتين ونتوءات مثلثة على شكل مناقير طيور تدور ببدنه ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى مطموس لا تظهر منه إلا كلمة ( لصاحبه ) . ويمكن إرجاعه إلى عصر الخلافة .

كما تحتفظ كنيسة سان سلفادور بإشبيلية بضبتى باب من البرنز المذهب موضوعتين على أحد أبوابها ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضعها ، وتتألف كل منهما من حلقة سداسية الشكل سعتها ٤١سم معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثمن الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات جميلة ، وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرى عند حديثه عن أحد أبواب قصر قرطبة حيث قال : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد ابتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه »(٥٩) .

---

(٥٨) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .
(٥٩) نفس المرجع ص ١٨٧ .

**التجـــــارة :**

ازدهر النشاط التجارى فى الاندلس بعـــد الفتح ، حيـــث أصبحت البلاد عامرة بالسكان ، وتقدمت الزراعة ونهضت الصناعة ، وغدت الأموال كثيرة فى أيدى الناس . ويذكر بعض الباحثين ان عـــدد السكان فى عصر الرومان كان يتراوح بين ثلاثين او اربعين مليونا ، ولكن ليس لدينا وثائق تاريخية أو إحصاءات رسمية تؤكد ذلك ، ولم نقف على عددهم بعد الفتح . وإن ذكر أن دار السكة بقرطبة كان يضرب فيها كل عام ثلاثة آلاف ألف درهم واربعمائة الف دينار ، وهـــذا المبلغ الذى كان يسك لا يتناسب مع الثلاثين او اربعين مليونا ولذلك نعتقد بأن فى هـــذا العـــدد شىء من المبـــالغة فى التقـــدير .

ودليل ذلك ان البعض قد قدر عـــدد ســـكان اسبانيا سنة ١٧٦٨م بنحو تسعة ملايين ومائة وستين ألفـــا ، وفى أوائل القـــرن الثامن عشر بنحو عشرة ملايين ، وفى منتصف القرن التاسـع عشر بنحو اثنين وعشرين مليونا وثلاثمائة وثلاثين ألفا(٦٠) .

وعلى فرض أن المسلمين الذين غادروا أسبانيا بعـــد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م كانوا نحو خمسة ملايين على أكثر تقدير(٦١) . وأن من بقى منهم وتنصر كان نصف هذا العدد او حتى مثله — وهذا غير معقول — فإن تقـــدير عـــدد سكان الأندلس بنحـــو ثلاثين أو اربعـــين مليونا فى عصر الرومان يظل تقديرا مبالغا فيـــه إلى حـــد كبير .

---

(٦٠) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ١٩ — ٢٠ .

(٦١) انظر : د. احمد شلبى : التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٨١ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢ ، عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٤٠٢ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد قدر بعض الباحثين الاسبان ( المهندس المعمارى توريس بلباس ) عدد سكان قرطبة فى عصر الخلافة بما يقرب من مائة الف(٦٢) وهذا رقم متواضع بالنسبة لسكان العاصمة الأندلسية .

وعى أية حال فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية فى الأندلس ، وكان لموقع الأندلس على البحر المتوسط ، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربى أثر كبير فى نشاط التجارة عن طريق الموانىء الأندلسية المتعددة التى تصدر منها العديد من المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل ميناء إشبيلية الذى كان يعد أعظم موانىء الأندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى أوربا كالقطن والزيتون والأرز والفضة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك .

وكان هناك طريق برى من طرق التجارة الخارجية يبتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس عن طريق نهر الرون وممر قطلونية ، ثم يستمر من الأندلس إلى طنجة عن طريق جبل طارق إلى بلاد المغرب ، ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين(٦٣) .

وقد ذكر ابن حوقل أن من أهم المنتجات التى كانت تصدر من الأندلس : الملابس المطرزة التى تعمل فى الأندلس وتحمل إلى مصر وخراسان وغيرها ، والأصواف والأصباغ والحرير واللبود الفاخرة ، والأردية الكتانية التى تصنع فى بجسانة ، والورق الأبيض السميك من مدينة شاطبة ، والتين الجاف من مالقة ، والخزف المذهب الذى اشتهرت به أيضا ، والكبريت الأحمر من مرسية والأسلحة من طليطلة(٦٤) . كما كان يأتى عن هذا الطريق

---

(٦٢) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ص ١٧٦ .
(٦٣) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٣١٠ .
(٦٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج٣ ص ٥١٢ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٦٥ .

الرقيق الأبيض من أوربا ، وكان للتجار اليهود فى ألمانيا وفرنسا والأندلس دور كبير فى تجارته .

وقد كانت التجارة بين الأندلس وبلاد الفرنجة مزدهرة وخاصة فى أوقات السلم وكانت هناك ثلاثة طرق : أولها : الطريق البرى الذى يمر عبر جبال البرانس عن طريق عدة ممرات من أهمها : ممر باب الشزرى ( الرونسفال ) وكانت القوافل التجارية تعبر هذه الممرات أو الأبواب إلى موانىء جنوب فرنسا وخاصة بروفانس ، وسبتمانيا ، ومارسيليا ، وناربون التى كانت من أهم المراكز التجارية فى بلاد الفرنجة .

وثانى هذه الطرق : الطريق البحرى عبر ساحل أسبانيا الغربى المطل على بحر الظلمات ( المحيط الأطلسى ) ، وهذا الطريق لم يسلك إلا منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بعد القضاء على خطر النورمان ، وكانت غاراتهم على هذا الساحل الغربى تشكل خطرا كبيرا .

وأما الطريق الثالث : فيمر عبر الساحل الشرقى للأندلس المطل على البحر الرومى ( المتوسط ) ثم تنقل البضائع عن طريق الممرات عبر جبال البرانس ، أو عن طريق الموانى الجنوبية لفرنسا .

كما نشطت التجارة بين الأندلس وإيطاليا ، وكانت الجزائر الشرقية مثل ميورقة ، ومنورقة ، عرضة لهجمات القراصنة البحريين الذين كانوا يتعرضون للسفن التى تسير محملة بالسلع والبضائع . وقد حملت هذه الغارات أهالى هذه الجزر على طلب الحماية من شارلمان ملك الفرنجة الذى طلب من أمراء الأندلس عقد معاهدة بحرية للاشتراك فى تأمين هذه السفن من هجوم هؤلاء واستمرت ثلاث سنوات(٦٥) .

وقد كان لأهل الشام دور كبير فى تجارة البحر المتوسط حيث كانت لهم جاليات فى كثير من الموانى المطلة على هذا البحر ، كما كان

---

(٦٥) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

لليونان واليهود دور فى هـذه التجارة أيضـا . وكانت هناك جماعات من التجار المغاربة الذين يعملون فى نقل التجارة من إفريقيا إلى الأندلس وبلاد غالة ( فرنسا ) وتسميهم بعض المصادر ( تجار من وراء البحر )(٦٦) .

هـذا بالإضافة إلى التجار الأندلسيين الذين قاموا ولا شك بدور كبير فى هـذه التجارة أيضـا ، يقول ج. ب ترند « وقد ظلت اسبانيا المسيحية مدة خمسة قرون محصورة فى دائرة الإسلام الاقتصادية ، فكانت التجارة احتكارا فى أيدى المسلمين واليهود ، وظلت الممالك المسيحية فى اسبانيا لا تستعمل إلا النقود المصرية والفرنسية طوال أربعة قرون تقريبا »(٦٧) .

وقد اخـذت العلاقات التجارية تنمو نموا ملحوظا بين الأندلس وبلدان شتى ، ونشطت حركة التبادل التجارى بينها ، وكانت السفن والمراكب التجارية فى موانىء الأندلس المتعددة كإشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية تعمل بين كثير من مدن البحر المتوسط ، وتحمل المنتجات الأندلسية المختلفة من الأقمشة والسجاد والخزف والجلود والأسلحة والورق والتوابل وزيت الزيتون وغيرها .

وكانت هـذه العلاقات متواصلة مع مصر بخاصة ، وبدات تاخـذ منـذ القرن الخامس شكلا قويا ونشطا ، ونجـد فى النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك ، فقـد عثر فى مدينة المرية على شاهد قبر يحمل اسم تاجر من مدينة الاسكندرية وافته المنية فى هـذه المدينة التى كانت

---

(٦٦) لويس ارشيبالد : القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ١٢٠ ، د. حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٥٠ .

(٦٧) تراث الإسلام جـ ١ ص ٥ ، ٦ لجنـة الجامعيين لنشر العلم سنة ١٩٨٣م القاهرة .

تشتهر بصناعة المنسوجات سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م(٦٨) .

وقد كان من عوامل نشاط التجارة فى الأندلس إنشاء دار لسك العملة أو النقود فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث يذكر أنه ضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخول المسلمين الأندلس ، وكان أهل الأندلس يستخدمون قبل ذلك النقود الرومانية والقوطية ، وعلى رأسها الصولدى الرومانى Solida (٦٩) .

(٦٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٦ — ٧٧ ، د. متى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٦٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٩ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٦ . ويذكر أن موسى بن نصير ضرب بعد دخوله طليطلة عملة ذهبية وأخرى برونزية فى دار السكة القوطية بها لصرف رواتب الجند ، وكانت هذه العملات تحمل نقوشا لاتينية على غرار العملات السابقة على الفتح فى أسبانيا والمغرب ، وإلى جانبها كتابات عربية أيضا . وقد سك الدينار على أساس الدينار الرومانى القديم ، وكان وزنه نحو أربع جرامات ، وتدور حول محيط وجهه عبارة ( ضرب فى أسبانيا سنة ٩٣هـ ) باللاتينية ، وتتوسط ظهره نجمة من ثمانية رءوس ، وتدور حول محيط ظهره عبارة معناها ( الله أحد ، والله عالم ، والله ليس له كفوا ) ، وهناك دنانير عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ووجه هذه الدنانير تقرأ فى وسطها عبارة ( محمد رسول الله ) ، وفى محيطها ( بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ) ، أما ظهرها فعليه كتابة لاتينية تدور حول محيطه . كما كانت هناك عملات ذهبية صغيرة هى النصف دينار ( ١٫٩٨ جرام ) ، والثلث دينار ( ١٫٣٠ جرام ) وتتميز بأن

—

كما كان من عوامل نشــاط التجــارة فى الأندلس أيضــا الاهتمام بإنشــاء المؤسسات ذات الصــبغة الاقتصادية التى ارتبطــت بالنشــاط التجارى . وتتمثل فى الخانات والوكالات والفنادق والقياسر . وكان التجار القادمون إلى الاندلس يجدون فى هــذه الأماكن مخازن لبضائعهم ، وحظائر لدوابهم ، ومقرا لنزولهم .

ولا شك ان الاندلس قــد شهدت فى العصر الأموى الكثير من هذه المؤسسات ، وإن كانت المصــادر التاريخية والأثرية لم تمدنا بالكثير عنها ، وإن أمدتنا بشىء عنها فى عصور تاليــة . ودليل ذلك ما يذكره الإدريسى من انه كان بالمرية وحــدها فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ( الثــانى عشر الميــلادى ) ما يقرب من تسعمائة وسبعين فندقا(٧٠) ، ويبدو أنها كانت فنــادق صغيرة تتألف من طابق واحــد أو طابقين عــلى الأكثر .

* * *

=

أوجهها تحمل فى وسطها صورا تمثل كرة قائمة على عمود فــوق خطين ثم كتابات لاتينية على الوجهين . ( د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٩٩ هامش ٤ ) .

وفى عهد عبد الرحمن الداخل سكت عملة باسمه لم تكن تختلف عن عملة الأمويين فى الشام من حيث الشــكل والوزن والنقش ، وقد انتشرت دور سك العملة بعــد ذلك حتى بلغــت أربع عشرة ( د. منى محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٣٣ ) .

(٧٠) أنظر دائرة معارف الشعب ص ١٤٣ — ١٤٦ . تاريخ الحضــارة الإسلامية العربية ص ٣٠٠ .

## ( موارد الدولة ونظامها المـالى )

لا شك فى أن للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات . فمن قواعد الاجتماع والعمران المقررة أنـه إذا كثرت الأموال فى أيدى الناس فإنهم يتوسعون فى الإنفـاق ، وينعمون بالعيش بصـفة عامة .

وقـد كثرت الأمـوال فى الاندلس فى العصر الاموى نتيجـة لتنوع مصـادر الدخل المختلفة من زراعة وصـناعة وتجـارة وثروات طبيعية ، بالإضـافة إلى الموارد الأخرى من خراج وجـزية وعشور وزكاة وغنائم .

وبالرغم من كثرة المعـارك والحروب التى خاضها الأمويون ضـد اعدائهم ومناوئيهم فى الداخل والخارج ، وبالرغم من الصراعات التى دارت بين المسلمين وبعضهم واستهلكت جـزءا كبيرا من مصادر الدخل . إلا أنه بقى الشىء الكثير الذى ادى إلى تعـدد مظاهر البذخ والتـرف فى شتى مناحى الحيـاة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من افراد الطبقة الخاصة كما أوضحنا ذلك فى الفصل الرابع عنـد الحديث عن مظاهر الحيـاة الاجتماعية .

لقـد كان الأمويون بعـد تأسيس دولتهم فى الأندلس يريدون إثبات وجودهم ، ومنافسة خصومهم من العباسيين والفاطميين ، وإظهار قوتهم وعظمتهم امام اعدائهم من المسيحيين . فاضفوا كثيرا من مظاهر الأبهـة والعظمة على دولتهم وخاصة عاصمتهم قرطبة . وساعدهم على ذلك كثرة الموارد والثروات المختلفة ، وإذا كنا قد تحدثنا عن الزراعة والصـناعة والتجـارة فإننا نتحدث الآن بإيجاز عن أهم موارد بيت المـال :

١ ـ **الخـراج :** وهو مقـدار معين من المـال أو المحصول يفرض على الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل عن تقسيمها على المحاربين ،

وتركت بأيدى أصحابها بعد تعويض المحاربين عنها أو استرضائهم ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأرض السواد ، كما يؤخذ على الأرض التى صولح عليها أهلها وتركت لهم لقاء خراج معلوم(١) .

ويبدو انه كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج وهى : نظام المحاسبة وتكون نقدا أو نوعا أو الاثنين معا ، ونظام المقاسمة : وتؤخذ من المحصول .ونظام المقاطعة ( الإقطاع أو الالتزام ) ويكون ذلك بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمتقبلين(٢) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ . وكانت هناك أنواع من الأرض لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يفرض عليها العشر وتسمى الأرض العشرية وهى : الأرض التى أسلم عليها أهلها بدون حرب فيدفعون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يوضع عليها الخراج . والأرض التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين الفاتحين غنيمة فيدفعون العشر من غلتها .

(٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٧٨ .

ويرجع نظام الالتزام أو الإقطاع إلى عهد الرسول ﷺ حيث اقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا بقصد تعميرها فلم يعمروها ، فجاء آخرون وعمروها واختصموا إلى عمر بن الخطاب ، فجعلها للفريق الذى عمرها وقال « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » ( تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٧٦ ) .

وقد ذكر الماوردى الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع استغلال وإقطاع تمليك ، والأول ينقسم إلى موات وعامر ، والثانى : ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت فى دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام للمقطع ليتملكها ( الأحكام السلطانية ص ١٨١ — ١٨٢ ) .

ونظرا لأهمية الخراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الأمويون بشؤون الري والزراعة ، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور ، وغير ذلك . ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي تهدمت في عهد عبد الرحمن الداخل بسبب السيول فقام ابنه هشام بتجديدها ، وأنفق في ذلك اموالا عظيمة وكان يشرف على البناء ، ويعطي الأجرة للعمال بنفسه(٣) .

كما اهتموا باستصلاح كثير من الأراضي المقفرة وتحويلها إلى أراض خصبة صالحة للزراعة(٤) .

ومن هنا فقد كثرت حصيلة الخراج وخاصة في غير سنوات الجدب وقلة المطر . ولم ترد إلينا قوائم تبين مقدار الخراج في الأندلس حيث تشير معظم المصادر إلى الدخل بلفظ ( الجباية ) في كثير من المواطن(٥) . إلا ما ورد عن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط حيث ذكر المقري : أن الخراج كان قبله ٣٠٠ الف دينار مائة الف للجيش ومائة للنفقة في النوائب ومائة الف ذخيرة ووفر ( احتياطي ) فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثائرين وقل الخراج(٦) . ويبدو أن المراد بالخراج هنا ليس ضريبة الأرض وإنما الجباية ايضا .

٢ - الجزية : وهي مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم ( حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ) . وهي تسقط بالإسلام

---

(٣) المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٨ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٩٨ .
(٤) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٨ .
(٥) انظر المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٧ .
(٦) انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ .

بخلاف الخراج . ولفظها مشتق من الجزاء على اعتبار ان اهل الذمة يدفعونها فى مقابل ما يمنحون من الاستقرار فى المجتمع المسلم والتمتع بما فيه من مرافق وفى مقابل الأمن والحماية لهم ، وتعتبر فى مقابل الزكاة التى تفرض على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة .

وهى ليست دينا يؤخذ من ورثة الذمى بعد موته ، وليست ضريبة على الرءوس كما يشيع خصوم الإسلام ، لأنها لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على الكسب فلا تؤخذ من الفقراء والمساكين ، أو العاجزين عن العمل ، أو العميان أو المقعدين ، أو المجانين ، او ذوى العاهات ، أو الرهبان إلا إذا كانوا أغنياء(٧) .

وهى كما يقول الماوردى : فى مقابل استقرارهم فى دار الإسلام ، ويلتزم لهم فى مقابلها بحقين : **أولهما** : الكف عنهم ، **والثانى** : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين(٨) .

---

(٧) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨١ — ٤٨٢ . وتسمى أحيانا باسم الجوالى وتعنى هذه الكلمة فى الأصل جاليات اهل الذمة الذين اجلاهم عمر بن الخطاب من شبه الجزيرة العربية فلزمهم هذا الاسم . ثم أصبح يطلق على الجزية التى يؤدونها أيضا ( دراسات فى تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٣١٢ .

وقد فسر الدكتور حسن ابراهيم الجوالى بأنها : اختيار الأحسن من كل شىء سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء ، او انها ربما كانت وظيفة العامل فى الزكاة ( تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ هامش ٢ ) . ولم يذكر مصدر ذلك التفسير ، والتفسير الأول هو الأقرب للصحة والقبول .

(٨) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٢ .

وكان مقدار الجـزية كما ذهب ابو حنيفة متفاوتا ، حيث قسمها إلى ثلاثة اقسام : ثمانية واربعين درهما للأغنياء ، واربعة وعشرين لمتوسطى الحـال ، واثنى عشر درهما للفقراء الذين يتكسبون ، أما الإمام مالك فقد تركها لتقـدير الإمام . بينما ذهب الإمام الشافعى إلى أن الحـد الأدنى لها اثنـا عشر درهما وما بعـد ذلك يترك لتقدير الإمام . وقد نهى الشرع عن جبايتها بطرق عنيفة ، واوصى بالرفق والإنصاف فى جبايتها . وتقضى القاعدة الفقهية : بأن لا يضرب احـد من اهـل الذمة فى استيدائها ، ولا يقام فى الشمس ، ولا يجعل عليه شىء من المكاره ، وإذا امتنع عنـد دفعها فإنه يحبس حتى يؤديها بدون إيذاء(٩) .

ونص كتاب الصلح الذى اعطاه عبد العـزيز بن موسى بن نصـير لتدمير بن عبدوش سنة ٩٤هـ يوضح لنا شيئا من ذلك فقد جاء فيه « أن عليه وعلى اصحابه دينارا كل سـنة واربعة امداد قمح ، واربعة امداد شعير ، واربعة اقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك »(١٠) .

٣ ــ **الزكاة ( الصـدقة )** : وهى ما يؤخذ من اغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم كما قال تعالى لرسوله « **خـذ من أموالهم صـدقة تطهرهم وتزكيهم بهـا** » .

وتنقسم إلى عدة انواع : زكاة الأموال ( النقدين ) ، وزكاة السوائم وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعـدن والركاز وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ذلك .

---

(٩) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٤٨٣ .
(١٠) الحميرى : وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار ص ٦٣ ، الضبى : بغية الملتمس ص ٢٢٩ .

٤ — **المواريث الحشرية :** وهى مال من يموت وليس له وارث فيرد إلى بيت المـــال(١١) .

٥ — **الفيء والغنيمة :** والفيء هو ما وصل إلى المسلمين من أعدائهم بدون قتال ، بخلاف الغنيمة التى تطــلق على كل ما يأخــذه المسلمون من أعدائهم بالقتال . من الأسرى والسبى والأموال والأرضين .

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم ، ويرد الباقى إلى بيت المـــال حسب ما وضحت كتب الفقه ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التى خاضها

---

(١١) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

(١٢) كان الرسول ( ﷺ ) يقسم الفيء خمسة أقسام متساوية عملا بقوله تعالى (( **وما أفاء الله على رسوله من أهل القــرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** )) . وبعد وفاته رد نصيبه إلى بيت المـــال ، وكانت الأقسام الباقية تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر لهم أرزاقهم .

وأما الغنائم : فالأسرى يقسمون رجالا ونساء بين الجنـــد حتى يسلموا أو يفتدوا أنفســهم . وأما الأموال المنقولة كالنقود والحيوانات والأسلاب فتقسم حسبما يرى الإمام . وأما الأرض فالشافعى يرى تقسيمها على المحاربين كما فعل أبو بكر ، ومالك يرى وقفها كمـــا فعل عمر ، وأبو حنيفة يرى أن الإمام بالخيار بين قسمتها أو وقفها ( انظر : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ) . ولمـــا اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر بين القرآن الكريم طريقـــة قسمتها فقال : (( **واعلموا أنما غنمتم من شيء ... الخ** )) الآية .

فكان للإمام مـــع من ذكر فى الآية الخمس والأربعـــة أخمـــاس الأخرى للفاتحين ، ( المـــاوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ — ١٢٧ ) .

المسلمون فى الاندلس فى هذا العصر ضد الممالك المسيحية فى شمال اسبانيا مثل قشتالة وليون ونافار وجليقية وقطلونية وضد الفاطميين فى فى بلاد المغرب ، وضد بلاد الفرنجة ( غالة او فرنسا ) . فقد كثرت الغنائم وخاصة فى عهد الخليفة الناصر وفى عهد المنصور بن أبى عامر الذي قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم فى أى منها وعاد منها بغنائم كثيرة(١٣) .

ويدخل فى ذلك ايضا ما كان يفرض على بعض ملوك هذه البلاد فى بعض الأحيان — عقب هزيمتهم — من تقديم الجزية للمسلمين .

٦ ـ **العشـور** : وهى الأموال التى كانت تجبى من التجار الأجانب الذين يقدمون بتجارتهم ، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضرائب الجمركية التى تقدر على الواردات فى العصر الحاضر(١٤) .

---

(١٣) انظر عن هذه الغزوات بالتفصيل . د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا ( عصر المنصور الأندلسى ٨ ص ١١٣ وبعدها

(١٤) يرجع نظام العشور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعرى اثناء ولايته على البصرة ان تجارا من المسلمين يأتون ارض الحرب ، فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه قائلا : « خذ منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من اهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين درهما من كل اربعين درهما ، ولا تاخذ منهم فيما دون المائتين شيئا ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم » .

وقد افتى الإمام الشافعى بان للإمام ان يزيد على العشر او ينقص منه إلى النصف إذا رأى فى ذلك مصلحة ، وأن لا يؤخذ العشر إلا مرة واحدة من كل قادم بالتجارة حتى ولو تكرر قدومه

ولا شك ان هــذا المورد كان يمثل دخــلا كبيرا للأندلس فى العصر الأموى حيث كثرت التجارات بين الأندلس وغيرها من البلدان فى أوربــا والمشرق . وإن كانت المصادر لم توضح لنا شيئا من ذلك .

٧ ــ **المكوس** : وهى الضرائب التى نشأت نتيجة لحاجة الدولة إليها لزيادة مواردها ، وخاصــة فى أوقات القحط والأزمات والشــدائد ، وفى أوقات الحروب وقد شملت هــذه المكوس أغلب الســلع التى كانت تباع بالأسواق ، وكذلك البضــائع الواردة من الخارج ــ وهو شبيه بما تفرضه الكثير من الدول الآن لحماية منتجاتها المحلية ــ ومن الطريف أن المــآصر وهى السلاسل الحديدية التى كانت تشد فى البحر عنــد مداخل الموانىء لحمايتها من غارات السفن المعــادية صــارت تستخدم بعــد ذلك لفرض جمع المكوس من السفن القــادمة قبل دخولها الميناء ، ثم اصبحت تطلق على الضريبة نفسها(١٥) .

ولا شك أن هــذه المكوس قــد أصبحت تمثل موردا خصبا للدولة ، ولكنها كانت تسبب إرهاقا وعنتا للكثيرين ، ولهذا كثرت الشكايات منهــا خاصة وأن جبايتها اخذت تتسم بشىء من العنف وسوء المعاملة والتقدير . ومثال ذلك ما حــدث فى عهــد الحكم الربضى حين وضع عشر الأطعمة فى كل سنة على أهل الأندلس من غير حرص فكرهوا ذلك كما يقــــول ابن الأثير(١٦) . وترك الحــرية لربيع قومس النصارى لفرض الضرائب

---

(=)

فى السنة الواحــدة ( د. حسن ابراهيم : تاريخ الإســلام ج ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٢ ).

(١٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٤ .

(١٦) الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ ــ ٢٩٩ .

والمغـارم وجبايتها هو واتباعه من الصقالبة بطرق عنيفة(١٧) .

وكان ذلك سببا من أسباب قيامهم بالثورة المعروفة بثورة الربض .

ويذكر ابن حيان أن الخليفة الحكم المستنصر قد اسقط عن أهــل الأندلس سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول ادائه وانفذ بذلك كتـابا إلى جميع الاقطار(١٨) .

ويذكر أن الرحالة الأندلسي ابن جبير عندما قـدم إلى مصر فى العصر الأيوبى شـكا من سوء المعاملة للتجار والحجاج القادمين والخارجين ومن قسوة الإجراءات فى الموانىء ، غير أن مصر وحـدها لم تكن كذلك ، فقد كانت الأندلس أيضـا تعانى من هـذه المكوس خاصـة وأنهـا أصبحت تعطى التزاما ، وكان ملتزموها من غير المسلمين احيانا ، فكانوا يشتطون فى المعـاملة وعرف هـذا النظـام باسم ( القبـالة ) وعـرف الملتزم بالمكوس باسم ( المتقبل ) . وقـد انتقل هـذا الاسم إلى اللغة الاسبانية بلفظه ومعنـاه Cabala (١٩) .

٨ ـ **الأحباس ( الأوقاف )** : وقد مثلت مصدرا غير مباشر من مصادر الدولة ايضا ، حيث كانت تسد جزءا من نفقاتها على المؤسسات العامة ، حيث يحبس أصحاب هـذه الأوقاف ريعها على جهات البر والإحسـان ،

---

(١٧) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ص ١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٣ ، د. حسـين مؤنس : شيوخ العصر فى الأندلس ص ٢١ .

(١٨) المقتبس فى اخبار بلد الأندلس ص ٢٠٨ تحقيق د. عبـد الرحمن الحجى ، خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ — ٢٠ . ويبدو أن مغرم الحشد نوع من الضرائب التى كانت تفرض للاستعداد للحملات الحربية .

(١٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية ، كالمساجد والمكاتب والخوانق والبيمارستانات ، ورعاية طلاب العلم والمرضى والمعوزين وغير ذلك(٢٠).

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر الذى أشار إليه ابن حيان فقال : « وفى صدر جمادى الأولى ( ٣٦٤هـ ) انفذ الخليفة تحبيس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة واشهد القاضى محمد بن اسحاق فى هذا التحبيس يوم الجمعة لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لوراثته »(٢١) . وقد بلغ من كثرة الأحباس ان كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الأحباس . كما يتضح من النص التالى الذى أورده ابن عذارى فى حوادث سنة ٣٥٣هـ حيث يقول عن زيادة المستنصر فى مسجد قرطبة الجامع « فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضى منذر بن سعيد ( قاضى القضاة ) إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الأحباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من اموال الحبوس فنظروا فى الزيادة فيه »(٢٢) .

وهناك ضريبة أخرى فرضت فى الأندلس بعد العصر الأموى فى عهد المرابطين أطلق عليها اسم التعتيب . على يد على بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٩هـ/١١٢٥م وكان الغرض منها ترميم الحصون والقلاع والأسوار حول المدن الرئيسية ، وكانت تفرض على أهل هذه المدن لحمايتهم من غارات الأعداء . ويبدو ان هذه الضريبة

---

(٢٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٦ .

(٢١) المقتبس ص ٢٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن الحجى . خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ ترجمة د. الطاهر مكى .

(٢٢) البيان المغرب : جـ ٢ ص ٣٥٢ .

استمرت حتى أواخـــر الحكم الإسلامى بالأندلس . وقد أجازها فقهـــاء الأندلس لأن المصلحة تقتضى ذلك . يقول الحميرى « وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت على أهل الموضع ، وقد أجـــاز ذلك الفقيه أبو إسحاق الشاطى معتمدا على قيام المصلحة التى إن لم يقم بهـــا الناس فيعطون ضاعت عليهم »(٢٣) .

هـــذه الموارد المتعددة كانت تمثل دخـــلا كبيرا للدولة ، ومن حصيلتها كانت تقوم بالانفاق فى الأوجه المختلفة مثل : أرزاق الجنـــد والموظفـــين ، وإنشاء المشروعات العامة ، مثل حفر الترع والقنوات وإنشاء القناطـــر والجسور ، وبنـــاء المساجد ، ونفقات الحمـــلات العســـكرية ، وشراء الأسلحة والمعدات الحربية ، وترتيب العسس والدرابين لحراسة الأسواق والطرقات والدروب وغير ذلك .

ويروى ابن سعيد المغربى ( انه كان للأندلس دروب تغلق ليـــلا ، وتحرس بواسطة رجـــال الشرطة المسمون ( بالدرابين ) ، وان كل واحد كان معـــه ســـلاح وكلب وسراج ) . ولا تزال عـــادة غلق الأبواب متبعة فى بعض مناطق اسبانيا إلى اليوم منـــذ الساعة العاشرة ليـــلا بواســـطة رجـــال الشرطة ( درابين ) يعرفون باسم ( سيرنيوس ) . وكان من يريد الخروج أو الدخـــول إلى منـــزله ليـــلا ينـــادى الحـــارس بواســـطة التصـــفيق(٢٤) .

ومما يدل على تزايد هـــذه الموارد من عهد إلى عهد ان الجباية فى عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضى كانت مائة وعشرة آلاف وعشرين دينـــارا ، ومن القمح أربعـــة آلاف وستمائة مدى ، ومن الشعير ســـبعة

---

(٢٣) الروض المعطار ص ٢٢٣ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

(٢٤) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٥ .

آلاف وستمائة وسبعة واربعون مديا(٢٥) .

وبلغت فى عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الـف الـف دينـار فى السنة(٢٦) . وارتفعت فى عهد عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف الف واربعمائة وثمانين الف دينار من الكور والقرى ، ومن الأسواق والمستخلص (( الجمـارك ) سبعمائة الف وخمسة وستين الف دينـار ، بخلاف اخماس الغنائم المظيمة التى لا يحصيها ديوان(٢٧) . ويذكر المقرى نقـلا عن ابن خلدون : ان الناصر خلف فى بيوت المـال خمسة آلاف الف ولا ندرى هل هـذا الرقم بالدينار أم الدرهم ؟ ويغلب على الظن انه بالدرهم لأنه إذا كان بالدنانير تجاوز الملايين وفى هـذا كثير من المبالغة(٢٨) ، وانه كان يقسم الجباية ثلاثة اقسام : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وقد ذكر ابن حوقل أن الناصر استطاع ان يدخر حتى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠ مليـون دينار ، وانه لم يكن فى زمانه سلطان استطاع توفير هـذا المبلغ الضـخم إلا ابا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمدانى ( ٣٥٨ ـ ٣٦٩هـ )(٢٩) .

وذكر بعض الباحثين المعاصرين ان الدخل السنوى عن طريق الضرائب والمكوس فى عهده بلغ ٢٠ مليون دينار(٣٠) ، ونقل عن بروفنسـال انهـا

---

(٢٥) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ .

(٢٦) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢ .

(٢٧) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن عـذارى البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣١ .

(٢٨) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٠ .

(٢٩) المسالك والممالك ص ٧٧ ، تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٢٩٠ .

(٣٠) أحمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٦ .

بلغت فيما بعد ٤٠ مليون . ومهما كانت صحة هذه الأرقام ، فإن من الواضح ان موارد الدولة قد زادت زيادة كبيرة فى عصر الخلافة ، وخاصة فى عهد الناصر وولده المستنصر .

وتدل هدية الوزير احمد بن عبد الملك بن شهيد للناصر سنة ٣٤٧هـ على مدى ما وصلت إليه الدولة الأموية فى الأندلس من الضخامة واتساع الأحوال كما ذكر ابن خلدون ، الذى قال : إنه لم يهاد أحد من ملوك الاندلس بمثلها ، وقد اعجب بها الناصر أيما إعجاب وكافأ الوزير بزيادة راتبه إلى ٨٠ الف دينار اندلسية ، وبلغ معروفه إليه الف دينار ، وسماه ذا الوزارتين ، وكان أول من تسمى بذلك فى الاندلس(٣١) .

وكذلك هدية جعفر الصقلبى الحاجب للخليفة المستنصر يوم ولايته وكانت عبارة عن « مائة مملوك من الإفرنج على خيول صافنة كاملو الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس ، والقلانس الهندية ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية وخمسون بيضة من بيضات الفرنجة يسمونها الطشطانة ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن فضة مذهبة ، وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس »(٣٢) .

وقد ذكر البعض أن النظام المالى فى الأندلس كان يدور حول امور ثلاثة هى : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الامير أو الخليفة .

أما الخزانة : فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى خازن المال ومقرها القصر ، وفيها تودع الأموال التى تجبى من الكور

---

(٣١) انظر تفصيلها فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٨ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ٣٣٨ — ٣٤٠ .

(٣٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٨ .

والقرى(٣٣) . ومن اهمها اموال التركات التى يموت عنها اصحابها بدون وارث ( المواريث الحشرية ) . والضرائب المفروضة على الأسـواق ، والرسوم الجمركية على السفن والخراج والجزية والأعشار(٣٤) .

وأما بيت المـال : فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، ومقـره بجامع قرطبـة ويقوم بحفظ المنشـآت الدينية ، ودفع رواتـب موظفى المساجد وتوزيع الصدقات فى أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضى القضـاة ومن ينوب عنـه تحت إشراف الخليفة ، وهو يشبه من هـذه الناحية وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية .

وأما موارد الخليفة الخاصة فكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية ويكلف بالاشراف على اراضى الأمير او الخليفة من ناحية زراعتها من قبل المزارعين الذين يأخذون جزءا من محصولها فى مقابل ذلك(٣٥) .

* * *

---

(٣٣) الكور جمع كورة وتعنى المقاطعة او الولاية ولا يعرف اصل هـذه الكلمة ويرى البعض انها يمكن أن تكون محرفة عن قرية ، او مشتقة من الكلمة اللاتينية ( خورة ) بمعنى الأرض او الريف ، او من اللفظ اللاتينى كوريا بمعنى الحى ( انظر دراسات فى تاريخ الحضـارة الإسلامية ص ١٦٣ هامش ١ ) .

(٣٤) تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣٥) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

# الفصل السادس

## الحالة العلمية والثقافية

## الحـــالة العلميـــة والثقافيـــة

يظهر أن نشأة العـــلوم فى المجتمعات الإســـلامية المختلفـــة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة ، ثم ما لبثت بفضل الرعـــاية والعنـــــاية والاهتمام أن نمت وازدهرت وأثمرت . هـــذا ما حـــدث فى المشرق ، وهـــو بعينه أو شبيها به ما حـــدث للعلم والثقافة فى المغرب والأندلس .

فقد جاء الإسلام فمهد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية، ومضى زمن أخـــذت تتطور فيه هـــذه العلوم ، ثم كان الاتصـــال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة ، فاقتبس المسلمون من علومها ، وترجموا بعض كتبها إلى العربية ، وصححوا فيها ، وأضافوا إليهـــا ، حتى أخرجوا بعـــد ذلك نتـــاجا عظيما من العلم والثقافة .

وعندما فتح المسلمون الأندلس كانت هناك فى البداية حروب صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة إلا قليـــلا ، وكانت هناك خلافات بين المسلمين الفاتحين بسبب العصبيات القبلية والجنسية ، وبسبب التنافس على الرئاسة والسلطان إلى غير ذلك . حتى إذا بدأت الأمور فى الهدوء والاستقرار وخاصة بعـــد عصر الولاة — الذى كان عصر فتن ومنازعات وحروب وثورات فى معظمه — وأخـــذت الدولة الأموية ترسى قواعدها على يد عبد الرحمن الداخل ، بدأت الحركة العلمية المنظمة فى الظهـــور والنمو(١) .

---

(١) لا ينبغى أن يفهم من هـــذا أن عصر الولاة كان خلوا من أى اهتمام بالعلم والثقافة ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين مثل أ. محمـــد عبد الله عنان ( دولة الإسلام فى الأندلس ج ٢ ص ٦٩١ ) وغيره =

ونستطيع ان نقول : إنه كانت هناك عدة روافد لتغذية هذه الحركة ومنها :

١ — قدوم نفر من الصحابة والتابعين مع الجيوش الفاتحة للأندلس ، وفى عصر الولاة والعصور التالية ، وكان كثير منهم على حظ من العلم والمعرفة ، وخاصة فى أمور الدين . وكان هؤلاء هم أوائل المؤسسين للحركة العلمية بواسطة الحلقات التى كانوا يعقدونها فى المساجد وغيرها(٢) .

---

وإنما شهد هذا العصر شيئا من ذلك ، وخاصة فى فترات الاستقرار اثناء حكم بعض الولاة ، ولكنها كانت بمثابة محاولات فردية ، ولم تأخذ شكلا جماعيا منظما مثل الذى حدث بعد ذلك فى العصر الأموى وهذا أمر طبيعى . لأن الحركة العلمية فى كل عصر وحين تحتاج إلى الهدوء والاستقرار ، والدعم والاهتمام .

(٢) تذكر بعض المصادر واحدا من صغار الصحابة ذهب إلى إفريقية ، ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير ويدعى المنذر او المنيذر الأسلمى ، وأنه حدث بحديث عن رسول الله ذكره ابن الاثير والمقرى وهو ( من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، فانا الزعيم لآخذن بيده حتى ادخله الجنة ) . ( أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٢ ص ٤١٧ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٩ ، جـ ٣ ص ٦ ) .

وقد اختلف المؤرخون فى جملة من دخل الاندلس من التابعين ، لكن من المؤكد انهم كثيرون ( انظر د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٥٥ — ١٥٦ ) . وقد وضع ابن بشكوال كتابا بعنوان ( التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ) اشار

٢ — قدوم كثير من العلماء والأدباء من المشرق إلى الأندلس إما بأنفسهم ، أو بدعوة من بعض الأمراء والخلفاء ، مثل أبى على القالى صاحب الأمالى ، وصاعد البغدادى وغيرهما ممن نشروا كثيرا من علوم اللغة والأدب ، وتتلمذ على أيديهم الكثير من أهل الأندلس ، الذين برع منهم بعد ذلك من برع مثل ابن عبد ربه وغيره ولذلك قال الصاحب ابن عباد عن كتاب العقد الفريد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه كثيرا من علوم المشرق التى عرفها(٣) .

٣ — رحيل كثير من الأندلسيين إلى المشرق للتتلمذ على علمائه ، ثم العودة إلى الأندلس لنشر العلم مثل زياد بن عبد الرحمن الملقب ( بشبطون ) الذى ينسب إليه أنه كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس بعد تتلمذه عليه ، ويحيى بن يحيى الليثى المصمودى الذى رحل إلى المدينة أيضا وتتلمذ على الإمام مالك ، ثم رحل إلى مصر فأخذ عن الليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم العتقى إمام المالكية فى مصر ، ومثل عبد الملك بن حبيب السلمى ، والغازى بن قيس وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التراجم الأندلسية بذكرهم .

وقد بلغ من إقبال الأندلسيين على الارتحال فى طلب العلم ، أن الشخص عندهم كان يعاب بأنه لم يرحل إلى المشرق(٤) .

---

إليه المقرى ولكنه لم يصلنا ( انظر : نفح الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ص ٦٠ — ٦١ ، التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢٨٢ ، ج ٢ ص ٧٠٤ ) .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٤ ، انظر فى الراحلين من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦ وبعدها .

٤ — جمع الكتب وإنشاء المكتبات : والكتب ولا شك من أهم روافد الحركة العلمية — إن لم تكن اهمها — فى كل عصر ، ولذا فقد حرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء فى الاندلس على جلب الكتب ، وتأسيس المكتبات ، ومن اشهرهم فى ذلك الخليفة الحكم المستنصر ، الذى اسس مكتبة عظيمة حوت نحو ٤٠٠ الف مجلد فى علوم شتى . وأخذ الكثيرون فى اقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات فى شتى انحاء الأندلس سواء فى قرطبة او غيرها ، للعلم ، او للتباهى بها(٥) .

---

(٥) يقول ابن سعيد عن قرطبة « وهى اكثر بلاد الاندلس كتبا ، واهلها اشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى ان الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لان يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند احد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به » .

ويذكر قصة تدل على ذلك بين الرحالة الحضرمى وبين رجل اندلسى تبدو عليه أمارات الغنى والرياسة ، حيث اقام الحضرمى مرة بقرطبة يريد كتابا حتى عثر عليه ، ففرح به أشد الفرح ، وأخذ فى شرائه ، وكلما ذكر ثمنا زاد هذا الرجل عليه حتى بلغ حدا لا يستطيعه . فاعتقد انه فقيه فقال له : اعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده ، فقال له : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه » ( انظر المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ) .

وذكر البعض ان مكتبات الاندلس العامة بلغت سبعين مكتبة(٦) .

٥ ــ كثرة مراكز العلم والثقافة : كالمساجد ، والمكاتب ، والقصور ، والدور وغيرها . مما كان له اثر كبير فى نهضة الحركة العلمية(٧) .

٦ ــ تقدير الامويين للعلم والعلماء حبا فى العلم من ناحية ورغبة فى منافسة العباسيين والفاطميين من ناحية أخرى(٨) . ولذلك فقد قربوا الكثيرين منهم ــ وخاصة الفقهاء ــ وولوهم المناصب الرسمية فى الدولة ، كالفتيا والقضاء وغير ذلك(٩) .

---

=

وحتى لو بدا فى هذه الرواية طابع المبالغة أو التكلف ، أو انها قيلت فى مجال إظهار محاسن المدن على بعضها ، فإن فيها شىء من الدلالة على مدى حب الأندلسيين لجمع الكتب واقتنائها فهى ثروة على أية حال ، وهى مظهر من مظاهر الترف والوجاهة ، ونوع من الهواية ، كما نراه عند الكثيرين من الأغنياء والوجهاء فى عصرنا اليوم . ( انظر : المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ ــ ٢٧ ، خوليان ريبرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٠ وبعدها ، ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى أسبانيا ص ٦١ ) .

(٦) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٧ .

(٧) انظر : خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٤٥ وبعدها .

(٨) انظر : د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ( الفصل الرابع عن مكانة العلماء وجلال أقدارهم ) ص ٩٧ وبعدها .

(٩) انظر فى ذلك ما ذكره المقرى من انه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف

=

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها ، فقد بدأت الحركة العلمية بالأندلس في النمو والازدهار ، وأخذت المؤلفات تتوالى ، والمعرفة تشيع ، والثقافة تنتشر ، حتى ازدهر العلم وعم ، وقد اقتضى ذلك ازدهار صناعة الورق ، وما يتصل بها من أدوات النسخ والكتابة .

لقد كانت الفترة التي أعقبت فتح الأندلس ، والتي تسمى عصر الولاة ( ٩٢ — ١٣٨هـ ) فترة تسودها القلاقل والاضطرابات ، ومع ذلك — ونظرا لحرص المسلمين على العلم والثقافة — فقد شهدت هذه الفترة قدرا من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الأولى التي تؤذن بعد ذلك بمشرق الشمس ، وذلك على يد من جاء من الصحابة والتابعين . كما شهدت أيضا قدرا متواضعا من الأدب كان بمثابة البذور الأولى للأدب الأندلسي فيما بعد(١٠) .

ثم جاءت فترة تأسيس الإمارة الأموية ، والتي كانت بمثابة فترة علاج للكثير من الأدواء التي سبقتها ، وقد خطت الأندلس في هذه الفترة أولى خطواتها نحو الحركة العلمية المنظمة ، وساعد على ذلك عدة عوامل منها :

١ — وفود كثير من الأمويين وأنصارهم إلى الأندلس ، ولا شك أنه كان منهم كثيرون على حظ وافر من العلم والمعرفة .

---

=

قرية في كل واحدة منها مسجد وفقيه مقلص — المقلاص غطاء للرأس — تكون له الفتيا ، لا يجعل إلا ممن حفظ الموطأ ، أو عشرة آلاف حديث ، وحفظ المدونة . وكان هؤلاء الفقهاء المقلصون يأتون للصلاة مع الخليفة في يوم الجمعة بقرطبة ، ويطالعونه بأحوال بلادهم . ( نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٣ ) .

(١٠) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٥٤ — ٥٥ .

٢ — عودة اول فوج من الاندلسيين الذين درسوا بالمشرق ، وكانوا بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج البلاد ، ثم يعودون للقيام بدورهم فى نشر العلم والمعرفة . ومنهم : الغازى بن قيس الذى تتلمذ على الإمام مالك ثم عاد فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، فأكرمه وعرض عليه القضاء فأبى واخذ فى نشر علمه(١١) . وغيره ممن مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية . مثل عبد الملك بن حبيب ، ويحيى الليثى ، وزياد ابن عبد الرحمن وغيرهم .

٣ — إنشاء المساجد — وعلى راسها مسجد قرطبة الجامع — والتى كانت بمثابة النواة الحقيقية للحركة العلمية فى الاندلس ، شأنها فى ذلك شأن البلدان الإسلامية الأخرى . وفى هذه الفترة ايضا بدأ ظهور السمات الأولى المميزة للأدب الاندلسى ، والتى اخذت تتضح فيما بعد لتعطيه صورته الواضحة المتميزة(١٢) .

٤ — جلب كثير من الكتب والمؤلفات من المشرق إلى الاندلس ، سواء على يد الاندلسيين أو المشارقة الذين قدموا إلى الاندلس .

ولقد شهدت هذه الفترة ، وخاصة فى عهد الأمير عبد الرحمن الاوسط ( ٢٠٦ — ٢٣٨هـ ) — دفعة كبيرة للحركة العلمية ، ووثبة عظيمة للثقافة والفن ، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار ، واليسر والرخاء ، حتى سميت أيامه ( بالعروس )(١٣) . فقد كان

---

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٥ ، ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ( ١٠١٥ ) .

(١٢) د. احمد هيكل : الأدب الاندلسى ص ٧٤ — ٧٧ .

(١٣) العبر جـ ٤ ص ١٣٠ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٢٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسى ص ١٠١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٢٨ .

هـذا الأمير أديبـا مثقفا ، وشاعرا مطبوعا ذا همـة عاليـة ، مغرما بالفنون والعلوم ، حريصا على اقتناء الكتب ، وجلبها من الأمصار . فقد ارسل عباس بن ناصح الشاعر إلى المشرق من أجل شراء الكتب النافعة فجاء بكتاب السند هنسد وغيره . (١٤) ، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتاسيس المكتبات من الأمويين ، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التى عمرت فى عهد الحكم المستنصر .

كما كان ابنه عبد الله — رغم تقلب الأحوال السياسية فى عهده — محبا للعلم مشـاركا فيـه . قال عنه ابن حيان « كان متصرفا فى فنون من العلم ، متحققا منها ، عالمـا بلسان العرب ، بصيرا بلغـاتها وأيامها ، حافظا للغريب والأخبار »(١٥) .

وقد أدت هـذه الوثبة إلى ظهور كثير من العلماء فى علوم شـتى إسلامية وعربية ، وظهور الطلائع الأولى فى العلوم العقلية والطبيعية . ويعـد عباس بن فرناس من مظـاهر هـذه الوثبـة العلمية فى هـذه الفترة ، ويعتبر من مفاخر الفكر الاندلسى بل والعالمى ايضـا ، حيـث نسبت إليـه عدة اكتشافات واختراعات منها القيام بمحاولة الطيران فى الفضـاء ، ومنها استنباط صناعة الزجاج من الحجارة ، ومنها اختراع آلة لمعرفة الوقت(١٦) .

ثم جاء عصر الخلافة فنهضت الحركة العلمية والثقافية فى الاندلس نهضة شاملة ، وازدهرت ازدهارا عظيما ، كان من مظـاهره وضـوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس ، واستقلالها إلى حد كبير .

---

(١٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٤٤ — ٤٥ .
(١٥) المقتبس ص ٣٢ . نشر ملثور انطونية باريس سنة ١٩٣٧م .
(١٦) انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١ ، احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٣ .

ولا شك أن ظروف التوحد والاستقرار ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى الذى تحقق فى هـذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر كان له دخل كبير فى ذلك ، هـذا بالاضافة إلى التشجيع الكبير للعلماء ، وجلب الكثير من الكتب والمؤلفات(١٧) .

وإذا كان المفضل يعود لعبد الرحمن الناصر فى إعادة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الفتن والقلاقل التى سادت فى أواخر عهد الإمارة ، فإن الفضل يعود لابنه المستنصر فى ازدهار الحركة العلمية بصورة كبيرة ، حتى ليمكن أن نطلق عليه اللقب الذى أطلق على الخليفة المأمون العباسى وهو ( الخليفة العالم ) .

فقد كان مولعا بالكتب حتى قبل جلوسه على عرش الخلافة فى الأندلس ، حريصا على جلبها ، ودفع الأثمان الغالية فيها ، حتى بلغت كما ذكر نحو ٤٠٠ ألف مجلد(١٨) . ومن أروع الأمثلة على ذلك : أنه أرسل إلى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار ذهبا حتى يرسل إليه نسخة من كتابه الأغانى ، فبعثها إليه قبل أن يظهر فى بغداد(١٩) .

وقد كانت هـذه المكتبة كما ذكر تحتوى على أربعة وأربعين فهرس أو سجل ، كل فهرس يقع فى خمسين ورقة ، وكانت هـذه المدارس تكتفى بذكر أسماء الكتب ومصنفيها فقط ، كما كان فى هـذه المكتبة عدد كبير من الباحثين والنساخ والقومة والمندوبين الذين يقومون بشراء الكتب من الأمصار المختلفة ، هـذا بالإضافة إلى من يعمل بالتجليد والزخرفة ،

---

(١٧) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(١٨) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٠١ ، المغرب : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٤ — ١٨٦ .

(١٩) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٠ .

والتعليق على الكتب وتصحيحها ومقابلة نسخها ، وغير ذلك(٢٠) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحكم يشجع العلماء على التأليف ، ويجزل لهم العطاء ، بل ويقترح عليهم بعض الميادين أو الموضوعات التى يؤلفون فيها ، ويشاركهم فى وضع مناهجها . فيذكر انه اقترح على الخشنى تأليف كتابه ( قضاة قرطبة ) وهو يشير إلى ذلك فى صدر هذا الكتاب ، كما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه (طبقات اللغويين والنحويين) . وقد أشار إلى ذلك ايضا(٢١) .

كما اقترح على ابن الصفار تأليف كتاب فى اشعار بنى امية بالمشرق ، وطلب من أبى الفرج الأصفهانى تأليف كتاب فى أنساب بنى أمية فالفه له ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه فيها وقومه ، فجاد عليه بصلة جزيلة(٢٢) .

وقد كان الحكم شغوفا بقراءة الكتب ، والتعليق عليها . ولا عجب فى ذلك فقد كان كما يقول المقرى : « غزير العلم واسع الاطلاع ، ذا معرفة بالأخبار والانساب ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من اجل ما يكتب »(٢٣) .

---

(٢٠) الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠٣ وقد ذكرتها بعض المصادر عشرين ورقة . د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٨١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٤ .

(٢١) انظر قضاة قرطبة ص ١٠ ، طبقات اللغويين والنحويين ص ٩ — ١٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٠ .

(٢٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩١ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

ويقول ابن حيان : « وكان له وراقون بأقطار البلاد ، ينتخبون له غرائب التواليف . وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه ، والتصحيح لها ، والمطالعة لفوائدها . وقلما تجد كتابا فى خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر عن أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ويكتب فيه بخطه ... وكان موثوقا به مأمونا ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلون من خطه ويحاضرون به »(٢٤) .

كما قرب الحكم العلماء وأغدق عليهم ، واهتم بإنشاء المكاتب لطلاب العلم ، ووقف عليها الأوقاف . فيذكر أنه أقام فى ساحة المسجد الجامع بقرطبة وحوله بعد الزيادة التى أضافها إليه ثلاثة مكاتب لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين ، وأقام كذلك أربعة وعشرين مكتبا فى أرباض قرطبة وفى ذلك يقول الشاعر ابن شخيص :

**وساحة المسجد الأعلى مكللة**
**مكاتبا لليتامى فى نواحيها**
**لو مكنت سور القرآن من كلم**
**نادتك يا خير تاليها وواعيها(٢٥)**

كما حبس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين بهذه المكاتب ، وأشهد على ذلك القاضى محمد بن اسحاق ، وجعل للعلماء جانبا من دار الملك يجلسون فيه للتأليف والنسخ والترجمة والمقارنة(٢٦) .

ومن الغريب بعد هذا كله أن نجد البعض ينتقد الخليفة الحكم

---

(٢٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٠٢ .
(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .
(٢٦) جذوة المقتبس ص ٤٧ ، خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ .

على انشغاله بالحركة العلمية معللا ذلك بأنه انصرف عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي . ومنهم د. حسين مؤنس الذى وافق على ذلك قائلا « وهناك وجه للحق فى هذا الحكم ، فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد ابن أبى عامر سبيلا إلى السلطان »(٢٧). ولكننا لا نوافق هؤلاء على ذلك فالحاكم العالم المثقف أفضل ألف مرة ومرة من الجاهل المستبد ، فهل كان مطلوبا من الحكم أن يظل جاهلا ، ولا يشتغل بالعلم ، أو يثقف نفسه ؟ ، والعلم والثقافة بلا شك يوسعان من مدارك الحاكم ليستطيع حكم الدولة حكما سديدا ، لقد كان المأمون العباسى رغم اشتغاله بالعلم والثقافة ذا حنكة ومقدرة فى كثير من النواحى السياسية والإدارية . والعجيب أن د. مؤنس عاد بعد ذلك ليقول عن سياسة المستنصر « وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد فى أمور ملكه » . وذكر أيضا : أن ملوك النصارى حاولوا انتهاز فرصة انشغاله بالعلوم ، فأغاروا على أطراف الدولة ، فنهض الحكم لغزوهم ابتداء من سنة ٣٥٢هـ ، وتوغل فى أراضيهم ، واستولى على قلاع كثيرة ، وأرغم الكثير منهم على التسليم بسيادة قرطبة فأخذوا فى إيفاد سفاراتهم لعقد المعاهدات معه(٢٨) . ومن هنا نرى : أن اهتمام الحكم بالحركة العلمية ، واشتغاله بالعلم لم يصرفه عن النظر فى أمور دولته ، بل إن ذلك زاد من خبراته وتجاربه فى حكمها . وأن الظروف هى التى ساعدت ابن أبى عامر على الوصول إلى النفوذ والسلطان لتقربه من السيدة صبح زوجة الحكم ، وتوليه الحجابة على ابنها هشام المؤيد وهو فى سن العاشرة ، وقد كان طموحا منذ البداية للوصول فاستغل فى ذلك كل فرصة ممكنة ، واتخذ

---

(٢٧) معالم تاريخ المغرب فى الأندلس ص ٣٣٣ .
(٢٨) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

بوسائل عديدة غير مشروعة فى سبيل الوصول إلى هدفه(٢٩) .

وفى فترة الحجابة اهتم المنصور بن أبى عامر أيضا بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية ، بالرغم من تلك الثورة التى أعلنها على العلوم العقلية وخاصة المنطق والفلسفة ، حيث أحرق ما فى خزائن الحكم منها ، وطرح بعضها فى آبار القصر ، وأهال عليه التراب والحجارة . ويقال : إنه ما فعل ذلك إلا تقربا إلى الفقهاء المالكية والعامة لتثبيت سلطانه — حيث كانوا ينظرون إلى المشتغلين بهذه العلوم على أنهم زنادقة — وأنه كان فى قرارة نفسه يميل إليها ، ويطلع عليها(٣٠) .

وقد كان المنصور يميل إلى الكتب الأدبية ، وخاصة كتب الأسمار ، مثل كتاب حسان بن أبى عبدة ( ربيعة وعقيل ) ، الذى وصفه ابن حزم بأنه من أملح ما ألف فى هذا المعنى(٣١) .

والكتب ذات الطابع القصصى مثل كتاب ( الهجفجف بن غدقان ابن يثربى مع الخنوت بن مخرمة بن نوفل ) ، وكتاب ( الجواس بن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء ) . وقد ألفهما له صاعد اللغوى بعد هجرته من بغداد سنة ٣٨٠هـ واتصاله به ، كما ألف له أيضا كتاب (الفصوص) على غرار كتاب النوادر لأبى على القالى . وقيل إن المنصور كان شغوفا

---

(٢٩) انظر : د. خالد الصوفى : العرب فى أسبانيا ( عصر المنصور الأندلسى ) ص ٤٢ وبعدها .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ الأمم ص ٦٦ ، ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٣٧ ، د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٢٥٧ .

بكتاب الجواس إلى درجة أنه رتب من يقرؤه له كل ليلة(٣٢) .

ويذكر ابن حيان : أن المنصور اثاب صاعدا على كتاب الفصوص بخمسة آلاف دينار ، وانه امره أن يسمعه الناس فى مسجد مدينة الزاهرة التى بناها(٣٣) .

وقد كان للمنصور مجلس فى قصره يجتمع فيه العلماء والأدباء والشعراء ، وكان يشاركهم أحيانا فى مناقشاتهم ، ويدلى فيها بدلوه ، ولا غرو فقد كان أديبا شاعرا ومن شعره :

**رميت بنفسى هول كل كريهة**
**وخاطرت والحر الكريم مخاطر**
**وما صاحبى إلا جنان مشيع**
**وأسمر خطى وأبيض باتر**
**وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى**
**أسود تلاقيها أسود خوادر(٣٤)**

---

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٠٩ ص ٢٤٠ ، معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، بغية الملتمس ترجمة ( ٨٥٢ ) ص ٣١٩ — ٣٢٠ ) .

(٣٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٢٣ . وهناك روايات أخرى تذكر : أن المنصور اغتاظ مرة من كثرة أكاذيب صاعد — وقد اتهم بالكذب — فأمر بإخراجه من مجلسه ، وقذف هذا الكتاب فى النهر . وفى ذلك يقول أحد الشعراء متهكما :

**قد غاص فى النهر كتاب الفصوص**
**وهكذا كل ثقيل يغوص**

وقد بلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أن أنشأ ديوانا خاصـــا سمى ( ديوان الندماء ) ، مهمته ترتيب الشعراء فى طبقات ، وبذل العطاء لهم على أقدارهم فى الشعر . وكان على رأسه واحـــد من كبار الأدباء النقاد وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة . وكان المنصور يصطحب الشعراء معـــه فى غزواته ليقولوا الشعر فيها لتحميس الجند ووصف المعارك ، وذكر أنه اصطحب مرة فى إحدى الغزوات أربعين شاعرا من كل طبقـــة(٣٥) . وإن دل هـــذا على شىء فإنما يدل على كثرة الشعراء فى ذلك الوقت .

وإلى جانب اهتمام المنصور بالأدب والشعر ، فإنه لم يغفل العـــلوم الدينية واللغـــوية فقـــد ذكر أنه كلف ابن المكوى الإشبيلى ، وأبا مروان المعيطى الفقيه بجمع أقوال الإمام مالك فى كتاب على نحو كتاب ( الباهر ) الذى جمع فيـــه ابن الحـــداد المصرى أقوال الإمام الشافعى فأخرجا له هـــذا الكتاب على أكمل صورة(٣٦) .

كما أنه اتخـــذ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوى قيما للتدقيق والضبط فى مكتبته ، وقد استعان بذلك فى تأليف كتاب عن تاريخ بنى عامر قـــدمه للمنصور(٣٧) .

---

=

فرد عليه صاعـــد قائلا :

**عاد إلى معـــدنه إنما    توجد فى قعر البحار الفصوص**

وروايات تذكر : أن علماء قرطبة أغرقوا هـــذا الكتاب ، ورموه فى نهر قرطبة لكثرة ما فيه من أكاذيب . ( انظر نفح الطيب جـ ٤ ص ٧٦ — ٧٨ ) .

(٣٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٣ ، د. خالد الصوفى : مرجع ســـابق ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(٣٥) د. خالد الصوفى : المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

(٣٦) جـــذوة المقتبس ص ١٣٢ .

(٣٧) التكملة ص ٣٨٤ .

كل هــذا وغيره مما جعل الحميدى يصفه بقوله « كان للمنصور همة رفيعة فى العلوم »(٣٨) .

لقــد نشــطت الحركة العلميــة نشــاطا منقطـــع النظــير فى الأندلس ، وازدهرت فى عصر بنى أمية ــ وخاصة فى العاصمة قرطبــة التى نافست حواضر العـــالم الإسلامى والأوربى آنذاك ــ ولم تكن وقفا على عنصر دون آخــر ، بل شاركت فيها شتى عناصر المجتمع من عرب وبربر وموالى ومولدين ومستعربين ، كما شاركت فيها المرأة أيضا ، فكان هناك الشاعرات والكاتبات والناسخات للمصاحف ، والمعلمات فى المكاتب للفتيات وغير ذلك(٣٩) .

وقد أشاد الكثير من المؤرخين بذلك حيث قال المقرى : ( إن قرطبـــة أعظم علما ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة بها )(٤٠) ، ووصفها بعض الأوربيين بأنهـــا جوهرة العــــالم(٤١) . وعنها قال الشاعر الأندلسى مفتخرا :

**بأربع فاقت الأمصــار قرطبــة**
**منهن قنطــرة الوادى وجــامعها**
**هاتان ثنتان والزهـــراء ثالثــة**
**والعلم أعظم شىء وهو رابعها(٤٢)**

---

(٣٨) جــذوة المقتبس ص ١٣٣ ترجمة ٢٣١ .

(٣٩) انظر فى ذلك : باب النساء فى بغية الملتمس ص ٤٤٣ وبعدها ، جــذوة المقتبس ص ٤١٢ وبعدها ، ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ ، ٢٠٤ ، المعجب ص ٢٤٨ .

(٤٠) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤١) ليفى بروفنســـال : حضــارة العــرب فى أســبانيا ص ١١٤ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٤ .

(٤٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

**التعليم عند الأندلسيين :**

وكان من مظاهر الحركة العلمية وازدهارها ، شيوع التعليم فى الأندلس فى ذلك العصر ، فقد أصبح عاما يشمل الجنسين ، وكثرت أماكنه ومؤسساته ، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب العلم ، وغدت اللغة العربية هى لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية ، وتعلمها الكثير من الأسبان المسيحيين ، ولذلك سموا ( بالمستعربين ) .

ويذكر أن هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذى جعل اللغة العربية لغة التدريس فى معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم ، وكان لهذا أثره العميق فى انتشارها وفى اعتناق الكثيرين للاسلام(٤٣) .

وقد قامت المساجد بدور هام فى التعليم عند الأندلسيين والأمثلة كثيرة على ذلك فى كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

كما قامت المكاتب بدور هام أيضا فى الناحية التعليمية . فكان الطلاب يتلقون فيها مبادىء العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم ، وقد كثرت هذه المكاتب فى عهد الخليفة المستنصر . ويمكن القول بأنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها فى بيوتهم . وفى ذلك يقول ابن عذارى : « ومن مستحسنات أفعاله ، وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن فى مكاتب حول المسجد الجامع ، وبكل ربض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليه الأرزاق ، وعهد إليهم فى الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حول المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيها

---

(٤٣) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٢٢٩ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٧٨ .

فى كل ربض من أرباض المدينة »(٤٤) .

ونستطيع القـول بأن هـذه المكاتب قـد قامت بدور المدارس فى البداية ، حتى قامت المدارس بعـد ذلـك فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة(٤٥) . ويشير ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى إلى انه لم تكن هناك مدارس فى الأندلس تعين على طلب العلم كما كان الحال فى المشرق ، وإنما كان طلاب العلم يقراون جميع العـلوم فى المسـاجد باجـرة(٤٦) . وفى هـذا رد على كثير من الباحثين الذين يتجـوزون فيذكرون انه كانت هناك مدارس فى الأندلس فى العصر الأموى ويطلقون على الكتاتيب أو المكاتب هـذا اللفظ(٤٧) ، ومعلوم ان المدارس لم تظهر فى العالم الإسلامى كمؤسسـات تعليمية تسمى بهذا الاسم إلا فى القـرن الخامس الهجرى على يـد نظام الملك عندما انشأ المدرسـة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧هـ . ولم تظهر المدارس بالأندلس بهذا المسمى إلا فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة ( ٦٣٥هـ — ٨٩٧هـ )(٤٨) .

وقـد قام المؤدبون بدور كبير فى التعليم حيث ادبوا ابنـاء العـامة والخاصة ، وكان منهم كثير من العلماء مثل الغازى بن قيس ، الذى كان يؤدب فى قرطبة عنـد دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وابو الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب ( ت ٢٠٩هـ ) ، وكان عالمـا بالنحو

---

(٤٤) البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ .

(٤٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٢ .

(٤٧) انظر خوليان ربيرا : التربية الإسـلامية فى الأندلس ص ١٣ — ١٤ ، ص ٢٠ .

(٤٨) انظر : دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ ، ابن الاحمر : نثير فرائد الجمان ص ٥٠ .

واللغة ، واحد ابن نعيم وكان مؤدبا بجيان وطليطلة ، وجابر بن غيث الذى اشتهر بشدته على الطلاب فقل من تأدب عنده(٤٩) .

ومحمد بن حـــزم — وهو غير ابن حـــزم الفقيه المشهور — الذى كان يساعده ابنه وابنته فى تعليم الصبيان والبنات فى مكتبة بقرطبة .

وسعيد بن سلمون بن سيد أبيه ، وكان من أهل قرطبة له كتـــاب يؤدب فيـــه ، وكان صالحا قرأ عليـــه كثير من الناس القرآن(٥٠) .

ومن مؤدبى ابنـــاء الأمراء والخاصة : هشام بن الوليد الغافقى مؤدب الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وأبو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعى، وكان عالمـــا بالنحو واللغـــة ، مبرزا فى الشـــعر ، أدب أبنـــاء الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وابن أرقم مؤدب عبد الرحمن الناصر(٥١) .

وعثمان بن نصر بن عبد الله القرطبى ( ت ٣٢٥هـ ) مؤدب الحـــكم المستنصر(٥٢) . ووليد بن عيسى بن حارث ويعرف بالطنيجى ( الطنجى ) ت ٣٥٢هـ ، وكان بصيرا بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر فيه ، شرح شعر أبى تمام ، ومسلم بن الوليد ، فأخذ الناس عنه ذلك . « كان مؤدبا بعيد الاسم فى التأديب ، يتنافس فيه المـــلوك » كما قـــال ابن الفرضى(٥٣) .

---

(٤٩) انظر طبقات الزبيدى ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .

(٥٠) انظر تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٥٢٦ ، ريبرا : المرجـــع السابق ص ٢٠٢ .

(٥١) انظر طبقات الزبيدى ص ٢٩٣ — ٢٩٩ ، المقتبس فى أخبار بلـــد الأندلس ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

(٥٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٨٩٨ .

وحسين بن وليد بن نصر القرطبي ( ٣٩٠هـ ) وهو من تلاميذ ابن القوطية وكان عالما بالعربية متقدما فيها ، وكان مؤدبا لأبناء المنصور ابن أبى عامر(٥٤) .

ومحمد بن خطاب الأزدى وكان يختلف إليه فى علم العربية كثيرون من أولاد الخاصة والكبراء(٥٥) ، وغير هؤلاء كثيرون ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

وقد اتخذ بعض هؤلاء المؤدبين أو المعلمين من التعليم حرفة يتكسبون بها ، وكان الواحد منهم يتقاضى جعلا أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتقان والحذق ولذلك عرفت هذه المكافأة باسم ( الحذقة )(٥٦) .

أما مؤدبو أولاد الأمراء والخلفاء والخاصة ، فقد ارتقوا إلى مكانة عالية ، حيث كان معظمهم من مشاهير العلماء ، واغدق عليهم الكثير والكثير(٥٧) .

ويذكر الزبيدى طبيعة التحصيل العلمى عند هؤلاء المؤدبين فيقول : « ولم يكن عند مؤدبى العربية ، ولا عند غيرهم ممن عنى بالنحو كبير علم ... وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة فى تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعانى لهم فى ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية ، وغوامضها ، والاعتلال

---

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ١٥١٢ .
(٥٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٣٥٦ .
(٥٥) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٥٤ .
(٥٦) انظر : طبقات الزبيدى ص ٢٧٨ .
(٥٧) انظر عن مرتبات المعلمين ( التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٢١ وبعدها ) .

لمشاكلها» ثم كانوا لا ينظرون فى إمالة ولا إدغام ، ولا تصريف ولا أبنية ، ولا يحيلون فى شىء منها »(٥٨) .

فهو يتهم مؤدبى العربية والنحو بقلة التحصيل العلمى ، غير أن هذا الحكم العام يأتى جائراً ومجحفاً فى حق الكثير من المؤدبين الذين وصلوا إلى مراتب عليا فى العلم ، وكان منهم كثيرون لهم منزلة كبيرة فى نفوس الناس . ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات الاندلسية ومنها طبقات الزبيدى نفسه يجد الكثير من الأمثلة على ذلك مثل أبى جرش الذى ضرب به المثل فى الفصاحة ، وأبى بكر الكنانى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله ، وصالح بن معافى ، والرشاشى وغيرهم(٥٩) .

وقد ذكر ابن خلدون بعض مبادىء التعليم عند الاندلسيين فقال : « إنهم يجعلون القرآن أصلان التعليم ، ولكنهم لا يقفون عند ذلك كما يفعل سائر اهل المغرب ، وإنما يخلطون فى تعليمهم رواية الشعر والترسل، والأخذ بقواعد العربية وحفظها ، وتجويد الخط إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز فى الخط والكتابة ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ويمتدح هذا المنهج التعليمى فيقول : « فأفادهم التفنن فى التعليم ، وكثرة رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر ، حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى »(٦٠) .

---

(٥٨) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٥٩) المصدر السابق : ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٩ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٤ .

(٦٠) المقدمة ص ٣٩٧ — ٣٩٨ المطبعة البهية د.ت .

وقد ذكر ابن خلدون أيضا : أن القاضى ابا بكر بن العربى (ت٥٤٣هـ) قد ذهب إلى طريقة غريبة فى التعليم حيث قدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، ثم ينتقل إلى الحساب ، ثم إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه حتى يستطيع فهم ما يقرأ . وأنه انتقد أهل البلاد الذين يأخذون الصبى بحفظ القرآن فى أول أمره فيقرأ ولا يفهم ، ونهى عن أن يخلط فى التعليم علمان إلا إذا كان المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط . وعلق ابن خلدون على ذلك بقوله « وهذا لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه »(٦١) .

ويبدو أن هذا المنهج لم يطبق نظرا لصعوبته من ناحية ولأن حفظ الصبى للقرآن فى الصغر أجدى وأنفع ، وجرت العادة بذلك من ناحية أخرى .

ويشير ابن العربى إلى المنهج الذى سار عليه الأندلسيون فى تعليم أولادهم فيقول : « فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . ثم ينقلونه إلى وثائق ابن العطار ثم يختمون له بأحكام ابن سهل »(٦٢) .

ويبدو أن الأستاذ أحمد أمين قد فهم من قول ابن خلدون ، وذكره

---

(٦١) المقدمة ص ٣٩٨ .

(٦٢) خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٧٦ . والمدونة : هى مجموعة رسائل من فقه الإمام مالك جمعها تلميذه أسد ابن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . ( د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣ ) .

(٦٣) انظر : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ — ٩ .

لطريقة ابن العربى فى التعليم ان هـذا المنهج الذى رآه ابن العربى قـد طبق . ولذا قال : « وقـد ذكر ابن خلدون وابن العربى أن للاندلسـيين طريقة فى التعليم تختلف من طريقة أهل المشرق . فهم فى المشرق يحفظون القرآن للصبى قبـل ان يستطيع فهمه ، ثم يعلمونه اللغة العربية . وعيب هـذه الطريقة ان الحافظ للقرآن من غير معرفة معانيه عرضـة للفهـم الخاطئ الذى يبقى فى ذهنـه على مر الايام ، اما فى الاندلس فيعلمون اللغـة العربية اولا ثم يحفظون القرآن بعـد القدرة على الفهم ، وعيب هـذه الطريقة ان بعض المتعلمين قـد يتخلفون عن حفظ القرآن أو تعلم العربية ، ثم ينقطعون من التعليم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن اولا ولو من غير فهم ثم يتعلم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانيـة وقـد استطاع الفهم »(٦٣) .

غير ان قول ابن خلدون ( إنهم يجعلون القرآن اصـلا فى التعليم ) ، وقول ابن العربى ( فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ) يفيدان غير ما قال به الاستاذ احمـد امين ، والواقع ان الاندلسيين مثل المشـارقة ساروا على تعليم ابنائهم القرآن الكريم أولا لان هـذا هو الأصـل ، وهو الاجـدى فى الحـفظ ، وأن المنهج الذى وضعه ابن العربى لم يطبق لصعوبته من ناحية ، ولأن العوائد لا تساعد على تطبيقه من ناحيـة اخرى كما قال ابن خلدون .

## الإجـازات العلميـة :

وكما ان الإجازات العلمية كانت معروفة فى المشرق ، فقـد انتقلت إلى الاندلس ايضـا بانتقال الكثير من العلماء المشارقة . وأصبح منـح الاستاذ الإجازة لطلابه امرا شائعا ، بعـد تتلمذهم على يديه .

وكانت تسجل فى وثيقة من الرق او الكاغـد ( الورق ) ، أو فى

الكتب التى درسها الطالب بخط الأستاذ نفسه(٦٤) . ومن أمثلة هـذه الإجازات ما ذكره ابن الفرضى من أن يوسف بن محمد بن سليمان الهمذانى الشذونى الذى رحـل إلى المشرق عشر سنوات وسمع من الكثيرين أجـاز له جميع ما رواه وتوفى سنة ٣٨٣هـ(٦٥) .

ولم تكن هـذه الإجازات مقصورة على الرجـال فقط بل نالتها بعض النساء أيضـا . فقـد ذكر الضبى : أن أبا عمرو الدانى المقرىء ( عثمان ابن سعيد ) المعروف بابن الصيرفى ( ت ٤٤٤هـ ) كان يقرىء بالمرية ، وقرأت عليـه امرأة تدعى ( ريحـانة ) ، وكانت تقعـد خلف سـتر فتقرأ ، ويشير إليها بقضيب فى يده إلى الوقف ، وأنها أكملت السبع عليه ، وقرأت عليه خلاف السبع روايات ، وطالبته بالإجازة فكتب لها إجـازتها بعـد توقف(٦٦) .

وقد وضع أبو العباس العمرى وليـد بن بكر بن مخـلد ( ٣٩٢هـ ) ـــ وكان من أهـل سرقسطة ، ورحل إلى المشرق ، ولقى الكثير من العلماء فى بلاد عديدة ـــ كتابا فى تجوز الإجازة سماه ( كتاب الوجازة ) . وهو فى هـذا الكتاب يحتج على بعض الإجازات العلمية ، ويرى أنهـا غير موثوق بهـا ، وأن الزيف قـد شابها(٦٧) . وهـذا دليل على قيـام البعض بتزييف الإجازات العلمية ، للتصدى للإقراء والتـدريس طمعا فى المكانة والمنصب ، والحصول على المكاسب المـادية .

---

(٦٤) ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٤٨ .
(٦٥) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٦٣٦ ج ٢ ص ٢٠٦ ـــ ٢٠٧ .
(٦٦) الضبى : بغيـة الملتمس ترجمة ١١٨٦ .
(٦٧) الضبى : بغيـة الملتمس ترجمة ١٤١١ .
وقد ذكره خوليان ريبرا باسم ( الوجازة فى صـحة القـول بالإجـازة ) . ولم يشر إلى المصدر الذى أتى منـه بذلك ( التربية الإسلامية ص ١٤٩ )

## أهم العلوم وأشهر العلماء

### أولا : العلوم الدينية والعربية

اهتم الأندلسيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وقد بدأت بذرة هذه العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين إلى الأندلس مع الفتح وبعده . وكان هؤلاء إلى جانب كونهم جنودا فاتحين ، حملة علم ومعرفة ومثلوا اللبنة الأولى فى العلوم الدينية والعربية ، ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية حملوا معهم علما جديدا وكان معظم هؤلاء من الذين رحلوا إلى المشرق وتتلمذوا على يد علمائه ، ثم جاءت طبقة ثالثة خطت بالعلم خطوات جديدة من حيث التنظيم والتأليف . ومن أشهر هذه العلوم :

١ ـ **علم التفسير** : كان القرآن ولا يزال المصدر الأساسى ، والمنهل العذب للكثير من العلوم ، وعلى رأسها علم التفسير ، ومن المعلوم أن المفسرين قد اتجهوا فى تفسير القرآن اتجاهين :

( أ ) التفسير بالمأثور : وهو ما أثر عن النبى ﷺ وصحابته من أقوال فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

(ب) التفسير بالرأى : وهو ما يعتمد فيه على العقل إلى جانب النقل ، وربما أكثر(١) .

ومن مشاهير المفسرين فى عصر بنى أمية بالأندلس بقى بن مخلد ( ت ٢٧٣ ، ٢٧٦هـ ) الذى ألف تفسيرا للقرآن الكريم اطلع عليه

---

(١) من أشهر المفسرين بالمأثور فى الأندلس والذين وصلتنا كتبهم ابن عطية أبو محمد بن عبد الحق ( ت ٥٤٦ هـ ) ، ومن أشهر المفسرين بالرأى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الشهير بالإمام القرطبى ( ٦٧١هـ ) صاحب الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبى .

ابن حـــزم وقال عنه « اقطع قطعا لا استثنى فيـــه انه لم يؤلف فى مثله ، لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره »(٢) .

وكذلك ابن محامس عثمان بن محمد (ت ٣٠٦هـ) المكنى بابى سعيد ، وكان من اهل استجة . قال عنه ابن الفرضى : ( كان حافظا للتفسير ، عالمـــا بأخبار الدهور ، وله فى ذلك كتاب نقل اكثره على ظهر قلب )(٣) . وقد اشتهر بالزهـــد والعزوف عن الدنيـــا . يروى انه كتب على باب داره ( يا عثمان لا تطمع )(٤) .

وكذلك سعدان بن سعيد بن خمير المكنى بأبى سعيد وهو من اهـــل قرطبة ، كان إماما للمسجد الجامع بها ، وقـــرأ الناس عليه كتاب التفسير المنسوب إلى ابن عباس من رواية الكلبى(٥) .

٢ ـــ **علم الحـــديث** : ازدهر علم الحديث بالأندلس ، واشتغل به كثيرون . يقول ابن سعيد « ورواية الحديث عندهم رفيعة »(٦) .

ويذكر ابن الفرضى : أن صعصعة بن ســـلام الشامى ( ت ١٩٢هـ ) تلميذ الإمام الأوزاعى كان اول من ادخل الحديث إلى الأندلس(٧) .

كما يذكر أن الغازى بن قيس ( ت ١٩٩هـ ) كان أول من ادخل الموطا

---

(٢) الحميدى : جـــذوة المقتبس ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١ ، الضبى : بغية الملتمس ص ٢٤٥ ترجمة ٥٨٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٩٠١ .

(٤) انظر جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٥ ، بغية الملتمس ترجمة ١١٩٤ وقد ورد اسمه فيهما عثمان بن محامس .

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٥٤٥ .

(٦) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٧) تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٦١٠ .

إلى الاندلس قبل زياد بن عبد الرحمن اللخمى ( شبطون ) ت ٢٠٤هـ ، وقيل إنه كان يحفظه(٨) .

غير اننا نجد فقيها ومحدثا مشهورا دخل الاندلس منذ سنة ١٢٣هـ ، واستقر فى مالقة ، ثم انتقل منها إلى إشبيلية وهو معاوية ابن صالح الحضرمى الحمصى ، وعندما قدم عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس عهد إليه بعدة امور منها : انه وجهه بكتاب إلى اخته ام الأصبغ ، وكان عبد الرحمن قد تركها فى الشام ، ثم ولاه القضاء . ويعتبر هو مدخل علم الحديث إلى الأندلس على حد قول يحيى بن يحيى الليثى ، وقد أفرد له ابن الأبار كتابا خاصا سماه ( المدخل الصالح فى حديث معاوية بن صالح ) وقد توفى سنة ١٥٨هـ(٩) .

وهو يعتبر بذلك من أوائل المحدثين بالأندلس إن لم يكن أولهم ، قبل صعصعة والغازى بن قيس . ويعتبر بقى ابن مخلد أيضا من أشهر علماء الحديث إلى جانب التفسير والفقه . وكان قد ادخل مسند ابن أبى شيبة كاملا ، واخذ يدرسه فى قرطبة ، فأثار ذلك فقهاء المالكية ، وصنف فى الحديث كتابا رتبه على أسماء الصحابة ، روى فيه عن الف وثلاثمائة صحابى ونيف ، كما رتبه على ابواب الفقه المختلفة أيضا . فهو مصنف ومسند معا ، أو كتاب فقه وكتاب حديث ، قال عنه ابن حزم : « وما اعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفائه فيه

---

(٨) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ، ٤٥٨ ، جذوة المقتبس ترجمة ٢٤٨ .

(٩) انظر : المقتبس ص ٣١٤ - ٣١٥ ، قضاة قرطبة ص ٣٠ ، ٤٢ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥ .

بالحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائر أعلامهم مشاهير(١٠) .

ثم تلاه تلميذه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد ، وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه(١١) .

ومن علماء الحديث أيضا : قاسم بن ثابت ( ت ٣٠٢هـ ) الذى عنى بجمع الحديث والفقه ، وألف فى غريب الحديث كتابا سماه ( الدلائل ) أثنى عليه الكثيرون ، ومنهم أبو على القالى الذى قال عنه « لم يؤلف بالأندلس كتاب أكمل من كتاب قاسم فى شرح الحديث »(١٢) .

وكذلك أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى ويعرف بابن عمريل ت ٣١٢هـ وكان عالما بالحديث حافظا له ، بصيراً بعلله ، إماما فيه ، وكانت الرحلة إليه فى وقته(١٣) .

ومنهم أيضا قاسم بن أصبغ ( ت ٣٤٠هـ ) الذى رحل إلى القيروان ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس وقد تبحر فى الحديث والرجال ، وألف كتابا طويلا ، ثم اختصره وسماه ( المجتنى ) ، وقدمه للحكم المستنصر ، وفيه من الحديث المسند الفان وأربعمائة وتسعون حديثا فى سبعة أجزاء ، وصنفه على أبواب الفقه ، وكان له الفضل فى نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة ، وله مصنف آخر فى بيان صحيح الحديث وغريبه(١٤) .

---

(١٠) بغية الملتمس ترجمة ٥٨٤ ص ٢٤٥ .
(١١) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٨٣ .
(١٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠٦٢ . يذكر انه مات قبل إكماله فأكمله أبوه بعد وفاته .
(١٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٦ .
(١٤) انظر ترجمة فى تاريخ علماء الاندلس رقم ١٠٧٠ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٠ .

٣ ــ **علم القراءات :** نمــا علم القراءات فى الأندلس شيئا فشيئا ، حتى وصل إلى الذروة على يد الإمام الشاطبى ، صاحب الرسالة المشهورة ( حــرز الأمانى ) المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليــه ، والتى عمت شهرتها الآفاق ، ولا تزال مرجعــا للكثيرين من المشتغلين بالقراءات إلى اليــوم(١٥) .

وكانت قراءة نافع هى القراءة المشهورة بالأندلس يقول المقــدسى ( وأما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع )(١٦) ويقول ابن ســعيد ( وقراءة القرآن عندهم بالسبع )(١٧) .

ومن الذين اشتغلوا بعلم القراءات فى الأندلس فى العصر الأموى سليمان بن مسرور ، وكان من أهل طليطلة ، غلب عليــه العلم بالقراءات وكان فيهــا إماما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، رحل حاجا قبل التسعين من عمره ، ثم استوطن مصر وتوفى بها(١٨) . ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزارى القرطبى ( ت ٣٦١هـ ) ، وقد عنى بالقراءات والتفسير ، وكان عابدا زاهدا(١٩) . ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله المقرىء الطلمنكى ، وهو محدث منسوب إلى بلده ، وكان إماما فى القراءات مذكورا ، وثقة فى

---

(١٥) انظر احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٣ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٥ .

(١٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ ، احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٣ .

(١٧) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(١٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٥٣ .

(١٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٩٥ .

الروايع مشهورا ، توفى سنة ٤٢٨هـ(٢٠) .

ومن أشهر من عرف بالقراءات فى الأندلس قبل الإمام الشاطبى : أبو عمر الدانى ( عثمان بن سعيد المقرىء ) وكان قد رحل إلى المشرق قبل الأربعمائة ، وطلب علم القراءات ، وقرأ وسمع الكثير ، ثم عاد إلى الأندلس فتصدر بالقراءات وألف فيها عدة مؤلفات بلغت المائة ، ونظمها فى أرجوزة مشهورة . وكان إمام وقته فى الإقراء ، وقد توفى فى دانية سنة ٤٤٤هـ(٢١) .

**علم الفقه :**

يقول ابن سعيد عن الفقه فى الأندلس : « والفقة رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إنهم كانوا يسمون الأمير العظيم عندهم بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى الفقيه لأنها عندهم من أرفع السمات »(٢٢) . ومن هذا تتضح مكانة الفقه والفقهاء بالأندلس .

وقد كان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل على مذهب الإمام الأوزاعى(٢٣) ، وقد سار على هذا المذهب

---

(٢٠) بغية الملتمس ترجمة ٣٤٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٨٧ .

(٢١) بغية الملتمس ترجمة ١١٨٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٢ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى نسبة إلى الأوزاع وهم بطن من حمير ، أو نسبة لقرية سميت بذلك تقع خارج باب الفراديس من دمشق . ولد فى بعلبك سنة ٨٨ ، ٩٣هـ ، ثم

عـدد من العلماء ومن أشهرهم تلميذه وناشر مذهبـه أبو عبد الله صعصعة ابن سـلام الشامى ت ١٩٢هـ ، الذى كانت الفتيـا دائرة عليـه فى عهد عبد الرحمن الداخل ، وصدرا من عهد ابنه هشام . وانتفع بعلمه كثيرون، مثل عبد الملك بن حبيب السلمى ت ٢٣٨هـ ، وعثمان بن أيوب (ت ٢٤٦هـ)، وابن زريق الملقب ( بزونان ) الذى تولى الفتيا فى عهد هشام وكان يذهب مذهب الأوزاعى(٢٤) .

ثم بدأ مذهب مالك فى الانتشـار فى عهد هشـام بن عبد الرحمن الداخل ؛ ويذكر أن الفضل فى ذلك يعود إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمى ( شبطون ) ت ٢٠٤هـ ، الذى يقال : إنه أول من أدخل فقـه الإمام مالك إلى الأندلس(٢٥) .

ومن الفقهاء الذين برعوا فى الفقه أيضـا عيسى بن دينار الغافقى ( ت ٢١٢هـ ) قال عنه محمد بن عبد المـلك ( كان عيسى بن دينار عالمـا متفننا مفتقا ، وهو الذى علم المسائل أهل مصرنا وفتقها ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمه ) .

وكان محـمد بن عمر بن لبـابة يقول « فقيـه الأندلس عيسى ابن دينار ، وعالمها عبد المـلك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى » .

---

=

رحل إلى دمشق واليمن والحجاز والعراق للتعلم ، ثم عاد فاستقر فى بيروت حتى توفى بها سنة ١٥٧هـ ودفن بقرية قريبـة منهـا تسمى ( جنتوس ) ، وكان كثير المناقب ، عرف بالزهـد والورع وطول الصمت وكان رأسا فى العـلم والعمل ( وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٧ ، العبر فى خبر من غبر ج ١ ص ٢٢٧ ) .

(٢٤) انظر تاريخ علماء الأندلس تراجم رقم ٦١٠ ، ٨١٦ ، ٨٩٩ ، ٨١٥ .

(٢٥) نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٤ ، ( تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٥١ ) .

وقال عنه ابن الفرضى « كان إماما فى الفقه على مذهب مالك بن انس ، وعلى طريقة عالية بن الزهد والعبادة ، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة ، وكان يعجبه ترك الراى والأخذ بالحديث »(٢٦) .

ومنهم : محمد بن عمر بن لبابة ( ت ٣١٤هـ ) وكان إماما فى الفقه مقدما على أهل زمانه فى حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا ، يذكر أنه درس كتب الرأى ستين سنة ، وانفرد بالفتيا فى عهد الناصر(٢٧) .

ومنهم ايضا لبابة محمد بن يحيى بن عمر ( ت ٣٣٠هـ ) وكان حافظا للفقه على مذهب الإمام مالك ، عالما بعقد الشروط ، بصيرا بعللها ، ولى قضاء البيرة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وله فى الفقه كتب مؤلفة . منها كتاب المنتخب الذى قال عنه ابن حزم « وما رايت لمالكى كتابا انبل منه فى جميع روايات المذهب . . الخ »(٢٨) .

كما كان منهم يحيى بن يحيى الليثى ( ت ٢٣٤هـ ) — زعيم الفقهاء فى ثورة الربض — والذى لقب بعاقل الأندلس وقد أصبحت له الفتيا بالأندلس بعد عيسى بن دينار ، وغدت له مكانة عظيمة ونفوذ كبير خاصة فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان احمد بن خالد يقول : لم يعط احد من اهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وسمع منه مشايخ

---

(٢٦) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ( ١١٤٤ ) .

(٢٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١١٨٩ جـ ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٢٣١ جـ ٢ ص ٥١ ، بغية الملتمس ترجمة (٣١١) .

الأندلس فى وقتــه )(٢٩) .

وكذلك يحيى بن معمر الألهانى ، وكان ورعا فاضلا ، اشتهر بالفقه والفرائض ، وولاه عبد الرحمن الأوسط قضـــاء الجماعة بقرطبة ، فــكان عنــد حسن ظنــه ، وكان إذا اختلف مع فقهاء قرطبـــة فى حــكم من الأحكام ، كتب إلى فقهاء مصر من المـــالكية يسترشد برأيهم ، فكان فقهاء قرطبة ينفرون منــه لذلك ويذمونه ، وعلى رأسـهم يحيى الليثى الذى ظل به حتى عزل من القضـــاء(٣٠) .

وكذلك كان عبد المـــلك بن حبيب ( ت ٢٣٨هـ ) من الفقهاء المشهورين وله فى الفقه كتاب ( الواضـــحة ) لم يؤلف مثله كما قيل ، وكان يعد عالم الأندلس كما قال ابن لبابة(٣١) .

وكذلك ابن مرتنيل عبد الله بن محمد بن خـــالد ( ت ٢٥٦هـ ) الذى اعتبره ابن الفرضى رأس المـــالكية بالأندلس والقائم بهـــا والذاب عنهـــا فى عصره(٣٢) .

وفى عهد الحكم بن هشام الملقب بالربضى ( ١٨٠ — ٢٠٦هـ ) غدا

---

(٢٩) نفس المرجع ترجمة ١٥٥٦ ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، يقال إنه سمى بعاقل الأندلس لأنه لمـــا رحل إلى المدينـــة ليتعلم من الإمام مالك جلس إليه ذات يوم فذكر أن هنـــاك فيـــلا عظيما فخرج الكثيرون لرؤيته فقال له الامام مالك : لمـــاذا لا تخرج لترى الفيل ، فقال : إنما جئت لأتعلم منك ( نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ ) .

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣١) المرجع السابق ترجمة ٨١٦ ج ١ ص ٢٦٩ — ٢٧١ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

(٣٢) نفس المرجع ترجمة ٦٣٧ ج ١ ص ٢١٣ .

للمذهب المالكي المكانة الاولى فى الأندلس ، وأصبح المذهب الرسمى ، وتقلص مذهب الأوزاعى ، وبدأ فى الاندثار ، ولم يبق منه إلا مسألة إباحة زراعة الأشجار فى ساحة المساجد .

ومن أعلام المالكية فى فترة الخلافة عبد الله بن أبى دليم الذى صنف كتاب ( الطبقات فيمن روى عن مالك من الانصار )(٣٣) ، ويحيى ابن عبد الله بن يحيى الليثى(٣٤) . وهناك الكثير من فقهاء المالكية ممن ترجمت لهم كتب الطبقات ومن أشهرها كتاب القاضى عياض ( ت ٥٤٤هـ ) المسمى ( ترتيب المدارك ،وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك ) .

وإلى جانب فقهاء المذهب المالكى فقد وجد فقهاء على المذاهب الأخرى ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للمالكية ، مثل المذهب الشافعى . ومن علمائه ابن أبى بردة البغدادى « الذى كان من أعلم الناس بمذهب الشافعى، وأحسنهم قياما به ، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بهذا المذهب » كما قال ابن الفرضى(٣٥) .

وقاسم بن محمد بن سيار البيانى وكان محدثا فقيها على هذا المذهب ، وله مؤلفات فى الرد على مخالفيه ومنها كتاب ( الإيضاح فى الرد على المقلدين )(٣٦) .

وكذلك عثمان بن أبى سعيد الكنانى(٣٧) ، وأسلم بن عبد العزيز

---

(٣٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٧٠٧) .
(٣٤) المصدر السابق ترجمة ( ١٥٩٧ ) .
(٣٥) نفس المصدر ترجمة ( ١٤٠٣ ) .
(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ( ٧٦٤ ) .
(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ( ٨٩٢ ) .

ابن هاشم(٣٨) ، وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس(٣٩) ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتب التراجم .

ومن فقهاء المذهب الحنفى : محمد بن عيسى الملقب بالأعشى القرطبى، الذى كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق كما ذكر ابن الفرضى(٤٠) . وكذلك أحمد بن سليمان القيروانى الذى قدم إلى الأندلس ، وروى عن سحنون بن سعيد ، وكان يذهب مذهب العراقيين كما ذكر ابن الفرضى ، وتوفى ببجانة سنة ٢٩٦هـ(٤١) .

كما وجد فقهاء على المذهب الظاهرى مثل القاضى منذر بن سعيد البلوطى « الذى غلب عليه التفقه بهذا المذهب ، فكان يؤثره ، ويجمع كتبه ، ويحتج لمقالته ، ويأخذ به نفسه وبنيه ، ولكنه كان يقضى بالمذهب المالكى لأنه المذهب المعمول به فى الأندلس »(٤٢) .

ومثل عبد الله بن محمود بن قاسم بن هلال ت ٢٧٢هـ(٤٣) ، والحسن ابن دحية الظاهرى . والفقيه المشهور ابن حزم الذى حمل لواء هذا المذهب ، وعمل على نشره وإحيائه من جديد بعد أن كاد يندثر(٤٤) .

---

(٣٨) المصدر السابق ترجمة ( ٢٨٠ ) .

(٣٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ( ١٥٤ ) .

(٤٠) المصدر السابق ترجمة ( ٢٠٠ ) .

(٤١) ابن حيان المقتبس ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ تحقيق مكى .

(٤٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ( ١٤٠٤ ) ، نفح الطيب جـ ٦ ص ٣٣٣ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ( ٩٥٥ ) .

(٤٤) تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

فإذا خطونا خطوة اخرى رأينـــا أن الاختــلافات أو الخلافات بـــين الفقهاء فى المشرق قــد اشتدت ، والفت فى ذلك الكتب المتعددة ، حيــث سرى الاختلاف من السياسة إلى العقائد ثم إلى العلوم وخاصه الفقـــه . وقد تحدثت بالتفصيل عن هذه المذاهب فى الفصل الثالث .

فنجــد الكثير من الفقهاء يتناظرون طويلا فى كثير من المسائل الفقهية . وقد نشأ عن ذلك علم جديد يسمى بعــلم الاختلاف . ويؤثر عن أيــوب السختيانى قوله ( لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف )(٤٥) .

وقد أدى هــذا إلى ظهور فريق من الفقهاء حكموا العقل فى آرائهم ، وفلسفوا أدلتهم ، وسموا بأهل الرأى لغلبـــة القياس على فقههم وكان اكثرهم بالعراق وفى مقابلهم أهل الحديث ، وكان اكثرهم بالحجاز(٤٦) .

وقد اشتد الخــلاف بين الفريقين وهو خلاف كان منشؤه فى الأعم الأغلب البحث والدراسة ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، وليس الهوى والتعصب ، ومحاولة التغلب على الفريق الآخــر ومثال ذلك تلك المناظرة التى جرت بين ابى حنيفة وهو صاحب الرأى والقياس ، وبين الأوزاعى وهو من اهل الحديث فى دار الخياطين بمـــكة حـــول رفع الأيدى عنــد الركوع وعند الرفع منـــه(٤٧) .

وقد جمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة فى كل مسألة ، والفوا فى اختلاف الرأى كتبـــا كثيرة مثل الطبرى فى كتابه ( اختلاف الفقهاء )(٤٨) .

---

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٨ .

(٤٦) ابن قتيبة : المعـــارف ص ٢٨٤ .

(٤٧) أبو زهرة : تاريخ الجــدل ص ٣٢١ .

(٤٨) نشر المستشرق يوسف شاخت بعض أجزاء من هـــذا الكتاب تحت

وقد انتقل ذلك إلى الأندلس فرأينا مثلا ابن رشد الحفيد يؤلف كتابا فى اختلاف المذاهب وعللها سماه ( بداية المجتهد ونهاية المقتصد ) . وهو يذكر الخلاف فى كل مسألة فقهية حدث فيها اختلاف ويرجع ذلك إلى سببه ، ويضع قاعدة عامة فى ذلك يطبقها على كل أنواع الخلاف فى الفقه تطبيقا بديعا فكان هذا فى الواقع خطوة جديدة .

ولما وجدت مذاهب أخرى فى الأندلس إلى جانب المذهب المالكى ومن قبله مذهب الأوزاعى كثر الجدل بعد أن كان الأندلسيون منصرفين عنه فى البداية ، حتى حكى أن بعضهم كان يتجادل حتى فى مجالس العزاء ، وكان لكثرة الجدل بين الفرق والمذاهب فى المشرق أثر فى ذلك(٤٩) .

**علوم اللغة :**

بالرغم من قدوم الكثير من العرب أثناء الفتح وبعده إلى الأندلس ، ومعهم لغتهم وأشعارهم ، وأيامهم وأخبارهم ، وبذرهم البذرة الأولى ، إلا أن ذلك لم يكن علما منظما ، حتى جاء الأمويون فأرادوا بناء دولتهم ومنافسة العباسيين والفاطميين الذين كان من أسباب حضارتهم ازدهار الحركة العلمية ، ومن هنا رأيناهم يستدعون كبار العلماء من المشرق للمساهمة فى نشر الثقافة العربية ، إلى جانب من قدم بنفسه . ومنهم أبو على القالى اسماعيل بن القاسم بن عبدون الذى كان أبوه مولى

---

=

عنوان ( كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ) فى ليدن سنة ١٩٣٣م .
( انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٩٤ هامش ٢ )

(٤٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٢ ، ٦٨ .

لعبـد المـلك بن مروان واستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى الأندلس سـنة ٣٣٠هـ « فسمع الناس منـه ، وقراوا عليـه كتب اللغـة والأخبار والأمالى ، وعظمت استفادتهم منـه »(٥٠) .

وقـد تتلمذ على يديه الكثيرون بالأندلس ، واملى على طلابه كتابه الشهير ( الأمالى ) ، وكذلك كتـاب ( النوادر ) . وكان من اشهر تلاميذه الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذى تأدب على يديه ، وكان لذلك اثـره الكبير فى حبـه للعلم ، وجمعه للكتب . واسس بذلك اول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس .

يقول ابن حزم – وهو من هو – « كتاب نوادر أبى على وهو ذيل الأمالى ، مبار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد . ولئن كان كتاب المبرد اكثر نحوا وخبرا ، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا »(٥١) .

ومن مؤلفـاته ايضـا : كتاب المدود والمقصور ، وكتاب البـارع فى اللغـة ، رتبـه على حروف المعجم ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف ورقة ،

---

(٥٠) لقب بالقالى نسبة إلى قالى قلا ( قاليقلا ) . وذكر انه ولـد فى مناذجرد ( ملاذجرد ) بديار بكر التى تقع الآن فى تركيا . انظـر معجم البلدان جـ ٧ ص ١٧ ) . وقد ذكر الأستاذ احمد أمين انه رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ ( ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨٣ – ٨٤ ) . بينما ذكر د. احمد هيكل انه رحل إليها سنة ٣٤٠هـ ( الأدب الأندلسى ص ١٩٢ ) . والصحيح انه رحل إليها سـنة ٣٣٠هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى ( تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٢٣ ) . والحميدى ( جذوة المقتبس ترجمة ٣٠٣ ) . ولم يذكر لنـا د. هيكل المصدر الذى رجع إليه فى ذلك ، ونعتقد انه ربما يكون خطأ مطبعيا .

(٥١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٨٣ .

وذكر أنه لم يؤلف مثله ، وقد ظل فى قرطبة ينشر علمه حتى توفى سنة ٣٥٦هـ(٥٢) .

وقد برز فى هذه الفترة أيضا عدد من الأندلسيين الذين تتلمذوا على يد القالى مثل : أبى بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ، وألف كتاب طبقات النحويين واللغويين ، وكتاب لحن العامة ، وكتاب الأبنية فى النحو ، وكتاب الواضح فى العربية . وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم المستنصر (٥٣) .

ومن الأندلسيين المولدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية أيضا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية ( ت ٣٦٧هـ ) الذى برع فى الفقه والتاريخ أيضا . يقول عنه ابن الفرضى « وكان عالما بالنحو ، حافظا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره ، لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه ، وله فى هذا الفن مؤلفات حسان منها كتاب تصاريف الأفعال ، وكتاب المقصور والممدود ، وغير ذلك ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه »(٥٤) .

ويقول عنه الحميدى : « كان إماما فى العربية ، وله كتاب الأفعال لم يؤلف مثله »(٥٥) .

ومن الذين برعوا فى هذا المجال أيضا : صاعد البغدادى ، الذى وفد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبى عامر سنة ٣٨٠هـ ، فتلقاه

---

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦٩ ( ٢٢٣ ) ، جذوة المقتبس ص ١٦٥ ( ٣٠٣ ) .

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨٩ — ٩٠ ترجمة ( ١٣٥٧ ) .

(٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ — ٧٧ ترجمة ١٣١٨ .

(٥٥) جذوة المقتبس ص ٧٦ ترجمة ( ١١١ ) .

وأكرمه ، متشبها بالناصر فى تلقيه لأبى على القالى . وكان صاعد عالما باللغة والأدب والأخبار ، سريع البديهة حسن الشعر ، بارع الارتجال ، محبا للتجوز والمزاح حتى اتهم بالكذب . وكان لمحاوراته ومناظراته مع الكثيرين اثر كبير فى تنشيط الحركة اللغوية والأدبية . وله كتاب ( الفصوص ) الذى أملاه فى مسجد مدينة الزهراء التى بناها المنصور على غرار الأمالى على القالى ، ويذكر أن المنصور كافأه عليه بخمسة آلاف دينار (٥٦) .

**الأدب** : ما كاد العرب يضعون أقدامهم فى الأندلس ، ويستقرون فيها حتى اخذوا فى نشر لغتهم وأدبهم ، وقد كان للانشغال بالفتح ، وتثبيت أقدام المسلمين فى البلاد اثره فى قلة الأدب شعرا ونثرا فى عصر الولاة(٥٧) . ثم بدأت الأندلس تشهد فى عصر الإمارة ( ١٣٨ — ٣٠٠هـ ) أولى الخطوات نحو أدب أندلسى له سماته وخصائصه المميزة(٥٨) .

فقد ظهر أول جيل من الادباء والشعراء الذين اهتموا بالبيئة الاندلسية وأحداثها . ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على طوائف الشعب ، بل شارك فيه بعض الولاة والأمراء ، كما لم يعد وقفا على الوافدين

---

(٥٦) جذوة المقتبس ص ٢٤٠ ترجمة ( ٥٠٩ ) ، بغية الملتمس ص ٣١٩ ترجمة ( ٨٥٢ ) ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ١٩ وبعدها .

(٥٧) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٥٨) من أهم هذه السمات : التجديد فى الموضوعات فالبيئة الأندلسية غير المشرقية ، والتجويد الفنى سواء من ناحية الشكل او المضمون ، ووضوح العاطفة وصدقها ( الأدب الأندلسى ص ٧٨ وبعدها ) .

من المشرق فقط ، كما كان الحـــال عموما فى عصر الولاة . وبالرغم من أن الشـعر الأندلسى فى هـــذه الفترة قــد ساعد فى اتجاه المدرسة التقليدية فى المشرق ، إلا أنه وجــدت له سمات أخـــذت تشكل أولى ملامحـــه منذ نشأته كشعر أندلسى .

ومن أهم شعراء هــذه الفترة : ابو المخشى عاصم بن زيد العبادى الذى يتصل نسبه بالعبــاد نصارى الحيرة ، وكان والده من جنــد الشام الذين قدموا إلى الأندلس ، ونزل كورة إلبيرة ، فنشأ ابنه فى بلدة تسمى ( شــوف ) ونبــغ فى الشعر حتى صــار ألمــع شعراء هــذه الفترة . وقــد اشتهر بالهجاء المقذع لمخالفيه حتى عير بأصــله النصرانى ، وقــد اختص فى أول أمــره بالأمير سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، وأكثر من مدحه ، وامتــد به العمر حتى عهــد عبد الرحمن الأوسط ، وذكر البعض أنه توفى فى عهــد الحكم الربضى .

قال عنــه الرازى مؤرخ الأندلس الأول « كان شــاعر الأندلس فى حينــه ، وهو صاحب المعــانى الحسنة ، والنوادر الكثيرة ، والقــول الغزير » . ولم يصلنا من شعره إلا القليل(٥٩) .

وممن يعدون من شعراء هــذه الفتــرة أيضــا الأمير عبــد الرحمن الداخل ، وكان شاعرا مجيدا وناثرا بليغــا وله أبيــات مشهورة فى وصف نخــلة وهى :

**تبدت لنــا وسط الرصافة نخلة**

**تناءت بأرض الغـرب عن بلد النخل**

---

(٥٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ - ٣٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ ، د. أحمد هيــكل : الأدب الأندلسى ص ٩٠ .

**فقلت شبيهى فى التغرب والنوى**

**وطول التنائى عن بنى وعن أهلى**

**نشأت بأرض أنت فيها غريبة**

**فمثلك فى الإقصاء والمنتاى مثلى**

**سقتك غوادى المزن فى المنتاى الذى**

**يسح ويستمرى السماكين بالوبل(٦٠)**

ومن مشاهير شعراء هـذه الفترة أيضا : عباس بن ناصح الثقفى ، وكان من أهل الجزيرة الخضراء ورحل مع أبيه إلى مصر والحجاز والعراق ، فنال حظا من العـلم فى الفقه والحديث والأدب ، واتصل بالأمير الحكم ابن هشام ومدحه ، فاستقضاه على شذونة والجزيرة(٦١) . ويتسم شعره بنزعة بدوية واضـحة ، فيـه الكثير من الخشـونة وقـلة الصـقل ، والسذاجة فى الأفكار والصور والقلق فى الألفـاظ(٦٢) ، ومما يدل على ذلك أنه أنشد بعض الشعراء بقرطبة قصيدة جاء فيها :

**تجاف عن الدنيا فما لمعجـز ولا عاجز إلا الذى خط بالقلم**

فقال له يحيى الغزال وكان لا يزال شاعرا مبتدئا ولكنـه مطبوع : « أيها الشيخ وما يفعل مفعل مع فاعل . فقال له : كيف تقول أنت قـال أقـول :

**تجاف عن الدنيا فليس بعاجز ولا حازم إلا الذى خط بالقلم**

فقال : والله يا بنى لقـد طلبها عمك يوما فما وجدها(٦٣) .

---

(٦٠) ابن الابار : الحـلة السيراء جـ ١ ص ٣٧ .

(٦١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم (٨٨١) .

(٦٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٠٥ .

ومن شعره فى الزهد أيضـــا :

**ما خير مدة عيش المــرء لو جعلت**

**كمدة الدهــر والأيام تفنيهـــا**

**فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى**

**وابتع نجاتك بالدنيـا وما فيها(٦٤)**

ومن شاعرات هــذه الفترة كذلك ( حسانة التميمية ) التى تعتبر أولى شـواعر الأندلس الحقيقيات ، وكانت من أهل البيرة ، وقــد ورثت الشعر عن أبيهــا أبى الحسين ، وعندما توفى لجأت إلى الحكم الربضى قـــائلة :

**إنى إليك أبا العاصى موجعـة**

**أبا الحسين سقته الواكف الديم**

**قد كنت أرتع فى نعماه عاكفة**

**فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم**

**أنت الإمام الذى انقاد الأنام له**

**وملكتـــه مقاليـــد النهـى الأمـــم**

**لا شىء أخشى إذا ما كنت لى كنفا**

**آوى إليه ولا يعرو لى العدم**

**لا زالت بالعــزة القعساء مرتديا**

**حتى تذل إليك العــرب والعجم**

فأمر بإجراء رزق شهرى عليها ، وكتب إلى عامله على إلبيرة ( جابر ابن لبيــد ) أن يجهزها بجهاز حسن ، ولمــا توفى الحكم لم ينفذ هــذا

---

(٦٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٥ .

(٦٤) بغيـــة الملتمس ص ٢٧٦ .

العامل ما أمره به ، ونالها منــه شيء من الضر فشكت للأمير الجـديد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بأبيــات شعرية فعزل هــذا العامل وأمر لهــا بصلة فبعثت إليه بأبيــات تشكره فيها ومنها :

**قــل للإمام أيا خير الورى نسـبا**
**مقابلا بين آبــاء وأجــــداد**
**جودت طبعي ولم ترض الظلامه لى**
**فهاك فضل ثناء رائح غــادى**
**فإن أقمــت ففى نعمــاك عاكفــة**
**وإن رحلت فقد زودتنى زادى(٦٥)**

وقد حدثت تغيرات كبيرة فى المجتمع الأندلسى من الناحية الاجتماعية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث شــاع البذخ والترف ، وازدهر فن الغنــاء على يد زرياب مما أدى إلى التجديد فى الأدب ، والاهتمام بأغراض وموضوعات لم تكن شائعة من قبل كأشعار اللهو والمجون والخمر والتغزل بالمذكر .

ومن أشهر شعراء التجديد ( يحيى الغزال ) الذى أكثر من القــول فى الخمريات مثل قوله :

**ولمــا رأيت الشرب أكدت سماؤهم**
**تأبطت زقــى واحتسبت عنــائى**
**فلما أتيــت الحــان ناديت ربــه**
**فهب خفيف الروح نحو ندائى(٦٦)**

---

(٦٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٢٩ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٢٢ — ١٢٣ .
(٦٦) ابن دحية : المطرب فى أشعار أهل المغرب ص ١٤٨ .

والمطرف بن عبد الرحمن الأوسط الذى يقول :

أفنيت عمرى فى الشر ب والوجـوه المـلاح
ولم أضـيع أصـيلا ولا اطـلاع الصـباح
أحيى الليالى سـهدا فى نشـوة ومـراح
ولست أسـمع ماذا يقول داعى الفلاح(٦٧)

ومثل الشاعر مؤمن الذى يتغزل فى فتى يلقب بابن القط فيقول :

قولا لمنصـور أبا نصر بحـرمة المضراب والنقـر
الا حكمت اليوم لابن الـذى لقـب بالقط على البـدر
لا والذى طافت قريش له بالبيت فى أيـامه العشر
كأن هاروت نعى طـرفه إذا رنا ينفث بالسـحر(٦٨)

كما ظهرت أيضا بواكير شعر الطبيعة ، وكثرت أشعار الزهـد كرد فعل لهـذا التيار الذى بدأ ينتشر فى المجتمع كقول الأمير عبد الله وهى من الأبيـات الرائعة :

ولعل المقصود بمنصور ( منصور اليهـودى ) المغنى المشهور فى عهد الحكم بن هشام .

يا من يراوغـه الأجـل حتـام يلهيـك الأمـل
حتـام لا تخشى الردى وكأنه بـك قـد نـزل
أغفلت عن طلب النجـا ة ولا نجـاة لمـن غفـل
هيهـات تشـغلك المنى ولمـا يدوم لـك الشغل
فكأن يومـك لـم يكن وكأن نعيك لم يزل(٦٩)

---

(٦٧) نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٩ .
(٦٨) ابن حيان : المقتبس ص ١٣٨ تحقيق ملثور انطونية .
(٦٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، أخبـار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٥٣ .

كما ظهر فى أواخر هـذه الفترة ( إمارة الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ ) شعر الموشحات حيث كان الغناء الموسيقى قد ازدهر ، وكثر الاختلاط بين العرب والإسبان فنشأت الموشحات استجابة لحاجة فنية من ناحية ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية من ناحية أخرى . وتعتبر الصورة الأدبية المعبرة عن تبلور الشخصية الأندلسية فى ميدان الأدب . وهى التى منحته تميزا خاصا عن الشعر المشرقى(٧٠) .

أما فى فترة الخلافة فقد نهض الأدب نهضة عظيمة ساعد عليها ما كان من توحد الأندلس سياسيا بالقضاء على الفتن والثورات ، ورقيها اجتماعيا ، ونهوضها ثقافيا . فبدأ ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر والنثر ، بالإضافة إلى تطور الاتجاهات التقليدية ، ووفرة الانتاج الأدبى وخصوبته ، نظرا لكثرة الأدباء والشعراء ، والتشجيع الذى لقيه الكثيرون منهم . ، وشيوع الأدب شيوعا يكاد يكون عاما بين الأندلسيين . حتى أنه كان فى بعض الأحيان يؤدى وظيفة الرسائل أو البطاقات ، وأحيانا يحل محل لغة الجدل والمناظرات(٧١) ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن جعلوه على السنة الطيور . ولعل فى قصة زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يدل على ذلك . حيث يروى أنها أحضرت زرزورا وعلمته أبياتا من

---

(٧٠) عن الموشحات انظر : د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ ـ ١٥٤ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٣٧١ وبعدها ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٧٠ ـ ٧١ ، د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١ سنة ١٩٨٠ م الكويت .

(٧١) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٣٠ .

الشعر ، وعندما قعد الناصر فى بهو قصره بمدينة الزهراء للقصد ، وبدأ الطبيب فى ذلك اطل الزرزور ووقف على إناء من الذهب كان بالمجلس وأخذ يردد :

**ايها القاصد رفقا بامير المؤمنينا**

**إنما تقصد عرقا فيه محيا العالمينا**

فاعجب الناصر بذلك كثيرا ، ولما سأل عن ذلك اخبر بأن إحدى زوجاته وهم أم ولده المستنصر ، قد ربت هذا الطائر ، وحفظته هذه الأبيات ليقولها بهذه المناسبة(٧٢) .

وإذا كان البعض يرى فى هذه الحكاية شيئا من المبالغة او الاختراع ، فإنها مع ذلك تدل على مدى شيوع الشعر فى هذه الفترة بين الاندلسيين .

وقد صور الشعر الأندلسى فى هذه الفترة شتى جوانب الحياة الاندلسية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعا جعله يتغلغل فى حياتهم اليومية حتى أصبح ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة(٧٣) .

اما عن شعراء هذه الفترة فهم كثيرون منهم الخلفاء كالناصر والمستنصر ، ومنهم الوزراء كابن جهور وابن شهيد ، ومنهم العلماء كالزبيدى ، ومنهم القضاة كمنذر بن سعيد البلوطى ، ومنهم الأدباء كابن عبد ربه وابن هانىء الأندلسى ، وابن دراج القسطلى ( متنبى المغرب )(٧٤) .

---

(٧٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٨ .

(٧٣) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الادب الاندلسى ص ٢٣ .

(٧٤) انظر احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ١١٣ وبعدها ، د. احمد هيكل ص ٢٣٢ وبعدها .

وفى هـذه الفترة تطور النثر أيضا فظهر نوع جـديد وهـو النثر التأليفى الذى يختلف عن النثر الأدبى . وقـد تأثر النثر الأدبى فى هـذه الفترة بمذهب الجاحظ فى المنهجيـة ، والعنـاية بالبـداية والموضـوع والخاتمة ، وانعكست عليـه الفخامة والجزالة فى الألفـاظ ، والعبارات الاعتراضية ، والميـل للتكرار والتطويل ، والبحث والتعمق فى الجزئيات والتفاصـيل كأثر لفخامة الأندلس ، وعظمة حضارتها فى عصر الخلافة(٧٥) .

كما لقيت الكتابة الرسمية عنـاية كبيرة ، حيث وجدت طائفة من الأدباء المقتدرين الذين وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة والحجابة ، كابن فطيس وابن بدر وابن بسيل وابن جهور وابن أبى عامر وجعفر المصحفى وغيرهم(٧٦) .

ولم يقتصر الأمر على الرجـال بل كانت هنـاك كاتبات من النساء كمزنة كاتبـة الخليفـة الناصر ( ت ٣٥٨هـ ) ولبنى كاتبـة الخليفـة المستنصر ( ت ٣٧٤هـ ) (٧٧) .

أما النثر التأليفى خـلال فترة الخلافـة فقـد تمثل فى فرعـين : التاريخ الأدبى وهو مزيج من التراجم والأخبار والمختارات والحـديث عن الشعر والشعراء . ومثال ذلك ما ألفـه عثمان بن ربيعة القرطبى بعنوان ( طبقـات الشـعراء بالأندلس ) ، وما ألفـه محمد بن هشام المروانى بعنوان ( أخبار الشعراء بالأندلس )(٧٨) ، وما ألفه أحمد بن فرج الجيانى.

---

(٧٥) د. أحمد هيكل : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧٦) انظر ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٤ وبعدها .

(٧٧) انظر الضبى : بغية الملتمس ص ٥٤٦ ترجمة رقم ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ .

(٧٨) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٦ .

بعنوان ( الحـدائق ) الذى عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى ، وقدمه للحكم المستنصر . وضمنه كثيرا من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى(٧٩) .

ورغم تأثر الكتابة الأندلسية بأسلوب المشارقة فى هـذا النوع ، إلا أنه كانت هناك محاولات من الكتاب الأندلسيين للتفوق عليهم بدافع الروح القومية ، التى كانت تدعوهم لتأكيد ذاتهم ، وإبراز جهودهم .

أما النوع الثانى : وهو التأليف الأدبى ويعنى به تأليـف كتب أدب بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، والمتمثل فى كل ما يكون به التأديب والتهذيب ، فمن أشهر كتبه كتاب ( العقـد الفريد ) لابن عبد ربه الذى يجمع أطرافا كثيرة من التاريخ والأخبار والشعر والنثر والأخـلاق والعـادات وغير ذلك مما حـواه(٨٠) .

وفى فترة الحجابة ظل الأدب سائرا بقوة الدفع فى الفترة السابقة ، ولم يحدث فيـه تطور عما كان عليـه فى فترة الخـلافة ، بل أخـذت بعض الأنواع تختفى مثل الشعر العلمى والفلسفى الذى كان قـد بدأ فى الظهور والنمو فى عهـد المستنصر ، ثم بدأ فى الاختفاء فى عهد المنصور من أبى عامر بسبب التضييق على الفلسفة ، ومطاردة المشتغلين بهـا ، ونشطت أغراض أخرى كالخمريات وشعر اللهو والمجون ، نتيجة لاشتداد تيـار الترف ، والإقبال على المتـع الحسية ، بالإضافة إلى شعر المدح والوصف والاستعطاف ، كنتيجة للحكم الاستبدادى من المنصور .

---

(٧٩) بغيـة الملتمس ص ١٥١ ترجمة ٣٣١ ، جـذوة المقتبس ص ١٠٤ — ١٠٥ ترجمة ١٧٦ .

(٨٠) د. هيـكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، د. إحسـان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٣ .

ومن مشاهير شعراء هـذه الفترة عبد الملك بن شهيد الذى اشتهر بشعر اللهو . ومن أبياته فيه :

**انا شيخ والشيخ يهوى الصبايا**
**ما بنفسى اقيك كل الرزايا**
**ورسول الإله اسهم فى الفيء**
**لمن لم يخب فيه المطايا(٨١)**

وقوله :

**ولرب حان قد شممت بديره**
**خمر الصبا مزجت بصرف عصيره**
**فى فتية جعلوا السرور شعارهم**
**متصاغرين تخشعا لكبيره**
**والقس مما شاء طول مقامنا**
**يدعو بعود حولنا بزبوره**
**يهدى لنا بالراح كل مصفر**
**كالخشف جمله التماح خفيره**
**يتناول الظرفاء فيه وشربهم**
**لسلافه والاكل من خنزيرة(٨٢)**

وكذلك ابن دراج القسطلى الذى اشتهر بمدائحه للمنصور . قال عنه ابن حيان : « القسطلى سباق فى حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى اهل الاندلس اجمعين » .

وقال عنه الحميدى : « وهو معدود فى جملة العلماء ، والمقدمين من

---

(٨١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٧ ، ٢٧٤ .
(٨٢) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

السفراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره كثير مجموع يدل على علمه وله طريقـــة فى البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته »(٨٣) .

وقال عنـــه ابن حزم : لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشـــعر من ابن دراج لم أبعـــد(٨٤) .

وكذلك الرمادى يوسف بن هارون الكندى الذى اشتهر بجودة شعره وكان جريئـــا مستهترا فيـــه ، وله شعر يدافع فيـــه عن الخمر حين أراد الحـكم المستنصر أن يقطع أشجار الكروم . وكان فيـــه ميل إلى التشيع . قال عنـــه الفتح خاقان : إنه شاعر مغلق ، انفرج له من الصناعة المغلق ، ومضى له بريقهـــا المؤتلق ، وسال بهـــا طبعه كالمـــاء المتدفق ، فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق .

وكان شيوخ الأندلس يقولون ( فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ) يعنون إمرأ القيس والمتنبى والرمادى(٨٥) . وقد كثر شعراء هذه الفترة لدرجـــة أنه ذكر أن المنصـــور صـــحب معـــه فى إحـــدى غزواته أربعين شـــاعرا من طبقات مختلفة(٨٦) .

أما عن النثر فى هـــذه الفترة : فقد ازدهر النثر الأدبى الخالص حيث وجـــد ديوان للكتاب يحررون فيـــه الرسائل والمنشورات ، ويصـــفون

---

(٨٣) انظر عنه : جذوة المقتبس ترجمة ١٨٦ ، بغيـــة الملتمس ترجمـــة ٣٤٢ .

(٨٤) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٦ — ٤٦٧ .

(٨٥) كان يلقب بأبى جنيس وهى كلمة رومانية صـــارت فى الأسبانية Cenisa ومعناها رماد فعرف بالرمادى ( انظر : احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ٢٠٠ ) .

(٨٦) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ ، د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ٢٥٦ .

المعـــارك والغزوات التى يقوم بهـــا المنصور . كما برز النثر الوصـــفى ايضا . وقـــد تأثر النثر عموما فى هـــذه الفترة بطريقة ابن العميد فى الميـــل إلى الاطناب ، والاعتماد على المحسنات البديعـــة بكثرة . ومن كتاب هـــذه الفترة ابو مروان الجزيرى ، وابن دراج القسطلى ، والمنصـــور ابن أبى عامر أيضـــا .

وفى الفترة التى سبقت سقوط الخـــلافة والمسماة بالفتنة البربرية تأثر الأدب تأثرا واضـــحا بأحداثها فانتشر أدب التلهى والنفاق والتفاهة ، أو ادب الفتن والحروب بمعنى اشمل . كما ظهر أدب التـــأمل والتـــذكر والمراجعة . وكان الشعر مجال النوع الأول ، والنثر مجال النوع الثانى بصفة عامة . ومن هنا خطا النثر خطوات واســـعة حتى سبق الشـــعر الذى ضـــاقت أغراضـــه ، وقل إنتاجه لهجرة الكثيرين من الشعراء من أتون الفتنـــة فهو ما بين مرح كاذب أو لهو ومجون ، أو بكاء لفقد الأهـــل والأحباب أو وصف لأشـــياء تافهـــة مثل وصـــف أبى عـــامر بن شـــهيد للبرغوث(٨٧) .

واهم ما يلاحظ على الشعر فى هـــذه الفترة كثرة مزجه بالنثر فالكثير منـــه لم يكن على شـــكل قصائد مستقلة ، وإنما كاجزاء من رسائل او كتب أو رقاع تحرر لغرض ما ، حيث كان الكثير من الأدباء يجمعون بين الشعر والنثر(٨٨) .

* * *

---

(٨٧) د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٩٠ — ٣٩٢ .
(٨٨) د. احمد هيكل : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

## ثانيا — العلوم العقلية

**الترجمة** : لم تصل الترجمة فى الأندلس إلى ما وصلت إليه فى بغداد فى عصر المنصور والرشيد والمأمون كما يبدو ، حيث لم تشر المصادر إلى كثير من الكتب التى ترجمت فى الأندلس ، ويبدو أن ذلك راجع إلى انه كان بالإمكان جلب نسخ من الكتب المترجمة من المشرق إلى الاندلس دون بذل جهد في ترجمتها من جديد . وعلى ذلك فإننا نعتقد انه قد جلبت كتب كثيرة مترجمة من المشرق وخاصة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر .

وقد ذكرت لنا المصادر كتابين من الكتب التى تمت ترجمتها فى الاندلس وهما : كتاب ديسقوريدس ( الأدوية المفردة ) والمعروف بكتاب الحشائش ، وكان باليونانية(١) ، وكتاب أورسيوس ( هروسيس أو هروشيش فى المصادر العربية ) . ويسمى ( التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين ) وهو باللاتينية(٢) .

---

(١) ديستوريدس : طبيب وعشاب يونانى ، ولد فى بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى ، ولهذا سمى فى المصادر الأوربية Discorides- Ain zarbio اى ( ديسقوريدس العين زربى ) . وقد عاش فى القرن الأول الميلادى ، واشتهر بكتاباته عن مركبات الأدوية من الأعشاب ، وقد ظل كتابه ( الأدوية المفردة ) أعظم مرشد لخواص الأعشاب الطبية ، ومازالت له قيمة علمية بالرغم من التقدم الطبى حتى الوقت الحاضر ( انظر : عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، العصر الأول — القسم الثانى ص ١٠٨ هامش ٢١ مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٣٤ ) .

(٢) باولوس اورسيوس : راهب ومؤرخ رومانى الأصل ، اسبانى المولد والنشأة ، عاش فى اواخر القرن الرابع وأوائل القرن =

وهـذان الكتابان كان قد أرسل بهما الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر مع السفارة التى بعث بهـا إليـه سـنة ٣٣٨هـ(٣) .

---

=

الخامس الميلادى ، ووضع هـذا الكتاب الذى أرخ فيـه للعـالم القـديم منـذ بدء الخليفة حتى عصره ( ٤١٦م ) . وهـذا الكتاب كما يقول د. حسين مؤنس : ذيل على كتاب ( مدينة الله ) لاستاذه القديس اوغسطين ، وخاصة الجـزء الثالث منـه المتعلق بتـاريخ العـالم القـديم . وقـد لقى كتاب أورسيوس إقبالا شديدا من معاصريه ، واعتمد عليـه الكثيرون من بعـد ، ومنهم بعـض المؤرخين المسلمين كالرازى وابن خلدون وغيرهما فى التاريخ للأمم التى حكمت اسبانيا قبل الفتح الإسلامى . ( عنان : المرجـع السابق ص ١٠٨ هامش ٢ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٨ ) .

(٣) اختلف فى تاريخ هـذه السفارة فذكر البعض أنها كانت فى سـنة ٣٣٤هـ ، وذكر البعض أنها حدثت سـنة ٣٣٦هـ ، وذكر البعض أنها وقعت سـنة ٣٣٧هـ ، بينما ذهب الكثيرون إلى انها كانت سـنة ٣٣٨هـ . كما اختلف فيمن أرسلها فذكر البعض انه قسطنطين ، وذكر البعض انه ابنه رومانوس الذى تولى بعـده ، ولعل مرجع هـذا يعود إلى الاختلاف فى تحـديد تاريخها ، وإن كان الراجح انهـا كانت سـنة ٣٣٨هـ فى عهـد قسطنطين . وربما كان الامبراطور هو الذى ارسل السـفارة وبعث ابنـه بالكتابين معها ، وربمـا يكون الامبراطور قـد أرسـل السفارة باسمه واسم ابنـه الذى كان يعـده للحكم بدليل ان الخطاب الذى ارسـله للخليفة يبـدأ

=

وكان الكتاب الأول قد ترجم فى بغداد فى عهد الخليفة المتوكل العباس ( ٢٣٢ — ٢٤٧هـ ) على يد ( آصف أو اسطفن بن باسيل ) من اليونانية إلى العربية ، وقام بمراجعة الترجمة ( حنين بن إسحاق ) . وقد وضع إسطفن أسماء عربية للنباتات فى مقابلة الكلمات اليونانية ، غير ان بعض الأسماء ظلت على صورتها اليونانية لعدم معرفته بها ، وهنا جاء دور الأندلس لتكملة ذلك ، فيذكر المؤرخون أن الناصر لما وصلته نسخة من هذا الكتاب كلف طبيبه الخاص ( حسداى بن شروط ) ، وحمد النباتى ، وعبد الرحمن ابن الهيثم ، وابو عبد الله الصقلى وكان له إلمام بالعقاقير والنباتات بالنظر فيه وترجمته ، غير انه لم يكن لديهم إلمام باليونانية فارسل إلى الإمبراطور يطلب منه إرسال مترجم له ، فارسل إليه الراهب نيقولا ، الذى كان يجيد اليونانية واللاتينية سنة ٣٤٠هـ ، ففسر اسماء العقاقير

---

=

بقوله « من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم » . ( انظر : نفح الطيب جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ ) ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٤٢ ، ابن جلجل : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ١٠٧ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ — ٣١٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة الاموية فى الأندلس ص ٦٧ ، د. احمد هيكل : الادب الاندلسى ص ١٩٩ ، احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٣ ) .

المجهولة ، وتتلمذ على يديه كثير من المهتمين بدراسة الطب والأعشاب(٤).

وقد كان لذلك أثره في إقبال الكثير من الأندلسيين على دراسة الطب والعقاقير متخذين من هذا الكتاب مصدراً رئيسياً لهم .

وأما الكتاب الثاني فيذكر أنه قام بترجمته للحكم المستنصر قبل الخلافة ، ويبدو أنه أخذه من والده الناصر — قاضي النصارى بقرطبة وليد بن حيزون(٥) الذي قام بدور المترجم للملك أردون الرابع ملك ليون عندما قدم لزيارة المستنصر سنة ٣٥١هـ ، وشاركه في هذه الترجمة قاسم بن أصبغ البياني — نسبة إلى بيانة — المتوفى سنة ٣٤٠هـ(٦) .

---

(٤) يذكر أن الامبراطور قال للخليفة : إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن اللسان اليوناني ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، وأما كتاب هروسيس فعندك في بلدك من اللطينيين ( اللاتينيين ) من يقرؤه باللسان اللطيني ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه من اللطيني إلى اللسان العربي . ( أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٣٤ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٧ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ١٠٩ ) .

(٥) انظر : المقري : نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣١٥ . وقد ذكره البعض باسم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث ، ولعله خطأ في الطبع ( انظر : د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٢٤ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ ) .

(٦) الحميدي : جذوة المقتبس ص ٣١٢ . ويستبعد د. إحسان عباس أن يكون قاسم قد شارك في ترجمة هذا الكتاب حيث توفي سنة

=

وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هـذه الترجمة من أحمد بن محمد الرازى ( ٣٤٤هـ ) إلى ابن خلدون ( ٨٠٨هـ ) . ومنهم من نقل من هـذا الكتاب ونص على ذلك صراحة(٧) .

وليس ببعيد أن تكون هنـاك كتب أخرى قـد ترجمت عن اليونانية واللاتينية وغيرها إلى العربية فى الأندلس ، بالرغم من عـدم إشـارة المصـادر إلى ذلك كثيرا ، حيث نهضت الحركة العلمية ، ووجدت التشجيع الكافى ، وتوافرت كافة الإمكانات التى تساعد على الترجمة(٨) .

---

٣٤٠هـ ، ولكنه استدرك فقال : إلا أن تكون ترجمته كتاب هروسيس قـد تمت قبـل مجـىء نقولا الراهب . ( انظـر : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ هامش ٢ ) .

ولا يستبعد أن يكون قاسم قـد شارك فى ترجمة هـذا الكتاب حيث كان متصلا بالمستنصر قبل خلافته ، واختصر له كتاب السـنن لأبى داود ، وسماه ( المجتنى ) سـنة ٣٢٤هـ . وكان يجيد اللغـة اللاتينية ( اللطينية ) كما يتضح من قـول الامبراطور لعبد الرحمن الناصر . ( انظر : المقرى جـ ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ هامش ١ ) . وتوجد نسخة من الترجمة العربية لهذا الكتاب فى مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك . وقد أضيف إليها تكملة لتاريخ القوط حتى دخـول طارق بن زيـاد اسبانيا . وهـذه الإضافات فى أغلب الظن نقلت عن مؤرخـين لاتينيين ، وتقع هـذه النسخة تحت رقم x 893712 H . ( نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٢٤ ) .

(٧) د. عبد الواحـد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٢٤ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٨)

**الفلسفة** : يظهر ان نشأة الفلسفة فى الأندلس كانت كنشأتها فى المشرق فقد نشأت فى المشرق من الاشتغال بالطب والتنجيم لعنـــاية الكثير من الخلفـــاء بهما . وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ليس اعتقادا فيـــه ، وإنما رغبـــة فى حـــب الاستطلاع ، واستشراف المستقبل ، والتطلع إلى معرفة ما سيجرى .

وكذلك كان الشأن فى الأندلس حيث احتاج الأمويين إلى الأطبـــاء وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، والاشتغال بالطـــب والنجـــوم يســـلم إلى الفلسفة ، ولذلك نرى ان الفلاسفة الأندلسيين الأوائل كانوا من الأطباء مثل الكرمانى ، وابو جعفر بن خميس ، وحمدين بن ابان ، أو من المنجمين مثل ابن السمينة ، ومسلمة بن احمد المجريطى ، وابو القاسم الزهراوى وغيرهم(٩) .

وقد ساعد على ظهور الفلسفة ونموها بالاندلس عدة عوامل منها :

١ — رحيل بعض الأطبـــاء من المشرق إلى الأندلس مثل اســـحاق ابن عمران الذى كان طبيبـــا مشهورا فى بغداد .

٢ — اهتمام بعض الخلفاء الامويين بالكتب العلمية والفلسفية مثـــل الحكم المستنصر ، وجلبها إلى الاندلس وترجمتها ، فيذكر ابن ابى أصيبعة ان الكرمانى رحـــل إلى المشرق وجلب معه عنـــد عودته رســـائل اخـــوان الصـــفا(١٠) .

٣ — التبادل الثقافى بين الاندلس وبعض البـــلاد الاجنبية مثل الدولة البيزنطية مما ادى إلى إهـــداء بعض الكتب للخلفاء الامويين وترجمتها .

---

(٩) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٣ .
(١٠) ابن ابى اصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٤٧ .

وقد ادت هـذه العوامل وغيرها إلى وجود مجموعة من المشتغلين بالطب والتنجيم أولا ، وبالفلسفة ثانيا .

والحقيقة أنه رغم ذلك فإن غالبية الاندلسيين لم يتلقوا الفلسفة بالقبول الذى تلقوا به الطب وغيره من العلوم العملية ، حيث كان جل إهتمامهم موجها إلى العلوم الدينية والعربية ، ولذلك لم يكن للفلسفة حظ كبير من الاهتمام فى العصر الاموى ، وكان المشتغلون بها موضع نفور واضطهاد ، ورمى بالكفر والإلحاد والزندقة .

يقول ابن سعيد المغربى « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، ومن يشتغل بهما يجتهد فى إخفاء ذلك حتى لا يطلق عليه لقب زنديق من العامة ويقتل ، او يحرق هو وكتبه »(١١) . كما فعل المنصور بن ابى عامر تقربا إلى العامة والفقهاء .

وقد اخذ الطب والتنجيم يتبلوران إلى فلسفة بعد سنين ، حتى راينا فلاسفة حقيقيين كان لهم دورهم واثرهم فى هذا المجال . كابن باجة وابن رشد وابن طفيل وغيرهم .

ويصف ابن طفيل ( ت ٥٨١هـ ) حال الفلسفة فى الاندلس فيقول « إن هذا العلم اندر من الكبريت الاحمر ، لاسيما فى هذا الصقع الذى نحن فيه ، لانه من الغرابة فى حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر منه بشىء لم يكلم الناس إلا رمزا »(١٢) .

ويظهر ان الاشتغال بالفلسفة فى الاندلس كان على نوعين : نوع يميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة البحتة . واتباع هذا النوع قد ساروا على طريقة افلوطين ، وكان من أوائلهم ابن مسرة وابن سعيد ، وهذه

---

(١١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(١٢) احمد امين : ظهر الإسلام ص ٢٣٥ .

المدرسة تعتمد على الذوق والكشف والمراقبة اكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والقياس . والنوع الثانى : يعتمد على الفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه ارسطو . ومن اتباع هذا النوع : أبو بكر بن الصائغ المشهور بابن باجة ( ت ٥٤٤هـ ) ، وابن طفيل ( ت ٥٨١هـ ) ، وابن رشد ( ت ٥٩٤هـ ) (١٣) .

ومن أوائل من نسبوا إلى الفلسفة فى العصر الأموى ابن مسرة محمد ابن عبد الله ( ت ٣١٩هـ ) ، وقد اعتنق والده مذهب المعتزلة ، وكان هذا المذهب غير مرغوب فيه بالأندلس ، فاضطر إلى إخفائه ، ولقنه لابنه ، ومعروف أن هذا المذهب يعتمد على العقل كثيرا ، ويتسلح أصحابه بالمنطق والفلسفة .

ولذلك نشأ محمد معتزليا محبا للحكمة والدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٩٨هـ ، ولقى اهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم عاد فاظهر الورع والتنسك ، وأصبح له تلاميذ يلقنهم مذهبه الذى يجمع بين التصوف والاعتزال ، واتخذ خلوة له فى جبل قرطبة حتى سمى بالجبلى(١٤) .

وقد اثار ذلك العامة والفقهاء بعد اكتشاف أمره ، فاشاعوا عنه أنه زنديق مما اضطره إلى مغادرة الاندلس فى آخر عهد الأمير عبد الله ،ثم عاد فى عهد الناصر ،فواصل الدعوة لمذهبه،وانضم إليه الكثيرون لمظهره الورع الزاهد ، وألف كتبا منها كتاب التبصرة وكتاب الحروف لم يصلنا أى منهما . ويذكر أن الخليفة الناصر قد امر بإحراق كتبه خارج

---

(١٣) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٥ .

(١٤) تاريخ علماء الاندلس ج ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤ ، الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٨٣ .

جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منـــازل الملحدين غير داحضة(١٥) . ويبـــدو انه كان يلقن تلاميـــذه نوعا من الاعتزال والفلسفة تحت ستار الزهـــد والتصوف ، أو يروج لتعاليم مذهبه تحت ستار إسلامى من آراء المعتزلة والباطنية(١٦) .

ثم بدأت الفلسفة تأخذ مكانها مرة أخرى فى عهد الحكم المستنصر فى ظل التسامح الذى أشاعه ، واهتمامه بالعلوم على شتى أنواعها ، فعادت مدرسة ابن مسرة من جديد ، واخذت آراؤه تظهر مرة أخرى ، وتجـــد طريقها إلى الآخرين .

ومن أشهر من اشتغل بالفلسفة فى عهد المستنصر ملحان « الذى كان ذا نظر فى حـــد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الفلسفة »(١٧) .

وإدريس بن متيم « الذى كان بصيرا بحد المنطق ، كثير المطـــالعة لكتب الأوائل حاذقا بعلم الحساب والتنجيم »(١٨) ، ومحمد بن يحـــيى الرباحى « الذى طالع كتب أهل الكلام ، ونظر فى المنطقيـــات فأحكمها ، إلا أنه كان لا يتقـــلد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يقـــود أصـــلا من أصولهم ، وإنمـــا كان يقول على ما يمثل إليـــه فى الوقـــت ، ويؤثره فى الحضرة »(١٩) .

---

(١٥) د. الســـيد ســـالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ج ١ ص ٣١٢ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٧ .

(١٦) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٦ ، وإحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(١٧) الزبيدى : طبقات اللغويين والنحويين ص ٣٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(١٩) المرجع السابق ص ٣٣٦ .

ومن عرف بدراسة المنطق والفلسفة أيضا فى هذه الفترة ابن حفصون ، ومحمد بن عبدون الجبلى الذى درس على سليمان المنطقى ببغداد(٢٠) . ومحمد بن اسماعيل الملقب بالحكيم الذى اهتم بالمنطق والحساب ايضا(٢١) .

ويبدو أن هؤلاء قد اكتفوا بمجرد الاطلاع والنظر فى كتب الفلسفة ، حيث لم يؤلفوا كتبا ، على عكس الحال فى علوم الطب والهندسة والفلك والحساب . غير أن الفلسفة ما لبثت أن انتكست مرة أخرى فى عهد المنصور بن أبى عامر نتيجة لضغوط الفقهاء والعامة حيث اضطهد الفلاسفة ، وأحرق كتبهم تقربا للعامة وترضية للفقهاء ، رغم ميله إليها فى الباطن كما ذكر(٢٢) .

وقد لقيت الفلسفة بعد ذلك — وخاصة فى القرن السادس الهجرى — اهتماما كبيرا فظهر فلاسفة حقيقيون من أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد كانت لهم آراؤهم الفلسفية التى أحدثت دويا فى العالمين الاسلامى والمسيحى .

فيذكر ابن حزم ( ت ٤٥٦هـ ) أنه راى من كتب الفلسفة « رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله المذحجى ايضا ويعرف بابن الكتانى

---

(٢٠) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٦ .

(٢١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، صاعد : طبقات الأمم ص ٦٦ .

د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٤٠ ، د. خالد الصوفى : المنصور الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٥٦ .

وكان متقدما فى علوم الطب والمنطق(٢٣) .

يقول الضبى عن السرقسطى « له أدب وعلم وتصرف فى حدود المنطق يعرف بالحمار وهو مشهور ذكره أبو محمد على بن أحمد ( ابن حزم ) »(٢٤).

وذكر الحميدى ان ابن حزم نقل من شعره فى ذم الناس للمنطق :

**ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه**
**بالذى ليس فيه إذ جهلوه**
**لو دروا حقه لما انكروه**
**أو دروا فضله إذن فضلوه**
**كذبوا والله لو عرفوه**
**لنفوا عنه كل ما نحلوه(٢٥)**

**الطب** : كان من مظاهر تقدم الثقافة الاندلسية فى فترة الإمارة ظهور أوائل المشتغلين بالطب فى الأندلس ، مثل أحمد بن إياس القرطبى ، الذى يعد أول من اشتهر بالطب فى الأندلس ، وذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . ونبغ بعده جماعة منهم يحيى بن اسحاق طبيب الأمير عبد الله بن محمد ، والذى أصبح وزيرا للناصر فيما بعد ، وله مؤلفات فى الطب .

ثم اخذ الطب يزدهر فى فترة الخلافة ، واشتهر به كثيرون وخاصة فى عهد الناصر والمستنصر ، مثل سعيد بن عبد ربه الذى كانت

(٢٣) بغية الملتمس ص ٦٧ ترجمة رقم ٨١ .
(٢٤) بغية الملتمس ص ٣١١ ترجمة ٨١٣ .
(٢٥) جذوة المقتبس ص ٢٢٣ ترجمة ٤٧٨ .

له طريقة خاصة فى علاج الحميات . وأحمد بن يونس وأخوه عمر الذين اشتهرا بالمهارة فى تحضير الأدوية ، وعلاج كثير من الأمراض ، وخاصة علاج العيون(٢٦) .

وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى رحل إلى مصر سنة ٣٣٧هـ ، وأشرف على بيمارستان مصر ، والوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد مصنف كتاب ( الأدوية المفردة ) الذى يقول عنه المقرى : « إنه كان آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية وما يقرب منها . وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه » .

ويقول عنه صاعد « الف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب »(٢٧) .

ومن مشاهير الأطباء فى عهد الخليفة الناصر الطبيب اليهودى حسداى ابن شبروط الذى اتخذه الناصر طبيبا خاصا له ، وذاعت شهرته حتى ان شانجة ملك ليون الذى كان يلقب بالسمين نظرا لسمنته الزائدة — وذكر

---

(٢٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ، صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٧٨ ، ١٢٤ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ١٩٤ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ . د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ٨٦ .

(٢٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ .

أن ذلك كان من أسباب خلعه نظرا لعدم قدرته على تصريف أمور المملكة — قد طلب من الناصر أن يرسل له طبيبا لعلاجه من ذلك ، فارسل إليه طبيبه حسداى الذى نجح فى تخفيف وزنه(٢٨) .

ومن اشهر الأطباء فى عهد المستنصر الطبيب المشهور وعالم الجراحة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى — نسبة إلى مدينة الزهراء التى الناصر — والذى اتخذه المستنصر طبيبا خاصا ، والف عدة كتب فى الطب ترجمت إلى اللاتينية مثل كتاب : Libes-Sepiltoris الذى ترجمه جيرارد الكريمونى ، وكتابه فى الجراحة الذى ترجمه جيدودى كاوليك إلى اللاتينية أيضا سنة ١٤٨٩م تحت عنوان Chriur-gtaparua (٢٩) .

ويعتبر الزهراوى من أشهر الجراحيين المسلمين — أطباء الجراحة — وقد ترك مرجعا فى وصف الآلات الجراحية وطرق استخدامها ، وتوضيحها بالرسوم ، وهو كتاب ( التصريف لمن عجز عن التاليف ) الذى ظل مرجعا يعول عليه لدراسة الطب فى أوربا عدة قرون بعد ترجمته إلى اللاتينية ، ويذكر أنه باشر بعض عمليات التوليد والجراحة النسائية ، ونصح باستخدام مساعدات من النساء فى ذلك(٣٠) .

---

(٢٨) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٣٠ ، لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ١٠٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الاندلس جـ ٢ ص ١١٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٢١ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٠ .

(٢٩) انظر ترجمته فى بغية الملتمس رقم ٧١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٢ .

(٣٠) د. سعيد عاشور وآخران : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١٢٤ — ١٢٥ .

وكذلك الإسقف القرطبي ابن زيد الذى كان مختصا بالخليفة المستنصر والف كتاب ( تفضـــيل الأزمان ومصـالح الأبدان )(٣١) .

كما نبـــغ فى الطب ايضــــا فى عهــد هشام المؤيد ابن الخليفـــة المستنصر الطبيب الاندلسى المشــــهور ابن جلجــل ( ابو داود سليمان ابن حسان ) ت ٣٩٩هـ ، الذى كان طبيبا لهشام المؤيد ، وضـع كتـــابا فى طبقات الأطباء ، وشرح أسماء الأدوية المفردة من كتـــاب ديسقوريدس ، وأوضح ما غمض منها فى كتابه ( تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتـــاب ديسقوريدس ) . قال عنه الحميدى : « سليمان بن جلجل مذكور بالطـــب والأدب ، له كتاب فى أخبار الأطباء بالأندلس »(٣٢) .

وكذلك عبد الرحمن بن الهيثم طبيب المنصور بن أبى عامر . وقـــد الف عـــدة كتب عن الأدوية المفردة(٣٣) ، وكان عريب بن سعيد القرطبى المؤرخ ( ت ٣٦٩هـ ) طبيبا أيضا وله مؤلفات فى الطب منها كتاب ( خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود ) وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال(٣٤) .

**الفلك والنجـوم** : اهتم القـــدماء بالنجـــوم والكواكب وحركاتها ، وربطوا بين ذلك وبين معرفة المستقبل ، وأطلقوا على ذلك علم التنجيم . والحقيقة أن التنجيم على هـــذا الاساس ليس علما ، لأن معرفة المستقبل وعلم الغيب إنما هو لله عز وجل لا يظهر عليـــه أحـــدا إلا من ارتضى من رســـول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصـــدا .

---

(٣١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ .

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٤٥٢ ص ٢٢٥ ، دائرة معارف الشـعب (٦٤) ص ١٩٥ . وقد نشر كتابه ( طبقات الأطباء ) ضـــمن منشورات المعهد الفرنسى بالقاهرة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد سنة ١٩٥٥م .

(٣٣) المختار من عالم المعرفة ص ١٣٦ .
الأدب الأندلسى ص ١٩٤ .

(٣٤) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، د. هيـــكل :

ورغم ذلـــك فإن بعـــض حـــكام المسلمين كانوا يطلبـــون المنجمين لاستشارتهم والأخـــذ برأيهم قبـــل الإقدام على عمل هام كالبناء أو الحرب أو غير ذلك(٣٥) .

ومن أمـــراء الأندلس الذين اهتموا بالتنجيم هشام بن عبد الرحمن الداخل . فيذكر أنه استدعى المنجم الضبى من بلده بالجزيرة الخضراء ، وكان بارعا فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية كما قيـــل حـــتى لقب ( ببطليموس ) لحذقه وإصابته .

ورغم عدم اعتقاد هشام فى التنجيم ، إلا أنه كان يحب أن يســـمع ما يقوله الضبى « حيث أن النفس طلعة كما قال » . وقد أخـــبره هـــذا المنجم بأنه لن يستمر فى ملكه أكثر من ثمانية أعوام فكان كما قال — وهذا من باب المصادفات فقد كذب المنجمون ولو صدقوا — ويذكر أنه زهد فى الدنيـــا ولزم افعال الخير بعد أن أخبره بذلك(٣٦) .

وكذلك كان من المنجمين أحمد بن فارس البصرى ، الذى كان زعيم هـــذه الصناعة بالأندلس على عهـــد الحـــكم بن هشام ، كما ذكر ذلك ابن بسام نقـــلا عن ابن حيان(٣٧) . ومنهم أيضا عبد الله بن الشـــمر ابن نمير القرطبى ، منجم عبد الرحمن الأوسط ونديمه قبل الإمارة . ذكر أنه بشره بأن الأمر سيصير إليـــه ، فلما صـــار إليـــه قـــربه ونادمه ، وأجرى عليـــه رزقا للشعر ورزقا للتنجيم(٣٨) .

وكذلك إدريس ابن متيم الذى كان بصيرا بالمنطق حاذقا بالحســـاب والتنجيم(٣٩) .

---

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١٠ .
(٣٦) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٢٧ .
(٣٧) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ٤ ج ١ ص ٥٩ .
(٣٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) طبقات الزبيدى : ص ٣٣٢ .

وقد فرق علماء المسلمين بين التنجيم والفلك فنادى معظمهم بعـــدم تأثير الكواكب والنجوم على مستقبل الإنسان ، ونفوا أن يكون لها دخل فى النحس أو السعد . وعلى ذلك فقـــد وجـــد من بين علمـــاء الأندلس من رفض التنجيم ، واهتم بالفلك كعلم له قواعده وأصوله ، ومن هؤلاء عباس ابن فرناس الذى يمـــكن أن تعده من أوائل علماء الفلك فى الأندلس إلى جانب اهتماماته واختراعاته الأخرى . فقد ذكر أنه صنع فى بيته قبـــة تشبه السماء ، وزودها بآلات وأدوات تحدث رعود وبروقا ، وجعل فى أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر وكأنها حقيقية(٤٠) .

وقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أوائل الأمويين اهتماما بجلب الكتب القـــديمة من المشرق ، ولذلك وجه عباس ابن ناجح الشـــاعر إلى المشرق لجلبها . فجاء بكتاب ( السند هنـــد ) وغيره منها ، ويعتبر أول من أدخلها إلى الأندلس ، وعرف أهلها بهـــا ، ونظر هو فيها(٤١) .

---

(٤٠) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ . أحمد أمين : ظهـــر الإســـلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٤ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٦ — ١٩٧ ، ومن الغريب أن الفرضى الذى ترجم للكثيرين فى كتابه ( تاريخ علماء الأندلس ) لم يترجم لعباس بن فرناس رغم شهرته الكبيرة ، وترجم له الضبى فى بغية الملتمس والحميدى فى جذوة المقتبس ولم يذكرا شيئا عن ذلك . ( انظر تاريخ علمـــاء الأندلس ج ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٩ ، جذوة المقتبس ترجـــمة ٧٣١ ، بغيـــة الملتمس ترجمة ١٢٤٧ ) .

(٤١) ابن سعيد المغربى : المغـــرب فى حلى المغـــرب ج ١ ص ٤٥ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ . وكتـــاب السند هنـــد يعتبر من كتب الفلك الهندية ، ويذكر أنه وفـــد على بلاط الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٦هـ أحـــد الهنود ومعـــه نسخة من هـــذا الكتاب ، فأمر الخليفة محمد بن اسحاق الفزارى بترجمته للعربية ، ويقال : إن الخوارزمى استفاد منه ، واعتمـــد

ويعتبر مسلم بن احمد بن ابى عبيدة الليثى القرطبى ( ٢٩٥هـ ) من اوائل المشتغلين بالفلك والنجوم فى الاندلس أيضا ، وكان يعرف ( بصاحب القبلة ) لانه كان مولعا بالتشريق فى قبلته مفتونا بذلك كما قيل(٤٢) .

وقد قال بكروية الارض ، واختلاف الفصول حسب المناخ ، وقد تعرض بسبب ذلك لهجوم بعض المقلدين ، ومنهم ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذى قال فيه :

**ابا عبيدة ما السؤال عن خبر**
**تحكيه إلا سواء والذى سالا**

**ابيت إلا شذوذا عن جماعتنا**
**ولم تصب راى من ارجى او اعتزلا**

**كذلك القبلة الأولى مبدلة**
**وقد ابيت فما تبغى بها بدلا**

**زعمت بهرام او بيذخت ترزقنا**
**لا بل عطارد او مريخ او زحلا**

**وقلت إن جميع الخلق فى فلك**
**بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا**

**والأرض كورية حف السماء بها**
**فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا**

---

=

عليه فى وضع زيجه المشهور بعد ان ادخل عليه تعديلات وإضافات عدة . ( انظر دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١١ ) .

(٤٢) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ رقم ١٤٢٠ .

**صيف الجنوب شتاء للشمال بها**
**قد صار بينهما هذا وذا دولا**

**فما لكانون فى صـــنعا وقرطبة**
**فردا وأيلول ينكى فيهما السؤلا**

**هــذا الدليل ولا قــول عــزرت به**
**من القوانين يجرى القول والعمــلا**

**كما استمر ابن موسى فى غوايته**
**فوعر السهل حتى خلته الجبلا**

**ابلغ معاوية المصـــفى لقــولهما**
**أنى كفرت بما قالا وما فعلا(٤٣)**

ويقول ابن عبد ربه ايضا فى مهاجمة المشتغلين بالفلك والنجوم :

**فاين الزيــج والقــانون والأركند والكمه**
**واين السند هند البطال والجدول هل ثمه**
**سوى الإفك على الله تعالى منشر الرمه**
**إذا كان أخــو الغيــب**
**يرى الغيب بما ضـــمه**
**إلى أن يطــلب الرزق**
**طلاب العاجــز الهمة**
**وهذى الأرض قد وارت**
**كنــوزا عـــدة جمـــة**

---

(٤٣) ابن الفرضى : تاريخ علمـــــاء الاندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ وابن موسى هو الاقشبين أو الاقشتين ، ومعاوية هو ابن الشبانس القرشى ويظهر أنهما كانا من اصحاب ابن أبى عبيدة والقـــائلين باقـــواله .

فـــلا والله مـا لله

خلق يحتوى علمه(٤٤)

كما يعتبر أبو القاسم مسلمة المجريطى ( ٣٩٨هـ ) من علماء الفلك ايضـــا يقول عنـــه صاعد : إنه أعلم من كان قبـله بعــلم الأفــلاك ، وحركات النجوم ، وكانت له عنـاية بأرصاد الكواكب )(٤٥) .

الكيميـاء : اشتغل بعض علماء الأندلس بعلم الكيمياء ، ومن أوائل المشتغلين به أبو القاسم مسلمة بن احمد المجريطى ( ت ٣٩٨هـ ) الذى يعـد شيخ الأندلس فى هـذا العـلم فى العصر الأموى ، وقـد ألـف فيـه كتابا سماه ( رتبـة الحـكيم ) ، وجعله قرينا لكتاب آخـر ألفه فى السحر والطلسمات وسماه ( غـاية الحكيم ) . ومن كبار تلاميذه فى هـذا المجال أبو بكر بن بشرون(٤٦) .

ويمكن أن نعـد عباس بن فرناس ( ت ٨٨٦م ) من الذين نبغـوا فى هـذا العلم ايضا ، حيث له اهتمامات متعددة ، ويذكر انه كان أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الأحجار وهى صناعة تحتاج إلى معالجات بطرق كيميائية(٤٧) .

---

(٤٤) إحسان عباس : تاريخ الادب الأندلسى ص ٩٠ .

(٤٥) احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، وإحسان عباس : المرجع السابق ص ٥٢ .

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٩٦ .

(٤٧) انظـر نفح الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ ، احمد امين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، د. احمـد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، د. عبد الرحمن الحجى : الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٢ .

**الرياضـــيات** : يلاحظ ان كثيرا من علماء الأندلس كانوا بنيغون فى عـــدة علوم ولا يقتصرون على علم واحـــد ، حيث لم يكن التخصص الدقيق معروفا فى ذلك الوقت .

ومن هنا فقـــد وجدنا كثيرا من الذين اشتغلوا بالنجوم والفلك ينبغون فى الرياضـــيات أو العكس . وكان من أوائل من اشـــتغل بالرياضـــيات فى الاندلس ، ولفت الانظار إليها أبو القاسم مسلمة المجريطى ( ت ٣٩٨هـ ) الذى وصـــفه صاعد بأنه « كان إمام الرياضيين فى وقته » وتخرج على يديه كثير من الطـــلاب مثل ابن السمح وابن الصفار والزهراوى والكرمانى وغيرهم( ٥٠ ) .

كما كان من اوائل من اشتهروا بالرياضيات ايضا أبو عبيده مســـلم ابن احمد الليثى ( ت ٢٩٥هـ ) المعروف بصاحب القبـــلة ، وكان عالمـــا بالحساب والنجوم وتحركات الكواكب وأحكامها( ٥١ ) .

ويحيى بن يحيى القـــرطبى المعروف بابن الســـمينة وكان بصـــيرا بالحساب والنجوم( ٥٢ ) .

كما برع عباس بن فرناس القرن الثانى ــ الثالث الهجرى (ت ٨٨٦م) فى علم العـــدد الهندسة الميكانيكية ، حيث ابتكر الآلالة المعروفة بالميقاتة لمعرفة الوقت على غير رسم ومثال . وقام بأول محاولة للطيران فى العالم

---

( ٥٠ ) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٢ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

( ٥١ ) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٢٠ جـ ٢ ص ١٢٦ ــ ١٢٧ .

( ٥٢ ) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٨٠ جـ ٢ ص ١٨٨ .

الإسلامى ، وكان متعدد المواهب برز فى مجالات شتى(٥٣) .

وكذلك القاسم بن اصبغ بن السمح ( ت ٤٢٦ هـ ) الذى برع فى علم النجوم والهيئة والحساب والهندسة ، وله عدة مؤلفات منها : كتاب ( المدخل إلى الهندسة ) شرح فيه كتاب إقليدس ، وكتابان فى الاسطرلاب ، وكتاب آخر فى الهندسة(٥٤) .

وكذلك أبو الحسن الزهراوى ( على بن سليمان ) — وهو غير ابو القاسم الزهراوى الطبيب المشهور — وكان عالما بالهندسة والعدد ، وله كتاب فى الهندسة بعنوان : ( المقابلات عن طريق البرهان )(٥٥) .

كما اشتهر ابو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى ( ت ٤٥٨هـ ) بالهندسة ايضا وكان قد رحل إلى المشرق فى طلبها وخاصة فى حران ، ثم عاد إلى الأندلس وصار لا يشق له غبار فيها ، وهو ول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس(٥٦) .

وكذلك ابن الصفار الذى اشتهر بالحساب والهندسة والفلك أيضا ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند . كما اشتهر بالرياضيات أيضا فى عصر الحكم المستنصر عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، وكان الحكم يجله ويقربه ، وكذلك أبو بكر بن عيسى وكان مقدما فى علوم الهندسة والعدد والنجوم ، وكان يجلس للتعليم فيها(٥٧) .

---

(٥٣) انظر : نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٢١ وبعدها ، البيان المغرب جـ ٢ جـ ٢ ص ١٩٦ وبعدها .

(٥٤) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٥) الضبى : بغية الملتمس ترجمة ١٢٢٠ .

(٥٦) ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .

(٥٧) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ١٣٨ .

ومن الرياضيين المشهورين بالأندلس أيضا محمد بن الفرج الرشاشى، الذى عرف بالذراع نظرا لانه ابتكر وحـدة قياسية للمسافات هى الذراع الذى نسب إليه فاصبح يعرف بالذراع الرشـاشى ، وكان اهل الأندلس يقيسون به . وبلغ طوله ضعف الذراع المـامونى الذى كان معروفا فى المشرق ( ار٧١سم ) ويذكر أن الإدريسى والبكرى قـد استخدماه فى قياس بعض المعالم الاثرية التى تحدثا عنها كمنارة الإسكندرية ، وجـامع قرطبة وغيرهما(٥٨) .

**التـاريخ :** لم يكن ظهور علم التاريخ فى الأندلس منفصـلا عن جذوره التى نشأ فيها وتطور عنها فى المشرق ، وقد تاثرت الأندلس بمؤثرات علمية وفنية كثيرة وفـدت من المشرق ، ومنها تدوين التاريخ ، الذى تاثر فى بدايته بمدرسة مصر التاريخية بصفة خاصة ، كما تأثر بمؤثرات لاتينية وبخاصة كتاب هروسيس فى التاريخ الذى تمت ترجمته ، واستفاد منـه الكثير من المؤرخين الأندلسيين (٩٥) .

وقد اهتم الأندلسيون بتاريخ بلادهم ، وتعصبوا له ممـا يدل على ظهور الروح القومية الأندلسية ، فنجد ابن حزم يضع رسالة فى فضـل علماء الأندلس ، ويعيب على أهلها تقصيرهم فى تخليد أخبـار علمائهم مع كثرتهم ، وفى مآثرهم وفضائلهم ، ووفور ادبائهم ، وجلالة ملوكهم .

---

(٥٨) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢٥ — ٣٢٦ تحقيق د. محمود مكى .
وقد ذكره ابن الفرضى باسم محـمد بن الفرج الذراع المعـروف بالدشـاشى من أهل قرطبة ، وهو الذى ينسب إليه الذراع .
ونعتقد أنه قد حدث خطأ فى الطبع والأصح ما ذكره ابن حيان.
( انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤ ترجمة ١٣٣ ) .
(٥٩) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٧ .

كما وضع الشقندى — نسبة إلى شقندة وهى ربض من ارباض قرطبة — رسالة أخرى تعصب فيها للأندلسيين على طول الخط فقال : إن الاجماع حصل على فضل الأندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الآفاق إلى أن ذهبوا وذهبت آثارهم ، ودرسوا ودرست آثارهم(٦٠) ، ثم امتد هذا التعصب ليشمل المدن والأقاليم الأندلسية حيث تعصب اهل كل مدينة لها ، وألفوا فى فضائلها .

ويعتبر عبد الملك بن حبيب السلمى ( ت ٢٣٨هـ ) — الذى لقب بعالم الأندلس — أول مؤرخ أندلسى يتعرض لتاريخ بلاده ، وهو من اوضح الأمثلة على تأثر الأندلس بالتأثيرات المشرقية فى تدوين التاريخ . فقد رحل إلى المشرق ، ودرس الحديث والفقه على مذهب الإمام مالك ، واكسبه ذلك توسعا وفهما فى دراسة التاريخ وقد وصفه ابن الفرضى بأنه ( كان نحويا عروضيا شاعرا ، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار ، طويل اللسان ، متصرفا فى فنون العلم ) . وذكر أن له مؤلفات فى الفقه والتواريخ والآداب كثيرة حسان(٦١) .

وقد ألف ابن حبيب فى التاريخ العام كتابا شبيها بكتاب الطبرى ، بدأه بالحديث عن نشأة الخلق ، وتاريخ الأنبياء والرسل . وهذا القسم مليء بالأساطير عن فتح الأندلس وسير ولاتها وأمرائها إلى عصره ، ولكنه خلط فى هذا القسم أيضا بين الأحداث التاريخية والأساطير ، مثل حديثه عن رؤيا طارق بن زياد التى رآها فى منامه وكانت سببا فى الفتح كما ذكر ، وحديثه عن طلسم لذريق ، ومائدة سليمان عليه السلام التى عثر

---

(٦٠) أحمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٨ — ١٠ .

(٦١) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨١٦) جـ ١ ص ٢٦٩ — ٢٧٢ .

عليها فى الأندلس ، وكنوز قصر طليطلة التي عثر عليها المسلمون وغير ذلـــك .

ويبدو ان بعض تلاميذه قــد اضاف إلى هــذا الكتاب حيث نجــد فيــه فيــه اخبارا عن عصر الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة ٢٧٤هـ ، رغم ان ابن حبيب توفى قبـل إمارته سنة ٢٣٨هـ(٦٢) .

وقد اخــذ ابن حبيب معظم الأخبــار والروايات عن شــيوخه من المصريين مثل الليث بن سعيد ، وعبد الله بن وهب كما ذكر ذلك بنفسه ، ولذلك نجده يتبع منهج المحدثين من حيث سند الخبر أو الرواية ، وإن كان هــذا لم يمنع من تسلل الكثير من الحكايات الخيالية والأساطير إلى كتابه .

ومع ذلك فإن كتاب ابن حبيب هــذا يعد اول محاولة اندلســية

---

(٦٢) لا يزال هــذا الكتاب مخطوطا فى مكتبــة البودليانا فى اكسفورد تحت رقم ١٢٧ . ويذكر بعض من اطلع عليــه انه ليس بذى قيمة علمية كبيرة ، نظرا لكثرة الأساطير فيــه . وإن كان هذا لا يقلل من قدر ابن حبيب الذى كان اول رائدا فى هــذا المجال ، والريــادة غالبا لا تتسم بالدقة الشديدة ، وتحتاج إلى التصحيح والإضافة . ( انظر : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٨ ، احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٤٩ ، ٢٣٥ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢٦ .

وقد قام د. محمود مكى بدراسة وافيــة لهــذا الكتــاب ، ونشر الجــزء الخاص بالأندلس منــه بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٥٧م ، وذكر أن هــذه النسخة هى مختصر لكتاب ابن حبيب الأصلى ، وان الذى قام بوضعها بعض تلاميذه وخاصة ابن ابى الرقاع ( انظر نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٠ ) .

لكتابة تاريخ الأندلس ، برغم ما حفل به من أساطير ، وما شابه من قصور ونقص فى بعض النواحى(٦٣) .

ويعتبر ( معارك بن مروان ) وهو حفيد موسى بن نصير ( القرن الثالث الهجرى ) من المؤرخين الأندلسيين الأوائل الذين حاولوا التدوين فى تاريخ الأندلس ، حيث يشير الحميدى إلى انه ألف كتابا فى فتح الأندلس تناول فيه أخبار جده موسى(٦٤) .

ويرى د. محمود مكى أن القسم الذى يدور حول حياة موسى ابن نصير فى كتاب ( الإمامة والسياسة ) المنسوب لابن قتيبة مأخوذ عن كتاب معارك ، وهذا الكتاب فيه أيضا الكثير من الأساطير والروايات الخيالية(٦٥) .

ثم جاء بعد ذلك ( عبد الله بن الحكيم ت ٣٤١هـ ) والذى يعتبر بداية لمرحلة جديدة فى التدوين التاريخى تخلت عن الأساطير ، وركزت على موضوعات اندلسية . فقد الف كتابا فى الأنساب بعنوان ( انساب الداخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم ) أهداه للخليفة الناصر سنة ٣٣٠هـ . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه إلا شذرات نقلها بعض المؤرخين اللاحقين .

وظهر فى القرن الرابع الهجرى مؤرخون اهتموا بالتراجم والطبقات ،

---

(٦٣) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٩ — ١٠ .

(٦٤) جذوة المقتبس ترجمة ( موسى بن نصير ) رقم ٧٩٣ ص ٣٣٨ .

(٦٥) قام د. محمود مكى بدراسة هذا الكتاب ونشر الجزء المتعلق بالأندلس فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد العدد الخامس سنة ١٩٥٧م ( نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١١ ) .

ويعد محمد بن حارث الخشبى ( ت ٣٦١هـ ) من أبرزهم فى هـذا المجال ، وقد كانت له اهتمامات متعددة كالحديث والفقه واللغـة والتاريخ . وقد صنف بتشجيع من الخليفة الحكم المـديد من الكتب فى هـذا المجـال مثل كتاب ( أخبـار القضـاة بالأندلس ) وكتـاب ( أخبـار الفقهـاء والمحدثين )(٦٦) .

وكذلك ابن الفرضى أبو الوليـد بن عبد الله بن محمد بن يوسـف الأزدى ( ت ٤٠٣هـ ) صاحب كتاب ( تاريخ علماء الأندلس ) الذى يعتبر من أشهر كتب التراجم الأندلسية .

ثم جاءت أسرة برز منها الكثير من المؤرخين الذين حاولوا وضـع أسس لمعـالم التاريخ فى الأندلس وهى أسرة الرازى ، ومن أبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازى ( ت ٣٤٤هـ ) الذى كان مؤرخا وجغرافيا، ولقب ( بالتاريخى ) لكثرة مؤلفاته فى مجال التاريخ ، وله كتاب ( أخبار ملوك الأندلس ) وكتاب ( الاستيعاب فى أنساب مشاهير الأندلس ) ويقع فى خمس مجلدات كبيرة . وكتاب آخـر فى مسالك الأندلس ومراسيها

---

(٦٦) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ١٣ — ١٤ . وقـد نشر الكتاب الأول فى مدريد لأول مرة سـنة ١٩١٤م بواسـطة المستشرق الأسبانى خوليان ريبرا مع ترجمة أسبانية ، كما نشر فى مصر بعنـاية عزت العطار سـنة ١٩٥٤م ، ثم نشر بعنوان ( قضـاة قرطبة ) فى القاهرة سنة ١٩٦٦م وهى الطبعـة التى اعتمد عليها الباحث . أما الكتاب الثانى فيوجد فى مكتبـة القصر الملكى بالرباط كتاب بعنوان (طبقات المحدثين بالأندلس) تحت رقم (٦٩١٦) يعتقد بأنه هو هذا الكتاب ( انظر : نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٣ — ١٤ ) .

وامهــات اعيــان مدنهــا واخبــــارها ، وكتــاب عن كبــار المــوالى الاندلســـيين (٦٧) .

ثم جاء بعـــده ابنه عيسى فاكمل ما بداه ، وقـــد الف كتابا فى تاريخ الاندلس للخليفة المستنصر ، كما الف كتابين آخرين للمنصور بن ابى عامر احدهما عن الوزارة والوزراء بالاندلس . والثانى من الحجاب بالاندلس ، كما اخـــذ فى إكمال كتاب ابيه عن أخبار ملوك الاندلس(٦٨) .

وقد تركت اسرة الرازى اثرا كبيرا فى مجـــال التدوين التاريخى . فقـــد كان احمد بن محمد أول من ادخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا فى الأندلس ، واخذها عنـــه معظم من جاء بعده من المؤرخين .

ثم جاء ابن القوطية ( ت ٣٦٧هـ ) الذى برع فى علوم اللغـــة ، كما برع فى التاريخ ايضـــا « وكان حافظا لأخبار الأندلس يمليها عن ظهـــر قلب » كما ذكر ابن الفرضى(٦٩) .

ويعتبر كتابه الذى وصلنا وهو ( تاريخ افتتاح الاندلس ) أهم ما بقى من مؤلفاته . ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهـــاية إمارة عبد الله ابن محـــمد ( ٢٩٩هـ ) .

ويبدو أنه أملاه على بعض تلاميذه ، وقـــد أورد فى هـــذا الكتـــاب اخبار كثيرة عن القوط الذين ينتسب إليهم ، يظهر من خلالها ميـــله إلى اصـــله القوطى حيث يخالف فيها الكثير من المؤرخين ، كما أنه يأتى بحوادث

---

(٦٧) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس جـ ١ ص ٤٢ ترجمـــة ١٣٧ ، الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ص ١٠٤ ، د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٢ .

(٦٨) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٣٧ .

(٦٩) تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٧٦ ترجمة ( ١٣١٨ ) .

اسبانية لم يكن يعرفها العرب وتتضمن قصصا شعبية اسبانية مثل قصة القومس ارطباس الذى اعجب به عبد الرحمن ايما إعجاب وعينه قومسا لاهل ملتـه(٧٠) .

ورغم ذلك فإن هـذا الكتاب يعتبر من المحاولات الرائدة فى مجال التدوين التاريخى فى الأندلس نظرا لما تميز به من ذكر لخصائص تتعلق بطبيعة وتكوين المجتمع الاندلسى ، وانتساب المؤلف لهذا المجتمع ، ومحاولته رسم صورة للأحداث التى مرت عليه منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث الهجـرى(٧١) .

ويعتبر عريب بن سعد القرطبى ( ٢٦٩ — ٢٧٠هـ ) من مشاهير المؤرخين فى الأندلس ايضا ، وهو من اصل اسبانى اسلم آباؤه ، وكان والده يعمل كاتبا لدى الخليفة الحكم المستنصر ، ثم عمل هو ايضا لديه ، وقد اختصر عريب تاريخ الطبرى وزاد عليه اخبار المغرب والأندلس ويسمى ( صلة تاريخ الطبرى )(٧٢) . وقد حاول فيه تصحيح بعض المفاهيم التى كانت شائعة عن احداث الفتح مثل قصة مائدة سليمان فتراه يقول عنها : « واصاب طارق مائدة منظومة بالدر والياقوت والزبرجد ، وهى التى يزعم الناس انها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ولم تكن كذلك . غير ان اهل الحسبة من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا للكنائس بمال تصنع منه كراسى توضع عليها مصاحف الإنجيل فى الاعياد فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه

---

(٧٠) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٧ .

(٧١) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٦ — ١٨ .

(٧٢) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

الملوك »(٧٣) .

وهــذا التفسير الفريد يدل على معرفة عريب بعــادات الأســبان قبل الفتح ، ولذلك فقد علق المؤرخ المغربى ابن الشباط ( ٦٨١هـ ) عــلى ذلك قائلا « واعلم أن هــذا القول من عريب غريب ، لم يذكره فيما علمت غيره ، وإنما ذكروا كلهم أنها مائدة سليمان بن داود »(٧٤) .

ومن المؤرخين الأندلسيين أيضــا ابن أبى الفياض ( ٤٥٩هـ ) ، وله كتاب يسمى العبر لم يبق منــه إلا قطعة صغيرة وصلتنا ، إلى جــانب نصوص منــه نقلها بعض المؤرخين المتأخرين فى مؤلفاتهم(٧٥) .

ومنهم أيضــا : أحمد بن عمر العذرى ( ٤٧٨هـ ) ، وكان له اهتمام بالجغرافيا إلى جانب التاريخ ، وله كتاب ( اقتضاض ابكار أوائل الأخبار ) ، وكتاب ( أعــلام النبوة ) ، وكتاب ( ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البــلدان ، والمسالك إلى جميع المــالك ) وهــو كتاب جغرافى تاريخى . لم يبق منــه إلا قطعة صغيرة معظم أخبــارها عن الأندلس(٧٦) .

---

(٧٣) المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٧٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصف لابن الشباط ص ١٤٩ نصان جديدان تحقيق د. أحمد العبادى : مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد ســنة ١٩٧١م .

(٧٥) نشر د. عبد الواحــد ذنون هــذه القطعــة المتبقيــة من كتاب ابن أبى الفياض بعنوان ( نص أندلسى جديد من تاريخ ابن أبى الفياض ) بمجلة المجمع العلمى العراقى الجزء الأول ـــ المجلد الرابع والثلاثين سنة ١٩٨٣م .

(٧٦) نشر د. عبد العزيز الأهوانى القطعة المتبقية من الكتاب الأخــير

وكان العـــذرى من أوائل المؤرخـــين الأندلسيين الذين ذكروا نص المعاهدة التى عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير حاكم شرق الاندلس(٧٧) .

ثم ياتى عمدة مؤرخى الاندلس ابن حيان ( ٤٦٩هـ ) وكان من كتـــاب المنصـور بن أبى عامر ، وقـــد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق منها إلا أجزاء من كتابيه الكبيرين المقتبس ، والمتـــين . اما المقتبس فيقع فى عشرة أجزاء ، وتتضمن تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى زمن المؤلف(٧٨) .

واما كتابه المتـــين فقيل إنه يقع فى ســتين جزءا ، ولكنه للأســـف

---

فى مدريد سنة ١٩٦٥ م بعنوان ( نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ) .

(٧٧) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ .

(٧٨) وصلت إلينا قطع متفرقة من كتاب المقتبس نشر بعضـــها ، منهـــا قطعة تتضمن بعض اخبار الأمير عبد الله نشرها ملشور انطونيه فى باريس سنة ١٩٣٧م . وقطعة تتضمن بعض اخبار الامير عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد نشرها د. محمود مكى فى القاهرة سنة ١٩٧١م، وبيروت سنة ١٩٧٣م . وقطعة تتضمن بعض اخبار الحكم المستنصر نشرها د. عبد الرحمن الحجى فى بيروت سنة ١٩٦٥م ، كما نشر ليفى بروفنسال قطعة من الجـــزء الثانى فى مجلة ( الأندلس ) الأسبانية المجلد الخامس عشر ، العدد الأول سنة ١٩٠٥م . ويوجد الجـــزء الخامس مخطوطا فى المكتبـــة الملكيـــة بالربـــاط برقم ٨٧ .

لم يصلنا منـــه شىء إلا فقرات نقلها منـــه بعض المؤرخين اللاحقين كابن بسام فى الذخيرة .

وقد اشتهر ابن حيان بالصراحة البالغة ، والنقد الشـــديد ، وذكر المحاسن والمساوىء دون تحرج حتى بالنسبة للأمراء والكبراء . فرغم انه كان من كتاب المنصور إلا أنه لم يتحرج من نقـــد بعض افراد اسرته ولو من بعيـــد . ونراه يظهر أسفه على زوال الدولة الأموية .

وقد ذكر عن نفسه انه أولع بالتاريخ من صغره ، وشغف به حبا ، فاعد له عدته . ويقال إنه كان يؤلف كتبه لنفسه وولده إلا انه غير رأيـــه فنشره فى الناس . وإن كنا نرى فى هـــذا مبالغة شديدة(٧٩) .

وقد لخص كتاب المقتبس ابو عبد الله محمد بن ابى نصر الحميـــدى ( ٤٨٨هـ ) فى كتابه المسمى ( جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ) وهو الوحيد الذى وصلنا من كتب الحميدى التى وصـــل عددها إلى تســـعة عشر(٨٠) .

ثم تتابع المؤرخون الأندلسيون بعـــد ذلك كابن بشكوال وابن الأبار وابن بسام وغيرهم . ويلاحظ على التاريخ فى الاندلس سواء كان تاريخا عاما ، أو تراجم رجـــال أنه قـــد تأثر بعلم الحديث ومنهجه فى المشرق . ويرجع ذلك إلى أن اكثر المؤرخين فى الأندلس محدثين وفقهاء اشـــــبه ما يكونون بالطبرى ، وكان منهجهم منهجا يسوده فى الغالب فقـــه الإمام

---

(٧٩) احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٧٥ وبعدها .

(٨٠) طبع هـــذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٣م بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، ثم أعيد طبعه فى الدار المصرية للتاليف والنشر ســـنة ١٩٦٦ ( انظر مقدمة هـــذه الطبعة ) .

مالك وما ينبنى عليه من حديث وتفسير ، فكان ذلك يسلمهم من ترجمة رجال الفقه والتفسير والحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، كما أن التاريخ فى الأندلس اتصل بالأدب أكثر من المشرق أيضا . حيث كان أكثر المؤرخين أدباء كذلك ، وكانت عواطفهم نحو بلدهم أقوى وخاصة بعد تساقط البلاد الأندلسية فى يد الأسبان واحدة بعد الأخرى ، فكلما سقطت بلدة رثاها الأدباء ، وتحدث عنها المؤرخون . ولذلك كانت هذه الناحية فى الأندلس أشد وأقوى(٨١) .

**الجغرافية** : أما عن الجغرافية فإنها لم تفترق عن التاريخ فى الأندلس بوجه خاص ، حيث لا نكاد نجد مؤرخا أندلسيا إلا وكان جغرافيا فى نفس الوقت ، أو بدأ تاريخه بمقدمة جغرافية وكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بعلم التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربى(٨٢) ، فقد اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والتنقل والأسفار ، وكان الواحد منهم يعاب بأنه لم يرتحل إلى المشرق لطلب العلم . ولهذا ظهر من بينهم نخبة من الرحالة الذين زاروا بلادا كثيرة ، وسجلوا مشاهداتهم فى وصفها من نواحى شتى ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية كبيرة .

وبطبيعة الحال فقد احتل وصف وطنهم الأندلس مكانا بارزا فى مؤلفاتهم ، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها ، وأنهارها وجبالها ، وتقسيماتها الإدارية وغير ذلك . كما اهتموا بضبط

---

(٨١) انظر : احمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٨٥ .

(٨٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ص ٩٥ — ٩٦ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٣ .

الاسماء الأعجمية ، ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الاغريقية ، وابتكروا طريقة لطيفة فى هـذا المجال لإظهار محاسن كل مدينة عن طريق إقامة مناظرات على ألسنة المدن الأندلسية المختلفة تفخر كل منها بنفسها ، وتظهر أوصافها ومزاياها التى لا توجد فى غيرها(٨٣) .

وقد جمع الكثير من المؤرخين الأندلسيين معلومات جغرافية فى كتبهم ، وخاصة عن الأندلس ومنهم ابن حيان ، كما الف بعضهم كتبا فى الجغرافيا أيضا إلى جانب التاريخ ، مثل أحمد بن موسى الرازى ( ٣٤٤هـ ) الذى الف كتابا فى مسالك الأندلس ومراسيها ، وامهات مدنها ، ويدور معظمه حول صفة الأندلس ، ويعتبر مقدمة جغرافية لكتابه الكبير فى التاريخ عن أخبار ملوك الأندلس(٨٤) .

ومحمد بن يوسف الملقب بالتاريخى الوراق ، الذى الف للحكم المستنصر كتابا ضخما فى مسالك إفريقية وممالكها ، كما الف فى أخبار ملوكها وحروبهم ، وفى أخبار تيهرت ، ووهران وتنس وسجلماسة ونكور وغيرها(٨٥) .

وأحمد بن عمر العذرى ( ٤٧٨هـ ) الذى جمع فى كتابه ( ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك معلومات جغرافية كثيرة(٨٦) .

---

(٨٣) احمد امين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٨٩ .

(٨٤) تاريخ علماء الاندلس ترجمة ١٣٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ، نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٣٣ — ٣٦ .

(٨٥) بغية الملتمس ترجمة ٣٠٤ ص ١٤١ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٦٠ ص ٩٧ .

(٨٦) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الاندلس ص ٥٥ — ٥٧ .

ولا شك ان الجغرافيين الاندلسيين قد استفادوا من الكتب القديمة التى وضعت فى تاريخ الأندلس وجغرافيتها مثل كتاب هروسيس ، وكتاب القديس ايزيدورو الباجى والمسمى ( أصول الكلمات ) ، ونقلوا منها مثل المؤرخين كالرازى والعذرى والبكرى وغيرهم ، وهذا لا يقلل مطلقا من قيمة العمل الذى قاموا به ، بل يدل على تسامحهم وأمانتهم العلمية واتساع افقهم وحرصهم على الاستفادة من تراث الآخرين(٨٧) .

اما أول الجغرافيين الأندلسيين الحقيقيين واقدمهم فهو البكرى عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب ( ٤٣٢ — ٤٨٧هـ ) ، الذى الف معجما جغرافيا فى أسماء البلاد والأماكن لازال بين أيدينا وهو ( معجم ما استعجم ) ، وله أيضا كتاب ( المسالك والممالك ) الذى وصلت إلينا قطع منه ، وضم فيه نتفا من التاريخ إلى جانب الجغرافيا ، وتعرض فيه لجغرافية إفريقية ومصر والأندلس والعراق وبلاد وراء النهر .

وفى الأجزاء الباقية من هذا الكتاب تتجلى بوضوح دقة البكرى فى ذكر الأسماء ونطقها وتفسير بعض أصولها مثل قوله عن طليطلة : « واسم طليطلة باللاتينى تولاطو Tolatorn ومعناها فرح ساكنها لحصانتها » ، وقد ثبت أن فى مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافى ، وقوله عن

---

(٨٧) بالنسيا : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣١١ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ .

(٨٨) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى القسم الأول الكويت سنة ١٩٧٤ ، مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ص ٥٣ ، احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .
دراسات فى الحضارة الإسلامية ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

إشبيلية « ورأيت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى ( إشبالى Hispalis ) ومعناه المدينة المنبسطة . وقوله فى وصف مدينة ماردة « وقد أحدق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا ، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية براءة لأهل إيلياء »(٨٩).

وحسب البكرى فخرا ما توصل إليه من حقائق جغرافية سبق بهما زمانه مثل قوله « وأيقانس البحر المحيط ( الأقيانوس أو المحيط الأطلنطى ) لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر ( الخالدات ) — وهى التى تعرف اليوم بجزر كناريياس أو الكناريا — وبالضد » .

وقد علق د. حسين مؤنس على هذه العبارة بقوله « وهذه — لا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولمبس من هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم ، وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون البكرى من أبناء ولبة وهى على أميال قليلة من الربطة Larabida وفيها الدير الذى لجأ كولمبس إلى أحباره لييسروا له مقابلة فرديناند وإيزابيلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيليته البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمنا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبس إلى العالم الجديد من ميناء ( سان لوكار ) أقرب بلد إلى ولبة والمسافة

---

(٨٩) د. أحمد العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ووصفه لابن الشباط ص ١٣٩ مدريد سنة ١٩٧١م .

بينهما بضعة كيلو مترات »(٩٠) .

وفى هـذا التعليق ما يكفى للدلالة على مدى تاثير البيئة المحليـة الاندلسية فى خلق شخصيات جغرافية فذة كالبكرى وغيره من الأندلسيين الذين حاولوا قبـل كولومبس كشف غياهب بحـر الظلمات او البحـر الأخضر او الاقيانس ( المحيط الأطلسى ) الذى تطل عليـه الأندلس .

فيحدثنا البكرى : عن خشخاش بن سعيد بن اسود الذى خاطر مع جماعة من الشبان ، فركبوا البحر وغابوا فيه مدة ، ثم عادوا بغنائم كثيرة واخبار مشهورة . وقد ظهر اسم خشخاش ووالده ضمن قادة الأسطول الاندلسى الذى تصدى لغارآت النورمان فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ — ٢٣٨هـ ) .

وهـذا يذكرنا بمحاولة اخرى قام بهـا فتيـة من اهـل اشبونة ( لشبونة ) فى القرن الرابع الهجرى اطلـق عليهم الفتيـة المغرورين او المغررين او المغربين وكانوا ثمانية ، حيث توغلوا فى المحيط الاطلسى حتى وصلوا إلى جزر اخرى غير ( جـزر الآزور ) القريبة من سـاحل المغرب ) . ويذكر انهم ساروا فيـه احـد عشر يوما ، ثم اتجهوا جنوبا حتى وصلوا فى اليوم الثالث والعشرين إلى جزيرة سموها ( بجـزيرة الغنم ) تتميز بكثرة اغنامها ، وبوجود رجـال فيها شقر الوجوه شعورهم سبطة(٩١) .

---

(٩٠) الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس ص ٩٧ ، مجـلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ — ١١٥ .

(٩١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦١ — ٨١ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٦ ، ٢٨ ، المختار من عالم الفكر ص ١١٥ .

ثم جاء بعد ذلك الشريف الإدريسى اشهر الجغرافيين الأندلسيين بل والمسلمين ( ٤٩٢ — ٥٦٠هـ ) الذى تلقى تعليمه فى قرطبة ولذلك عرف بالقرطبى ، واتصل بالملك روجر الثانى ملك صقلية — فعرف بالصقلى ايضا — والف بتشجيع منه كتابه الشهير ( نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق ) والذى يعرف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وملأه بالخرائط اللازمة التى تزيد عن اربعين خريطة ، وبلغ من إعجاب الأوربيين به ان ترجموه إلى اللاتينية فى وقت مبكر ، وكان من أوائل القائلين بكروية الأرض ، ورسم مصورات تتفق مع ذلك، وقسم العالم إلى سبعين جزءا رسم لكل جزء مصورا (٩٢) .

ويذكر انه عندما طلب منه روجر الثانى وضع خريطة للأرض ، طلب منه ان يصنع له كرة كبيرة من الفضة ليرسم عليها معالم الأرض ، ولذلك فإنه يعد باعتراف علماء الغرب اول من وضع اصول الرسم على سطح كروى مما كان له اثر فى تحديد معالم الكرة الأرضية تحديدا

---

(٩٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٨ هامش ١ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٨٠ ، ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ذكر ابن خلدون فى مقدمته ما يدل على انه كان على علم بمحاولات البرتغاليين السير فى البحر المحيط بمحاذاة سواحل إفريقية فيقول : « وفى بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر الخالدات التى منها يدأ بطليموس باخذ اطوال البلاد ... وهى فى البحر المحيط جزر متكثرة اكبرها واشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة ، وقد بلغنا ان سفائن الإفرنج مرت بها فى اواسط هذه المائة ( المائة الثالثة ) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض اسرارهم بسواحل المغرب الاقصى ( المقدمة ص ٤٩ ) .

واقعينا سليما (٩٣) .

**الرحـــلات :** ومما يتصل بالجغرافيا اكبر اتصـــال الرحلات ، وكما كان فى المشرق رحـــالة كثيرون فكذلك كان فى الاندلس رحـــــالة كثيرون جابوا الكثير من الاقطار والبلدان ووصفوها وصـــفا دقيقا .

ومن الملاحظ أن فن كتابة الرحـــلات كتابة علمية قـــد بدأ فى الأندلس فرأينا نخبـــة من الرحالة الأندلسيين الذين وصلتنا كتبهم — وإن كان ذلك بعد العصر الأموى — يصفون لنا الكثير من مشاهداتهم فى البـــلاد التى زاروها من نواحى شـــــتى جغـــرافية واقتصـــادية وسياسية واجتماعية وعمرانية ... الخ ، كابن بطـــوطة وابن جبير وابن المغـــربى وأبو حامد الغرناطى وغيرهم .

ومن أوائل الرحـــالة الاندلسيين الذين قدموا لنا وصفا لبلاد الروس التاجر اليهودى الأندلسى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويبـــدو أنه أسلم وتسمى باسم ابراهيم بن أحمد ، ودخل فى خـــدمة الخليفة الحـــكم المستنصر ، وكان من تجـــار الرقيق الأبيض الذى كان يجلب من المـــانيا وشرق أوربا من الصقالبة والروس .

وقد قـــدم ابراهيم وصـــفا لرحـــلته إلى الخليفـــة المستنصر اودعه مكتبته ، وعنـــه نقل ابن عذارى المراكشى ، كما نقل عنـــه البكرى فى كتابه المسالك والممالك معلومات جغرافيـــة تعتبر من أقـــدم وأدق ما لدينا عن وسط أوربا وشرقها خلال القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) .

فقد زار ابراهيم بن يعقوب بلاد المـــلك أوتو الاكبر امبراطور الدولة التيوتونية ، ووصف بلاده وما فيها وصـــفا ممتعا ، كما زار شرق اوربـــا

---

(٩٣) مجموعة من المؤلفين : دراسات فى الحضـــارة الإســـلامية ج ١ ص ٢٥٠ .

وجاء عنها بأنباء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بهـا علماء الألمـان والروس عنـاية كبيرة . وقد أيد الباحثون المحدثون ما ذكره ابراهيم من انه لقى الامبراطور سنة ٩٧٢م ( ٣٦٢ — ٣٦٣هـ ) .

ومع ان النقول التى أخذت من وصفه قـد حرفت إلا أن المحققـين والدارسين استطاعوا أن يقوموها ويخرجوا منها بمعلومات مفيدة وقيمـة ساعدت كثيرا فى دراسة جغرافية هـذه البـلاد (٩٤) .

* * *

---

(٩٤) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٧٨ — ٧٩ ، احمد امين : ضحى الإسـلام ج ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

## قائمة المصادر والمراجع

### أولا : المصادر القديمة


١ ـ ابن الابار : الحلة السيراء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، سلسلة ذخائر العرب رقم (٥٨) ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .

٢ ـ ابن الاثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٠٢هـ .

٣ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩م .

٤ ـ ابن الأحمر ( الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد ٨٠٧هـ ) : نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق د. محمد رضوان الداية ، المكتبة الاندلسية رقم (١٨) ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧م .

٥ ـ ابن الخطيب ( لسان الدين ) : اعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر إلى ذلك من شجول الكلام ، نشر ليفى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦م .

٦ ـ ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى نشر ليفى بروفنسال ـ الرباط ١٩٣٨م .

٧ ـ ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، سلسلة تراثنا ، المكتبة الاندلسية (٢) الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦م .

٨ ـ ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خوليان ربيرا مدريد سنة ١٩٢٦م ، وتحقيق عبد الله انيس الطباع بيروت ١٩٥٨م .

٩ ـ ابن بسام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة ، طبع

لجنـــة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ســنة ١٩٤٥م ، وطبع دار الثقافة بيروت ســـنة ١٩٥٩م .

١٠ – ابن بشكوال : كتـــاب الصـــلة فى أصـــحاب القاضى أبى عبد الله الصدفي نشر فرنسيسكو كوديرة مدريد سنة ١٨٨٣م ، وطبـــع القاهرة ســـنة ١٩٥٥م .

١١ – ابن جلجل : طبقات الأطباء ، تحقيق فؤاد ســـيد مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٥م .

١٢ – ابن حـــزم الأندلسى : الفصل فى المـــلل والأهـــواء والنحـــل ، القاهرة ســـنة ١٣١٧هـ .

١٣ – ابن حـــزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، سلسلة ذخائر العرب (٢) الطبعة الرابعة ، دار المعارف بمصر ســـنة ١٩٧٧م .

١٤ – ابن حـــزم الأندلسى : رســـائل ابن حـــزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ســـنة ١٩٥٩م .

١٥ – ابن حـــزم الأندلسى : طوق الحمامة فى الإلفـــة والآلاف ، تحقيق د. الطاهر مكى – الطبعة الخامسة – دار المعارف بمصر ١٩٩٣م .

١٦ – ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة ليدن سنة ١٩٣٨م . وطبعة دار الحياة بيروت د.ت .

١٧ – ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، قطعة من تحقيق ملشور أنطونية ، باريس سنة ١٩٣٧م ، وقطعة من تحقيق د. عبد الرحمن الحجى بيروت سنة ١٩٦٥ ، وقطعة من تحقيق د. محمود مكى ، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإســـلامية (٢١) القاهرة ١٩٧١م ونشر دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

١٨ ـ ابن خاقان ( الفتح ) : مطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الأندلس قسطنطينة ، الجزائر ، ١٣٠٢هـ ، ط القاهرة سنة ١٩٥٤م

١٩ ـ ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة البهية بمصر د.ت ، الأميرية ١٣٢٠هـ

★ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر طبعة بولاق ١٢٨٤هـ .

٢٠ ـ ابن دحية الكلبى : المطرب من اشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الإبيارى وآخران ، الأميرية سنة ١٩٥٤م ، وتحقيق د. مصطفى عبد الكريم ، الخرطوم ١٩٥٤م .

٢١ ـ ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. شوقى ضيف طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤م .

٢٢ ـ ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس سنة ١٩٤٧م .

٢٣ ـ ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، دوزى ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .

٢٤ ـ ابن غالب الأندلسى : كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشر د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢٥ ـ أبو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ـ تحقيق د. محمد شامة مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٩م .

٢٦ ـ الإدريسى ( الشريف ) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشر دوزى ، ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .

٢٧ ـ البكرى ( ابو عبيد الله بن عبد العزيز ) : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب نشر دى سلان ، الجزائر سنة ١٩٤٩م .

٢٨ — البغدادى (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق ، ط ٢ بيروت ١٩٧٩م .

٢٩ — الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٣٠ — الحميدى : الروض المعطار فى خبر الاقطار ، ط لجنة التاليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٣٧م ، وتحقيق د. إحسان عباس بيروت سنة ١٩٧٥م .

٣١ — الخشنى : قضاة قرطبة — سلسلة تراثنا — المكتبة الأندلسية (١) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٣٢ — الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين — تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة سنة ١٩٥٤م .

٣٣ — الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م .

٣٤ — الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال اهل الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٦) — دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧م

٣٥ — الطرطوشى : الحوادث والبدع — تحقيق محمد الطالبى — تونس سنة ١٩٥٩م .

٣٦ — المراكشى ( عبد الواحد بن على التميمى ) : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤هـ ، ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمى القاهرة سنة ١٩٤٩م .

٣٧ — المقدسى البشارى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم . ط ٢ مطبعة بريل ، ليدن سنة ١٩٠٦م — مكتبة المثنى ببغداد .

٣٨ — المقرى : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢هـ .

٣٩ — النباهى ( ابو الحسن بن عبد الله ) : تاريخ قضاة الاندلس المسمى ( المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ) ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب العربى القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٤٠ — مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر امرائها ، مجريط سنة ١٨٦٧م ، مكتبة المثنى ببغداد .

٤١ — ياقوت الحموى : معجم الادباء طبعة د. أحمد رفاعى مطبوعات دار المأمون للطباعة القاهرة د.ت .

٤٢ — ياقوت الحموى : معجم البلدان بيروت سنة ١٩٦٠م .

## ثانيــــا : المراجـــــع


١ ــ د. ابراهيم احمد العدوى : الامويون والبيزنطيون ، ط ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د.ت .

٢ ــ د. ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ، ط ٢ دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠م .

٣ ــ د. ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨م .

٤ ــ أبو صالح الألفى : الفن الإسلامى ( أصوله ــ فلسفته ــ مذاهبه ) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩م .

٥ ــ د. إحسان النص : العصبية القبلية واثرها فى الشعر الاموى ، منشورات دار اليقظة بيروت د.ت .

٦ ــ د. إحسان عباس : تاريخ الادب الاندلسى ( عصر سيادة قرطبة ) ط ١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٠م .

٧ ــ احمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦م

٨ ــ احمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م .

٩ ــ د. أحمد الشعراوى : الأمويون امراء الاندلس الأول . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩م .

١٠ ــ د. احمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٧٣م .

١١ ــ د. احمد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية (١) القاهرة سنة ١٩٥٨م .

١٢ ــ د. احمد العبادى وآخر : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت سنة ١٩٦٩م .

★ — د. احمد العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٦٨م .

١٣ — د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ ٣ ط ٤ سنة ١٩٧٠ ، جـ ٤ ط ٦ سنة ١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

١٤ — د. احمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧م .

١٥ — آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . ط ٣ مطبعة لجنة التأليف ١٩٥٧م .

١٦ — البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧م .

١٧ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف لبنان سنة ١٩٦٢م .

١٨ — د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، جـ ١ نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية سنة ١٩٨٤م .

١٩ — د. الطاهر احمد مكى : دراسات اندلسية فى الادب والتاريخ والفلسفة ، ط ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٢٠ — د. الطاهر احمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ط ٢ مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

٢١ ــ الفرد جيوم وآخرون : تراث الإسلام ، ج ١ لجنة النشر للجامعيين ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٢٢ ــ بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة الخامسة دار المعارف بمصر د.ت .

٢٣ ــ بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة امين تكلا ، القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٢٤ ــ توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم وآخرين مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .

٢٥ ــ جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م .

٢٦ ــ جنثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس، القاهرة سنة ١٩٥٥م .

٢٧ ــ د. جوده هلال وآخر : قرطبة في التاريخ الإسلامي ، المكتبة الثقافية (٧٢) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٢م .

٢٨ ــ د. حامد زيان غانم : تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية واثرها على اوربا ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .

٢٩ ــ د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ١ ط ٩ سنة ١٩٧٩م ، ج ٢ ط ١٠ سنة ١٩٨٣م ، ج ٣ ط ١١ سنة ١٩٦٣م مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

٣٠ ــ د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب ( القرن الثالث الهجري ) ، دار النمر للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٣١ — د. حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الاندلس — المكتبة الثقافية (١٤٦) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٥م .

٣٢ — د. حسين مؤنس : فجر الأندلس . القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٣٣ — د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ط ١ ، دار مطابع المستقبل القاهرة سنة ١٩٧٣م .

٣٤ — د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ( عصر المنصور الأندلسى ) دار الكاتب العربى د.ت .

٣٥ — خوليان ريبرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيراتها المغربية ، ترجمة د. الطاهر مكى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م .

٣٦ — ديلاسى أوليرى : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ . ترجمة د. تمام حسان المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦١م .

٣٧ — رينهارت دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا جـ ١ (الحروب الأهلية) ، ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣م .

٣٨ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا فى العصور الوسطى جـ ١ ، الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨م .

٣٩ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، نشر عالم الكتب القاهرة سنة ١٩٨٧م .

٤٠ — د. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، ط ٢ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٨م .

٤١ — د. سعيد عبد الفتاح وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة

الإسلامية العربية ، ط ٢ دار السلاسل الكويت سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٤٢ — سيد عبد الله حسين : الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام ابى حنيفة ط ١ نشر المكتبة المحمودية التجارية بمصر د.ت .

٤٣ — شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى أوربا وجزر البحر المتوسط ، مطبعة الحلبى القاهرة سنة ١٩٣٣م .

٤٤ — صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، نشر مكتبة نهضة الشرق — جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

٤٥ — صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ، ترجمة د. عبد الحميد شيحة ، ط ١ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

٤٦ — د. طه الحاجرى : ابن حزم صور اندلسية ، دار الفكر العربى ، مطبعة آلاعتماد بالقاهرة د.ت .

٤٧ — طاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا — طرابلس .

٤٨ — طاهر أحمد الزاوى : ترتيب القاموس المحيط . دار الفكر بيروت د.ت

٤٩ — عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة ، ط ١ مطابع انترناسيونال برس القاهرة سنة ١٩٨٣م .

٥٠ — د. عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، ط ١ مصورة ، دار الاعتصام بالقاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٥١ — د. عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ط ١ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٥٢ — د. عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة سنة ١٩٥٧م .

٥٣ ـ د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ، النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٦م .

٥٤ ـ د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، جـ ٢ . الانجلو المصرية سنة ١٩٧٩م .

٥٥ ـ د. عبد الواحد ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ، ط ١ سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة ـ دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد سنة ١٩٨٨م .

٥٦ ـ د. على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦م .

٥٧ ـ فرناندو دى لاجرانخا : مقامات ورسائل اندلسية ( نصوص ودراسات ) ، ترجمة د. عبد الحليم عبد اللطيف ، ط ٢ دار الثقافة العربية بالقاهرة د.ت .

٥٨ ـ د. فوزى عيسى : الهجاء فى الأدب الأندلسى ، دار المعارف بمصر د.ت .

٥٩ ـ فون شاك : الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر مكى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥م .

٦٠ ـ د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ، سلسلة المكتبة التاريخية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩م .

٦١ ـ لويس ارشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة احمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٩م .

٦٢ ـ لويس معلوف : المنجد فى اللغة والإعلام . دار المشرق بيروت ١٩٨٦م .

٦٣ ـ ليفى بروفنسال : ادب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ، الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١م .

٦٤ — ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد سالم ، د. لطفى عبد البديع ، محمد حلمى القاهرة ١٩٥٨م .

٦٥ — ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى اسبانيا ، ترجمة د. الطاهر مكى ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م .

٦٦ — لين بول وآخرون : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، ترجمة د. احمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢م .

٦٧ — لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩م .

٦٨ — مجموعة مؤلفين : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ثلاثة مجلدات صدرت بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م .

٦٩ — د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، المكتبة الثقافية (٢٣٧) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م .

٧٠ — محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا ، ج ١ القاهرة ١٩١٤م .

٧١ — د. محمد زكريا عنانى : الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة (٣١) الكويت يوليو سنة ١٩٨٠م .

٧٢ — محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة د.ت .

٧٣ — محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، العصر الأول ( القسم الأول ) ط ١ مطبعة لجنة التأليف القاهرة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م ، العصر الأول ( القسم الثانى — عصر الفتنة ) ط ١ مطبعة مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .

٧٤ ـ محمد على الصابونى : روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام ، ط ٢ منشورات مكتبة الغزالى بدمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

٧٥ ـ د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والمثول ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٤٨م .

٧٦ ـ د. محمد محمد شتا زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ ، الطبعة الأولى دار الوفاء للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .

٧٧ ـ د. محمد محمد عبد القادر الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط ١ مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م .

٧٨ ـ د. محمود على حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ، ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٧٩ ـ د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ( موضوعاته وفنونه ) ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .

٨٠ ـ مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ، سلسلة إقرأ ( ٢٣٠ ) فبراير سنة ١٩٦٢م دار المعارف بمصر .

٨١ ـ د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة ( ٩٢هـ ـ ٢٠٦هـ ) ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٦م .

٨٢ ـ أ.د. نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣م .

## ... ثالثــــا : الدوريات

١ ـــ دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب (٦١) ، (٦٤) مطـــــابع الشعب القاهرة سنة ١٩٥٩م .

٢ ـــ مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ ، السعودية سنة ١٩٨٤م .

٣ ـــ مجلة المجلة ، عدد ٢ فبراير سنة ١٩٥٧م القاهرة .

٤ ـــ مجلة المختار من عالم الفكر ـــ (١) دراسات إسلامية ، الكويت سـنة ١٩٨٤م .

٥ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٠) عدد (٢) سبتمبر سـنة ١٩٧٩م الكويت .

٦ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجـلد (١٢) عدد (١) ( حضارة الاندلس ) سـنة ١٩٨١م الكويت .

٧ ـــ مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٥) عدد (٣) ( كتابات فى الحضارة ) سـنة ١٩٨٤م الكويت .

٨ ـــ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤م .

٩ ـــ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخاس ١٩٥٧م .

١٠ ـــ مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

## الفهـــــــرس

الموضـــوع الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

رقم ١/٩١٩٤/٢٥٤٧

تحريرا فى ١٢٩٤/١/٢٥

**مطبعة الحســين الإســلامية**

٢٥ حارة المدرسة — خلف الجامع الأزهـــر

تليفون ٥١٠٦٧٢٤